

نفحات القرآن

بإشراف

سماحة العلامة المحقق الشيخ ناصر مكارم الشيرازي (دام ظله)

اسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء الثاني

العلم والمعرفة في القرآن

بمساعدة
مجموعة من الفضلاء

بإشراف
سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (دام ظله)

نفحات القرآن

اسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

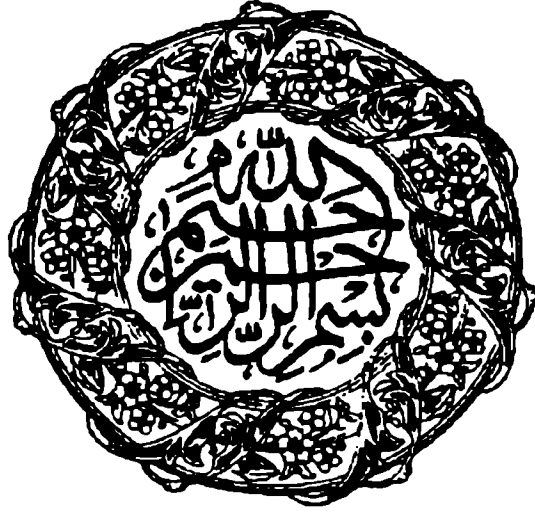
الجزء الثاني
معرفة الله في القرآن

بمساعدة
مجموعة من الفضلاء



هوية الكتاب

- الكتاب نفحات القرآن / ج ٢
- المؤلف آية الله العظمى مكارم الشيرازي
- عدد النسخ ٢٠٠٠
- قطع وزيري ٥٠٤ صفحة
- المطبعة الحيدري
- الناشر مؤسسة أبي صالح للنشر والثقافة



الاهداء :

الى الذين يعشقون القرآن .
الى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر .
والى الذين يريدون ان يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر .

بمساعدة العلماء الافاضل وحجج الاسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني .
محمد جعفر الامامي .
عبد الرسول الحسيني .
محمد الاسدي .
حسين الطوسي .
سيد شمس الدين الروحاني .
محمد محمدي الاشتهاري .

تمهيد :

كل هذه التفاسير القرآنية لماذا؟!

يقول أحد الأخوة: سمعت أن هناك ألفي تفسير للقرآن، مع أن القرآن ليس سوى حقيقة واحدة. أو لم يَجِنِ الوقت لأن يجتمع علماء الاسلام (خاصة في الحكومة الإسلامية) ويحددوا أمر تفسير الآيات القرآنية ؟
فقلت : يا أخي لقد فاتتك عدة نقاط مهمة .

١ - يجب أن لا ننسى أن للقرآن أبعاداً كثيرة وزوايا متعددة ، وكل واحد من المفسرين ينظر إليه ويفسره من بعد خاص وزاوية معينة . فالقرآن في ذلك كباقة ورد ثمينة ينظر إليها « المزارع » كونها محصولاً ذا إيرادات عالية .

وينظر إليها « الصيدلي » من زاوية أن أوراقها نافعة للمرضى الفلاني ، وسيقانها مجدية لعلاج مرض آخر ، وكل من جذورها وأزهارها مفيد لمعالجة مرض معين .
و « الشعراء » يرونها بلحاظ أنها ملهمة لألطف الأشعار وصانعة للقرائح الغنية .
أوراقها كخدود الشهداء ، وبراعمها كأفواه الطيبين ، ولونها وطراوتها ورائحتها تذكر الإنسان بلون ورائحة الأحباب .

وأخيراً ، يرى « الفيلسوف الألهي » آثار المعبود الكبير في كل جزء من أجزاء هذه الباقة من الورد ، ويسمع بقلبه من كل ذراتها حمد وتسبيح شاهد الشاهدين ، ويجد في رقتها ولطافتها ونظامها وحساباتها الدقيقة علامة لمن لا علامة له . ثم يترنم بهذا الشعر المعروف :

كل ورقة من أوراق الأشجار الخضراء في نظر الحاذق سفر لمعرفة الصانع .
ولهذا نظر المفسرون « الأدباء » واللغويون للقرآن من بُعد الفصاحة والبلاغة ،

والمفسرون « الفلاسفة » من البعد الفلسفي ، و « المؤرخون » نظروا لأبعاده التاريخية ،
« والمطلعون على العلوم الطبيعية » يتحدثون عن كشف القرآن النقاب عن أسرار
العالم ، و « معلمو الأخلاق » يبحثون ويفسرون القرآن من بُعد برامجه التربوية
المؤثرة ، و « الفقهاء والحقوقيون » يتناولون القضايا الحقوقية وآيات الأحكام فيه ،
ويتحدث « المتكلمون » عن المعارف القرآنية السامية على صعيد المبدأ والمعاد .
والخلاصة هي « كل يتحرّق بنوع من التحرق في هموم الحبيب » .

وإننا لا نعرف من نظر إلى القرآن وفصره من كل إبعاده ، إذ لا يمكن لأي إنسان
أن يتخصص في جميع العلوم والفنون .

٢- إن القرآن بمثابة البحر اللامتناهي الذي يصل كل واحد من المفسرين إلى
حد معيّن من عمقه ويعود ببعض الجواهر .

في زمان ما لم يكن الغواصون ليعثوا عن « اللؤلؤ » و « المجوهرات » في بحار
العالم إلا ضمن عمق قليل جداً . ولكن كلما اكتملت المعدات للغوص في البحار
إستطاعوا أن يصلوا إلى مواطن أعمق ويكتشفوا عوالم جديدة ويظفروا بجواهر
ومعادن باكرة .

وهكذا فانه كلما إرتفع مستوى الفكر والعلوم الانسانية بمرور الزمان كان
المحققون والمفسرون على إستعداد أكثر للغوص في أعماق الكلام الألهي ، والظفر
بجواهر جديدة . وكما نعلم فليس من الممكن تصور نقطة نهاية لهذه الجهود ، لأن
الكلام الالهي كذاته الطاهرة (ذات الله) غير متناه .

وهذه هي أسباب تنوع وكثرة التفاسير .

٣- أضف إلى ذلك أن إكتشاف الحقائق يحصل دائماً باصطدام الأفكار مع
بعضها كما تقدح الشرارة من إصطدام الحجر والفولاذ . إذن يجب أن لا نخشى أبداً

من تعدد وكثرة كتب التفسير، بل إنها من نقاط القوة المهمة التي يجب أن تستمر.

* * *

وإننا لمسنا هذه الحقيقة جيداً بعد أن ولجنا في التفسير الموضوعي، لأننا كلما تعرفنا على هذا الكتاب السماوي الكبير أكثر نجد أن أبواباً جديدة من معارف وكنوز حقائق القرآن تكشف لنا، حقائق لم تُكتشف بهذا المقدار في التفسير الترتيبي. وإننا لنحمد الله على هذه النعمة الكبيرة.

واجه المجلد الأول من هذا التفسير والحمد لله «توفيقاً» و«إستقبالاً تاماً» بحيث نفذت سبعة آلاف نسخة منه إنتشرت قبل نشر المجلد الثاني. وهذه علامة جيدة على التعرف المتزايد لأجوائنا على القرآن ومعارفه. ولنا في هذا المجال كلام آخر نؤكده إلى ما بعد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قم - الحوزة العلمية - ناصر مكارم الشيرازي
ربيع الثاني ١٤٠٩ ق الموافق لشهر آذر ١٣٦٧ ش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى
خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ
لَا سِيَّمَا الْأَمَامِ الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ
أَرْوَاحُنَا فِدَاهُ

التَّوَجُّهُ نَحْوَ اللَّهِ وَمَعْرِفَتُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تاريخ البدء :

الثامن من رجب المرجب ١٤٠٨ هـ . ق

الموافق لـ (٧ / ١٢ / ١٣٦٦) هـ . ش

أسئلة مهمة ومصيرية :

الكل يريد أن يعرف أجوبة هذه الأسئلة المشهورة :

من أين جئنا ؟

أين نحن ؟

والى أين نذهب ؟

وبالطبع فثمة سؤال مهم آخر إلى جانب هذه الأسئلة الثلاثة وهو :

« لماذا جئنا ؟ » هل كان لمجيئنا غاية ؟ وإن كانت له غاية فما هي ؟ .

وما هي الوسائل المتوفرة لدينا من أجل الوصول إلى هذه الغاية ؟

من هو المبدأ الأصلي لهذا العالم ، ومن أين نَبَعَ عالم الخلقة ؟

وأخيراً ، هل هناك طريق لمعرفة هذا المبدأ الكبير ؟

هذه هي أهم أسئلة البشر .

* * *

إن الذين لا يرون ضرورة في العثور على أجوبة هذه الأسئلة هم الغرقى في

الحياة المادية اليومية إلى درجة أنهم لا يفكرون في شيء سوى « النوم والأكل

والجنس » . فهم كالـ « حيوان » لا علم له بـ « العالم الانساني » .

أو أنهم سعوا وحاولوا العثور على جواب هذه الأسئلة لكنهم لم يصلوا إلى

شيء ، فيئسوا وكفوا عن البحث .

وإنطلاقاً من أن « السؤال » هو حافز « الحركة » دائماً ، الحركة نحو الأجوبة ،

وأن الأسئلة كلما كانت متنوعة وعميقة كانت الحركة أوسع وأكثر تجذراً ، لهذا يجب

أن تستقبل الأسئلة الكبيرة بوجه منفتح ، ولا نخش كثرة الاسئلة واهميتها ، بل

نستقبلها بكل رحابة صدر.

ويمكن أن تكون محصلة عمر الإنسان ليست في الحقيقة شيئاً سوى العثور على أجوبة الأسئلة. وأن نتيجة جهود كل علماء العالم والفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بلا إستثناء هي الأجابة على بعض هذه الأسئلة.

يحاول علماء الفلك أن يشرحوا كيفية ظهور السماوات والنظام الذي يحكمها.

وعلماء الجيولوجيا يجيبون على الاسئلة ذات العلاقة بظهور الأرض وتركيبها.

وعلماء الأنثربولوجيا والتحليل النفسي وكل الذين يدرسون العلوم الأنسانية والأجتماعية يريدون أن يعثروا على أجوبة الأسئلة المتعلقة بهذا الموجود العجيب المسمى بـ «الإنسان».

ويريد الفلاسفة بمساعيهم المتواصلة أن يطلعوا على حقيقة المبدأ ومصير العالم -إلى الحد الذي يستطيع عقل البشر أن يصل إليه - أو الأجابة على بعض الأسئلة المتعلقة بهذا المجال على الأقل.

نستنتج مما ذكرناه أنه إن كان البحث حول «الخالق لعالم الوجود» ومبدأ هذا العالم الكبير الذي نعيش فيه من أقدم البحوث وارسخ الأسئلة الأنسانية ، فليس ذلك أمراً عجباً.

ولهذا نرى من واجبنا السعي بقدر أستطاعتنا للعثور على جواب هذه الأسئلة :

من هو مبدأ عالم الوجود ؟ وكيف تمكن معرفته ؟ !

محفظات البحث عن الله

تمهيد :

قلنا إنه لا توجد حركة بدون محفز، وبالطبع فلا يمكن للحركة في طريق معرفة مبدأ عالم الوجود أن تكون بلا محفز. ومن هنا يذكر الفلاسفة والعلماء ثلاثة محفزات أساسية للبحث عن الله، وجميعها مشار إليها في القرآن الكريم اشارات واضحة.

١- الحافز العقلي .

٢- الحافز الفطري .

٣- الحافز العاطفي .

وللبعض من هذه الحوافز فروع خاصة بها .

لنبتدأ أولاً بـ « الحافز العقلي » ونستمع خاشعين للآيات أدناه :

١- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾^(١).

٢- ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^(٢).

٣- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

(١) (الانفال الآية : ٢٤) .

(٢) (آل عمران الآية : ١٦٣) .

لِيُقَوْمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿^(١)﴾ .

٤ - ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ^(٢) .

٥ - ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ ... فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٣) .

٦ - ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ ^(٤) .

٧ - ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى ثَمَرَ وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ^(٥) .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

التحقيق هو الواجب الاول لكل إنسان:

الإنسان يعشق الكمال ، ويعتبر هذا العشق عشقاً خالداً عند كل الناس ، يبقى أن كل إنسان يرى كماله في شيء معين ، فيذهب نحوه ، والبعض يذهبون باتجاه السراب بدل الماء ويلهثون خلف القيم الوهمية والكمالات الخيالية ويتصورونها

(١) (الحديد الآية: ٢٥) .

(٢) (الأعراف الآية: ١٥٧) .

(٣) (الشعراء الآية: ٧٢، ٧٣، ٧٧) .

(٤) (فصلت الآية: ١٣) .

(٥) (سبا الآية: ٤٦) .

واقعاً .

قد يسمى هذا المبدأ أحياناً بـ « غريزة حب المنفعة ودفع الضرر » التي يجد الإنسان على ضوءها بأنه ملزم أن يكون له تعامل جاد مع كل موضوع يتعلق بمصيره (بلحاظ النفع والضرر) .

لكن إطلاق كلمة « غريزة » على هذا العشق أمر غير سليم ، فالغريزة عادة تطلق على أمور تؤثر في افعال البشر أو باقي الأحياء بدون تدخل التفكير ، ومن هنا تستعمل بالنسبة للحيوانات ايضاً .

وعلى هذا الأساس فمن الأفضل أن نستخدم عنوان (الميول السامية) التي استعملها بعض العلماء لمثل هذه الموارد .

وعلى كل حال ، فهذا العشق للكمال والميل نحو المصالح المعنوية والمادية ودفع كل انواع الضرر يجبر الانسان على التحقيق حتى في مواضع الاحتمال ، وكلما كان هذا الاحتمال أقوى ، وذلك النفع والضرر أعظم ، كان التحقيق والنظر أوجب . من المستحيل أن يحتمل شخص تأثير أمر مهم في مصيره ، ولا يرى من واجبه التحقيق حوله .

وقضية الأيمان بالله والبحث عن الدين تعتبر من هذه القضايا بلا شك . لأن هنالك في محتوى الدين كلام عن القضايا المصيرية ، وعن القضايا التي يرتبط خير وشر الانسان إرتباطاً وثيقاً .

البعض يذكر مثلاً من أجل إيضاح هذا الأمر ، فيقولون : لنفترض أننا نجد إنساناً واقفاً على مفترق طريقين ونسمعه يقول : إنَّ البقاء هنا خطرٌ يقيناً ، واختيار هذا الطريق (اشارة إلى أحد الطريقين) هو الآخر خطر ، والطريق الثاني هو طريق النجاة ، ثم يذكر قرائن وشواهد لكل ما قاله . فما من شك أن أي عابر سبيل يرى نفسه ملزماً بالتحقيق ويعتقد أن اللاأبالية إتجاه هذه الأقوال مخالفة لحكم العقل . وبلحاظ هذه

المقدمة ننتقل إلى تفسير الآيات .

* * *

إن أول آية من الآيات المعنية تعتبر دعوة رسول الله إلى الأسلام دعوة إلى العيش والحياة الحقيقية ، وتدل هذه الدعوة على أن بالأمكان جمع كل محتوى الأسلام في مفهوم « الحياة » ، الحياة التي تشمل الحياة المعنوية وتشمل الحياة المادية ، حياة جامعة .

مع ان البعض فسر معنى الحياة هنا بأنه بخصوص « القرآن » أو « الأيمان » أو « الجهاد »^(١) ، لكن مما لا شك فيه أن الحياة مفهوم واسع يشمل كل هذه العناوين المذكورة وكل ما هو مؤثر في حياة الإنسان المعنوية والمادية .

وعلى كل حال ، إذا دعانا شخص بمثل هذه الدعوة فهل يمكن أن نغض الطرف عن دعوته ولا نرى من واجبنا حتى التحقيق في الأمر ؟ .
هنا يريد القرآن بهذا التعبير أن يوجد حافز الحركة نحو التحقيق حول الدين في كل من له القابلية على هذه الحركة .

يقول الراغب في كتاب « المفردات » : إن حقيقة « الاستجابة » هي السعي والقابلية على إستلام الجواب ، ولأن هذا الموضوع ينتهي عادةً بالجواب فقد فسروه بمعنى « الأجابة »^(٢) .

* * *

الآية الثانية تعدُّ بعثة الرسول من أكبر النعم الألهية التي منحت للمؤمنين ، ثم

(١) ذكرت هذه الاحتمالات عن المفسرين في : تفسير الفخر الرازي المجلد ١٥ ص ١٤٧ وتفسير الميزان المجلد ٩ ص ٤٣ وروح المعاني المجلد ٨ ص ١٦٩ والقرطبي المجلد ٤ ص ٢٨٢٥ .

(٢) ولكن يجب الالتفات إلى أن « الأجابة » تكون فعلاً متعدياً بدون حرف الجر ، في حين أن « الاستجابة » تذكر غالباً مع حرف اللام .

تذكر في تفسير هذه النعمة ثلاثة برامج مهمة للرسول : تلاوة الآيات الألهية ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ ، والتزكية والتربية ﴿وَيَزَكِّيهِمْ﴾ ، وتعليم الكتاب والحكمة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ .

ونتيجة كل هذه هي النجاة من « الضلال المبين » ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

إن كل هذه التعابير هي من أجل إحياء محفظات الحركة نحو الأسلام في الناس ، ومن أجل أن يرى كل أنسان نفسه ملزماً بالتحقيق حول الاسلام على الأقل . لأنه من الممكن أن يكون اكبر نفع وضرر للأنسان كامناً فيه .

﴿الْمِنَّة﴾ من مادة «مَن» وهي في الأصل كما يعتقد البعض بمعنى القطع ، لهذا فإن ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ بمعنى أَلْثَوَاب الذي لا ينقطع أبداً . وكذلك يقال للقطرات الصغيرة المستقرة على الاشجار كقطرات الندى والتي تتصف بطعم حلو (نوع من أصماغ وترشحات الأشجار ذات طعم حلو) يقال لها «من» .

ولكن يعتقد الراغب أن «المن» في الأصل بمعنى الحجر الذي يَزِنُون به ، والذي أطلق فيما بعد على النعم الكبيرة الثقيلة .

وحين تستخدم هذه المفردة عن الله تعني «منح النعم» وحين تستخدم عن البشر تعني غالباً التحدث بالنعمة التي يجزلها الانسان لغيره ، من هنا كان معناها الأول إيجابياً والثاني سلبياً ومذموماً .

* * *

الآية الثالثة تشير إلى هدف مهم آخر من أهداف بعثة الأنبياء ، أي مسألة «العدالة الاجتماعية» ، فتقول : إننا جهزنا الرسل بثلاثة أشياء : اولاً : البراهين الواضحة التي تشمل «المعجزات» ، و «البراهين العقلية» ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ .

ثانياً: الكتاب السماوي الذي يشرح معارف ووظائف كل الناس .
 وثالثاً: الميزان الذي يمكن بواسطته قياس الحق والباطل (القوانين الالهية
 وتبيان القيم واللاقيم التي تكون معياراً في قياس الخيرات والشرور) ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ
 الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ .

﴿ الميزان ﴾ في الأصل هو الوسيلة التي توزن بها الأشياء ، والعجيب أن بعض
 المفسرين فسر « الميزان » في الآية أعلاه بهذا المعنى في حين رفض أكثر المفسرين
 هذا الرأي وقال : إنَّ المراد من الميزان هو الوسيلة التي يحدد بها الإنسان العدالة ،
 الزيادة والنقص والحق والباطل . وكما قلنا يمكن تفسيره بـ « القوانين الإلهية » و
 « القيم واللاقيم » .

صحيح أن هذه الأمور مذكورة في نص الكتب السماوية ، ولكن ذكرها بشكل
 مستقل جاء بسبب أهميتها .
 وعلى كل حال ، هل من الممكن أن يسمع إنسان بأن شخصاً يدعي وجود
 مثل هذه الحقائق المصيرية ولا يرى أنه ملزم بالتحقيق حولها ؟ .

يقول الفخر الرازي : الناس ثلاثة انواع : نوع في مقام « النفس المطمئنة » وهم
 المعنيون بالآية ﴿ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ . النوع الثاني في مقام « النفس اللوامة »
 وهم اصحاب اليمين الذين يحتاجون إلى معيار قياسي من أجل المعرفة والأخلاق ،
 ليكونوا في أمان من الافراط والتفريط ، وهم المقصودون بتعبير « الميزان » . النوع
 الثالث هم أصحاب « النفس الأمارة » الذين تعنيهم الآية ﴿ انزلنا الحديد ﴾ أي هم
 المستحقون للعقاب والجزاء .^(١)

* * *

في الآية الرابعة إشارة إلى الأبعاد المختلفة لبعثة الانبياء ونزول الاديان

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ، المجلد ٢٩ ص ٢٤١ .

السماوية، خاصة البعد الاجتماعي والسياسي. وفيها ذكر لبعض أوصاف رسول الله (ﷺ) فقد جاءت لترغيب الناس في إتباعه. منها ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

لا شك أن هذه أمور مصيرية وذات علاقة وثيقة بمسألة تكامل الإنسان وخيره وشره، بل مجرد احتمالها يكفي لدفعه نحو التحقيق.

﴿الْإِصْرُ﴾ على وزن مصر، يعني في الأصل الربط وحبس الشيء بقوة وعنوة، ثم أطلقت على الحمل الثقيل والاعمال الشاقة التي تعوق الانسان عن النشاط. ولهذا سُميت الجبال والمسامير التي تربط بها الأعمدة «أصار»، ولهذا أيضاً سمي العهد والوعد والذنب بالإصر.^(١)

يمكن الاستنباط من التعابير التي وردت في كلمات أرباب اللغة والمفسرين أن مفردة «إِصْر» بمعنى الجسم الثقيل الذي يُربط بقدم السجين لكي لا يستطيع أن يتحرك. وإن ذكره إلى جانب الأغلال وهي الأطواق والسلاسل التي تقيد بها الأعناق يناسب هذا المعنى، ثم أطلقت هذه المفردة على معنى آخر يتناسب وأصل الكلمة.

مع إن الكثير من المفسرين فسروا «الإِصْر» و«الأغلال» في هذه الآية بمعنى التكاليف الشاقة أو الامتحانات العسيرة والمعقدة التي حلت بالامم السابقة. لكن الظاهر أن لهاتين المفردتين مفهوماً أوسع وأشمل يستوعب كل أنواع قيود الاسر والحمل الثقيل الذي يسببه «الجهل» و«الشهوات» و«الذنوب» و«الاستبداد» و

(١) تفسير مجمع البيان، المجلد ٤، ص ٤٨٨ والفخر الرازي المجلد ١٥ ص ٢٥ وروح

المعاني، المجلد ٩ ص ٧٢ ومفردات الراغب، مادة «إِصْر» وكتاب العين المجلد ٧ ص ١٤٧.

«الأستعمار» وما شاكل . وهي أمور ترتفع تحت ظل وجود رسول الله وتعليماته التحريرية .

* * *

الآية الخامسة كلام عن لسان محطم الأوثان ابراهيم (عليه السلام) عندما خاطب الوثنيين موبخاً إياهم على عملهم القبيح هذا (عبادة الأصنام) ، وقال من أجل إيقاض عقولهم النائمة :

﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ ؟ ! ﴾ فلا بد للعبادة أن تكون إما من أجل الربح والمنفعة أو من أجل دفع الضرر والعقاب .

وبالطبع لم يكن لديهم أجوبة إيجابية على هذه التساؤلات سوى الاعتصام باتباع وتقليد السلف والقول : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

تدل هذه التعابير جيداً بأن حافز النفع والضرر (ليس النفع والضرر المادي فحسب فالنفع والضرر المعنوي أفضل وأرفع منه) ويمكن أن يكون حافزاً للحركة باتجاه معرفة الله .

* * *

حول نزول آيات سورة فصلت وهي الآية السادسة في بحثنا ، نقرأ أن « أبا جهل » سأل « الوليد بن المغيرة » وهو من رجال العرب الجاهليين المعروفين والذين يُرجع إليهم ويستشارون عند المعضلات : ما هذا الذي يقوله « محمد » ؟ أهو سحر ؟ أهو تكهن ؟ ... فقال « الوليد » : يجب علي أن أذهب إليه وأتحقق . وعندما جاء إلى النبي (ﷺ) قرأ له بعضاً من آيات سورة فصلت إلى أن جاء إلى الآية المنظورة في بحثنا ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ .

فارتجف « الوليد » لسماع هذه الآيات وانتصب الشعر في جسده مقشعراً ، فنهض من مكانه وعاد إلى بيته وأغلق الباب على نفسه ، حتى ظن اكابر قريش أنه

يميل نحو الدين الإسلامي ، وعندما جاؤوا إليه وسألوه عن شأنه ، قال : ما صبوت (اي لم أسلم) واني على دين قومي وآبائي ولكني سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود ، فلا هو بالشعر ولا بالخطب ولا بالكهانة ، ولما قيل له : إذن ما نقول فيه ؟ قال : قولوا هو سحر . فانه أخذ بقلوب الناس .^(١)

أولا يمكن لمثل هذه التهديدات الواردة في الآيات القرآنية وبقية المصادر الدينية أن تكون حافزاً على التحرك نحو التحقيق (بالنسبة لمن لم يؤمنوا لحد الآن) .

* * *

في الآية المعينة السابعة من البحث ، أمر الرسول (ﷺ) أن يخاطب جميع معارضيه ويعضهم بمسألة واحدة ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعِظُّكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ...﴾ .

كل تعابير هذه الآية تعابير مدروسة .

فالتعبير بـ ﴿انما﴾ من أجل الحصر .

والتعبير بـ ﴿الموعظة﴾ يستخدم في المواضع التي يحكم فيها العقل بشيء ، ولكن لكون الانسان غافلاً عنه فهناك شخص حريص آخر يوقظه ويعظه .

والتعبير بـ ﴿القيام﴾ دليل على الاستعداد الكامل لتنفيذ الأهداف الجديدة .

والتعبير بـ ﴿مثنى﴾ و ﴿فرادى﴾ إشارة إلى النشاطات الجماعية والفردية

والجهود الشاملة في هذا السبيل « لا شك أن الانسان يفكر بشكل أعمق عند إنفراده ولكنه يفكر بشكل أكمل حين يكون ضمن الجماعة ، لأن الافكار ستتحده مع بعضها .

(١) بحار الأنوار المجلد ١٧ ص ٢١١ وتفسير أخرى (الأصل في الحديث مفصل وقد

نقلناه بتلخيص . لاحظوا تفصيله في التفسير الأمثل (تفسير نمونه) المجلد ٢٠ ص ٢٠٧ إلى ٢٠٩ .

والجمع بين هذين (التفكير على إنفراد وضمن الجماعة) هو أفضل الطرق ^(١) .
ثم التعبير بـ « التفكير » الذي ينبع من الصميم ويهدي الإنسان إلى البراهين العقلية الواضحة .

والتعبير بـ « لكم » هو الآخر ممتزج بمسألة الانذار والالتفات إلى العذاب الشديد وفيه إشارة إلى أن الموضوع هنا هو نفعكم وضرركم فقط ، ولا هدف للنبي (ﷺ) سوى هذا .

أفلا يجب والحال هذه أن يأخذوا دعوته مأخذ الجد ويفكروا فيها ويعثروا على الحق ثم يتبعوه ؟

النتيجة :

إن الآيات أعلاه وآيات مشابهة أخرى تكشف النقاب جيداً عن الحافز العقلي للبحث والتنقيب في طريق « معرفة الله » وتدل على أنه لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يتقاعس ويسكت أزاء الهتافات العظيمة للرسل الإلهيين على صعيد الدعوة إلى الله ذات العلاقة الوثيقة بمصير الجميع . وهذا هو الحافز الأول للتحقيقات الدينية .



(١) قال بعض المفسرين : مثني إشارة إلى المناظرة التي لها تأثير كبير في كشف الحق ، في حين أن فرادى إشارة إلى القراءة في الوحدة . وإحتمل بعض آخر أن « مثني » إشارة إلى التفكير الذي يقوم به الإنسان خلال النهار ضمن الجماعة و « فرادى » التفكير الذي يحصل في الليل وعند الانفراد (تفسير القرطبي المجلد ٨ ص ٥٣ و ٩٣) .

توضيحات :

١ - الحافظ العقلي للدين في الروايات الإسلامية :

١ - ورد في حديث عن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) أن أحد أصحابه سألته عن الضعفاء (المستضعفين) فكتب له الإمام في الجواب : « الضعيف من لم ترفع إليه حجة ، ولم يعرف الاختلاف ، فإذا عرف الاختلاف فليس بمستضعف »^(١).

٢ - روي نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله : « من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف »^(٢).

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان حين يطلع على وجود الاختلاف سوف يرغمه عقله على التحقيق والمطالعة (النظر) ، وعندها لا يُعتبر مستضعفاً . وبالطبع فالقصد من « المستضعف » هنا هو « المستضعف فكرياً » الذي نسميه أحياناً بـ « الجاهل القاصر » .

٣ - جاء في حديث آخر عن النبي الأكرم (ﷺ) : « أربعة تلزم كل ذي حجب وعقل من أمتي . قيل : يا رسول الله ما هن ؟ قال : إستماع العلم وحفظه ونشره والعمل به »^(٣).

وبهذا يعتبر النبي (ﷺ) الاستماع والتحقيق من آثار وعلامات العقل والدراية .

(١) أصول الكافي ، المجلد ٢ ص ٤٠٦ ، الحديث ١١ (باب المستضعف)

(٢) نفس المصدر ، الحديث ١٠ .

(٣) تحف العقول ، مواظظ النبي ، ص ٤٠ .

٢ - المعاندون الملحون:

كان دائماً في مقابل الناس الأحرار الذين يرون التحقيق في الحق واجبهـم العقلي ، جماعة يخشون رؤية وجه الحق كالخفافيش ، وحتى لو ارتفع صوت منادي الحق ودوى في آذانهم سدوا آذانهم لكيلا يسمعوا صوت الحق .

ينقل القرآن عن جماعة من قوم نوح (عليه السلام) على لسان هذا النبي العظيم عندما إشتكاهم إلى الله : ﴿وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ (١) .

ولم يكن حال المشركين بأقل من هؤلاء ، بل كأنهم وارثو قوم نوح المعاندين الذين ينقل عنهم القرآن : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٢) .

إن هذه الجماعة التي لها أتباع ومقلدون في كل عصر وزمان لا يسمعون لأنفسهم بالتحقيق في المسائل ابداً ، إنهم جهلة حمقى يخافون من نور الشمس كأنهم الخفافيش ، يلجؤون إلى الظلمة دائماً ، ويفتخرون بالجهل . إنهم أكثر حرماناً من الجميع لأنهم أعداء تفضحهم الشمس .

(١) (نوح الآية : ٧) .

(٢) (فصلت الآية : ٢٦) .

٢- الحافز العاطفي

تمهيد:

ثمة مثل معروف يقول: «إنَّ الناس عبید الإحسان». ورد نفس هذا المعنى تقريباً في حديث عن أمير المؤمنين الأمام علي (عليه السلام): «الانسان عبد الإحسان»^(١).

ونقرأ في حديث عن نفس الإمام «بالإحسان تملك القلوب»^(٢). وفي حديث عن نفس الأمام أيضاً «وأفضل على من شئت تكن أميره»^(٣). وجذور كل هذه المفاهيم في حديث الرسول (ﷺ) إذ يقول: «إن الله جعل قلوب عباده على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»^(٤).

والخلاصة هي أن هنالك حقيقة تقول: إنَّ الذي يسدي خدمة لشخص آخر أو ينعم عليه نعمة فسيكون محطاً لعواطفه، ويكون هذا الآخر محباً لصاحب الخدمة والنعمة، يحب أن يتعرف عليه تماماً ويشكره، وكلما كانت هذه النعمة أهم وأوسع، كان تحريك العواطف نحو «المنعم» و«معرفته» أكثر.

ولهذا جعل علماء علم الكلام (العقائد) مسألة «شكر المنعم» ومنذ القدم إحدى المحفزات على التحقيق حول الدين ومعرفة الله.

ولكن يجب الانتباه إلى أن «شكر المنعم» هو دستور عاطفي قبل أن يكون

(١) غرر الحكم.

(٢) غرر الحكم.

(٣) بحار الانوار، المجلد ٧٧ ص ٤٢١.

(٤) تحف العقول، ص ٣٧ (تم كلمات النبي ﷺ).

حكماً عقلياً.

نختم هذه الإشارة ببيت شعر لأبي الفتح البستي الشاعر العربي المعروف :
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

بعد هذه الإشارة ننتقل إلى القرآن ونستمع خاشعين إلى الآيات أدناه :

١ - ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

٢ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتُسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيبَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢).

٣ - ﴿ فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣).

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

شكر المنعم سلم إلى معرفة الله :

تتحدث الآية الأولى عن أهمية النعم الألهية لتحرك في الناس حس الشكر وتدعوهم عن هذا الطريق إلى معرفة « المنعم ». إنَّ الحديث عن النعمة وسيلة للمعرفة يتحدث القرآن عن « العين » و « الأذن » و « العقل » : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ .

(١) (النحل الآية : ٧٨) .

(٢) (النحل الآية : ١٤) .

(٣) (النحل الآية : ١١٤) .

فعن طريق السمع تتعرفون على العلوم النقلية ومعارف الآخرين .
وعن طريق البصر ومشاهدة أسرار الطبيعة وعجائب الخلقة تتعرفون على العلوم التجريبية ، وعن طريق العقل تتعرفون على العلوم العقلية والتحليل المنطقية .
ومع ان هذه المواضيع الثلاثة معطوفة على بعضها في هذه الآية بالواو ولا تعني بالضرورة الترتيب ، إلا أنه ليس من المستبعد أن يكون هذا هو الترتيب الطبيعي لها . لأن الانسان لا يمتلك القدرة على النظر والمشاهدة إلى حدود فترة بعد ولادته ، ولأنه معتاد على الظلام فهو يخاف من النوع ويغلق عينيه إلى مدة . في حين أن الاذن تسمع أول الأصوات . ومن الواضح أن القدرة العقلية والتمييز والشعور تحيى في الإنسان بعد السمع والبصر ، خاصة وأن « الفؤاد » كما يصرح أرباب اللغة بمعنى « العقل الناضج العميق » ولا يفيد أية مرحلة بسيطة من العقل ، وطبعاً فإن مثل هذا الشيء يظهر بعد ذلك .

فضلاً عن ان الآية أعلاه يمكن أن تكون إشارة إلى حقيقة أن الوصول إلى « الكليات العقلية » يأتي بعد العلم بـ « الجزئيات » عن طريق الحس . وعلى كل حال ، فالآية أعلاه تصرح أن الهدف من إسداء هذه النعم هو تحريك حس الشكر في البشر ، والذي يدعوهم بالنتيجة إلى محبة الخالق ومعرفة الله وإطاعة أوامره .
وبالطبع فإن هذا لا يتناقض مع كون بعض العلوم الإنسانية علوماً فطرية لأن المعلومات الفطرية عند الولادة موجودة في طبيعة الإنسان على شكل الاستعداد والقابلية ، وليس لها طابع الفعلية ، ثم تثمر بعد ذلك .

* * *

الآية الثانية تشير إلى ثلاث نعم إلهية أخرى تتعلق جميعها بتسخير البحار وتعتبرها دافعاً نحو الاستمداد من فضل الله وشكره .

أولاً اللحوم التي تتوفر عن طريق البحر والمسماة بـ « لَحْمًا طَرِيًّا » . اللحم

الذي لم يبذل الانسان جهد تربيته أبداً ، وإنما رنته يد القدرة الالهية في قلب البحار ووضعت في متناول ايدي الانسان مجاناً ، يعتبر نعمة كبيرة ، خاصة في عصر وزمان كانت تكثر فيه اللحوم الفاسدة وكان الناس يضطرون إلى الاحتفاظ باللحوم الى فترة معينة عن طريق تمليحها أو شوائها وتجفيفها تحت اشعة الشمس . كانت هذه اللحوم تسبب الكثير من الأمراض والتسمم للمسافرين ، في حين كانوا يستخدمون اللحم الطازج بكل سهولة في اسفارهم البحرية أو الساحلية .

ثم تشير إلى المواد التجميلية المستخرجة من قلب البحار والمستخدمه من قبل البشر وتقول : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

أي أن الله وفر لكم أكثر المواد الغذائية ضرورةً حتى الحاجات ذات الطابع التجميلي الصرف .

وفي المرحلة الأخيرة تشير إلى واحدة أخرى من بركات البحار التي كان لها دور مؤثر جداً في حياة البشر حتى في يومنا الحاضر . وهي إستخدام البحر كطريق كبير وواسع ومتصل لحمل ونقل انواع الامتعة التي يحتاجها الناس ويسافرون بها . ومع الاخذ بنظر الاعتبار أن حوالي ٧٥ بالمائة من وجه الأرض مغطى بالبحار التي تصل إلى كل نقاط العالم ، وأن جزءاً كبيراً من الاموال التجارية والمواد الضرورية تنقل عن هذا الطريق ، وأن قسماً كبيراً من الأسفار يتم من خلال هذا الطريق ، تتضح أهمية هذا الموضوع . يقول عز وجل : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ ﴾ .

ثم يضيف في النهاية ﴿ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وبهذا جعل الالتفات إلى هذه النعم أيضاً وسيلة لأحياء روح الشكر وبالتالي إكتساب المعرفة بالله . وإلا فما حاجة الله إلى شكرنا ؟ كل هذه ذرائع إلى معرفة ذاته وصفاته والحركة نحو هذا الكمال المطلق .

والجدير بالانتباه أن ﴿ مواخر ﴾ هي جمع « ما خرة » من مادة « مخر » (على

وزن فخر). وهذه المادة كما يستفاد من محصلة كلمات أرباب اللغة والمفسرين بمعنى الشق والخرق، كشق «أمواج الماء» بصدر السفينة، أو شق «أمواج الرياح» بواسطة الوجه والأنف والتقدم نحو الأمام، أو شق الأرض لأجل الزراعة. ولأن هذه الأمور غالباً ما تكون مصحوبة بالصوت فقد أطلقت هذه المفردة على صوت هبوب الرياح الشديدة أيضاً^(١).

وقد ذكروا تفسيراً ثالثاً وهو أن الآية تخاطب الوثنيين، أنكم إذا أردتم العبادة فاعبدوا من هو ولي نعمتكم، لماذا تعبدون الأصنام التي لا دور لها مطلقاً.^(٢) وليس من المستبعد الجمع بين هذه التفاسير لأن المخاطب حسب الظاهرهم جميع المؤمنين والكافرين، بالرغم من أن الآيات السابقة واللاحقة تدل على أن الكلام موجه للمؤمنين أكثر ما هو موجه إلى الكفار.

وعلى كل حال، فالعلاقة بين «النعمة» و«الشكر» و«العبادة» ثم «معرفة المعبود» و«ولي النعمة» تتضح بجلاء من هذه الآية. وبهذا نتوصل إلى الحافز الثاني لمعرفة الله وهو مسألة شكر المنعم.

* * *

شكر المنعم في الروايات الإسلامية:

١ - جاء في حديث عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب ألا يعصى شكراً لنعمته»^(٣)

(١) تفسير الفخر الرازي، المجلد ٢٠، ص ٧ وقد جاء نفس هذا المعنى في تفسير روح المعاني والقرطبي تذيلاً للآية المنظورة في بحثنا.

(٢) تفسير الكشاف، المجلد ٢، ص ٦٤٠، وثمة تفسير آخر ورد كأحتمال من الاحتمالات في تفسير الميزان وروح المعاني تذيلاً للآيات المنظورة في البحث.

(٣) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٩٠.

إن التعبير بـ «الواجب» في هذا الحديث هو في الحقيقة نفس تلك الوظيفة التي تنبع من عواطف الإنسان.

٢ - نقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال: «كان النبي ذات ليلة عند عائشة فسألته: لماذا ترهق نفسك كل هذا الإرهاق بالعبادة في حين قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟»^(١).

فقال (عليه السلام): «ألا أكون عبداً شكوراً؟»^(٢).

٣ - يقول الامام الرابع علي بن الحسين (عليه السلام) في أحد أدعية الصحيفة السجادية: «الحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من منته المتابعة واسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرّفوا في منته فلم يحمدوه وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمة فكانوا كما وصف في محكم كتابه إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً»^(٣).

٤ - جاء في كلام آخر من نهج البلاغة: «... ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة»^(٤).

تتضح من هذه الروايات العلاقة الروحية بين «شكر النعمة» و «معرفة الله وإطاعة أوامره».

(١) إشارة إلى الآية الأولى من سورة الفتح التي جاء تفسيرها مفصلاً في المجلد ٢٢ ص

١٨ من التفسير الامثل (تفسير نمونه).

(٢) أصول الكافي المجلد ٢ باب الشكر، الحديث ٦.

(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء الاول.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.

٣- الحافز الفطري

تمهيد :

عندما نتحدث عن الفطرة فمرادنا نفس تلك الإحساسات الداخلية والادراكية التي لا تحتاج إلى أي استدلال عقلي .

عندما نشاهد منظرًا طبيعيًا جميلًا جدًا أو زهرة ذات لون ورائحة طيبة نحس في داخلنا بانجذاب قوي نحوها . ونسمي هذا الاحساس بالميل نحو الجمال وعشقه ولا نرى أي حاجة للبرهنة هنا .

أجل ، إن الإحساس بالجمال من الميول المتعالية للروح الإنسانية .
والإندفاع نحو الدين وخاصة معرفة الله هو أيضاً من هذه الإحساسات الذاتية والداخلية . بل هو من اقوى الحوافز في أعماق طبيعة وروح جميع البشر .
ولهذا السبب لا نشاهد قوماً أو أمة لا في الحاضر ولا في الماضي التاريخي لم تكن تمتلك نوعاً من العقائد الدينية تتحكم في فكرها وروحها . وهذه علامة على أصالة هذا الإحساس العميق .

وإنطلاقاً من أن التوحيد الفطري يُطرح في مجال براهين معرفة الله كبرهان مستقل مع كل آياته ، لا نرى داعياً للبحث المسهب حول هذا الموضوع . فنكتفي بذكر نقطة واحدة ونؤجل المزيد من الشرح إلى ذلك البحث .

عندما يذكر القرآن قصص نهضة الأنبياء العظام فانه يؤكد في عدة مواضع على هذه النقطة وهي إنَّ الرسالة الأصلية للأنبياء تتمثل بإزالة آثار الشرك والوثنية (وليس إثبات وجود الله ، لأن هذا الموضوع مخبئاً في أعماق طبيعة كل إنسان) .

وبتعبير آخر: إنهم لم يكونوا بصدد غرس « بذور عبادة الله » في قلوب الناس ،

بل كانوا في صدد سقاية البذور الموجودة واستئصال الأشواك والأدغال الزائدة المضرّة التي قد تقتل أو تُذبل هذه البذور بصورة تامة في بعض الأحيان .

وردت جملة ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أو ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ في كلام الكثير من الأنبياء في القرآن الكريم ، وهي عبارات تفيد نفي الأصنام وليس اثبات وجود الله كما جاء في دعوة رسول الأسلام (ﷺ) ،^(١) ودعوة النبي نوح ،^(٢) ودعوة يوسف ،^(٣) ودعوة هود^(٤) .

وَفَضْلًا عَنْ هَذَا فَإِنَّا نَمْتَلِكُ فِي دَاخِلِ أَرْوَاحِنَا أَحَاسِيسَ فِطْرِيَّةٍ أَصِيلَةٌ أُخْرَى مِنْهَا مَا نَرَاهُ فِي نَفُوسِنَا فِي الْإِنْجِذَابِ الشَّدِيدِ إِلَى تَجَاهِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْإِطْلَاعِ .
فَهَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ نَشَاهِدَ هَذَا النِّظَامَ الْعَجِيبَ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمَتْرَامِيِّ ، وَلَا تَكُونُ لَنَا رَغْبَةٌ فِي مَعْرِفَةِ مَصْدَرِ هَذَا النِّظَامِ ؟

وَهَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُجَدَّ عَالِمٌ لِمُدَّةِ عَشْرِينَ سَنَةً مِنْ أَجْلِ التَّعَرُّفِ عَلَى حَيَاةِ النَّمْلِ ، وَيَثَابِرَ عَالِمٌ آخَرَ عَشْرَاتِ السِّنِينَ لِمَعْرِفَةِ بَعْضِ الطُّيُورِ أَوِ الْأَشْجَارِ أَوِ الْأَسْمَاكِ الْبَحَارِ بَدُونَ أَنْ يَكُونَ فِي دَاخِلِهِ حَافِزُ حُبِّ الْعِلْمِ ؟ هَلْ يُمْكِنُ أَنْهُمْ لَا يَرِيدُونَ مَعْرِفَةَ مَصْدَرِ هَذَا الْبَحْرِ اللَّامِتْنَاهِي الَّذِي يَشْمَلُ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْأَزَلِّ إِلَى الْأَبَدِ ؟ !

نعم ، هذه حوافز تدعونا إلى « معرفة الله » ، العقل يدعونا إلى هذا الطريق ، العواطف تجذبنا نحو هذا الاتجاه ، والفطرة تدفعنا إلى هذه الجهة .

كانت هذه خلاصة للمحفزات الواقعية والحقيقية لظهور الدين ومعرفة الله .

* * *

(١) هود الآية : ٢ .

(٢) هود الآية : ٢٦ .

(٣) يوسف الآية : ٤٠ .

(٤) الأحقاف الآية : ٢١ .

توضيحات :

١ - التبريرات المنحرفة :

هنالك إصرار عجيب من قبل بعض علماء الاجتماع والنفس الماديين في الغرب والشرق على أن مصدر ظهور الدين والعقيدة التوحيدية معلول للجهل أو الخوف أو عوامل أخرى من هذا القبيل .

بالطبع إنَّ هذا الأمر ليس عجيباً حسب رأي معين ، لأنهم يبدوون وكأنهم قد إتخذوا قرارهم باتفاق مسبق ، ويعتبرون من المسلمات أن ليس ثمة شيء غير عالم المادة ، لهذا يرون أنفسهم ملزمين أن يفسروا كل ظاهرة بمعونة هذه العوامل المادية .

من ناحية أخرى نعلم أن وجود العقائد الدينية ما تنفك تزلزل أركان المادية . وإذا أضفنا إلى هذا المعنى الصراعات القبيحة بين الكنيسة وعلماء العلوم الطبيعية في القرون الوسطى ، يمكن الاستنتاج أن مثل هذه التفسيرات المادية للدين والاعتقاد بالله بأنها جزء من نضال المدارس المادية ضد الدين .

مع أنَّ البحث في كل هذه النظريات بشكل مفصل يحتاج إلى أحاديث طويلة يُخرجنا الدخول فيها عن نوعية بحثنا التفسيري . ولكن يبدو من الضروري الإشارة إليها هنا بشكل مختصر . لكننا نكرر أن كل هذه التفسيرات قائمة على أساس أحكام مسبقة وهي أن نسلم بعدم وجود عالم وراء الطبيعة ، وبأن عالم الوجود يتلخص في نفس عالم الطبيعة هذا .

ويمكن تحديد هذه النظريات - أو بعبارة أدق هذه الفرضيات - بشكل عام في

خمس فرضيات :

١ - فرضية الجهل :

يقول أحد علماء الاجتماع المعروفين : « مع إن العلم والفن كشفوا الكثير من الأسباب السرية ، إلا إن الكثير من هذه الأسباب ما تزال هاربة من نطاق العلم وباقية في لفيف الأسرار ، وضرورة التوصل إلى هذه الأسباب دعت إلى ظهور الدين » .^(١)

ويضيف أحد الفلاسفة الماديين : أن الإنسان عندما ينظر إلى الأحداث من زاوية تاريخية فسيتصور العلم والدين عدوين لا يقبلان الصلح ! وذلك لسبب واضح جداً . فالذي يعتقد بحركة العالم بلحاظ قانون العلية لا يستطيع أن يسمح ولو للحظة واحدة بأن يدخل عقله تصور يقول : إنَّ بإمكان موجود خلق الموانع والعثرات في واقع الأحداث .^(٢)

وبعبارة أبسط إنهم يريدون الإدعاء أن جهل الإنسان بالعلل الطبيعية كان السبب في تصوره لوجود قوة وراء الطبيعة أوجدت هذه العالم وما انفكت تديره ، ولهذا فكلما إتضحت الأسباب والعلل الطبيعية تراجع الدين والاعتقاد بعبادة الله . إن الخطأ الأساسي لأتباع « فرضية الجهل » ينبع من :

اولاً : إنهم ظنوا أنَّ الإيمان بوجود الله يعني إنكار قانون العلية ، وإننا على مفترق طريقين : إما التسليم للعلل الطبيعية او لوجود الله . في حين أن الإيمان بقانون العلية والكشف عن العلل الطبيعية من وجهة نظر الفلاسفة الالهيين يعد احد أفضل طرق معرفة الله .

(١) جامعه شناسى ساموئيل كنريك ، ص ٢٠٧ (علم الاجتماع عند صاموئيل كنريك) .

(٢) الدنيا التي أراها ، ص ٥٨ - وكم هو مضحك قول « اوغست كونت » ان العلم عزل أبا الكائنات من وظيفته وساقه إلى مكان منزو (أي باكتشاف العلل الطبيعية لم يبق ثمة محل للإيمان بالله) (الدوافع نحو المادية ص ٧٦) .

إننا لا نبحث عن الله وسط الفوضى والحوادث الغامضة والمعتمة أبداً، بل نعثر عليه في وسط الانوار والنظم المعروفة لعالم الوجود، لأن وجود هذه النظم علامة واضحة على وجود مصدر علم وقدرة في عالم الوجود.

ثانياً: لماذا تراهم يغفلون عن هذه النقطة، وهي أن الانسان ومنذ أقدم العصور لحد اليوم كان يرى دائماً نظاماً خاصاً يحكم العالم؟ نظاماً لا يمكن تبريره بالعلل التي لا شعور لها، وكان يعتبره دوماً علامةً على وجود الله. وكل ما في الأمر أن هذا النظام كان معروفاً في الماضي بدرجة أقل، وكلما تطور علم البشر، إكتشفت منه دقائق وصغائر جديدة وإتضح وبان علم وقدرة مبدأ عالم الوجود أكثر.

ومن هنا فإننا نعتقد أن «الإيمان بوجود الله» و«الدين» يتقدم الى الامام بتقدم «العلوم». وكل إكتشاف جديد لأسرار ونظم هذا العالم إنما هو خطوة جديدة لمعرفة الله بصورة أفضل، فلم يكن بإمكان السابقين أبداً أن يعرفوا الله بالشكل الذي نعرفه اليوم، لأن تطور العلوم لم يكن على ما هو عليه الآن.



٢- فرضية الخوف:

يروى المؤرخ الغربي المعروف «ول ديورانت» في تاريخه ضمن بحث بعنوان منابع الدين عن الحكيم الروماني «لوكروتوس» بأن «الخوف هو الأم الأولى للآلهة، والخوف من الموت ذو مكانة أهم بين بقية أنواع الخوف... ولهذا لم يكن باستطاعة الانسان البدائي أن يصدق بأن الموت ظاهرة طبيعية ولذا كان يتصور له سبباً ما ورائياً على الدوام»^(١).

ويكرر «راسل» نفس هذا الكلام بصياغة أخرى في قوله:

(١) «قصة الحضارة لـ«ول ديورانت» المجلد الأول ص ٨٩.

« أتصور أن مصدر الدين هو الخوف والرهبة قبل كل شيء ، الخوف من الكوارث الطبيعية ، الخوف من الحروب وما شاكل ، والخوف من الأعمال غير اللائقة التي يرتكبها الإنسان أثناء غلبة الشهوات عليه »^(١).

ويتضح بطلان هذه الفرضية من حيث أن أتباعها كأنهم قد تعاهدوا جميعهم بشكل ضمني على الاتفاق بأنه ليس ثمة جذور ما ورائية للدين والاعتقاد بعبادة الله ، ولا بد من البحث عن سبب له في الطبيعة ، سبب يعود إلى نوع من الظن والخيال ، ولهذا فهم دائماً يرون الأمور الفرعية وينسون المسألة الأصلية .

صحيح أن الإيمان بالله يمنح الإنسان طمأنينة وإقتداراً روحياً ، وصحيح أنه يمدّه بالشجاعة قبال الموت والحوادث العصبية ، إلى درجة أنه في بعض الأحيان يكون مستعداً لكل ألوان التضحية والفداء . لكن لماذا ننسى ما هو أمام أعين البشر دائماً أي النظام الذي يحكم الأرض والسماء والنباتات والأحياء ووجود الإنسان ذاته ؟ ! .

وبعبارة أخرى فإن الإنسان مهما كان بارعاً بعلم التشريح والفلسفة وما شابه ، لكنّه حينما ينظر إلى بناء عينه وأذنه وقلبه ويده ورجله يراه بناءً عجيباً ودقيقاً ، وهذا لا يمكن تفسيره أبداً بالوقائع والأسباب العمياء . ظهور غصن من الزهور ، أو نحلة ، ظهور الشمس والقمر وسيرهما المنتظم وبقية الظواهر .

هذا هو الشيء الذي كان موجوداً ولا يزال دائماً أمام أعين الإنسان وهو السبب الأصلي في ظهور الإيمان بوجود الله ، لماذا يتجاهلون هذه الحقيقة البينة ويتشبثون بمسألة الخوف والجهل ؟ أفليس لأنهم خائفون من نمو العقائد الدينية ؟ وإلا لماذا يتركون الطريق الأصلي النير ويسلكون الطريق المنحرف ؟ سوى أن الأحكام المسبقة تحول أمامهم ؟ ! .

(١) « العالم الذي أعرفه » ص ٥٤ .

٣ - فرضية العوامل الاقتصادية :

إنَّ أتباع هذه الفرضية أناس يعتقدون بأن القوة التي تحرك التاريخ هو شكل وسائل الإنتاج ، ويعتبرون جميع الظواهر الاجتماعية سواء الثقافية منها أو العلمية أو الفلسفية أو السياسية وحتى الدين ناتجة عن هذا الشيء !

إن لهم تبريرات عجيبة من أجل الربط بين ظهور الأديان والمسائل الاقتصادية منها قولهم : إن الطبقة المستعمرة في المجتمعات البشرية قد أوجدت الدين من أجل القضاء على مقاومة الشرائح المستعمرة وتخديرها ، ويلفتون الأنظار إلى عبارة « لينين » المعروفة التي أوردها في كتابه « الاشتراكية والدين » والتي يقول فيها : « الدين في المجتمع بمثابة المخدر والافيون » !.

ولهم في هذا الموضوع كلام كثير هو في الغالب تكرار للمكررات .
ومن حسن الحظ أن أتباع هذه الفرضية (الاشتراكيون) قد أجابوا على أنفسهم بأنفسهم من خلال عباراتهم المتناقضة . فهم عندما يواجهون الإسلام وكيف كان سبباً في حركة ونهوض أمة متخلفة ، وكيف أنزل عن العرش المستعمرين من أمثال السلاطين الساسانيين وقيصرة الروم وفراعنة مصر و «تباغة» اليمن ، يضطرون إلى إستثناء الإسلام على الأقل من هذا المقطع التاريخي .

وفوق كل هذا ، عندما يشاهدون اليوم الحركات والنهضات الإسلامية ضد المستعمرين (خاصة في العصر الحاضر) بوجه حكام الشرق والغرب وانتفاضة الشعب الفلسطيني ضد الكيان الصهيوني ، فليس أمامهم سبيل سوى أن يشكوا في تحليلاتهم ، بغض النظر عن الذين يعيشون حصاراً في حصار ولا يستطيعون أن يبصروا حتى الشمس المتجلية .

وعلى كل حال ، فبالنظر للتاريخ المعاصر والقديم لا سيما الخاص بالإسلام ،

يتضح جيداً أن الدين وخلافاً لزعمةهم ليس مادة مخدرة وأفيوناً أبداً، فضلاً عن أنه السبب في ظهور أقوى الحركات الاجتماعية وأكثرها مثاراً للإعجاب، والقضايا الاقتصادية تشكل بدورها جزءاً من حياة الإنسان، وحصر الإنسان في الزاوية الاقتصادية يعتبر أكبر خطأ في معرفة الإنسان ومعرفة نوازعه وميوله المتعالية.

٤ - الفرضية الجنسية:

والآن تعالوا واستمعوا للسيد « فرويد » الذي يريد أن يقيم جسراً بين « ظهور الدين » و « الغريزة الجنسية » ويعتبر هذا وليداً لتلك !

إنه يحاول أن يربط هذا الموضوع في فرضيته باحدى القبائل الوهمية (للأب في هذه القبيلة الخيالية نساء كثيرات ، أما الأولاد الشباب فيعانون الحرمان ، وأخيراً ثار الأولاد وقتلوا الأب وأكلوا لحمه ، ثم ندموا على ذلك ، وبغضهم النظر عن نساء القبيلة عمدوا إلى إدانة وتقبيح عملهم) ومن هنا نشأ بينهم نوع من الحظر وبتعبيره « تابو » اي « كبت » (حظر الزواج من المحارم) ..

ويضيف : يوجد في القبائل المتوحشة اليوم شيء باسم « التوتم » وهو الأب أو السلف بالنسبة لأعضاء القبيلة ، ويعتبر حاميه وولي نعمتهم .

إنهم يحترمون « التوتم » ويتصورون أن عليهم أن يتشبهوا به (هذا الاعتقاد بالتوتم نابع من نفس الاعتقاد بالقبيلة الوهمية ايضاً) .

يعتقد فرويد أن الإيمان بالكبت والتوتم هو السبب لظهور العقائد الدينية ، ووفقاً لما ذكرنا اعلاه فإن له علاقة بالقضية الجنسية !^(١)

وفضلاً عن أن فرضية فرويد الجنسية قائمة على أساس اسطورة (اسطورة القبيلة الوهمية) . فان تحليلاته تشبه إلى حد كبير الأساطير والخرافة ، وهذا ناتج من

(١) الاقتباس من « فرويد والفرويدية ».

أنه يرى روح وجسم الإنسان ذا الأبعاد والميول المتنوعة من زاوية واحدة وببعد واحد .

صحيح أن للإنسان غريزة جنسية ، لكن من المسلم به أن وجود الإنسان لا يختصر كله في الغريزة الجنسية ، فجسمه يقع تحت تأثير غرائز مختلفة ، ولروحه ميول متعالية مختلفة ، « فالنظر من بعد واحد » بلاء لم يقع فيه فرويد فحسب بل إن الاشتراكيين الذين يختصرون وجود الإنسان في البعد الإقتصادي قد وقعوا فيه بشكل آخر .

كان الاجدر بفروى وبدل الاعتماد على الأوهام أن ينظر إلى هذه الحقيقة وهي أن الإنسان منذ فجر حياته وحتى اليوم أبصر نظاماً حاكماً على العالم المترامي وعلى وجوده هو لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية غير العاقلة وغير العالمة . وكان هذا هو المنطلق في ظهور الاعتقاد بالله ، فلماذا يرفضون نهجاً بهذا الوضوح ويسلكون الضلال ؟ ! .

٥ - فرضية الحاجات الأخلاقية :

يقول « أنشتاين » في بحث بعنوان « الدين والعلوم » : بقليل من الدقة يتضح أن الأحاسيس والانفعالات التي أدت إلى ظهور الدين مختلفة ومتباينة جداً .. وبعد أن يشير إلى فرضية الخوف يضيف :

إن النزعة الاجتماعية عند البشر هي أيضاً من أسباب ظهور الدين . فالفرد يرى أن أباه وأمه ، أصدقاءه واقاربه ، قاداته وعظماءه يموتون ، ويرحل مَنْ حوله واحداً واحداً ، إذن فالرغبة في الهداية والمحبة وأن يكون محبوباً في مجتمعه وأن يكون له أمل في شخص ما معتمداً عليه ، تمهد الأرضية في نفسه لقبول الاعتقاد

(١) بالله.

وبهذا فهو يريد أن يفترض دافعاً أخلاقياً واجتماعياً لظهور الدين .
وهنا أيضاً نلاحظ أن مقترحي هذه الفرضية قد خلطوا بين «الأثر»
و«الدافع» ، في حين أننا نعلم أن ليس كل أثر هو دافع بالضرورة ، فمن الممكن أن
نعثر على كنز اثناء حفرنا لبئر عميق ، وهذا هو «أثر» ، والحال أنه لا شك في أن
المحرك والدافع الأساسي لحفرنا البئر شيء آخر وهو الحصول على الماء وليس
اكتشاف كنز ما .

وعليه فصحيح أن بإمكان الدين معالجة أوجاع وآلام الإنسان الروحية ، وأن
الإيمان بالله يخلصه من الإحساس بالوحدة عند فقد الأحبة والأصدقاء ويملاً الفراغ
الناتج من فقدانهم ، ولكن هذا أثر وليس دافعاً .

الحافز الأصلي للدين والذي يبدو منطقياً جداً هو في الدرجة الأولى ما أشرنا
إليه سابقاً ، فحين يرى الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام نظام في عالم كلما تفكر فيه
أكثر تعرف على عمقه وتعقيده وعظمته أكثر . فهو لا يستطيع أبداً أن يعتبر ظهور ولو
«وردة» واحدة بكل مالها من ظرافة وبناء عجيب ، أو ظهور «عين» واحدة بكل ما
فيها من نظام ظريف ودقيق ومعقد ، لا يستطيع أن يعتبر ذلك وليداً للطبيعة غير
العاقلة والمصادفات العمياء الصماء . وهنا يبحث الإنسان عن مبدأ لهذا النظام .

وبالطبع فهناك أمور أخرى تدعم هذا المعنى أشرنا إليها سابقاً .

والعجيب أن «انشتاين» نفسه الذي اقترح مثل هذه الفرضية بدّل كلامه في
مكان آخر وأعرب عن عقيدته في موجد عالم الوجود وإيمانه الراسخ بذلك المبدأ
الكبير بشكل جذاب آخر ، يدل على إنه ينكر الاعتقاد الممتزج بالخرافات ولا ينكر
التوحيد الخالص من أي خرافة .

إنه يقول: « ثمة وراء هذه الأوهام معنى واقعي لوجود الله لم يتوصل إليه سوى القليل من الناس » ثم يصرح بعقيدته وعقيدة كبار العلماء بنوع من الإيمان الديني الذي يسميه « الأحساس الديني بالخلق » أو « الوجود » ويدعوه في مكان آخر بـ « الحيرة اللذيذة من نظام الكائنات العجيب الدقيق ».

والألطف من ذلك أنه يقول: « إن هذا الإيمان الديني سراج درب البحوث في حياة العلماء ».^(١)

طبعاً الكلام هنا كثير وإذا أردنا أن نترك عنان القلم حسب التعبير الدارج سوف نخرج عن شكل البحث في التفسير الموضوعي .

لهذا نعود إلى أصل الحديث مرة أخرى ، وننهي هذا البحث ، ونلفت النظر إلى إنه يجب البحث عن حافز ظهور الدين في مطالعة عالم الخلقة أولاً (الحافز العقلي والمنطقي) ، ثم في الجاذبية الذاتية العنيفة (الحافز الفطري) ، ثم في توجه نحو ذلك المبدأ الكبير بسبب التمتع بنعمه اللامتناهية (الحافز العاطفي) .^(٢)

(١) « الدنيا التي أعرفها » ص ٥٦ و ٦١ .

(٢) من أجل مزيد من المعلومات في هذا المجال يراجع كتابنا « الحافز في ظهور الأديان » .

براهين معرفة الله:

برهان النظم

التمهيد:

إنَّ أوسع برهان يعتمد عليه القرآن الكريم في قضية التوحيد ومعرفة الله ضمن الكثير من الآيات والسور القرآنية هو «برهان النظم»، بحيث انه يغطي على باقي البراهين في القرآن.

وهذا يدل على ان أفضل وأوضح طريق لمعرفة الله من وجهة نظر هذا الكتاب السماوي الكبير والأبتعاد عن كل الوان الشرك هو قراءة نظام الخلقة وأسرار الوجود وآيات الآفاق والأنفس.

* مميزات برهان النظم:

لهذا البرهان خصائص من أجلها اعتمد وأكد عليه القرآن الكريم إلى هذا الحد.

١- إن برهان النظم يقنع العلماء كما يقنع عامة الناس ، أي ان كل فئة تستطيع الانتفاع منه حسب قابليتها ، وذلك لأنَّ الناس مختلفون في ادراك أسرار الخلقة .

٢- ليس في برهان النظم جفاف الاستدلالات الفلسفية ، بل على العكس فيه لطف خاص يمنح الإنسان حبَّ التطلع على ذلك المبدأ الكبير ، ويوجد فيه نوعاً من الاندفاع والشوق نحوه ، ويرغمه على الخضوع الممتزج بالعشق . وبتعبير آخر فهو يروي عقل الإنسان كما يروي عواطفه واخلاقه .

واخيراً فإن برهان النظم وبسبب دراسته لأنواع النعم الإلهية ضمن دراسة نظم هذا العالم فهو ذو علاقة بشكر المنعم ، وهذا بحد ذاته حافز آخر من حوافز التوحيد .

٣- إن برهان النظم برهان نام (متجدد) ، وبتعبير آخر هو برهان لا متناه ، لأن كبراه وإن كانت ثابتة في محلها ، لكن صفراه متبرعمة دائماً ومتفرعة عن أغصان وأوراق جديدة . لأن أي اكتشاف من الاكتشافات العلمية حول اسرار الخلقة إنما يشكل مصداقاً وصغرى جديدة لهذا البرهان . فهو لهذا جديد دائماً ، وفي كل يوم يأخذ شكلاً آخر ، وهو متطور ومتقدم إلى جانب تطور العلم والمعارف البشرية .

٤- إن برهان النظم يدعو الانسان إلى سلوك الآفاق والانفس ، وهذا السلوك المبارك يزيد من مستوى معرفة الانسان في كل يوم ويجعل تفكيره مزدهراً ، خاصة وأن أسس برهان النظم مختلطة بحياة الإنسان وهو يواجهها في كل خطوة من خطواته ، وليس كالبعض الآخر من البراهين التوحيدية التي تقع إلى جانب قضايا الحياة وخارجها .

٥- برهان النظم هو البرهان الوحيد الذي يستطيع إخضاع الفلاسفة التجريبيين الذين ينكرون الاستدلالات العقلية المحضة ، ويستخدم حربة العلم التي يستخدمونها في إثبات « المادية » ضدهم ، وهو بهذا اللحاظ ذو فاعلية عالية . ولهذا ليس من العجيب أن يضع القرآن الكريم الغالبية العظمى من مباحثه التوحيدية على أساسه . لكن من العجيب أن بعض المحققين المتأثرين بشدة ببراهين أخرى (البراهين الفلسفية المحضة) يتجاهلون الأهمية القصوى لهذا البرهان وكأنهم لا علم لهم بمميزاته وآثاره العميقة .

* أسس برهان النظم :

يرتكز هذا البرهان على ركيزتين أساسيتين ، أي يشكل صغرى وكبرى الشكل الاول اصطلاحاً .

١- هنالك نظام دقيق ومحسوب يحكم عالم الوجود .

٢ - اينما وجدنا نظاماً دقيقاً ومحسوباً فمن غير الممكن أن يكون وليد الحوادث التصادفية ، بل لابد أن يصدر عن علم وقدرة عظيمين .
والنتيجة هي أن هناك مبدأ علم وقدرة عظيم وراء نظام عالم الخلقة (سواء أطلقنا عليه اسم الله أو وضعنا له إسماً آخر) لأن التسمية لا تؤثر في مثل هذه البحوث .

* علاقة « النظام » و « العلم » :

قبل كل شيء يجب إثبات المقدمة الثانية المسماة بكبرى القياس . ومن أجل هذا لابد من تعريف مختصر لـ « النظام » .

يمكن القول : ان أي منظمة أو موجود يعمل وفق برنامج معين ويعطي نتائج معينة ، هو موجود منظم ، وعلى هذا الأساس فإن « الحساب » و « البرنامج » و « الهدف » تشكل العناصر الأصلية الثلاثة للنظام . فمثلاً الساعة نموذج لـ « الموجود المنظم » ، ذلك أن أجزائها مصنوعة وفق حساب دقيق ، ثم هنالك برنامج لتركيبها ، والهدف منها هو التشخيص الدقيق للوقت .

ولأجل التوصل إلى هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) يمكن الاستعانة بعدة أدلة :

١ - أولاً الوجدان : مع اننا لم نر أبداً الكثير من العلماء الكبار والمخترعين والفنانين المهرة ، ولم يبق منهم سوى الآثار ، إلا إننا حين ننظر إلى تلك الآثار والكتب والصناعات واللوحات النفيسة والابنية البديعة ، نعتز بدون أي احتجاج بعقلهم وذوقهم وعلمهم ومهارتهم الصناعية والفنية .

٢ - من أجل اثبات هذه العلاقة يمكن بالإضافة إلى الوجدان ، الاستعانة بالدليل المنطقي ، فلكي تظهر بناية منظمة إلى الوجود يجب أن يكون هناك اختيار

في سبع مراحل على الأقل .

فلو أخذنا بناية عظيمة وجميلة ومحكمة ، وجب أن نمارس عملية الاختيار والانتخاب بشكل محسوب على عدة أصعدة « أولها » من حيث نوعية المواد المستخدمة ، و « ثانيها » من حيث مقدار وكمية المواد ، و « ثالثها » من حيث جودة المواد ، و « رابعها » من حيث الأشكال والأحجام المختلفة ، و « خامسها » من حيث ايجاد الانسجام بين الأجزاء ، و « سادسها » من حيث التناسب بينها ، و « سابعها » من حيث وضع كل من الاجزاء في مكانه المناسب .

وهذه الاختيارات السبعة يجب أن تتم كل واحدة منها وفقاً للعلم والإطلاع والحساب ، وأحياناً الحسابات الدقيقة جداً . ومن هنا عندما نواجه مثل هذه البناية نتيقن أن صانعها بلا شك كان يملك العلم والمعرفة والإطلاع الواسع .

٣ - يمكن إثبات هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) عن طريق آخر (عن طريق البرهان الرياضي) .

إن « حساب الاحتمالات » الذي غدا اليوم فرعاً علمياً مستقلاً في الجامعات ذو فاعلية جيدة جداً في مجال العلاقة بين النظام والعلم . وهو نفس الشيء الذي ندركه بصورة إجمالية في حياتنا . لكن حساب الاحتمالات يعكسه في شكل رياضي واضح .

إننا لا نصدق أبداً أن إنساناً أمياً يستطيع عن طريق الصدف أن يؤلف كتاباً في مجال « الفلسفة » مثلاً أو « الآداب والشعر » أو « الطب » . بمعنى أن نعطيه آلة طباعة فيبدأ بدون أن يعرف الحروف بالضغط على أزرار الآلة بصورة متواصلة .

وليس من المستحيل كتابة كتاب علمي بمعونة هذه الصدفة فحسب ، بل لا يمكن كتابة حتى رسالة قصيرة أيضاً .

لأنه لو افترضنا أن حروف الآلة الطباعة ثلاثون حرفاً فقط ، (وهي بالطبع أكثر

بكثير، لأن لبعض الحروف صور متعددة، فمثلاً حرف الباء الأولية والباء الوسطية والباء النهائية والباء المفردة تشكل أربع صور مختلفة لحرف الباء) يقول حساب الاحتمالات هنا: ان الظهور التصادفي لكلمة « من » المكونة من حرفين هو احتمال واحد من تسعمائة احتمال .

$$(\frac{1}{900} = \frac{1}{30} \times \frac{1}{30})$$

وا احتمال ظهور كلمة مكونة من ثلاثة أحرف هو احتمال واحد من ٢٧ ألف احتمال، وحين نصل إلى كلمة مكونة من خمسة أحرف سوف نجتاز حدود الـ ٢١ مليون !! .

والآن إذا كانت الحروف الموجودة في رسالة قصيرة هي مائة حرف فإن مجموعة احتمالات هذه الأحرف هي العدد ٣٠ مرفوعاً إلى الأس ١٠٠ بحيث أن رسالتنا المعينة تشكل احتمالاً واحداً من هذا العدد الهائل من الاحتمالات، أي عدداً كسرياً بسطه واحد ومقامه العدد ٣ إلى يمينه مائة صفر. إن مقام هذا الكسر من الضخامة بحيث لا يمكن حسابه، ولا شيء في هذا العالم يصل إلى ضخامة هذا العدد..

ولأجل إيضاح هذه الحقيقة يكفي أن نعلم أننا لو قطرنا جميع المحيطات على الكرة الأرضية قطرة قطرة وحسبنا عددها لكان عددها أقل من عدد إلى جانبه واحد وعشرون صفراً فقط .

وعلى هذا الحساب لو حسبنا كتاباً مكوناً من ألف صفحة فإن عدد الاحتمالات سيتضخم إلى درجة أن الاحتمال التصادفي لعدده الكسري (البسط) يتساوى مع الصفر أي أنه مستحيل عادةً. (تأمل).

وبهذا الدليل، إذا إدعى شخص مثلاً: أن « ابن سينا » محرر كتاب « القانون » في الطب كان أمياً تماماً، وأن « المتنبي » لم يكن له ذوق شعري مطلقاً، وأن

« أنشتاين » لم يكن يفقه شيئاً من الرياضيات وأن بناء الأبنية التاريخية الشهيرة لم يكن لهم أدنى إطلاع على فن العمارة ، وأن جميع الآثار التي تركوها ظهرت لمجرد الصدف والحركات اللاواعية لأيديهم على الأوراق أو على المواد الإنشائية ! لا شك أن من يقول مثل هذا الكلام إن لم يكن يمزح فهو مجنون !.

وخلاصة القول ان علاقة النظام بالعلم واضحة إلى درجة أن الكثير من العلوم والمعارف البشرية قائمة عليها ، فمثلاً جزء مهم من تاريخ الحضارة البشرية كتب من خلال مطالعة ودراسة الآثار الجذابة للسلف التي بقيت عنهم .

والعلماء بمطالعة الآثار التي يعثرون عليها بواسطة الحفريات أو التي يكتشفونها في قبور ومعابد الأقوام الغابرة ، يتوصلون إلى مستوى ثقافتهم وحضارتهم ونوعية عقائدهم . في حين إذا أنكرنا علاقة النظام والعلم إنهارت كل هذه الاستنباطات .

الآن وقد إتضحت تماماً العلاقة بين النظام والعلم ، وبعبارةٍ ثبتت كبرى البرهان ، نتطرق إلى مصاديقها في عالم الوجود التي إعتد عليها القرآن الكريم .
واللطيف أن آيات القرآن لا تتحدث مطلقاً عن كبرى برهان النظام ، أي « علاقة النظام والعلم » ، لأنها كانت واضحة ووجدانية إلى حد أنه لم تكن ثمة حاجة لبيانها . وكما قلنا فإن الإنسان إذا أنكر هذه العلاقة يجب عليه إنكار الكثير من الحقائق الموجودة في حياته . وما من شك في أن منكري هذه العلاقة يشبهون « السفسطينيين » الذين ينكرون الحقائق أثناء حديثهم ، ولكنهم في حياتهم اليومية يقبلون جميع الحقائق مثل الآخرين ، فمثلاً لو تمرضوا يراجعون الطبيب ويستعملون الدواء وينفذون إرشادات الطبيب حرفاً بحرف ، أي انهم يعترفون رسمياً بوجود « الطبيب » و « الدواء » و « علم الطب » و « الصيدلة » ومئات الأمور الأخرى الدائرة في هذا المضمار !

إن منكري «علاقة النظام والعلم» أيضاً بدورهم يستنتجون علمياً وعملياً من أي اثر علمي وصناعي وأدبي وفني، وجود مبدأ واع وذو ذوق وفنان، ولا يعتمدون أبداً على الاحتمالات المجنونة.

الآن وقد إتضحت علاقة النظام والعلم تماماً، وثبتت كبرى البرهان حسب الاصطلاح المنطقي، نعرض على مصاديقها في القرآن الكريم والتي إعتد عليها.

ونعتقد أن من الضروري ذكر هذه النقطة وهي أن الفلاسفة الماديين الذين حاربوا برهان النظم (انكار وجود النظام في العالم أو إنكار علاقة النظام والعلم) وعلى رأسهم «دافيد هيوم» لم يتحفونا بسوى مجموعة من الوسوس التي لا قيمة لها. الوسوس التي لم يكونوا يقبلونها في حياتهم أبداً.

١- آياته في خلق الانسان

في البداية نستمع خاشعين للآيات أدناه :

١ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ (١).

٢ - ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٢).

٣ - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ (٣).

٤ - ﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ - الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ - ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ - ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٤).

٥ - ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) (٦).

* * *

(١) (الروم الآية : ٢٠).

(٢) (الانسان الآية : ٢).

(٣) (المؤمنون الآية : ١٢ و ١٣).

(٤) (السجدة الآية : ٦ - ٩).

(٥) (الجاثية الآية : ٤).

(٦) هنالك في هذا المجال آيات متعددة أخرى أيضاً، صرفنا النظر عن ذكرها لتقارب مضمونها مع ما ذكرناه من الآيات، من جملتها آيات سورة النجم الآية : ٤٥ - ٤٦، وغافر الآية : ٦٧ وفاطر الآية : ١١، والكهف الآية : ٣٧ - ٣٨، والنحل الآية : ٤، والانعام الآية : ٢.

شرح المفردات:

﴿بَشَرٌ﴾ من أصل «بَشَرَةٌ» بمعنى ظاهر جلد الانسان، ولكن يستفاد من «مقاييس اللغة» أن أصلها هو ظهور شيء ذي حسن وجمال، لذا فإن حالة «البشر» (على وزن اليُسْر) بمعنى الفرح والانبساط، وإنطلاقاً من أن هذه الحالة خاصة بالانسان، كانت مفردة «البشر» اسماً للنوع الانساني^(١). وهذه المفردة تطلق على الرجل والمرأة والمفرد والمثنى والجمع^(٢).

﴿سُلالة﴾ (على وزن عُصارة) بمعنى الشيء المأخوذ من شيء آخر، فيكون خلاصته وعصارتة، وهي في الأصل من «سَلَّ» (على وزن حَلَّ) بمعنى سحب وجرّ برفق وتستخدم لسحب السيف من القراب أيضاً ثم اطلقت على عصارة وخلاصة الأشياء.^(٣) وحينما نقرأ في الآيات أعلاه أن الله خلق الانسان من سلالة من طين، فمبنى ذلك من العصارة المصطفاة من الطين. وقال البعض: ان المراد من هذا هو أن آدم مخلوق من عصارة كل الأتربة الموجودة على الأرض (ولهذا فقد إستخلص آثار الجميع في وجوده) وإطلاق «السليل» على «الابن» من باب أنه ناتج من عصارة وجود الأب والأم.

﴿النطفة﴾ في الأصل بمعنى «الماء الصافي»، وإعتبرها بعض أهل اللغة بمعنى «الماء القليل». وبما ان الماء الذي يمثل المبدأ في ظهور الانسان قليل ومصطفئ وعصارة من كل الجسم فقد أطلقت هذه المفردة عليه. ويقال للسوائل الجارية «ناطف» أيضاً.

(١) مقاييس اللغة، لسان العرب والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) لسان العرب ومجمع البحرين.

(٣) مفردات الراغب، مجمع البحرين، ولسان العرب.

﴿أمشاج﴾ جمع «مَشَج» (على وزن نشج) بمعنى الشيء المخلوط ، والبعض إعتبرها جمعاً لـ «مشيج» ، ولأن ماء الرجل والمرأة يختلطان عند إنعقاد نطفة الانسان فقد أطلقت هذه المفردة عليه .

جاء في «لسان العرب» أن هذه المادة في الأصل بمعنى اللونين المختلفين الذين يمتزجان مع بعضهما (ثم أطلقت على الأشياء المختلفة التي تختلط مع بعضها) .

خلق الانسان من (نطفة أمشاج) ، يمكن أن تكون إشارة إلى المواد المختلفة التي تشكل النطفة ، أو القابليات المتنوعة التي تجتمع في النطفة عن طريق عامل الوراثة وغيره من العوامل ، أو أنه إشارة إلى كل هذه الامتزاجات .



جمع الآيات وتفسيرها:

آيات الأنفس الأولى:

للقرآن الكريم عبارات متنوعة حول بداية ظهور الانسان ، يقول في اول آية بهذا الخصوص :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ .

ويقول في الآية الرابعة : ﴿وَبَدَأْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾ .

ويقول في الآية الثالثة : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ .

ويقول في الآية ١١ من سورة الصافات : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ .

ويقول في الآية ٢٦ من سورة الحجر : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ

حِمًا مَسْنُونٍ﴾ .

وجاء في الآية ١٤ من سورة الرحمن : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ

كَالْفَخَّارِ» .

﴿الصَّلْصَالُ﴾ في الأصل بمعنى لوي الصوت في الجسم اليابس ، ولهذا سمى الطين اليابس الذي يصدر صوتاً عند إرتطام جسم آخر به بالصلصال ، وحين يفخر على النار يقال له « الفخار » .

﴿الفخار﴾ مأخوذ من مادة « فخر » أي الفخور كثيراً ، ولأن الاشخاص الفخورين أناس كثيرون الضجيج والكلام وفارغون ، فقد أطلق هذا الاسم على الكوز وكل فخار فارغ الجوف ، بل أطلق على كل أنواع الفخار^(١) .

يستفاد من مجموع الآيات أعلاه أن الإنسان كان تراباً في البداية ، وقد إمتزج هذا التراب بالماء وإستحال إلى الطين ، وقد أخذ هذا الطين بعد مضي فترة شكل الوحل ثم استخلصت من عصارته المادة الأصلية لآدم ثم جُفِّفَتْ ، وباجتيازها المراحل المهمة تكوّن آدم .

لكن في آيات أخرى من القرآن كالأية الثانية المعنية ، يعتبر خلقه الانسان من نطفة مختلطة ﴿ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ .

وفي الآية الثالثة يعتبرها أولاً من « عصاره الطين » ، ثم من « نطفة في الرحم » ﴿ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴾ .

واضح أن المراد من هذه الآيات هو خلقه الإنسان في المراحل والأجيال اللاحقة ، وبهذا فإن جدنا الأول مخلوق من التراب ، واولاده وعقبه من نطفة أمشاج . وثمة احتمال في تفسير الآية أعلاه هو : بما أن المواد المكوّنة للنطفة مأخوذة جميعها من التراب (لأن غذائنا إما من المواد الحيوانية أو النباتية ونعلم أن جميع هذه المواد نحصل عليها من التراب) ، لهذا فلم يكن الإنسان الأول من التراب

(١) مفردات الراغب ومجمع البحرين ولسان العرب .

فحسب ، بل إن جميع الناس في المراحل اللاحقة ينشأون من التراب أيضاً. ^(١)

* * *

وعلى كل حال ، فهذه حقاً من العجائب الكبيرة في عالم الوجود وغرائب عالم الخلقة أن يولد من مادة ميتة وبلا روح ولا قيمة لها كالتراب موجود حي وعاقل وقيم كالانسان . فهذه من الآيات البينات لذلك المبدأ الكبير ، و « إن ذلك الخالق لجدير بالشكر والثناء المخرج من الماء والطين مثل هذا الشكل الجذاب » .

وبشكل عام فإن ظهور الحياة من قلب الموت ما يزال من ألغاز عالم العلوم ، فضمن أي شروط وظروف يخرج موجود حي من موجود ميت كالتراب ؟ يعتقد كل العلماء أن الكرة الأرضية حين انفصلت عن الشمس كانت كلها ناراً محرقة ، ولم تكن الحياة عليها مطلقاً ، ثم بردت قليلاً قليلاً وهطلت عليها سيول الأمطار من الغازات المضغوطة حولها ، فتكونت البحار ، بدون أن يكون فيها كائن حي ، ثم ظهرت براعم الحياة سواء النباتية أو الحياتية وأخيراً خلق الإنسان !

إننا سواء إعتقدنا بالخلق المستقل للإنسان (كما هو ظاهر الآيات القرآنية) ، أو إعتبرنا الانسان متكاملاً من أنواع الأحياء الأخرى (كما يقول اتباع داروين ، وفرضية التكامل) . فمهما كان فإن جذور هذا الانسان تعود إلى التراب ، فهو منبثق منه . وإذا كان ظهور كائن حي أحادي الخلية ومجهرى من التراب ، محيراً لأفكار كل العلماء ، فكيف بظهور الانسان من التراب الميت الخالي من الروح ؟

هنا يجب الاعتراف أننا بأزاء آية كبيرة من آيات الحق وعلامة محيرة من عظمة الله ، آية من العالم الصغير هي نموذج متكامل للعالم الكبير .

يقول كاتب « سر خلق الإنسان » « كرسى موريسن » في معرض اشارة إلى بداية

ظهور الحياة على الكرة الأرضية :

(١) ورد في تفسير الميزان ، المجلد ١٦ ، ص ١٧٣ إشارة مقتضبة لهذا المعنى .

« وقعت حادثة عجيبة في بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية كان لها أثر كبير على حياة الموجودات الأرضية ، حيث أصبح لإحدى الخلايا خاصية عجيبة وهي أنها وبواسطة ضوء الشمس بدأت تحلل وتجزئ بعض التراكيب الكيميائية وتوفر بهذا العمل المواد الغذائية لنفسها ولسائر الخلايا المشابهة . وقد تغذت أخلاف إحدى هذه الخلايا البدائية على الأغذية التي وفرتها لهم أمهم وأوجدت جيل الحيوانات ، في حين أن خلية أخرى بقيت على شكلها النباتي وكونت نباتات العالم ، وهي اليوم تغذي كل الأحياء الأرضية .

ثم يضيف : هل يمكن التصديق أنه وحسب الصدفة كانت إحدى الخلايا منشأً لحياة الحيوانات وخلية أخرى كانت أصلاً ومصدراً للنباتات ؟ .
ووفق قول آخرين :

إن العلماء يقسمون موجودات عالم المادة إلى نوعين ، العضوية (وهي الموجودات القابلة للفساد كأنواع النباتات وأجسام الحيوانات) ، والموجودات اللاعضوية (المعدنية) التي لا تقبل الفساد . ولهذا يقسمون الكيمياء إلى قسمين « الكيمياء العضوية » و « اللاعضوية » .

تشكل المواد العضوية جميع أطعمة الإنسان تقريباً ، وهي مأخوذة كلها من التراب ، وحين تدخل جسم الإنسان تكوّن تراكيب كيميائية جديدة تناسب تغذية كل عضو من الأعضاء . وهذه نفس الحقيقة التي يبينها القرآن بعبارة ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أو ﴿ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ .^(١)

صحيح أن للإنسان علاوة على المادة الترابية روحاً إلهية ، ولكن لا شك أن الروح تكون مظهراً للأعمال والأفعال المختلفة بالتنسيق مع الجسم ، عليه فإن هذه المادة الترابية تستطيع بالتنسيق مع الروح أن تقدم أنواع القابليات والأذواق

(١) مقتبس من إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة ، ص ٢٣ و ٢٤ .

والابتكارات والأعمال التي يحار فيها العقل .

مع أنّ الانسان صار موضوعاً لعلوم مختلفة ، وهنالك عالم خاص حول كل جانب من جوانبه يمارس دراساته وأبحاثه ، إلا ان الانسان ما يزال موجوداً مجهولاً ، ويلزم من الوقت سنين طويلة لكي يحل العلماء بجهودهم المتواصلة هذا اللغز الكبير في عالم الوجود وينيروا زواياه ، وربما لم يستطيعوا أبداً أن يقوموا بذلك !
يمكن لكل عضو من أعضاء جسم الانسان أن يكون لوحده موضوعاً لحساب الاحتمالات : العين ، الاذن ، القلب ، العروق ، الجهاز التنفسي الكلي المعدة ، الكبد واخيراً الجهاز العصبي المقعد . وبعملية رياضية بسيطة يتضح ان اي عقل لا يوافق على ظهورها التصادفي .

حقاً انه من أجل التوصل إلى بنية ونوع فعالية وفلسفة كل واحد من الاعضاء قد درس آلاف العلماء والعقول المفكرة وكتبت مئات أو آلاف الكتب حولها .
هل يصدق أحد أنه من أجل معرفة كل واحد من هذه الاعضاء تلزم كل هذه العلوم والعقول والذكاء والدراية ، بينما لا يلزم صنعها علماً وعقلاً على الإطلاق ؟!
كيف يمكن أن يكون فهم اسلوب عمل إحدى المعامل متطلباً لسنين من المطالعة ، بينما تكون صناعة هذا المعمل قد حصلت على يد العوامل غير العاقلة ؟ أي عقل يصدق هذا ؟!

هنا لا يعتبر ظهور الانسان من المادة البسيطة (التراب) ومن سلالة من طين ومن الحمأ المنسون إحدى أعمال الخلق العظيمة والآيات الكبيرة على وجود الله فحسب ، بل إن كل واحدة من خلايا الجسم بإمكانها أن تكون مرآة عاكسة لعظمة الله ووجوده .

* التعقيد والدقة في نظام الخلق :

يقولون : ان لذلك الجهاز نظام معقد ، هذا عندما يكون بناؤه متكوناً من اجزاء وتشكيلات مختلفة ذات إرتباطات متعددة ومتنوعة ، ويقوم باعمال متباينة مهمة . فمثلاً الحاسبة الالكترونية التي تستطيع فضلاً عن أعمال الحساب الأصلية أن تحل انواع المعادلات الجبرية والقضايا الهندسية وتؤدي مختلف الحسابات الرياضية بسرعة أو تحفظها في حافظتها ، تعتبر ذات نظام معقد .

يقول العلماء : ان خلف غشاء شبكية العين يوجد تسعون ألف حزمة عصبية تربط بين خلايا الشبكية وسلسلة الأعصاب (بالطبع لكل عين من عيني الانسان تسعون ألف حزمة) وهذا نظام عجيب ومعقد جداً ، وبأخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار نعود إلى أصل البحث :

ثمة في عالم الخلقة وعلاوة على قضية الظرافة والدقة ، أنظمة معقدة غاية التعقيد ، تبهت الانسان وتحيره ، وحسب تعبير بعض العلماء فإن في مدينة جسم الانسان العظيمة أبنية تكون أكبر ناطحات السحاب في العالم إلى جانبها مثل كوخ طيني .

وكنموذج : نأخذ بناء الخلية من بين نظم العالم المعقدة ، والذي اكتشفت اليوم اسرار عظيمة منه .

نعلم أن الانسان وبشكل معدل متكون من « عشرة ملايين مليار » وحدة حية صغيرة تسمى « الخلية » .

كان اول من إكتشف الخلية ووضع لها تسمية ، عالمٌ باسم « هوك » في القرن السابع عشر الميلادي . وطبعاً فإنه لم يكن يعلم يومذاك ما في بناء هذه الوحدة الصغيرة من تعقيد يبعث على الحيرة . ولكن العلماء الذين جاؤوا بعده واصلوا

مساعيه وتوصلوا إلى أسرار نسرد فيما يلي جانباً من شهاداتهم :

- ١ - يمكن تشبيه خلية مجهرية واحدة بمدينة فيها آلاف التأسيسات مجهزة بمنشآت ومعامل لتبديل المواد الغذائية إلى المواد التي يحتاجها الجسم ، بحيث لا يمكن أن نقيس أعظم وأحدث الظواهر الصناعية للبشر بها .
- ٢ - تتكون هذه المدينة الصغيرة والصاخبة من ثلاثة أقسام :

أ - جدار الخلية وهو بمثابة سور المدينة .

ب - القسم الأوسط للخلية (السايتم بلازم) .

ج - النواة أو مركز القيادة .

إن السور المصنوع حول الخلية من اللطافة والظرافة بحيث لو وضعنا ٥٠٠ ألف من هذه الجدران إلى جانب بعضها فمن الصعب ان تساوي سمك ورقة إعتيادية ! ومع هذا فهو حساس ومحكم قبال هجوم العوامل الخارجية إلى درجة أن سور الصين المعروف ليس شيئاً يذكر بالقياس إليه !

وهذا السد الرقيق مصنوع بدورة من ثلاثة جدران أو من ثلاثة طبقات اصطلاحاً ، يتشكل طرفاه من الأنسجة البروتينية وأسفله مليءٌ بالدهنيات وهذه الدهنيات لاتسمح لشيء أبداً بالدخول داخل المدينة إلا بمفتاح رمزي ، وهذا المفتاح الرمزي هو : أن المواد التي تريد الدخول إلى المدينة يجب أن تتمكن من إذابة دهون الجدار فيها والنفوذ إلى الداخل ، وهذا دليل يثبت أنها صديقة وليست من الاعداء . وبهذا فهذه المدينة محروسة بشدة من كل جانب بدون حاجة إلى حارس .

- ٣ - يوجد في داخل هذه المدينة (الخلية) قنوات كثيرة تمتد من الجدران إلى اطراف « النواة » ، أي حصن قيادة الخلية ، تأخذ المواد الغذائية وتحيلها إلى بروتينات .

اللطيف أن ٢٣ نوعاً خاصاً من الأحماض تدخل هذه الخلية، والبروتين يتكون من تركيب عدة أنواع منها.

٤ - النواة الأصلية بمفردها تشاكل ناطحة سحب مكونة من آلاف الأدوار بحيث تكون ناطحات السحاب المعروفة في نيويورك منزلاً متواضعاً إلى جانبها. للنواة الأصلية في الخلية وهي مقر القيادة تشكيلات معقدة: غشاء النواة، العصارة الداخلية، والحزمات الرفيعة حولها التي تتولى كل منها مهمة خاصة.

٥ - العجيب أن في نواة الخلية وحدات صغيرة جداً وظرفية تسمى «الجينات» يصل عددها طبقاً لدراسات العلماء إلى حدود ٢٥ ألف.

ليست «الجينات» هي الكل في الكل في أعمال الخلايا وحسب، بل إنها تمسك بكل نشاطات الجسم. ومن أهمها توجيه الأمور الوراثية ونقل الصفات والخصائص إلى الخلايا اللاحقة، أي أن انتقال كل الصفات الوراثية عند البشر وسائر الحيوانات يتم عن طريق الجينات.

ولأن العمل الأساسي للجين يقع على عاتق الحامض الخاص في النواة، لذا يمكن تسميته بالعقل الإلكتروني أو كامبيوتر الجين.

والأعجب من هذا، أن نفس هذه الجينات متكونة من أجزاء أخرى تصل طبقاتها من ٣٠ إلى ٥٠ ألف حسب ما يعتقدون.

ومختصر الكلام أن هذه المدينة العظيمة بذلك السور العجيب وآلاف المنافذ والبوابات، وآلاف المعامل والمخازن وشبكة الانابيب ومركز القيادة بتأسيساته الكثيرة وإرتباطاته المتعددة والنشاطات الحياتية المتنوعة في تلك الحدود الصغيرة، من أعقد وأدهش مدن العالم. إذ إننا لو أردنا أن نصنع مؤسسات تقوم بنفس الأعمال (ولا نستطيع ذلك أبداً)، وجب علينا إقتطاع عشرات الآلاف من الهكتارات من الأرض لوضعها تحت اختيار هذه المؤسسات والابنية المختلفة

والأجهزة المعقدة لتكون جاهزة لمثل هذا البرنامج . لكن المدهش أن نظام الخلق قد ضغط كل هذا في مساحة تعادل ١٥ إلى مليون من المليمترًا! ^(١)

أجل ، في خلقه الانسان آلاف آلاف الآيات والعلامات الألهية ﴿الْعَظَمَةُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .

(١) من كتب فسلجة الحيوان ، فسلجة الوراثة ، والسفر إلى أعماق وجود الأنسان .

٢- آياته في نمو الجنين

تمهيد:

ظلت تغييرات الجنين في بطن أمه ولسنين طويلة خافية عن أعين العلماء ، إلى أن رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المزدحم بالأسرار ، وأظهرت أن النطفة عندما تستقر في محلها من الرحم وتبدأ سيرها التكاملي ، ماذا تطوي من المراحل المختلفة والمتنوعة حتى تصبح على هيئة إنسان كامل . والعجيب أن القرآن الكريم أكد عدة مرات على قضية نمو الجنين في آياته المختلفة وفي ذلك العصر والزمان الذي لم يكن له شأن بهذه الاكتشافات ، تارةً لاثبات التوحيد وتارةً لاثبات المعاد . مع إن « علم الأجنة » ما زال يقطع مراحل طفولته ، ومعلوماتنا عن هذا العالم الغامض ما تزال قليلة جداً ، ولكن حتى هذا المقدار الذي كشف العلم البشري النقاب عنه ، قد وضع دنيا من العجائب والغرائب مقابل أعين العلماء .

بهذه الإشارة نستمع خاشعين للآيات أدناه :

١- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ - ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ - ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ^(١)

٢- ﴿ أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى - ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى - فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ ^(٢)

(١) (المؤمنون الآية : ١٢ - ١٤) .

(٢) (القيامة الآية : ٣٧ - ٣٩) .

٣- ﴿أَوَلَمْ يَرِى الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(١).

٤- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾^(٢).

٥- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^{(٣)(٤)}.

* * *

شرح المفردات:

﴿العلاقة﴾ من مادة «عَلَقَ» (على وزن شفق) وهي في الأصل بمعنى العلاقة والارتباط بشيء، ولهذا جاءت كلمة «عَلَقَ» بمعنى «الدم المتخثر» و «الديدان المصاصة للدماء». وقد سميت ﴿العلاقة﴾ لهذا الأسم لأنها إحدى مراحل تكوين الجنين في رحم الأم، فهي تشبه قطعة الدم المتخثرة^(٥).

جاء في «مقاييس اللغة» أن أصل مفهوم هذه المفردة هو إرتباط وتعلق شيء بوجود أعلى منه ثم إتسع مفهومها بعد ذلك.^(٦)

(١) (يس الآية: ٧٧).

(٢) (الكهف الآية: ٣٧).

(٣) (غافر الآية: ٦٧).

(٤) توجد على هذا الصعيد آيات أخرى في القرآن الكريم نكتفي بذكر رقمها وسورتها لتقارب معناها من الآيات المذكورة أعلاه، فاطر الآية: ١١، والحج الآية: ٥.

(٥) مفردات الراغب.

(٦) وفي كتب اللغة الأخرى تعابير تشبه هذا التعبير كما في لسان العرب ومجمع

﴿المضغة﴾ من مادة «مَضَغ» بمعنى مضغ الطعام وبمعنى قطعة اللحم التي يمضغها الانسان لمرة واحدة شرط أن تكون غير مطبوخة ، وإطلاق هذا المصطلح على إحدى مراحل الجنين التي تأتي بعد مرحلة «العلقة» جاء من باب تشابهها مع مثل هذا اللحم . ففي ذلك الحين يصبح الجنين على شكل قطعة حمراء فيها الكثير من العروق ذات اللون الأخضر ، ويقال أحياناً «قلب الانسان مضغة من جسده» ، كل هذه التعابير تعود إلى أصل واحد .^(١)

﴿المني﴾ في الأصل من مادة «مَنَى» (على وزن سَعَى) بمعنى التقدير والقياس ، وبما ان في ماء النطفة مقياس إنسان أو حيوانٍ ما ، فقد اطلقت هذه المفردة عليه . ولهذا أيضاً يسمى الموت بـ «المنية» فهي الأجل المقدر للانسان أو الحيوان .

وإطلاق مفردة «التمني» على الآمال جاء بسبب أن الانسان يُصوّر ويُحدّد آماله في قلبه ، ولأن الكثير من الآمال لا تطابق الواقع تأتي مفردة «الأمنية» أحياناً بمعنى الكذب .^(٢)

* * *

تجميع الآيات والتفسيرها:

عالم الجنين الغامض:

كما اشرنا سابقاً فإن القرآن الكريم أكد مراراً على مسألة المراحل التكاملية للجنين في رحم الأم ، ودعا الناس كافة إلى مطالعتها بدقة ، وإعتبرها إحدى الطرق

→ البحرين .

(١) مقاييس اللغة ، مفردات الراغب ، مجمع البحرين ، لسان العرب وصحاح اللغة .

(٢) مفردات الراغب ، مجمع البحرين ، لسان العرب .

للوصول إلى معرفة الله ، وكذلك إحدى طرق إثبات إمكانية المعاد .

إن الآيات المعنية الأولى وبقرينة العبارة الأخيرة منها : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ تشير إلى قضية التوحيد ، وبالرغم من أن الآيات اللاحقة من نفس سورة « المؤمنون » هذه تدل على أنها ترمي إلى قضية المعاد أيضاً ، وبهذا يكون كل من المبدأ والمعاد معبأين فيها .

تحدث في البداية عن خلق الانسان من ﴿ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ ثم من ﴿ نُطْفَةٍ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ، وبعد ذكر هاتين المرحلتين تنتقل إلى ذكر خمس مراحل أخرى :

١ - مرحلة « العلقه » حيث تتبدل النطفة إلى دم متخثر في داخل الكثير من العروق .

٢ - مرحلة « المضغة » حيث يصبح هذا الدم المتخثر على شكل قطعة من اللحم .

٣ - مرحلة « العظام » حيث تتبدل كل الخلايا اللحمية إلى خلايا عظمية .

٤ - يأتي دور مرحلة تغطية العظام باللحم حيث تغطي العضلات كل العظام ﴿ ثُمَّ كَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾

٥ - هنا تتغير لهجة القرآن وتخبرنا عن تحول وخلق مهم وجديد للجنين ، فيقول بتعبير مرموز ومغلق ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ .

وعندما تنتهي هذه المراحل السبع يصف القرآن هذه الخلقة العجيبة أجمل وصف بعبارة ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ، وهي عبارة لم تأت في أي آية أخرى من القرآن ولم تستخدم في مجال أي موجود آخر .

ذكر المفسرون تفاسير متنوعة في المراد من الجملة الغامضة ﴿ الْخَلْقِ الْآخِرِ ﴾ .

ويبدو أن أنسبها وأقربها إلى القصد هو بلوغ الجنين مرحلة الحياة الانسانية ،

حيث يظهر فيه الحس والحركة ، ويبدأ بالتحرك ويضع قدماً في عالم الحيوانات والبشر. يعبر القرآن عن هذه الطفرة الكبيرة والعجيبة بكلمة « الانشاء » في إشارة إلى الطريق الطويل الذي يقطعه الانسان خلال هذه المدة القصيرة.

نقرأ في حديث عن الامام الباقر (عليه السلام) في تفسير عبارة ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ قوله : هو نفخ الروح فيه .^(١)

صحيح أن الجنين كائن حي مند لحظاته الأولى ، ولكنه وحتى فترة معينة لا يمتلك أي إحساس وحركة في بطن الأم ، ويكون في الحقيقة أشبه بالنبات منه بالحيوان أو الانسان . ولكن بعد مضي عدة أشهر تحيي فيه الروح الانسانية . ومن هنا جاء في الروايات الاسلامية أن الجنين لا يستحق قبل بلوغه هذه المرحلة الدية الكاملة أبداً ، أما إذا بلغ هذه المرحلة كانت ديته نفس الدية الكاملة للانسان .^(٢)

التعبير بـ ﴿ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ بالرغم من انه لا خالق غير الله انما هو لاجل ان مفردة « الخلق » ليست فقط بمعنى اليجاد بعد العدم فحسب ، بل لها معان أخرى كالـ : « التقدير » و « الصناعة » و « إعطاء الأشكال الجديدة للأشياء الموجودة في العالم » . ولا شك أن الانسان يستطيع بما منحه الله من قوى أن يوجد تغييرات كثيرة على مواد هذا العالم المختلفة ، فيصنع من الحديد والفولاذ المصانع والمعامل أو يبني من المواد الانشائية بناءً عظيماً بأحجام مختلفة .

إذن فلخلق مفهوم واسع يشمل كل هذه الأمور .

ولهذا يروي القرآن الكريم عن لسان النبي عيسى (عليه السلام) قوله : ﴿ إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾^(٣) .

(١) تفسير نور الثقلين ، المجلد ٣ ، ص ٥٤١ ، الحديث ٥٦ و ٥٧ .

(٢) تفسير نور الثقلين ، المجلد ٢ ، ص ٥٤١ ، الحديث ٥٦ و ٥٧ .

(٣) (آل عمران الآية : ٤٩) .

وبالطبع فإن الخالق الحقيقي أي ذلك الذي يوجد المادة والصورة وإليه تعود كل قدرات وخواص الأشياء هو الله فقط . ومهمة غيره من الخالقين وهم الخالقون المجازيون ، هي تغيير الاشكال وتصميم المواد .

* * *

تشير الآية الثانية من الآيات المنظورة إلى مرحلة بداية ظهور الانسان أولاً ، أي عندما كان قطرة ماء حقير اسمه المنى ، ثم تذكر مرحلة العلقه فقط من بين مراحل نمو الجنين ولا تذكر المراحل الأخرى إلا تحت عنوان «فَخَلَقَ نَسَوًى» وهو تعبير شامل جداً ، وتشدد خاصة على قضية ولادة الجنس «المذكر» و «المؤنث» وهي من أعقد المظاهر المتعلقة بعلم الأجنة «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى» .

«نَسَوًى» من مادة «تسوية» بمعنى التنظيم والتسوية ، ويعتقد البعض أنها اشارة إلى خلق الروح الذي جاء في الآية السابقة بشكل آخر .

ويرى البعض أن كلمة «الخلق» اشارة إلى خلق الروح ، وكلمة «نَسَوًى» اشارة إلى تنظيم وتعديل أعضاء الجسم الانساني ، وفسرها البعض بالتعديل والتكميل .

لكن الظاهر أن تعبيرات الآية شاملة وواسعة بحيث تستوعب كل ألوان الخلق والتنظيم والتعديل والتكامل التي تطرأ على العلقه حتى ساعة وضع الحمل ^(١) . يقول الراغب في كتاب المفردات : يقال «التسوية» لصيانة الشيء من الإفراط والتفريط من حيث المقدار والنوعية .

* * *

في الآية الثالثة يؤكد على نقطة جديدة أخرى ويقول بعد الاشارة إلى خلق

(١) تفسير القرطبي ، روح المعاني ، في ظلال القرآن ، الميزان والفخر الرازي ، في التعقيب على الآية المعنية .

الانسان من النطفة ﴿ خَصِمٌ مُبِينٌ ﴾ .

وقد وردت تفاسير متعددة لهذا التعبير: فقالوا تارة انها اشارة الى مرحلتي «الضعف» و «القوة» لدى الانسان، حيث كان يوماً ما نطفة حقيرة ويصبح لاحقاً قوياً ومقتدراً إلى درجة قيامه بالخصومة والضجيج ازاء كل شخص حتى ازاء الله ! .

وقالوا تارة انها إشارة إلى ملكة النطق والفهم والشعور لدى الانسان، فهذه النطفة الحقيرة يصل بها الأمر إلى عدم الاقتصار على النطق فقط، بل إلى التمتع بالقدرة على الاستدلال والتمنطق بانواعه والاقتدار العقلي . ونحن نعلم أن ظاهرة النطق والبيان والمنطق والاستدلال من أهم ظواهر الوجود الانساني .

وقيل أحياناً: ان هذا التعبير اشارة إلى النزاع العجيب الذي يحصل بين الخلايا الذكرية (الحيامن) من أجل التسلط والاتحاد بالخلية الانثوية (البيضة) . لأن نطفة الذكر عندما تدخل الرحم تتحرك آلاف الحيامن بسرعة كبيرة لتصل إلى نطفة الأنثى وتتحد معها .

واول حيمن يصل إليها وينفذ الى داخلها يسد الطريق على بقية الحيامن ، لأن غشاءً مقاوماً سيحيط بالبيضة ويمنع من نفوذ بقية الحيامن إليها . وبهذا فإن البقية سيهزمون في هذا الصراع العجيب ويمتصهم الدم . ولهذا يشير القرآن الكريم بعد ذكر مرحلة النطفة إلى قضية ﴿ خَصِمٌ مُبِينٌ ﴾ ^(١) .

* * *

في الآية الرابعة أيضاً يرد ذكر الخلقة من التراب ثم النطفة وبعد ذلك مرحلة التسوية والتنظيم . وفي الآية الخامسة وهي آخر الآيات يضيف القرآن إلى كل هذا مرحلة « الولادة » وخروج الجنين من بطن الأم على شكل طفل وليد ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ .

(١) «إعجاز قرآن از نظر علوم روز» ص ٢٧ .

وكما نعرف فإن أهم عجائب الجنين هي نهاية عمر، بالولادة. أية أسباب تؤدي إلى إصدار الأوامر للجنين بالخروج في لحظة معينة! وتقلبه عن شكله العادي (في الحالة العادية يكون رأس الجنين إلى الأعلى ووجهه إلى ظهر الأم) فترسل رأسه إلى الأسفل لتسهيل عملية ولادته؟!.

في البداية يُخرق كيس الماء الذي كان الجنين يسبح فيه، وتخرج المياه ويستعد الجنين لدخول الدنيا لوحده.

يصيب الأم ألم شديد، تضغط كل عظام بطنها وظهرها وجانبيها على الجنين. وتدفعه إلى الخارج. إن التفاعلات الكيميائية والتغيرات الفيزيائية التي تحصل للجسم أثناء الولادة على درجة من الغرابة والعجب بحيث تحكي جميعها عن علم وقدرة غير متناهيين أوجدا هذه البرامج لمثل هذا الهدف المهم.

وبهذا نستنتج بوضوح من الآيات أعلاه أن النظام المعقد والمذهل لنمو الجنين يُعدُّ من الآيات والعلامات المهمة التي تخبر عن وجود العلم والقدرة اللامتناهية لموجده، ومن جانب آخر على قدرته على قضية المعاد والحياة بعد الموت، ذلك أن الجنين يتخذ كل حين حياةً ومعاداً جديداً. ولذلك كان هذا النمو دليلاً على التوحيد بقدر ما هو دليل على المعاد.

* * *

توضيحات:

١ - صورة في الماء:

هنالك مثل سائر يقال عندما يراد التذكير بعدم ثبات شيء معين فيقولون: «إنه كالصورة في الماء» لأنها تتبعثر بأقل حركة أو نسيم، لكن العجيب أن الله الكبير يجعل كل الصور المختلفة للانسان وللكثير من الاحياء الأخرى صوراً في الماء

ويودع كل هذه الصور في قطرة من ماء النطفة ، من يرسم الصور في الماء سوى الله الكبير ؟ .

٢- في ظلمات ثلاث :

والأغرب من ذلك حسب قول القرآن ، هو أن هذه الخلق التي يوجدها الله واحدة تلو الأخرى في ماء النطفة ليخرجها خلال فترة قصيرة على هيئة إنسان كامل يقوم بها عز وجل جميعاً في محل مظلم لا تصل إليه يد أحد . كما يقول القرآن في الآية ٧ من سورة الزمر : ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ .

إن الظلمات الثلاث كما يرى الكثير من المفسرين وكما أشارت بعض الروايات هي : ظلمة بطن الأم ، ثم ظلمة الرحم ، وبعد ذلك ظلمة « المشيمة » (الكيس الخاص الذي يحتوي الجنين) التي تكون على شكل ثلاث ستائر سميقة حول الجنين ^(١) .

يحتاج الرسامون والنحاتون المهرة أن ينفذوا صورهم أمام النور والضياء الكامل ، لكن ذلك الخالق الكبير يرسم صورة على الماء في ذلك المنزل المظلم بحيث يفتن ويبهر الجميع ويجذبهم للمشاهدة .

٣- مقر الأمن والامان :

يقول القرآن بصراحة (في الآية ١٣ من سورة المؤمنون) : اننا جعلنا نطفة الإنسان في مقر الأمن والامان ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ .

(١) تفسير مجمع البيان - الميزان - الفخر الرازي وتفسير أخرى (روى المرحوم الطبرسي في مجمع البيان نفس هذا المعنى ضمن حديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) .

والحقيقة أن أكثر نقاط الجسم صوتاً هي تلك التي تستقر فيها النطفة والجنين بحيث تكون محمية من كل جانب ، فمن ناحية هنالك العمود الفقري والأضلاع ، ومن ناحية أخرى هنالك العظم القوي المسمى بالحوض ، ومن ناحية ثالثة الأغشية والعضلات المتعددة التي تحتويها البطن ، بالإضافة إلى أن أيدي الأم تتحول بشكل لا شعوري أثناء وقوع بعض الحوادث الخطيرة إلى درع مقابل البطن !.

والأغرب من كل هذا أن الجنين يقع في داخل كيس مملوء بماء لزج بحيث يكون معلقاً في داخل ذلك الكيس وفي حالة تامة من فقدان الوزن ، أي لا يواجه أي ضغط من أي جانب . ذلك أن بنية الجنين وخاصة في بداياته تكون رقيقة جداً بحيث يمكن لأقل ضغط عليه أن يسحقه .

ولهذا الكيس بما يحتويه من ماء خاضية القابلية على مواجهة الضربات ، وهو تماماً كاللواصير المرنة التي توضع لأفضل السيارات ، حيث بإمكانه إمتصاص وإلغاء أية ضربة تواجهه نتيجة الحركات السريعة للأم .

والألفظ انه يحفظ درجة الحرارة بالنسبة للجنين ضمن الحدود المعتدلة . ولا يسمح للحرارة والبرودة المفاجئة التي تهاجم بطن الأم من الخارج أن تترك آثارها بسهولة على الجنين !.

فهل يمكن العثور على مقرأ أكثر أماناً من هذا ؟ وما أجمل تعبير القرآن حين يسمي مقرأ النطفة بـ «القرار المكين» ؟!

٤ - خصيمٌ مبين :

هذه أيضاً إحدى عجائب الجنين ، سواء فسرناها بمعنى قدرة الانسان على الكلام والاستدلال والاحتجاج ، كما قال بعض المفسرين . أو فسرناها كونها المسابقة والنزاع الذي يحصل بين الحيامن اثناء الحركة باتجاه البويضة (نطفة الأنثى) في

رحم الأم، والذي ينتهي بنجاح أحد الحيامن في إتحاده بالبويضة، أما بقية الذين إنهزموا في هذه الخصومة فانهم يفنون ويجذبهم الدم. أو إعتبرناها إشارة إلى كلا التفسيرين.

وعلى كل حال، فهذه من النقاط الظريفة والبديعة للجنين، إذ يظهر من موجود منحط وحقير ظاهرياً إلى ظاهرة سامية وقيمة جداً.

٥ - تغذية الجنين:

تغذية الجنين بدورها إحدى العجائب، لأن النمو والرشد السريع للجنين يستلزم مواداً غذائية كاملة ونظيفة ومصفّاة من ناحية، ومن ناحية أخرى يحتاج إلى الأوكسجين والماء بالمقدار الكافي الذي يجب أن يصل الجنين بشكل مستمر، وقد جعل الله هذه المهمة على عاتق جهاز إسمه «الحبل السري» الذي خلقه منذ اللحظات الأولى إلى جانب الجنين، والذي يرتبط من أحد طرفيه بقلب الأم عن طريق شريانين ووريد واحد، ومن طرفه الآخر بالجنين عن طريق عقدة السرة.

يمتص هذا الجهاز كل المواد الغذائية والماء والاكسجين اللازم بواسطة نظام الدورة الدموية للأم، ثم ينقل هذه المواد بعد تصفيتها ثانية إلى الجنين، ثم يقوم باستقطاب الفضلات والزوائد والكاربونات وما شاكل ويعيدها إلى دم الأم.

إذن فالحبل السري يلعب دور الجذب والدفع بالإضافة إلى كونه مصفى بحيث يستطيع الانسان من خلال مجرد مطالعته للبناء المذهل لهذا الحبل السري أن يصل إلى عظمة الخالق.

اللطيف أنه ورد حديث عن أحد المعصومين (عليه السلام) يقول فيه ما معناه: ان

الجنين يفيد من النسيم الذي تستنشقه الأم!

فكم من السنين مضت على إكتشاف العلماء بأن رئتي الجنين لا تقومان

بنشاطهما التنفسي وأنه يسبح في ماء الرحم وأنه بحاجة إلى الأوكسجين ؟ وكم مضى على معرفتهم أن الاوكسجين الذي تستنشفه الأم يدخل إلى دمها وينتقل إلى الحبل السري فينتفع منه الجنين عن طريق سُرّته ؟ .

على أي حال ، لم يمض زمن طويل على ذلك لكن العين البصيرة للامام (عليه السلام) رأت هذه الحقيقة فقال : ان الجنين يفيد من هذا النسيم . هل هناك تعبير مقابل الهواء الملوّث الذي نتنفسه أفضل من كلمة النسيم الذي إستخدمه الامام للإشارة إلى الأوكسجين ؟^(١)

٦ - مصير الجنين من حيث الجنس :

لم يتمكن أحد من الاجابة على السؤال القائل : كيف وبتأثير أية عوامل يصير الجنين ذكراً أو أنثى ؟ أي ان العلم لم يعثر لحد الآن على جواب له ، فمن الجائز أن تكون بعض المواد الغذائية أو الأدوية مؤثرة في هذا المجال ، لكن المسلم به هو أن تأثيرها ليس مصيرياً وجازماً .

ومع هذا فالعجيب مشاهدة تعادل نسبي دائم بين هذين الجنسين (الرجل والمرأة) في المجتمعات البشرية . وإن كان ثمة إختلاف فانه ليس بالاختلاف الملفت للنظر .

تصوروا يوماً يختلّ فيه هذا التعادل فتكون نسبة الرجال إلى النساء عشرة إلى واحد مثلاً ، أو على العكس يكون عدد النساء عشرة أضعاف الرجال ، أية مفاسد عظيمة سوف تظهر ؟ وكيف سيضطرب نظام المجتمعات البشرية ؟ وهل أن المجتمع الذي يكون فيه مقابل كل رجل عشرة نساء أو مقابل كل امرأة عشر رجال يستطيع أن يوفر لنفسه حياة هادئة ؟

(١) إقتبس من كتاب « أولين دانشگاه » ، المجلد ١ ص ٢٥٣ .

لكن الذي خلق الانسان لحياة سالمة ، أوجد هذا التوازن العجيب والغامض فيها . أجل إن الله تعالى ووفقاً لمشيئته وحكمته يهب لمن يشاء ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾^(١) . لكن هذه المشيئة والارادة محسوبة .

٧ - تغيّرات سريعة ومبهمة :

من العجائب الأخرى في الجنين ، أن النطفة الأصلية للانسان تكون في بدايتها مجرد موجود أحادي الخلية ، ينمو ويكثر بواسطة الانشطار على شكل متوالية هندسية . تحدث هذه الكثرة وهذه التحولات بصورة سريعة جداً وكما قال القرآن : ﴿ خَلَقًا بَعْدَ خَلْقٍ ﴾ ولو إستمر هذا النمو على هذه السرعة بعد الولادة لكانت للانسان خلال مدة قصيرة قامة بطول الجبال ! ولضاق به وجه الأرض ، ولكن نفس الذي منح الجنين السرعة في سيره التكاملي سوف يخفف منها عند وصول الانسان إلى مرحلة معينة ثم يوقفها بالتدرج ! .

٨ - نظرة الرحم المستقبلية !!

ما هي العوامل التي تجعل من الخلايا الناتجة عن خلية واحدة تأخذ أنواعاً متباينة : خلايا غضروفية ، عظمية ، عضلية ، جلدية ، وغيرها ؟ هل هو الرحم الذي قدّر مستقبل هذا الموجود فمنح الخلايا أشكالها كلّ في محلها ؟ إن كان له مثل هذا الذهن والقدرة والابداع فمن وهبه هذا الذهن والقدرة والابداع ؟!

يقول العالم المعروف « الكسيس كارايل » في كتاب « الانسان ذلك المجهول » : « كأن كل جزء من الجسم على معرفة بالاحتياجات الحالية والمستقبلية لكل الجسم ،

(١) (الشورى الآية : ٤٩) .

وهو يغير نفسه وفقاً لهذه الاحتياجات ، للزمان والمكان مفاهيم أخرى عند الأنسجة ، لأنها (الأنسجة) تدرك جيداً البعيد كادراكها للقريب والمستقبل كادراكها للحال ، فمثلاً تصبح الأنسجة اللينة للأعضاء الجنسية للمرأة في نهاية فترة الحمل ألين وأكثر قدرة على الاتساع ، وهذا التغير يُسهّل عبور الجنين في الأيام اللاحقة عند الولادة ، وفي نفس الوقت تزداد خلايا الثدي ويكبر هذا العضو بل إنه يمارس نشاطه وينتج اللبن استعداداً لتغذية الوليد حتى قبل الولادة.. إن وضع وسلوك العضلات على طول فترة نمو الجنين في رحم الام ، يكون وكأنها تعلم المستقبل مسبقاً ، فيُراعى إنسجام الأعضاء في لحظتين زمنيتين متفاوتتين أو في نقطتين مكانيتين مختلفتين^(١) .

مهما سمينا هذا الموضوع فانه لن يتغير، لكنه على أي حال يخبر بوضوح عن وجود مبدأ كبير للعلم والقدرة فيما وراءه .

٩ - كساء للعظام :

قرأنا في تفسير الآية ١٤ من سورة «المؤمنون» أن للقرآن تعبيراً خاصاً عن قضية ظهور العضلات يقول فيه : ﴿ثُمَّ كَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ ، إن إختيار كلمة ﴿كَسَوْنَا﴾ إحدى معجزات القرآن العلمية ، فقد ثبت اليوم أن العظام تظهر قبل الأنسجة اللحمية^(٢) .

١٠ - خروج الجنين :

كما قرأنا في تفسير الآية ٥ من سورة الحج ، فإن الله ينسب إخراج الجنين من

(١) «الانسان ذلك المجهول» ص ١٩٠ .

(٢) «إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة» ص ٢٩ .

الرحم إلى نفسه ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ إن هذا التعبير يكشف عن أهمية عملية الولادة التي توصل إليها العلماء في يومنا الحاضر.

ما هو العامل الذي ينظم زمان الولادة؟ وما هي الظروف اللازمة لاصدار الأوامر للجنين بالخروج؟ وكيف تُعدُّ جميع أعضاء الجسم لهذا التحوّل المهم؟ وضمن أية عوامل ينقلب جسم الجنين تدريجياً ليخرج رأسه إلى الدنيا أولاً؟ هل تراه يعلم أن ولادته ابتداءً برجليه غير ممكنة أو أنها عسيرة جداً؟ من يصدر الأوامر لكل عضلات جسم الأم بتسليط أشد الضغوط على الجنين من أجل الخروج؟ وتظهر أهمية هذا الموضوع عندما يختل هذا النظام نادراً ويضطر الأطباء إلى عملية «فتح البطن»، وربما كان وجود مثل هؤلاء الأشخاص القلة، إنذاراً للجميع لكي يتفكروا بأهمية هذا الموضوع.

بالطبع يمكن في بعض الحالات التنبؤ بزمان الولادة على وجه التقريب، ولكن في بعض الحالات تحصل الولادة قبل الموعد وأحياناً بعده. وهكذا فإن عملية الولادة بكل ما يتعلق بها من أمور محسوبة، إن هي إلا آية أخرى من آياته.

١١ - التغيرات المذهلة في لحظة الولادة:

ذكرنا أن أحداً لا يستطيع تعيين لحظة الولادة بصورة دقيقة، وما يتنبأ به الأطباء عموماً أو خصوصاً لإخبار الناس فإنه ذو طابع تخميني فقط، كما نقرأ في الآية ٨ من سورة الرعد:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(١)

(١) تغيض من مادة (غيض) على وزن فيض بمعنى إمتصاص السائل أو إحتوائه، ثم

ظاهر الآية أن هذا من العلوم الالهية الخاصة ، وهو العلم بخصائص الجنين من كل الجوانب قبل ولادته ، فهو عزوجل لا يعلم بالجنين من حيث جنسه فقط وانما يعلم بكل قابلياته وأذواقه وصفاته الظاهرة والباطنة ، كما أن لحظة ولادته لا يعلمها إلا الله . ومن أجل أن لا نتصور أن هذه الزيادة والنقصان تأتي بدون حساب أو مبرر ، بل إن ساعتها وثانيتها ولحظتها محسوبة جميعاً ، فقد أضاف قائلاً: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ .

المثير هو ظهور تغيرات عجيبة على نظام حياة الوليد في لحظة ولادته وهي تغيرات ضرورية جداً لتكييفه مع المحيط الجديد . وسوف نشير إلى اثنتين منها فقط :

أ : تغير نظام دوران الدم ، فعملية دوران الدم في الجنين دوران بسيط ، لأنه لا يتحرك الدم الملوّث نحو الرئتين من أجل التصفية ، إذ لا تنفس هناك . ولهذا كان إثنان من أجزاء قلبه (البطين الايمن والأيسر) الذي يتحمل أحدهما مسؤولية إيصال الدم إلى الأعضاء والثاني يتحمل مسؤولية إيصال الدم إلى الرئتين للتصفية ، على اتصال مع بعضهما ، ولكن بمجرد أن يولد الجنين تُغلق البوابة بينهما وينقسم الدم إلى قسمين ، قسم يُرسل إلى كل خلايا الجسم لتغذيتها والقسم الآخر إلى الرئتين لتصفيته .

أجل ، ما دام الجنين في بطن الأم فإنه يحصل على ما يحتاج من الأوكسجين من دم الام ، لكن عليه أن يكتفي ذاتياً بعد الولادة ويحصل على الاوكسجين بواسطة

→ جاءت بمعنى 'النقصان وكذلك بمعنى الفساد ، ولهذا فسر البعض كلمة تغيض في الآية اعلاه بمعنى 'نقصان الجنين والبعض بمعنى 'الولادة قبل الموعد وهو المعنى المشهور بين المفسرين ، وهو المروي في حديث عن الامام الباقر أو الامام الصادق (عليه السلام) ، كما إن ذيل الآية يدل على ذلك .

الرئة والتنفس ، الرئة التي كانت قد خُلِقَتْ وأُعِدَّت مسبقاً بشكل تام في رحم الأم ، سوف تمارش عملها فجأة بأمر إلهي واحد ، وهذا من العجائب حقاً .

ب : إنسداد عقدة السُّرَّة وجفافها وسقوطها (عادةً ما يقطعون عقدة السرة التي تعتبر طريق تغذية الجنين بواسطة الحبل السري من دم الأم ، ولكن حتى لو لم يقطعوها فإنها تتيبس وتسقط تدريجياً) .

أي كما ان طريق الحصول على الاوكسجين يتغير عند الولادة ، فإن طريق التغذية يتغير أيضاً وبشكل مفاجيء ، ويبدأ الفم والمعدة والأمعاء التي اكتملت في الفترة الجنينية ولكنها لم تكن تعمل ، فتبدأ بالعمل فجأة . وهذه واحدة أخرى من العجائب المهمة في خلقه الإنسان .

١٢ - بكاء الأطفال :

غالباً ما يكثر الأطفال الرضع من البكاء ، من الممكن أن يكون هذا البكاء دلالة على آلامهم ، فهم لا يمتلكون لساناً غير لسان البكاء للافصاح عن الألم ، أو أنه بسبب الجوع والعطش ، أو بسبب الانزعاج إزاء ظروف الحياة الجديدة سواء كانت حراً أو برداً أو ضوءاً شديداً أو ما شابه ، لكن من الممكن أن يبكي الأطفال بدون هذه الظروف أيضاً ، وهذا البكاء رمز حياتهم وبقائها .

فهم في ذلك الحين بحاجة شديدة إلى الرياضة والحركة والحال أن ليس بإمكانهم الرياضة ، الرياضة الوحيدة القادرة على تحريك كل وجودهم بما فيه الأيدي والأرجل والقفص الصدري والبطن وإدارة الدم بسرعة في كل العروق لتغذية كافة الخلايا بصورة متواصلة ، هي « رياضة البكاء » التي تعتبر بالنسبة للطفل رياضة كاملة ، ومن هنا إذا لم يبكِ الوليد فيُحتمل أن يتعرض لأضرار جمة أو تتعرض حياته كلها إلى الخطر .

وفضلاً عن هذا فإن هنالك رطوبة عالية في مخ الأطفال إذا بقيت هناك يمكن أن تؤدي إلى أمراض وأوجاع شديدة، أو تسبب العمى. والبكاء يعمل على خروج الرطوبة الزائدة من أعينهم على شكل دموع، فيضمن ذلك صحتهم.

يقول الامام الصادق (عليه السلام) في حديثه المعروف بـ «توحيد المفضل» بعد الإشارة إلى هذا الأمر: «أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتاه ويتوخيان في الأمور مرضاته لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عاقبة...»^(١)

وفي نفس الرواية، يشير الإمام (عليه السلام) إلى جريان الماء من أفواه الأطفال الذي يكمل مهمة دموع أعين الأطفال، ويقول: «فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صغرهم لمالهم في ذلك من الصحة في كبرهم»^(٢)

١٣ - اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال:

لو كان للطفل عقل منذ البداية فلا شك أنه كان يتألم بشدة، لأنه سوف يشعر آنذاك بالضعف والمذلة، فهو لا يستطيع المشي ولا الأكل ولا القيام بأبسط الحركات، يجب أن يلفّوه بقماش ويضعوه في المهد ويغطوه بغطاء ويشطّفوه ويحفظوه.

يقول الإمام الصادق (عليه السلام) ضمن الإشارة إلى هذا الموضوع في حديثه المسمى بـ «توحيد المفضل»: «فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين في الاشتغال بالوالد من

(١) بحار الأنوار، ج ٣ ص ٦٥ و ٦٦.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣ ص ٦٥ و ٦٦.

المصلحة...»^(١)

بالإضافة إلى أن الانتقال إلى عالم جديد تمام الجدة ومجهول كان سيسبب له من الوحشة والأضطراب ما قد يضر بفكره وأعصابه، لكن تلك القدرة الأزلية التي خلقت الإنسان للتكامل قدّرت فيه كل هذه الأصول.

كذلك لو كانت حواسه متكاملة، وفتح عينه فجأة وشاهد مشاهد جديدة وإستمعت أذنه إلى الأصوات والأنغام الجديدة، لما كان في وسعه تحملها، وإنما تحصل هذه الأمور بصورة تدريجية وواحدة تلو الأخرى.

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

وفقاً لهذه الآية فإن الإنسان لا يمتلك أي علم في البداية ولا يتمتع حتى بالأذن والعين، ثم وهبه الله القدرة على السماع والنظر والتفكير. ربما كان ذكر السمع قبل ذكر الأبصار إشارة إلى أن النشاط السمعي عند الوليد يبدأ أولاً، وبعد فترة تكتسب العين قدرتها على الإبصار. بل إن البعض يعتقد وكما أسلفنا أن للأذن في عالم الجنين مقداراً من القابلية على السماع، فهي تسمع أنغام قلب الأم وتعتاد عليها.

١٤ - غذاء الطفل مُعدّ قبل ولادته:

لا يستطيع وليد الإنسان والكثير من الحيوانات في بداية ولادته أن يأكل الأطعمة الجافة والثقيلة، ولهذا فقد هيأت يد الخالق المقتدرة غذاءً خاصاً في ثدي الأم إسمه «اللبن». والحقيقة أن نفس دماء جسم الأم التي كان الطفل ينتفع منها في

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٦٤.

(٢) (النحل الآية: ٧٨).

الفترة الجنينية تتحول إلى لبن ضمن عملية تغيّر واسعة وسريعة ، فتغذّيه حتى الفترة اللازمة .

يتغير شكل الثدي الأم بصورة تدريجية خلال فترة الحمل . ويكبر شيئاً فشيئاً نتيجة الإفرازات التي يقذف بها الحبل السري إلى دم الأم ليأمرها بالاستعداد الكامل ، وهكذا يُهيء الثدي نفسه لوظيفته المستقبلية الثقيلة ، إن الأنابيب الموجودة في الثدي والممتدة حتى قمة الثدي (الحلمة) ، تتشعب وتزداد وتفرز إفرازات بسيطة ، وعند ولادة الطفل تعلن عن إستعدادها التام .

العجيب أن ترشح اللبن من خلايا الثدي ليس دائماً وإلاّ لخرج اللبن بصورة متواصلة إلى الخارج . بل إنه بمجرد ملامسة شفتي الوليد لثدي الأم وبدئه بالامتصاص تتجه التنبهات العصبية عن طريق الأعصاب إلى النخاع ومن النخاع إلى الهايبوثالموس فتؤدي إلى نوعين من الإفراز ، يصب أحدهما في الأثداء عن طريق الدم فيضغط على الأنسجة المحيطة بأنابيب اللبن ليندفع اللبن باتجاه الحلمة ، وتتم كل هذه الأعمال خلال ٣٠ ثانية . والأعجب أن اللبن لا يتحرك في ذلك الثدي الذي يرضع منه الطفل فقط ، بل ويحدث هذا في الثدي الآخر أيضاً فيكون مستعداً ، ولذا يؤكد على إرضاع الوليد من كلا الثديين .

اللبن غذاء كامل ، وخاصة لبن الأم الذي يعتبر غذاءً أكمل بالنسبة لوليدها ولا يستطيع شيء في العالم أن يحل محله .

يحتوي الحليب على أنواع الفيتامينات كفيتامين A ، B ، D ، P وفيتامينات أخرى . وقد إكتشف فيه العلماء ٢٢ مادة مختلفة ، علاوة على أنواع الأنزيمات ^(١) .

(١) من أجل مزيد من الأطلاع تراجع دائرة معارف القرن العشرين ، مادة لبن ، والجامعة الأولى (أولين دانسگاه) المجلد ٦ ، وإعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم

والكثير من الأدوية الضرورية تنتقل عن طريق لبن الأم إلى وليدها. ومن هنا فإن الأطفال المحرومين من لبن الأم يصابون بمختلف الاعراض. يبدو أن لبن الأم لا يغذي جسم الطفل فحسب، بل إنه يروي عواطفه وروحه أيضاً، ولهذا قد يصاب المحرومون من لبن الأم بمشاكل ونواقص عاطفية بعض الأحيان.

وعلى هذا الأساس يقول القرآن الكريم: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾^(١).

إن عجائب وغرائب اللبن أكثر من أن يحتويها هذا المختصر، وإذا أردنا أن نترك عنان القلم لمثل هذه الأبحاث نكون قد خرجنا عن بحثنا التفسيري.

→ المعاصرة. وقد وردت إشارات مثيرة حول هذا المعنى في حديث توحيد المفضل

(بهار الأنوار، المجلد ٣، ص ٦٢).

(١) (البقرة الآية: ٢٣٣).

٢- آياته في عالم الحياة

تمهيد :

إن ظاهرة الحياة هي أعقد ظواهر هذا العالم حسب ما نعلم ، ظاهرة بقيت عقول كل العلماء في حيرة منها ، ومضت آلاف السنين والمفكرون يفكرون فيها ، لكن هذا اللغز لم يُحلّ لحد الآن .

ما هو السبب الذي أدّى إلى أن تضع الموجودات الجامدة وبطرفة عجيبة ، أقدامها في مرتبة الحياة والعيش فتكون لها تغذية ونمو وتناسل ؟! من الممكن أن يصنع الإنسان جهازاً بالغ التعقيد (كالعقول الالكترونية المتطورة جداً) بعد قرون من التجارب ، وهذا بدوره شاهد على سعة إطلاع ومعرفة من صنعه ، ولكن هذا الجهاز الدقيق والمعقد للغاية لا ينمو أبداً ، ولا يداوي أو يرمم كسوره وعيوبه . ولا يتناسل بصورة مبدئية مطلقاً .

أما الكائنات الحية ، فإنها فضلاً عن بنائها الدقيق والمعقد والمذهل إلى أقصى الحدود ، فإنها تستطيع القيام بهذه الأعمال وأعمال أخرى كثيرة . والقليل من المطالعة حول وضعها يشكل آية واضحة ودليلاً بيّناً على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها .

يُكثر القرآن من الاستناد على موضوع الحياة والموت في آياته المختلفة ضمن قضية إثبات وجود الله ، ونفي الشرك بأنواعه ، ويؤكد عليه كثيراً ، والحق أنه كذلك .

بعد هذه الإشارة نستمع خاشعين إلى الآيات أدناه :

١- ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ

- مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ .
- ٢ - ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٢﴾ .
- ٣ - ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمَيِّتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٣﴾ .
- ٤ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمَيِّتُ وَلَهُ إِخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤﴾ .
- ٥ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمَيِّتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴿٥﴾ .
- ٦ - ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمَيِّتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٦﴾ .
- ٧ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمَيِّتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمَيِّتُ ﴾ ﴿٧﴾ .
- ٨ - ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمَيِّتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ ﴿٨﴾ .
- ٩ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٩﴾ .

(١) (الانعام الآية : ٩٥)

(٢) (البقرة الآية : ٢٨) .

(٣) (يونس الآية : ٥٦) .

(٤) (المؤمنون الآية : ٨٠) .

(٥) (التوبة الآية : ١١٦) .

(٦) (الدخان الآية : ٨) .

(٧) (البقرة الآية : ٢٥٨) .

(٨) (ق الآية : ٤٣) .

(٩) (الروم الآية : ٤٠) .

١٠- ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَىٰ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(١).

* * *

شرح المفردات:

﴿الحياة﴾ يقول الراغب في المفردات: تستخدم الحياة في معان مختلفة: الحياة النباتية، الحياة الحسية (حياة الحيوانات)، الحياة العقلانية (حياة البشر)، الحياة بمعنى زوال الغم والهم والحزن، الحياة الأخروية الخالدة، والحياة المذكورة كونها إحدى الصفات الإلهية، ويأتي لكل واحدة منها بشاهد من الآيات القرآنية. ولكن في «مقاييس اللغة» يُذكر لهذه المفردة معنيان أساسيان، أحدهما الحياة مقابل الموت، والآخر «الحياء» وهو ما يقابل الوقاحة والصلافة. غير أن البعض يعتقد برجوع المعنيين إلى أصل واحد، لأن الذي يتمتع بالحياة والخجل إنما يصد نفسه عن الضعف والعجز ويتحرك باتجاه الخير والطهارة. وإن كان الثعبان العظيم يسمى بـ «الحية» فذلك لشدة تحركها التي تعتبر من أبرز آثار الحياة والعيش. وتسمى القبيلة بـ «الحي» بلحاظ إمتلاكها حياةً إجتماعيةً وجماعيةً.^(٢)

وبالطبع فإن لهذه المفردة معاني كنائية كثيرة من جملتها «الإيمان» في مقابل الكفر، و «الطراوة» في مقابل الذبول، و «الحركة» في قبال السكون. ويطلق على التحية أسم «التحية» من باب أن فيها طلب للسلامة والحياة.

(١) (النحل الآية: ٦٥).

(٢) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مفردات الراغب، لسان العرب، مجمع البحرين، وكتب اللغة الأخرى.

« الموت » هو بالضبط النقطة المقابلة للحياة ، لهذا كانت له انواع مختلفة يقابل كل منها نوعاً من انواع الحياة ، منها « الموت النباتي » كما في قول القرآن حول المطر ﴿ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ﴾ ^(١) . و « الموت الحيواني » و « الموت العقلاني » أي الجهل ، و « الموت » بمعنى الغم والحزن كما يقول القرآن : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ^(٢) والموت بمعنى النوم ، كما قالوا : « النوم موت خفيف » مثلما أن الموت نوم ثقيل .

واعتبر البعض « الموت » بمعنى الانحلال التدريجي للكائن الحي ، و « الموتة » حالة شبيهة بالجنون ، وكأن العقل والعلم يموتان في تلك الحالة .
كما ان البعض فرّق بين « الميِّت » و « المائت » وقالوا : الميت هو الميت أما « المائت » فهو الموجود في حالة الانحلال والانحدار نحو الموت .
ولهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة منها « الكفر » ، و « النوم » ، و « الخوف » .
وسميت الأرض الموات بالموات لأفتقادها الحياة النباتية ، والقابلية على الغرس والزراعة ، وأما بعد أن تُهيأ للغرس والزرع فيسمونها « مهيات » .
ورد في مقاييس اللغة أن أصل هذه المفردة هو ذهاب القوة ، والذي يعتبر موت الكائنات الحية من مصاديقه البارزة .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

خَلْقُ الْحَيَاةِ آيَةُ الْخَلْقِ :

جرى الاستناد في الآيات العشرة أعلاه وعدد آخر من الآيات القرآنية على

(١) (ق الآية : ١١) .

(٢) (ابراهيم الآية : ١٧) .

قضية الحياة والموت إحدى الآيات الالهية الكبيرة وعلامات الذات المقدسة للخالق، وكان التأكيد في أغلبها على حياة وموت الانسان، وفي بعضها على الحياة والموت بشكل عام أي عند جميع الأحياء، وفي البعض على حياة وموت النباتات. في الآية المنظورة الأولى، ورد كلام عن فلق النواة والحبّة بواسطة القدرة الالهية، وعن إستخراج الكائن الحي من الكائن الميت وبالعكس الكائن الميت من الحي، بحيث تشمل الحياة والموت بالمعنى الواسع للكلمة في النباتات والحيوانات والبشر.

الملفت للنظر أن حبة النباتات موجود محكم، والنواة أكثر إحكاماً منها، إذ ليس فلقها بالأمر الممكن بسهولة. ومع هذا فالبرعم الخارج من داخل الحبة والنواة من الرقة واللطافة بحيث لا يوصف. أما كيف يمكن لذلك البرعم اللطيف أن يفلق تلك القلعة والحصن الحصين فيخرج من خلال جدرانه ويستمر في طريقه؟ فليس ذلك سوى القدرة الالهية الفريدة وكأنّ عبارة ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ إشارة دقيقة إلى هذا المعنى.

وحول كيفية إخراج الله تعالى الميّت من الحيّ والحيّ من الميت، ذكر الكثير من المفسرين الماضين الأمثلة عليها، بخروج الدجاجة من البيضة، والشجر والنبات من الحبة والنواة، والانسان من النطفة. في حين صار من المسلّم به لدى العلماء اليوم أن الكائنات الحية تظهر دائماً من الكائنات الحية. أي أن في داخل حبة ونواة النباتات والأشجار فضلاً عن الكمية المعينة من المواد الغذائية، توجد خلية حية هي في الحقيقة نبات وشجرة مجهرية صغيرة جداً وإذا إستقرت في المحيط المناسب ستفيد من هذه المواد الغذائية فتتمو وتكبر، وكذلك في نطفة الإنسان والحيوان فإن الخلايا الحية كثيرة، وهي المصدر لظهور الإنسان والحيوان.

أجاب بعض المفسرين المعاصرين (كالمراغي ومؤلف المنار) الذين إلتفتوا

إلى هذا الأشكال بأن هذه الخلايا الخاصة مع انها تسمى في عرف علماء العلوم الطبيعية بالكائنات الحية ، ولكنها لا تجدر بهذه التسمية في العرف العام للناس واللغة ، لأن أياً من آثار الحياة والعيش لا تظهر عليها^(١) .

والأفضل أن نقول : ان المراد بخروج الكائن الحي من الميت هو أحد معنيين : الأول ، هو بالرغم من أن الكائنات الحية في الظروف الحالية تخرج دائماً من البذور والحبوب والنطف الحية ، ولكن لا شك أن الأمر لم يكن كذلك في البداية ، لأن الكرة الأرضية عندما انفصلت عن الشمس كانت عبارة عن نار بتمامها ، ولم يكن ثمة كائن حي عليها يقيناً ، ثم ظهرت اول الكائنات الحية من الكائنات غير الحية ضمن ظروف لا علم لنا بها اليوم وبأمر الله بعد سلسلة من القوانين البالغة في التعقيد . والفرضية القائلة : ان من الممكن للحياة أن تكون قد إنتقلت من الكواكب الأخرى الى الكرة الأرضية بواسطة القطع والأجرام السماوية والتي يُصّر البعض عليها ، لا تستطيع أن تحل لنا أية مشكلة ، لأن الاشكال سيوجه إلى تلك الكواكب أيضاً ، فهي ولا شك كانت في البداية حامية ومُحرقة ، ولسنا نعرف كائناً حياً يستطيع أن يتحمل تلك الظروف .

والأمر الآخر هو أن البذور والحبوب والنطف الأولى ليست سوى موجودات صغيرة جداً لكنها تنمو وتكبر عن طريق تغذيتها على هذه المواد الغذائية غير الحية وهي في الحقيقة تجذب إليها الموجودات غير الحية وتجعلها حية ، وعليه فإن آلاف آلاف وملايين ملايين الخلايا الحية قد ظهرت من الموجودات الميتة ، وعن هذا يقال : ان الله يخرج الميت من الحي ويخرج الحي من الميت .

وبالعض قالوا : ان المراد بهذا التعبير ولادة « الكافر » من « المؤمن » و « المؤمن » من « الكافر » ، أو ولادة الجنين السقط من الانسان الحي ، وولادة الطفل

(١) تفسير المراغي المجلد ٧ ص ١٩٧ وتفسير المنار المجلد ٧ ص ٦٣١ .

الحي من الأم التي تموت فجأة ولا يزال الطفل حياً في بطنها .
ولكن مما لا شك فيه أن هذه الأقوال هي مصاديق للمفهوم الكلي للآية ولا
تشمل كل مفهوم الآية . المفهوم الأصلي للآية هو أحد المفهومين المُشار إليهما
أعلاه .

وعلى كل حال فالتعقيد الذي يحيط بقضية الحياة والموت من الدرجة بحيث
أن العلماء لا يزالون عاجزين عن فهم أسرارهِ . إذا كان فهم أسرار إحدى الظواهر
يحتاج إلى كل هذا العقل والذكاء ، أفيمكن إيجاد هذه الظاهرة بدون الحاجة إلى أي
عقل وذكاء ؟!

ولهذا يقول القرآن في نهاية نفس هذه الآية : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ .

* * *

تقول الآية الثانية بلهجة الاستفهام المُؤبَّخ : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا
فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن قضية الموت والحياة كافية
لمعرفة الله .

وبتعبير آخر فإن ظاهرة الحياة والموت في عالم الخلقة أهم وثيقة لأثبات
وجود الله . إن الانسان عندما يفتح عينيه ويعرف ذاته ، فإنه يطالع هذه الوثيقة الكبيرة
قبل كل شيء .

ويدرك الانسان جيداً أن حياته ليست من عنده لأنه كان يوماً في عداد
الموجودات غير الحية ، إذن ، ثمة من وهبه الحياة ، الحياة بكل أسرارها ورموزها ،
بكل دقائقها وتعقيداتها .

إعتبر بعض المفسرين « الكفر » في هذه الآية بمعنى « كفران النعمة » ، أي
كفران نعمة الحياة والموت ، هذا الموت الذي هو مقدمة لحياة أخرى ، ولكن الظاهر
هو أن الكفر هنا بمعنى إنكار وجود الله أو إنكار توحيده من قبل المشركين .

بالإضافة إلى أنه جرى التأكيد في هذه الآية على قضية المعاد، أي أن ظهور الحياة والموت إعتبر دليلاً على التوحيد ودليلاً على إمكان المعاد.

* * *

مع ان الآية الثالثة تُعد ضمن آيات المعاد، ولكن كما قلنا فإن قضية الحياة والموت دليل على إثبات وجود الله وعلى إثبات المعاد. والتعبير بـ ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إشارة إلى أن الحياة والموت بيد الله فقط. ولا يمكن لأحد سوى الله القادر المتعال أن يصنع مثل هذه الظاهرة المهمة والعجيبة إلى أقصى الحدود.

* * *

وردت الآية الرابعة ضمن آيات التوحيد في سورة المؤمنون، وأكدت على قضيتين «قضية الحياة والموت»، و«قضية ذهاب وإياب الليل والنهار» ولهذين شبه كبير فيما بينهما، الموت كالظلمة، والحياة كالنور والضياء. وربما كان تقديم الليل على النهار من هذا الباب أيضاً، ذلك أن الموت كان قبل أن تكون الحياة وكان الانسان سابقاً أجزاءً ميتة ثم اضيف الله على جسمه ثوب الحياة.

سواء كان «إختلاف الليل والنهار» بمعنى ذهاب وإياب الليل والنهار (من مادة خَلَفَ على وزن حَرَفَ بمعنى التناوب في المجيء والحلول محل البعض)، أو من مادة خِلَاف بمعنى التباين والاختلاف التدريجي في فصول السنة المختلفة وأياً كان المعنى فهو يدل على النظام الدقيق الذي يحكمها وما يرافقه من فصول أربعة وبركات ناتجة عنها. كما ان لقضية الموت والحياة والنظام الذي يحكمها في المجتمع الأنساني نتائج وآثار كثيرة لا يمكن بدونها تنظيم حياة الانسان.

فإذا لم يمت أحد، لما كانت الأرض محلاً للحياة، وإن مات الجميع بسرعة خلت الأرض أيضاً، ولكن خالق هذا الجهاز جعل فيه نظاماً دقيقاً بحيث لا تخلو الأرض من أقوام يعيشون عليها ويتمكنون من الانتفاع من مواهب الحياة. وهذه هي

سنة الله فقوم يأتون وقوم يذهبون .

ولهذا يقول في نهاية الآية : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تتفكرون في قدرة الخالق وربوبيته ووحدانيته وان من المستحيل ظهور هذا النظام البديع من غير علم ولا تدبير .

* * *

وفي الآية السادسة جاءت قضية الحياة والموت إلى جانب قضية الربوبية .
فنفس الله تعالى هو مالكم وربكم أنتم وآباؤكم ، الأولين وهو خالق الموت والحياة .
وبشكل أساسي فإن قضية الموت والحياة إحدى فروع الربوبية الالهية ، لأن « الربوبية » بمعنى الإصلاح والتنظيم والتربية ، وهذه لا تحصل إلا عن طريق الحياة والموت ، الحياة تعطي الانسان إمكانية التكامل ، والموت أيضاً مقدمة لتكامل آخر وحياة جديدة في عالم أوسع .

* * *

تعكس الآية السابعة الحوار التاريخي بين النبي ابراهيم (عليه السلام) وجبار زمانه « نمرود » ، ويبدو أن هذا الحوار جاء بعد قصة تحطيم ابراهيم الأصنام وظهوره كبطل من الأبطال وذبيح صيته في كل مكان وأضطرار نمرود إلى إحضاره (١) .
إن أول سؤال سأل هذا الرجل الأناني الذي أجته غرور السلطان من النبي ابراهيم (عليه السلام) هو : « من إلهك ؟ » .
فاعتمد ابراهيم قبل كل شيء على ظاهرة الحياة والموت المهمة وقال : « ربي الذي يحيي ويميت » .

فقال الجبار الطاغي نمرود مع علمه الاكيد بأحقية كلام ابراهيم ومن أجل

(١) ورد هذا المعنى وهو أن الحوار أعلاه حصل بعد تحطيم الأصنام من قبل ابراهيم في عدة تفاسير منها تفسير المراغي (المجلد ٣ ، ص ٢١) والفخر الرازي (المجلد ٧ ص ٢٥) .

إغفال من حوله وتخدير عقولهم : إنني استطيع القيام بهذا أيضاً « أنا أحيي وأميت » .
 لم يذكر القرآن ما صنعه نمرود من أجل إثبات إدعائه هنا . ولكن الكثير من
 المفسرين قالوا : انه أمر فوراً باحضار إثنين من السجناء ، فأطلق سراح أحدهم
 وحكم على الآخر بالموت وقال : رأيت كيف أن الحياة والموت بيدي ؟ !
 والفخر الرازي أستبعد هذا المعنى في تفسيره وهو أن يكون الحضور في
 مجلس نمرود من البله والسذاجة بحيث لا يدركون الفرق بين عمل نمرود وبين
 الحياة والموت التي تحصل عن طريق الله .

ويقول : إن قصد نمرود هو قوله : أترك تزعم أن الله يقوم بذلك من دون أية
 واسطة ؟ هذا غير صحيح . وإن كان ذلك يحصل عن طريق الاستفادة من عالم
 الاسباب . فإن ذلك بإمكاننا أيضاً ^(١) .

ولكن يبدو أن الفخر الرازي نسي هذه النقطة ، وهي : ان الجهلاء في كل عصر
 وزمان ليسوا قليلين ، خاصة المتملقين الذين يجتمعون حول القدرات الجبارة .
 وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في حياة موسى وفرعون حيث حاول فرعون
 إغفال وخدع أهل مصر بكلماته الركيكة المضحكة ودعاهم إلى عبادته .
 إن تفسير الفخر الرازي يلائم جماعة من الفلاسفة يجتمعون مع بعضهم
 ويصطنعون مثل هذه السفسطات ، فلو كان الفاعل فاعلاً بالواسطة لكان كذا ولو كان
 بلا واسطة لكان كذا .

* * *

الآية الثامنة تعتبر ايجاد الحياة والموت أمراً خاصاً بالله ، شأنها شأن الآية
 الثالثة ، وتُعدُّ عودة الجميع إليه .

* * *

في الآية التاسعة يخاطب الله تعالى المشركين بلهجة حازمة ويقول: ﴿الله الذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ هل بإمكانهم إحياء شيء أو إماتته؟ أو رزقه؟ وما دامت كل هذه الأمور خاصة بالله، فما لكم تشركون به ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

* * *

وأخيراً وفي الآية العاشرة والأخيرة يطرح الله قضية حياة النباتات، وهو طرح جميل وملئ بالأسرار من وجوه الحياة. ويعرض على البشر صورة الأراضي الميتة كيف يلبس الله جسد الصحاري اليابسة الفاقدة للحياة لباس الحياة بزخه مطر واحدة أو عدة زخات، فتتصاعد من كل جانب من جوانبها أنغام الحياة وتظهر ساحة البعث والنشور.

ويضيف في آخر الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، يسمعون انغام تحميد وتسبيح النباتات ويصغون بأذان قلوبهم لهمسات التوحيد من كل نبات يخرج من الأرض ويردد ذكر «وحده لا شريك له». ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

* * *

التوضيحات

١ - لغز الحياة الكبير:

كشف تطور العلم والمعرفة البشرية النقاب عن الكثير من الحقائق، وأوضح العديد من قضايا هذا العالم الكبير، ولكن كما أشرنا فما زالت هنالك الكثير من الألغاز في مواجهة الإنسان، وأحد أهم هذه الألغاز هو لغز الحياة، القضية التي لم تكشف عن وجهها لحد الآن رغم جهود ومسااعي آلاف آلاف العلماء والعقول المفكرة على

طول التاريخ البشري ، وما زالت مستترة خلف ستار من الإبهام .

واللطيف أن القرآن الكريم خاطب المشركين قبل أربعة عشر قرناً قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابَ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۖ﴾ .

المثير أن عجز البشر اليوم عن خلق الذبابة بمقدار عجزه قبل أربعة عشر قرناً . وعجزه أزاء هجوم الذباب والجراد وبقية الحشرات يصل إلى درجة عدم جدوى كل ما يُعبَّوهُ من أجهزة التسميم والمكافحة الحديثة .

يمكن القول : ان الإنسان صنع أجهزة قيِّمة أكثر أهمية من خلق الذباب كالسفن الفضائية والعقول الألكترونية المعقدة وامثال ذلك .

ولكن هذا خطأ كبير أن نقيس هذين مع بعضهما ، إذ ليس للسفينة الفضائية أو العقل الإلكتروني أي نمو أو رشد ويستحيل أن ينبج مثيله ، ولا يمكن من داخل نفسه ترميم ما يطرأ عليه من الأضرار ، فهو لا يُصلح قطعاته التالفة أبداً ، ويحتاج إلى الهداية والقيادة من خارجه . والحال أن للذبابة من هذه الجهات أفضلية واضحة على تلك السفينة الفضائية أو جهاز الكمبيوتر . ولكن كثرة الذباب أدت إلى تصوره من قبلنا كموجود حقير الأهمية ، ولو كانت هنالك ذبابة واحدة فقط في العالم لأتضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام .

وفضلاً عن هذا فإننا لا نحتاج أساساً إلى هذه المفاضلة ، فالهدف هو إيضاح أن بناء الكائن الحي حتى لو كان خلية واحدة والتي أشرنا إليها إشارات واضحة في البحوث الماضية ، على قدر من الغموض والتعقيد بحيث يدل على أن صانعه ذو علم وقدرة غير متناهيين وذو إطلاع تام بقوانين الحياة المعقدة ، وبتعبير أصح أنه هو الذي وضع هذه القوانين .

كيف يمكن أن تحتاج معرفة هكذا ظاهرة إلى كل هذا العقل والشعور ولا يحتاج صنعها إلى أي عقل أو شعور؟! وهذا هو الأمر الذي نحن في صدد إثباته في هذه البحوث ، والذي يشكل هدف القرآن من الآيات المذكورة وآيات مشابهة أخرى .

ننهي هذا الحديث بذكر نقطة ، وهي أن الحياة والعيش رغم أنها من أبرز الظواهر ، ولكن حقيقتها غير واضحة لحد الآن لأحد ، ان ما نراه هو آثار الحياة (النمو والرشد والتغذية والتناسل ، والاحساس والحركة والتفكير) . ولكن ما هي تلك الحقيقة التي تكون بمثابة المصدر لهذه الآثار ؟ لا يعلم أحد بذلك لحد الآن ، وما زال عقل المفكرين في حيرة منه .



٢ - هل بإمكان الانسان صناعة كائن حي ؟

لا شك أن الكائنات الحية وجدت في البداية من من الكائنات غير الحية ، سواء حدث هذا الأمر على الكرة الأرضية أو على الكرات السماوية الأخرى ، ولكن تحت أي ظروف ؟ ووفقاً لأي معادلة حدثت هذه الطفرة العظيمة ؟ ليس ذلك معلوماً لأحد حتى الآن .

بالطبع يبدي بعض العلماء أملهم في أننا سنكتشف وبالتدريج هذه المعادلة وهذه الظروف ، وربما استطعنا في النهاية صناعة خلايا حية من تركيب المواد غير الحية .

لا أحد يعلم إلى أي حد جاء هذا الأمل في محله ؟ وهل سيكون مثل هذا الأمر عملياً في نهاية المطاف أم لا ؟ على فرض أن الإنسان سيكتشف ظروف بداية الحياة ومعادلتها وسوف يستطيع صناعة خلايا حية في أجواء المختبر ، ولكن يجب

عدم نسيان أن :

أولاً: إن هذا العمل حين يأتي عن طريق تقليد عالم الخلقة وتركيب المواد المختلفة مع بعضها لن يكون سوى ما يشبه الصناعات التجميعية .

ثانياً: على فرض أن مشكلة صناعة الخلية الحية سوف تُحل . ولكن تبقى هنالك مشكلة الكائنات المعقدة متعددة الخلايا ، كبنية الذبابة أو الجرادة أو الطائر أو الأسماك الكبيرة وأخيراً الإنسان . فمن الذي يستطيع أن يوجد مثل ما ذكرنا عن طريق الصناعة ؟

يقول أحد العلماء وهو (البروفيسور هانز) : سوف يصل الانسان بعد ألف سنة إلى سر الحياة ، ولكن هذا لا يعني أنه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية .

ثالثاً: لنفترض أننا ضمناً مثل هذه الأهداف بمعونة الهبة الألهية المسماة بالعقل ، وتطور العلوم ، وتقليد قوانين الطبيعة . لكن هذا لن يكون له أدنى تأثير على ما نحن بصدد الوصول إليه ، لأنه إن كان إيجاد خلية حية واحدة باستخدام كل هذه النماذج الموجودة والمواد الطبيعية الجاهزة يحتاج إلى كل هذا العلم والمعرفة ، فما مقدار العلم والمعرفة اللازمة لخلق أنواع متعددة من الموجودات الحية بلا نموذج أو مواد سابقة ؟ هل يمكن إعتبار الطبيعة العمياء الصماء الفاقدة للشعور عاملاً في ظهور هذه الموجودات ؟

وَأَلْفَتْ إِنْتِبَاهَكُمْ إِلَى عبارة ظريفة عن « كرسى مورسن » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتاب « سر خلق الانسان » ، يقول :

« قال هيغل : أعطوني الهواء والماء والمواد الكيميائية والزمان وسوف أخلق بها إنساناً . لكن هيغل نسي أنه بحاجة إلى نطفة وجرثومة الحياة من أجل هذا المشروع ايضاً . إنه بعد أن يجمع الذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضها ضمن

نظام وترتيب خاص بخلقة الإنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القلب! وعلى فرض أنه وُفق للقيام بكل هذه الأمور الخارقة للعادة، هنالك احتمال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لظهور حيوان لم تشاهد عين الدهور شيئاً أغرب منه. والأعجب هو أن هيجل لن يقول بعد الموفقية في هذا الأمر أن هذا الموجود العجيب ظهر بحسب التصادف والاتفاق، بل يقول: «إن ذكائي ونبوغي هو الذي خلقه»^(١).

تارة يتصور بعض السذج أن بالامكان تبرير ظهور الحياة عن طريق الحوادث التصادفية الكثيرة، والحال أننا إذا أردنا ووفق حساب الاحتمالات تبرير ظهور ذرة واحدة من البروتينات، -وهي إحدى المواد المكونة للكائنات الحية- عن هذا الطريق، لما كفى عمر الكرة الأرضية لظهورها!

ولـ «جورج والد» أستاذ علم الأحياء في جامعة «هارفارد» كلام عن شروط ظهور الحياة وإستحالة الحياة التصادفية والذاتية، هذه خلاصته، يقول:

«من أجل تشكيل البروتين يجب إلتهام مئات أو آلاف الجزئيات «أحماض أمينية» بنسب مختلفة وبأشكال متنوعة على شكل سلسلة، وإن عدد انواع البروتينات لا محدود حقاً، لأنه لا يمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحد من البروتينات، إذن فجزئيات المواد العضوية تشكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يبعث على الحيرة، ومن أجل صنع موجود حي واحد لا نحتاج إلى مقدار كافٍ ونسب معينة من انواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بل يجب ترتيبها ترتيباً صحيحاً أيضاً، أي ان بناءها له من الأهمية ما لتركيبها الكيميائي من الأهمية».

ثم يضيف: «إن بناء البروتينات معقد حقاً، وإن اعقد الأجهزة التي صنعها الانسان (كالعقل الإلكتروني) هي بحكم الألعبوبة مقابل أبسط الكائنات الحية!

يكفي الانسان أن يفكر في هذه العظمة لتتضح له إستحالة الخلقة الذاتية أو التصادفية»^(١).

نختم هذا الكلام بحديث قيم عن الامام الصادق (عليه السلام)، وحديث رفيع عن امير المؤمنين علي (عليه السلام). للأمام الصادق (عليه السلام) كلام مفصل قاله للمفضل في حديث التوحيد المعروف بـ «المفضل» حول خلقة الانسان وأعضائه المختلفة، يقول المفضل:

سيدي: إن قوماً يقولون أنه من صنع الطبيعة! فيجيب الامام (عليه السلام):

«سألهم عن هذه الطبيعة أهى شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة، فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فإن هذه صنعتها، وإن زعموا انها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمر وكان في افعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، عُلِمَ أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأن الذي سمّوه طبيعة هو سُنّة في خلقه الجارية على ما أجراها عليه»^(٢).

ويقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها وأجناسها ومتبلدة أممها، واكياسها على إحداث بعوضة، ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها ولتحيّرت عقولها في علم ذلك»^(٣).

(١) معرفة الحياة «شناخت حیات» ص ١١.

(٢) بحار الانوار، ج ٣ ص ١٦٧.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٦.

٤- آياته في خلق الروح

تمهيد:

الروح أيضاً من أعجب ظواهر عالم الوجود وأكثرها غموضاً، ومع انها أقرب الأشياء إلينا إلا أننا بعيدون جداً عن معرفتها وتشخيصها.

لم تتوقف جهود ومساعي العلماء والفلاسفة من أجل معرفة الروح في أي زمن من الأزمان، وإستطاعوا بفضل هذه الجهود أن يكشفوا بعض الأسرار، ولكن الوجه الغامض للروح لم يتغير لحد الآن، وما زالت هناك الكثير من الاسئلة حول هذا الموضوع بدون جواب.

ومن هنا كان خلق روح الانسان من الآيات المهمة الدالة على علم وحكمة وتدبير الخالق.

وعلى هذا الصعيد نستمع خاشعين إلى الآيات أدناه:

- ١- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(١).
- ٢- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).
- ٣- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٣).
- ٤- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

(١) (الشمس الآية : ٧ و ٨)

(٢) (الاسراء الآية : ٨٥).

(٣) (الحجر الآية : ٢٨ و ٢٩).

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ
الْخَالِقِينَ ﴿١﴾ .

٥ - ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ
الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢) .

* * *

شرح المفردات :

ان مفردة ﴿الروح﴾ تعني في الأصل التنفس والنفخ ، ويعتقد بعض أرباب
اللغة أن « الروح » اشتقت في الأصل من « الريح » بمعنى الهواء والنسيم والرياح ،
وبما ان روح الانسان أي ذلك الجوهر المستقل المجرد ومصدر الحياة والتفكير هي
جوهر لطيف تشبه من حيث تحركها ومنحها للحياة التنفس والنسيم ، فقد استعملت
هذه المفردة للتعبير عنها ، بالاضافة إلى ان علاقة الروح بالجسم لها إرتباط وثيق
بالتنفس ، لهذا استعملت هذه الكلمة في خصوص روح الانسان .

يعتقد البعض أن المعنى الأصلي لهذه المادة هو « ظهور وحركة شيء لطيف »
سواء كان في عالم الجسم أو في عالم الروح والمعنى ، ومن أجل هذا أطلقت هذه
الكلمة ايضاً على ظهور مقام النبوة وقضية الوحي وتجلي نور الحق .

﴿الرَّوْحُ﴾ (على وزن قوم) التي تعني السرور والفرح والراحة والنجاة من
الغم والحزن ، هي الأخرى مأخوذة من هذا المعنى ، كذلك يطلق على اللطاف
والرحمة الألهية ﴿روح الله﴾ .

(١) (المؤمنون الآية : ١٤) .

(٢) (الزمر الآية : ٤٢) .

مفردة «الريحان» تستخدم في كلام العرب لـ «الورد» من أجل رائحتها الطيبة المنعشة ونسيمها المعطر.

ومفردة «الرواح» بمعنى «طرف الغروب» حيث تعود الحيوانات الى حضائرها لتستريح.

وعلى كل حال، فإن مواضع استعمال هذه المفردة في القرآن الكريم متنوعة جداً. فتأتي حيناً بمعنى ملاك الوحي، وحيناً بمعنى الملاك الكبير من ملائكة الله الخُلص (أو المخلوق الأفضل بين الملائكة)، وتأتي أحياناً لتدل على القوة الالهية المعنوية التي يسند الله المؤمنين بها، وجاءت تارة بمعنى الروح الانسانية، وهذا ما أشرنا إليه في الآيات أعلاه^(١).

«النفس» يقول الراغب في المفردات: النفس بمعنى الروح، وتأتي أحياناً بمعنى ذات الشيء، و «النفس» (على وزن قَنَص) بمعنى الهواء الذي يدخل ويخرج إلى ومن جسم الانسان عن طريق الفم.

وقد أطلقت مفردة «النفس» هذه على الدم أيضاً، لأن الدم إذا خرج من جسم الانسان بمقادير كبيرة فارقت روحه. وربما أطلقت هذه الكلمة على كل وجود الإنسان.

على أي حال، فإن أحد المعاني المعروفة للنفس هو «الروح» التي ذكرت عدة مرات في القرآن الكريم.

١ - «النفس الامارة» التي تأمر الإنسان بالسوء «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ»^(٢).

(١) مفردات الراغب، لسان العرب، مجمع البحرين، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) (سورة يوسف الآية: ٥٣).

٢ - « النفس اللوامة » التي ترتكب الذنوب بعض الأحيان ثم تندم وتلوم نفسها « وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ »^(١).

٣ - « النفس المطمئنة » وهي النفس الواصلة الى مرحلة الأطمئنان والراحة والطاعة التامة لأوامر الله والمشمولة بعناياته : « يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ إِزْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً »^(٢).

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الروح أعجوبة عالم الخلقة:

ورد في الآية الأولى من الآيات المعنية قَسَمٌ يختص بالروح الأدمية وخالقها. ذلك الله الذي خلق الخلق ونظم القوى الروحية للانسان إبتداءً من الحواس الظاهرية وهي مقدمة الادراكات الروحية وإنهاءً بقوة التفكير، الحافظة، التخيل، الادراك، الابتكار، الارادة والتصميم « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ». وعلمة طرق الهداية بعد تنظيم هذه القوى « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ». مع ان القوى الروحية للانسان متنوعة وكثيرة جداً، ولكن القرآن هنا وضع إصبعه من بين كل تلك القوى على مسألة « إلهام الفجور والتقوى » (إدراك الحسن والقبح) ، لأن هذه المسألة لها تأثير كبير جداً في مصير الانسان وسعادته وشقائه. قلنا مراراً: ان القَسَمَ يدل على الأهمية والعظمة ، أهمية المُقَسَمِ به والمُقَسَمُ له ، خاصة القَسَمُ القرآني لحمل الناس على المزيد من التفكر في آيات « العظمة » الالهية.

(١) (سورة القيامة الآية : ٢) .

(٢) (سورة الفجر الآية : ٢٧) .

فضلاً عن أن ﴿النفس﴾ في هذه الآية ذكرت بصيغة النكرة، وهي في مثل هذه الموارد من أجل التأكيد على أهمية الموضوع أو كثرته^(١).

* * *

تشير الآية الثانية الى السؤال الذي طرح من قبل جماعة من المشركين أو أهل الكتاب، حيث وفدوا على الرسول الاكرم (ﷺ) وسألوه عدة أسئلة كان أحدها عن الروح كما قال القرآن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾.

ثم يأمر القرآن الرسول الاكرم (ﷺ): ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. إن في هذا الجواب المغلق إشارة عميقة الى مدى غموض ومجهولية هذه الظاهرة الكبيرة في عالم الوجود، ومن أجل أن لا يقول أحد لماذا لم تظهر واحدة من أسرار الروح؟ يضيف الله في آخر الآية ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾. وليس من العجيب أن لا تطلعوا على اسرار الروح بهذا «العلم القليل» و «المعرفة اليسيرة» (خصوصاً في ذلك الزمان وذلك المحيط).

روي عن ابن عباس في بعض الروايات أن قريش أرسلت بعض رؤوسها إلى علماء اليهود في المدينة وقالت لهم: إسألوهم عن محمد لأنهم من أهل الكتاب ولهم من العلم ما ليس لنا، فجاؤوا المدينة وسألوا علماء اليهود، فقال اليهود في جوابهم: إسألوه عن ثلاثة أمور: قصة أصحاب الكهف، وذو القرنين، وقضية الروح، فإن أجاب عن جميعها أو سكت عن جميعها فليس بنبي، أما إن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي.

(١) تفسير «روح البيان» المجلد ١٠ - ص ٤٤٢، وروح المعاني، المجلد ٣٠ - ص ١٤٢.

وقد احتمل بعض المفسرين أن تكون «النفس» في الآية أعلاه إشارة الى الروح والجسم كليهما، مع ان عبارة ﴿فَالْهَمَّا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ تناسب الروح أكثر، وكذلك الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ...﴾.

فعادت رؤوس قريش الى مكة وعرضت الأسئلة على الرسول (ﷺ)، فقدم لهم الرسول شرحاً وافياً حول ذي القرنين وأصحاب الكهف، ولكنه فيما يخص السؤال عن الروح إكتفى بذلك الجواب المغلق بأمر من الله^(١). ومع ان هناك تفاسير مختلفة لمعنى الروح في الآية أعلاه في روايات المعصومين (عليهم السلام) وكلمات المفسرين، ولكن أغلب هذه التفاسير لا تتنافى مع بعضها ويمكن الجمع بينها، والروح الانسانية من جملة المفاهيم الداخلية في مدلول الآية المعنية^(٢).



في الآية الثالثة كلام عن حوار الله مع الملائكة حول خلق البشر، حيث يقول عزوجل مخاطباً الملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

ثمة نقطتان تثيران الاهتمام في هذه الآية، الأولى إضافة روح الانسان إلى الله إذ يقول: ﴿من روحي﴾، وهذا دليل على منتهى عظمة وأهمية الروح الانسانية، وهذا من قبيل الاضافة التشريفية حسب المصطلح، كـ «بيت الله» و «شهر الله» التي تشير إلى أهمية الكعبة وعظمة شهر رمضان المبارك، وإلا فإن كل مكان هو بيته وكل الأشهر أشهره.

والثانية أمر جميع الملائكة بالسجدة لآدم بعد نفخ الروح فيه، وهذا برهان

(١) روح المعاني، المجلد ١٥ ص ٢٤١ «قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه فنزلت: ﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾».

(٢) وردت في تفسير (الميزان) أقوال متعددة في هذا المجال، منها أن المراد بالروح هي الروح الواردة في الآية الشريفة ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ ومنها أن المراد بها جبرائيل وقال بعض المفسرين: انها تعني القرآن، وآخر التفاسير هو أن المراد بها الروح الانسانية، ثم يضيف: أن المتبادر من إطلاق الروح هو هذا.

آخر على عظمة مقام الانسان، ذلك أن السجدة تفيد منتهى الخضوع، فكيف لو كانت من قبل كل الملائكة؟ وهذه خير علامة على المقام الرفيع لآدم.

* * *

في الآية الرابعة وبعد الإشارة الى خلق النطفة وتطورات الجنين والألبسة المختلفة التي يكسوها الله هذه الذرة الصغيرة في مختلف المراحل، يُغيّر عز وجل لهجة الكلام ويقول: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

إن التعبير بـ «الانشاء» (الايجاد) في هذه المرحلة وخلافاً للمراحل السابقة التي عبّر عنها بالخلقة، إضافة إلى إستخدام «ثم» التي تستعمل عادةً من أجل الفصل يدل جميعه على أن الخلق في هذه المرحلة يختلف تماماً عن المراحل السالفة، وهذا علامة على أن المراد هو خلق الروح التي ترتبط بالجسم بعد تكامله. والمثير أنه يعبر بـ «خلقاً آخر» وهو تعبير غامض ومُغلق، خلافاً للتعبيرات السابقة التي يتحدث فيها عن «النطفة» و «العلقه» و «المضغة» و «العظام» و «اللحم» وهي مفاهيم معروفة جميعاً. وهذا دليل آخر على إختلاف المرحلة الأخيرة عن المراحل الماضية.

ومن العجب أن بعض المفسرين ذكروا تفاسير لـ «الخلق الآخر» لا تنسجم أبداً مع روح الآية، من جملتها: أن المراد بانشاء الخلق الآخر هو ظهور الأسنان والشعر على الجسم^(١)! في حين أن هذا لا يتناسب أبداً مع تعابير الآية ولا شك أن ظهور الأسنان والشعر ليس له من الأهمية ما يوازي سائر تطورات الجنين المختلفة. في نهاية الآية وردت جملة عجيبة أخرى تشكل دلالة أخرى على الأهمية القصوى لخلق الانسان في المرحلة الأخيرة أو في مجموع هذه المراحل، يقول

(١) روي هذا الاحتمال عن بعض المفسرين في تفسير روح المعاني، المجلد ١٨ ص ١٤ وتفسير القرطبي، المجلد ٧، ص ٤٥٠٢.

تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فسبحان العليم الحكيم الذي أودع القابلية والجدارية في مثل هكذا موجود حقير.

﴿تبارك﴾ من مادة «بَرَك» بمعنى صدر الناقة، وبما ان للناقة حين تضع صدرها على الأرض نوع من الثبات، فقد جاءت هذه المفردة بمعنى «الثبات والدوام» ولأن كل نعمة إذا كانت دائمة إزدادت أهميتها، فقد سميت هكذا نعم بالمباركة.

إن استخدام هذه المفردة في خصوص الله إشارة إلى عظمة وقُدسية وخلود ذاته المطهرة.

* * *

في الآية الخامسة والأخيرة من الآيات المعنية يشير عز وجل إلى مسألة بقاء الروح، بتعبيره: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

وبلحاظ أن كلمة «توفى» تعني القبض والاستلام الكامل، و«الأنفس» هي الأرواح، يتضح أن الروح ينفصل كلياً عن الجسم عند الموت وبأمر الله، ولكن عند النوم يحصل هذا الانفصال بشكل ناقص ﴿وَأَلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾.

ثم أشار إلى عدم عودة بعض الأرواح في حالة النوم وعودة البعض الآخر حتى أجل مسمى، وأضاف: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)

يستفاد من هذه الآية وبكل سهولة أن الانسان تركيب من الروح والجسم، وان الروح جوهر غير مادي، وأن النوم درجة ضعيفة من الموت ودليل على ضعف

(١) يقول الفخر الرازي في تفسيره وتعقيباً على هذه الآية: إن الله الحكيم جعل إرتباط الروح الآدمية بالجسم على ثلاثة أقسام: تارة يسطع شعاع الروح على جميع الأجزاء الظاهرية والباطنية للجسم، وهذه حالة اليقظة، وتارة يسحب هذا الشعاع من الأجزاء الظاهرية ويبقى في الباطنية وهذه حالة النوم، وتارة يرتفع شعاعها عن الأجزاء الظاهرية والباطنية وتلك حالة الموت.

الارتباط بين الروح والجسد .

ويستفاد أيضاً أن الموت لا يعني الفناء والهلاك ، بل هو نوع من البقاء واستمرار الحياة .

والنتيجة هي أن الروح الانسانية بكل قواها وقدراتها التي تجعلها من أعقد وأعجب ظواهر عالم الوجود هي إحدى آيات الله الكبرى . كيف يمكن أن يكون خالق كل هذا العلم والقدرة والفكر والذكاء والذوق والابتكار والارادة والتصميم هي الطبيعة العمياء الفاقدة لكل انواع العلم والفكر والذكاء والابتكار؟! .

بل على العكس ، فهذه القطرات والروافد الصغيرة علامة على وجود محيط كبير تنبع جميعها منه ، وهذه الاشعاعات الباهتة قبس من تلك الشمس الكبيرة .



التوضيحات

١ - القوى الظاهرية والباطنية للروح :

عدّ القدماء خمسة قوى ظاهرية وخمسة قوى باطنية للروح الآدمية . أما القوى الظاهرية فهي : حاسة النظر ، السمع ، الشم ، الذوق ، اللمس . وهي نوافذ روح الانسان نحو عالم المحسوسات والروابط بين ذلك الجوهر المجرد وعالم المادة . إن كل واحدة من هذه القوى عالم واسع مليء بالأسرار ، وكل واحدة من أدوات هذه القوى ، أي العين والأذن واللسان والغدد الشَّمِيَّة والأعصاب الموزَّعة في كافة أنحاء الجلد ، آية من آيات الله تتضمن في داخلها عالماً من العلم والحكمة . وقد عد الفلاسفة الأقدمون القوى الباطنية خمسة أيضاً :

١ - الحس المشترك .

٢ - الخيال ، والذي يعتبر ذاكرة الحس المشترك .

٣ - القوة الواهمة التي تدرك مفاهيم من قبيل المحبة والعداء .

٤ - القوة الذاكرة التي تحفظ في داخلها الادراكات الواهمة .

٥ - قوة التخيل التي تُصَرِّف المفاهيم والصور الجزئية الموجودة في خزانة

الخيال والذاكرة فترسم صوراً مختارة لا وجود لها في الخارج .

وكل واحدة من هذه القوى الخمس هي عالم مليء بالأسرار بحد ذاتها .

لكن علماء وفلاسفة اليوم لا يحددون القوى الظاهرية بتلك القوى الخمس

المعروفة ، ولا القوى الباطنية بتلك القوى الخمس المذكورة ، إنهم يضعون للنفس

الانسانية قوى كثيرة ، ويعتبرون الروح الآدمية مخزناً عجبياً فيه انواع القوى ومختلف

الأذواق والقابليات والأدراكات التي يختلف فيها افراد البشر .

لقد وضع علم النفس والتحليل النفسي يده اليوم على مناطق غامضة ومظلمة

من روح الانسان واكتشف فيما اكتشف عالماً جديداً وسرياً باسم «الضمير الخفي»

أو «ضمير اللاشعور» ووضع امام أعين البشر المزيد من العجائب عن هذا الموجود

المجهول .

* * *

٢ - الروح .. الظاهرة الخفية في عالم الوجود :

مع ان القرآن الكريم يشرح الكثير من الجزئيات المتعلقة بالسماء والأرض

والنباتات والحيوانات عند ذكره للآيات الالهية سواء كانت آيات آفاق أو آيات

أنفس ، لكنه حين يصل إلى قضية الروح لا يزيد على قوله : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

أو إنه يقول : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أو يعبر عنها بإنشاء الخلق الآخر : ﴿ ثُمَّ

أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ . أو أنه ينسب الروح إلى نفسه فيقول : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ

رُوحِي ٤.

إنَّ كل هذه التعابير تحكي عن أن خلق الروح يختلف عن خلق بقية الموجودات ، وليس هذا إلا بسبب تعقيد قضية الروح وأسرارها العظيمة .

* * *

٣- نشاطات الروح المختلفة:

إن لنا نشاطات روحية وفكرية عديدة ، سواء في حقل الشعور أو في حقل اللاشعور ، بحيث يمكن لكل واحد منها أن يكون موضوع بحث مستقل لكتب كثيرة (وغالباً ما كان) .

وقسم من هذه النشاطات على النحو التالي :

أ: « التفكير » من أجل الوصول إلى المجهولات ، أو بتعبير الفلاسفة حركة الفكر نحو المباديء ، ثم حركته الأخرى من المباديء نحو المقصود والمراد .

ب: « الابتكار » من أجل حل مشاكل الحياة المفاجئة ، ومواجهة الحوادث المختلفة ، ورفع الاحتياجات المتنوعة والابداعات والاكتشافات والاختراعات .

ج: « الذاكرة » لحفظ انواع المعلومات التي تحصل للانسان عن طريق الحس أو التفكير وتبويبها وتخزينها ثم إستذكارها عند الحاجة .

د: « التجربة وتحليل القضايا » للعثور على علل وجذور الحوادث عن طريق تمييز المفاهيم الذهنية عن بعضها ، ثم تركيبها ، ثم الوصول إلى علل ونتائج الحوادث .

هـ: « التخيل » أي ايجاد صورة ذهنية قد لا تكون في بعض الأحيان موجودة في الخارج كمقدمة لفهم القضايا الجديدة .

و: « الارادة والتصميم » لأجل القيام بالأعمال أو التوقف عنها أو تغييرها .

ز: «الادراكات الفطرية والعقلية» وهي الأساس في الاستدلالات النظرية وغير البديهية.

ح: العشق، الحب، العداوة وعشرات الظواهر الروحية الأخرى ذات التأثيرات الايجابية أو السلبية في أفعال الإنسان.

وبالطبع فهذه المسائل ليست منفصلة عن بعضها، بل هي متمركزة جميعها في داخل روح الانسان، إنها أمواج من هذا المحيط اللامتناهي، وانوار من هذه الشمس المنيرة، وهذا مايدل على ان الروح الآدمية أرفع آيات الله وأهم علاماته. وفي قول القرآن الكريم في الآية ٢١ من سورة الذاريات: ﴿وفي الأرض آيات للمؤمنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة.

وبكلام مختصر فإن نفس هذه الذاكرة الانسانية التي تعتبر أرشيفاً للمعلومات المختلفة على درجة من الغرابة والعجب بحيث لو أننا أردنا توظيف مئات الأشخاص لحفظ معلوماتنا لأستحال عليهم القيام بنشاط الذاكرة بهذه السرعة والدقة.

ولو سلبت منا الذاكرة لساعة واحدة لما أمكنتنا الحياة فلا نضل الطريق إلى منازلنا فحسب، بل سيصيبنا النسيان حتى في أن نضع اللقمة في الفم عند تناول الطعام. سيكون كل شيء بالنسبة لنا مجهولاً ووحشياً وغريباً ومُحيراً.

فقد أحد الشباب جزءاً من ذاكرته نتيجة حادث سير أصابه بضربة دماغية، وعندما حملوه إلى بيته لم يعرفه! وقال: إن هذه هي المرة الأولى التي أضع فيها قدمي هنا! بل حتى أمه كان يتصورها امرأة غريبة، وبدت اللوحة الفنية التي رسمها بيديه مجهولة تماماً في عينيه، وكان يقول: إنها أول مرة أراها.

إننا نحمل في أرشيف ذاكرتنا آلاف الموجودات وآلاف آلاف البشر وآلاف آلاف المواد المختلفة وآلاف آلاف الخواطر واللقطات وآلاف آلاف المعلومات

المختلفة الأخرى ، والعجيب أن إستحضار إحدى الخواطر لا يحتاج أكثر من واحد بالألف من الثانية من أجل أن يستطيع الإنسان الانتباه إلى خاطرة معينة بين معلوماته المبوبة التي مضت عليها لحظة أو سنة أو خمسون سنة .

خاصة وأن العلماء يشيرون إلى إحدى الأعمال المحيرة للذاكرة والتي يسمونها « معجزة الذاكرة » وهي بالترتيب الآتي :

كثيراً ما ينسى الإنسان إسم شخص أو موضوع ثم يجهد ويحاول أن يتذكره ويقلب رفوف أرشيف ذاكرته واحداً بعد الآخر ولكن دون جدوى .

حسناً ، إن كان الإنسان يعلم ذلك الاسم أو الموضوع ، فلماذا يبحث عنه ؟ وإن لم يكن يعلمه فكيف يبحث عن شيء لا يعلمه ؟ أفيمكن أن يبحث الإنسان عن ضالة لا يعرف ما هي أو من هي ؟ !

ومع هذا فيصدق على ذاكرة الإنسان أن تبحث عند النسيان عن ضالة لا تعلم ما هي ؟ وفجأة تصل إلى الرف الذي يحمل ضالتها فتعثر عليها ^(١) .

وهنا توجد نقطة دقيقة يكمن فيها الحل المذهل للقضية ، وهي : في مثل هذه المواضع لا يبحث الإنسان عن ذات ذلك الاسم أو الموضوع الذي لا يعرف ما هو بل من أجل العثور عليه تراه يبحث عن مجموعة الحوادث التي يعلم بشكل إجمالي أنه إختزنها في ذهنه بمعية الاسم المنظور (لأن الحوادث المختلفة تُخْتَزَنُ على شكل مجموعات مجموعات) ، فمثلاً هو يعلم أنه تعرف لأول مرة على الشخص المعني الذي نسي اسمه في اليوم الفلاني والمحل الفلاني ، لذلك يطلب من أرشيف الذاكرة وبشكل فوري إضبارة ذلك اليوم وذلك المحل ويتصفحها بسرعة البرق ليعثر في طياتها على اسم ذلك الشخص .

ونختم هذا الكلام بحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) وَرَدَ فِي تَوْحِيدِ

(١) الاقتباس من كتاب « حافظه » من سلسلة « چه می دانم » .

المفضل ، يقول : « تأمل يا مفضل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الإنسان ، أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك ، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله ؟ وكم من خلل كان يدخل عليه في اموره ومعاشه وتجارته إذا لم يحفظ ماله وما عليه وما أخذه وما أعطى ، وما رأى وما سمع ، وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ممن أساء به ، وما نفعه مما ضره ، ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يُحصى ، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره ، ولا يعتقد ديناً ، ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى ، بل كان حقيقياً أن ينسلخ من الانسانية أصلاً . »

ثم يضيف الإمام : « وأعظم من النعمة على الانسان في الحفظ النعمة في النسيان ، فإنه لولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة ولا انقضت له حسرة ، ولا مات له حقد ، ولا إستمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات .. »^(١)

* * *

٤ - مقارنة عقل الإنسان بالعقول الألكترونية :

في بعض الأحيان يقارن الجهلاء بناء روح وفكر الإنسان وعقله ببناء العقول الألكترونية ، والحال أن الفرق بينهما اكبر من الفرق بين الطائرة اللعبة التي يلعب بها الأطفال وطائرة عملاقة حقيقية ! والسبب هو :

إن نشاط العقول الاللكترونية محدود بحدود حافظتها فقط ، وحافظتها هي تلك التي يغذيها الإنسان بها ، ولذلك ليس لها وراء حدود هذه الحافظة المحدودة أي نشاط على الإطلاق .

وفضلاً عن أن العقول الألكترونية تفتقر لأي نوع من انواع الابتكار والتفكير أزاء

(١) بحار الانوار، المجلد ٣، ص ٨٠ و ٨١ (بشيء من التلخيص).

إحدى الحوادث الجديدة مهما كانت بسيطة ، كردّ الفعل مقابل هبوب الرياح الشديدة ناهيك عن الابتكار والابداع في القضايا المهمة والمعقدة .

ثم حتى لو افترضنا صحة المقارنة بينهما فأى عقل يصدق أن صناعة العقل الالكتروني الذي يُعد هو أعجوبة الصناعات البشرية ، قد تمت على يد إنسان أمي أو أعمى أو أصم أو مجنون ؟

أفيمكن للطبيعة الخالية من الروح والفاقة للعقل والتفكير والابتكار أن توجد الروح والعقل والابتكار ؟ ومن هنا نقول : ان في داخل روح الإنسان الآلاف من آيات الخالق وعلاماته .



هـ - أصالة واستقلال الروح :

مع أنه لا يوجد بالنسبة لنا فرق في البحوث المتعلقة بآيات الله بين أن تكون روح وفكر الانسان جوهرأ مستقلاً ومجردأ عن المادة ، أو مرتبطأ بها ومن آثارها (وهذه هي المعركة المعروفة بين الفلاسفة الألهيين والماديين) . ولكن لا شك أنه متى ما ثبتت أصالة واستقلال الروح أكتسبت هذه الآية الالهية مزيداً من التأثير والجازبية .

يصر الماديون على أن الروح والفكر من الخواص « الفيزيوكيمياوية » للخلايا الدماغية والتي تزول تماماً بفناء الجسم ، والحال أن للروح والفكر الآدمي ظواهر لا يمكن تبريرها أبداً بالتفسير المادية .

فمثلاً يجد كل شخص حقيقة في داخله تسمى « الأنا » ، وهي واحد ليست اكثر منذ بداية العمر حتى نهايته ، « أنا » لم اكن منذ الطفولة وحتى الآن اكثر من شخص واحد ، أنا ذلك الشخص ، وسأبقى ذلك الشخص إلى آخر العمر ، بالطبع

درست وتعلمت القراءة والكتابة ولهذا فقد تكاملت ، لكنني لم أتحول إلى إنسانٍ آخر ، بل ما أزال ذلك الشخص السابق .

في حين إذا أخذنا الأجزاء المادية للجسم نرى أن جميع تلك الذرات في حال تغير وتبدل ، وان جميع خلايا الجسم تتغير كل سبعة أعوام مرة واحدة تقريباً . أي ان الشخص البالغ من العمر سبعين سنة تبدلت اجزاء جسمه المادية عشرة مرات . رغم أن «الأنا» (شخصيته الانسانية) ثابتة عنده . وهذا يدل على أن حقيقة «الأنا» حقيقة ما وراء المادة ولا تتغير بتغيرات المادة .

فضلاً عن أن في أذهاننا حقائق تكون اكبر من أدمغتنا وخلايانا الدماغية آلاف آلاف المرات تصور السماوات والمجرات ، الشمس والقمر وغيرها ، فمن المستحيل أن تكمن هذه الصور الكبيرة في الجزء المادي من وجودنا ، ولا سبيل إلا أن تنعكس في الجزء غير المادي أي الروح ، لأن الجزء المادي أي الدماغ ليس إلا موجود صغير .

وعلاوة على هذا فإن الظواهر المادية تقبل التجزئة والقسمة جميعاً في حين توجد بين مفاهيمنا الذهنية مفاهيم لا تقبل التجزئة إطلاقاً .

إن خصوصية «تصوير الواقع» والاطلاع على العلم الخارجي بالنسبة لنا ، والموجودة في علومنا ومعارفنا ، هي حقيقة لا يمكن تبريرها عن طريق الخواص «الفيزيوكيمياوية» للدماغ .

وهذه البراهين الأربعة وبراهين واضحة أخرى تدل بجلاء على أن الروح جوهر مستقل ومجرد من المادة .^(١)

* * *

(١) من أجل مزيد من الشروح يراجع المجلد ١٢ من «التفسير الأمثل» ص ٢٦١ حتى ٢٦٩ تعقيباً على الآية ٨٥ من سورة الاسراء .

٦ - خصوصيات الروح في القرآن الكريم:

يمكن إستخلاص الخصوصيات والمشخصات التالية للروح الإنسانية من آيات القرآن الكريم:

أ: تتمتع الروح الآدمية بالاستقلال وتبقى بعد انفصالها عن الجسد ، والآية ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ...﴾^(١) تشهد بهذه الحقيقة .

ب: من الممكن أن الروح الآدمية وبعد انفصالها عن الجسم تتنعم في عالم البرزخ بأنواع النعم الالهية أو أنها تتعذب بمختلف صنوف العذاب الشديد . وفي آية ﴿حَيَاةُ الشُّهَدَاءِ﴾^(٢) وآية ﴿عَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ﴾^(٣) دليل على هذا المعنى .

ج: يختلف بناء الروح إختلافاً كبيراً عن بناء الجسم كما قرأنا ذلك في الآيات المعنية حيث أن الله تعالى يعتبر الروح من عالم «الأمر» وخلقها من نوع «انشاء الخلق الآخر» .

(الآية ٨٥ سورة الاسراء و ١٤ من سورة المؤمنون) .

د: إن علم الإنسان عن حقيقة الروح واسرارها قليل جداً ، وآية ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤) شاهد على هذا المدعى .

هـ: في حالة النوم تضعف علاقة «الروح» ، بـ «الجسم» وفي حالة الموت تنقطع نهائياً^(٥) .

و: الروح والظواهر الروحية بصورة عامة من الآيات المهمة على عظمة الله

(١) (الزمر الآية : ٢٤) .

(٢) (آل عمران الآية : ١٦٩) .

(٣) (غافر الآية : ٤٦) .

(٤) (الاسراء الآية : ٨٥) .

(٥) (الزمر الآية : ٤٢) .

ووسيلة مهمة لمعرفة تعالي: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(١).

* * *

٧- آخر كلام حول الروح:

إن مبحث الروح اكبر وأوسع من أن نستطيع تبیان جميع ابعاده في هذا المقال المضغوط، وإذا أردنا أن نترك عنان القلم خرجنا من بحثنا التفسيري. لذلك يمكن الرجوع من أجل مزيد من التوضيحات إلى الكتب الفلسفية والكلامية والروائية، وقد وردت بحوث متعددة في «التفسير الأمثل» على هذا الصعيد، ونلاحظ بحوثاً وشروحاً وافية في تفسير الميزان، المجلد الأول تعقياً على الآية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾^(٢).

أقام العلامة المجلسي ١٧ دليلاً عقلياً ونقلياً لإثبات أن حقيقة الإنسان ليست مجرد هذا الجسم^(٣).

وفي نفس هذا الكتاب يذكر نقلاً عن المحقق الكاشاني ١٤ قولاً حول حقيقة الروح^(٤).

ونختم هذا البحث بحديث لطيف عن أمير المؤمنين (عليه السلام). حيث روي عنه أنه قال: «الروح في الجسد كالمعنى في اللفظ»^(٥). يقول أحد العلماء وأسمه الصفري: «إنني لم أر مثلاً حول الروح أجمل وأفصح من هذا المثال»، نعم الروح كالمعنى والجسم كالتلفظ!

(١) (الزمر الآية: ٤٢).

(٢) (البقرة الآية: ١٥٤).

(٣) «بحار الانوار» المجلد ٥٨ ص ٦ حتى ١٠.

(٤) «بحار الانوار» المجلد ٥٨ ص ٧٥.

(٥) سفينة البحار، المجلد ١ ص ٥٣٧ مادة «الروح».

هـ - آياته في الهداية الفطرية والغريزية
للإنسان والحيوان

تمهيد:

ليس البشر فحسب بل الكثير من الأحياء الأخرى تولد من أمهاتها حاملةً سلسلة من العلوم والمعارف الفطرية والغريزية ، العلوم التي لم يكن ثمة معلم يعلمها وليست وليدة التجربة والاختبار. بل إن المعلم الاول هو الذي اودعها منذ البداية في عمق وجود الإنسان وسائر الحيوانات بطريقة غامضة ومذهلة .

إن مطالعة هذه العلوم والمعارف والهداية الفطرية والغريزية تعد آيات عظيمة على عظمة الله وعلامة بيّنة لعلمه وقدرته .

وبهذه الاشارة القصيرة ، نستمع سوية خاشعين للآيات أدناه :

- ١ - ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ ^(١) ۝
- ٢ - ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝ ^(٢) ۝
- ٣ - ﴿ فَالْتَمِهْمَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ ^(٣) ۝
- ٤ - ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ^(٤) ۝
- ٥ - ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ^(٥) ۝

(١) (طه الآية : ٥٠) .

(٢) (البلد الآية : ٨ حتى ' ١٠) .

(٣) (الشمس الآية : ٨) .

(٤) (الروم الآية : ٣٠) .

(٥) (العلق الآية : ٤ و ٥) .

٦- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١).

٧- ﴿فَدَكَّرْنَا نَمَّا أَنْتَ مُدَكِّرٌ﴾^(٢).

* * *

تفسير الآية الكريمة:

أستاذ الأزل:

الآية الأولى من الآيات المعنية تتناول حوار موسى بن عمران مقابل فرعون، فعندما سأله فرعون وأخاه هارون: من هو ربكم هذا الذي تدعون له؟ اجابه فوراً: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

واضح ان كل موجود خلق من أجل هدف، وكل واحد من النباتات والحيوانات سواء كانت طيوراً أو حشرات أو حيوانات أو صحارى أو بحاراً، كلٌ خُلِقَ لمحيط خاص. ونرى بوضوح أن لها إنسجماً كاملاً مع محيطها وقد زوّدت بما تحتاج إليه، هذا في المرحلة البدائية من خلقها.

أما في مرحلة الهداية التكوينية فنشاهد بجلاء أن ليس هنالك موجود يترك لحاله بعد خلقه، بل إنه يُساق نحو أهدافه بهداية غامضة، وللکثیر منها علوم ومعارف لم تصلهم بلا شك عن طريق التجربة الشخصية ولا عن طريق تعليم المعلم. إن هذه الهداية التكوينية والعلوم والمعارف من آيات الذات المقدسة التي خلقت هذا العالم الكبير وما إنفكت تهديه وتسيره.

وبالطبع فإن هذا الكلام لا يخص الإنسان وحده، بل إن مفاد الآية هو بحث كلي وجامع وعام يشمل فيما يشمل افراد البشر. وهذا أمر وراء هداية الأنبياء

(١) (الرحمن الآية: ١ حتى ٤).

(٢) (الغاشية الآية: ٢١).

والرسل المسماة بالهداية التشريعية والخاصة بالإنسان .
إنّ الطفل الذي يولد من أمه يمسك وبدون أي مقدمة ثدي الأم ويمتص
عصارة روحها ، وتارة يضغط الثدي بيديه الصغيرتين فيحرك منابع اللبن في الثدي ،
من اين تعلم هذا الدرس الذي يضمن له استمرار حياته ؟ .
من اين يعلم أن أفضل سبيل لرفع حاجاته التي لا يستطيع القيام بها هو
« البكاء » ؟ البكاء الذي يهز الأم في نومها ويقظتها ويفرض عليها معونته . وكذلك
العلوم والمعارف الأخرى التي يستفيد منها الإنسان في مراحل أخرى من دون
الحاجة الى معلم .

يوجد في آيات أخرى من القرآن ما يشبه هذا المعنى : نقرأ في الآية ٣ من
سورة الأعلى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدًى ﴾ .



في القسم الثاني من الآيات وعند تذكير الإنسان بنعمه عليه ، يقول بعد
الإشارة الى نعم العين واللسان والشفاه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .
« نجد » في اللغة بمعنى المكان المرتفع والفلاة ، وهي تقابل « التهامه » التي
تطلق على الأراضي المنخفضة والواطئة والمساوية لمستوى سطح الماء وما شاكل .
وانطلاقاً من ان المعرفة بأسس السعادة وطرقها وسلوك هذه الطرق يشبه ما في
سلوك الطرق المرتفعة بما فيها من مشاق ومشاكل كثيرة ، فقد إستعملت مفردة
« نجد » هنا بمعنى طريق الخير ، ثم جاء الإطلاع على طرق الشر الى جانبها بعنوان
« التغليب » . وعليه يكون معنى الآية هو : « إنا هدينا الإنسان الى هذين المكانين
المرتفعين » ، وهذان المكانان هما طرق الخير والشر .

لهذا نقرأ في حديث عن الرسول الاكرم (ﷺ): «يا ايها الناس! هما نجدان: نجد الخير ونجد الشر، فما جُعِلَ نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير»^(١).

يحصّر بعض قصار النظر مفهوم الآية الواسع في داخل موضوع محدود، ويقولون: ان المقصود من هذين المكانين المرتفعين هما ثديا الأم! وقد ورد في الحديث أن الإمام علي (عليه السلام) سُئِلَ بأن جماعة من الناس يقولون إنا هديناه النجدين اشارة الى الثدي، فقال: «لا، هما الخير والشر».

إن الهداية الالهية في هذا المجال تحصل طبعاً عن طرق مختلفة، عن طريق الوجدان الأخلاقي، الفطرة، الدلائل العقلية، وتعاليم الرسل (أي انها تشمل انواع الهداية التكوينية والتشريعية)، لكن سياق الآيات يناسب الهداية التكوينية أكثر.

* * *

وفي الآية الثالثة بعد أن يُقسم بروح الانسان، وخالق الروح، يشير الى مسألة الهام الفجور والتقوى ويقول: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْهَمَ نَفْسَ الْإِنْسَانِ الْفَجْورَ وَالتَّقْوَى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. و «الالهام» مِنْ مادة (لَهَم) على وزن (فَهَم) أي (أبتلاع) أو (شرب) الشيء^(٢).

ثم جاءت بمعنى القاء الأمر في قلب الانسان من قبل الباري تعالى، فكأنما يلتهم القلب ذلك الأمر بتمامه، وللالهام معنى آخر ايضاً وهو «الوحي»، حيث استُخدم ايضاً بهذا المعنى احياناً.

(١) نور الثقلين، المجلد ٥ ص ٥٨١، ومجمع البيان وتفسير القرطبي، وقد روي نفس هذا المعنى عن الامام الصادق تعقيباً على الآيات المنظورة.

(٢) لسان العرب مادة «لَهَم» بناءً على ذلك فحينما تستعمل هذه المادة في باب الافعال تفيد «الابتلاع والشرب» وقال بعض انها تستخدم في امور الخير فقط. وان المراد من الهام الفجور في الآية هو صده عن الخير ايضاً.

وتعني «الفجور» خرقَ حجابِ التقوى، وارتكاب الذنوب، وهي من مادة «فَجَر» التي تعني الانشقاق الواسع، أو انكشاف ظلمة الليل بواسطة بياض الصبح. و «التقوى» من مادة «الوقاية»، وتعني (الصيانة)، والمقصود هنا الاسباب التي تمنع الانسان من التلوث بالذنوب والقبائح.

من هنا يفهم بوضوح من هذه الآية ان الله تبارك وتعالى قد أودَعَ مسألة أدراكِ الحُسْنِ والقُبْحِ العقلي وفَهْمِ الحَسَنِ والرديءِ بشكلٍ فطريٍّ داخل روح الانسان كي يهديه الى الطريق نحو السعادة والتكامل.

وورد في حديثٍ للامام الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية انه قال: «بَيَّنَ لها ما تأتي وما تترك»^(١) فالمقصود هو أنَّ الله بَيَّنَ للانسان ما يجب فِعْلُهُ وما يجب تَرْكُهُ او بتعبير آخر علَّمَهُ (الواجبات، والمحرمات).

وحول السبب في تقدُّم «الفجور» على «التقوى»؟ يقول بعض المفسِّرين: لأنَّ «التَّطَهَّرَ من الذنوب» يُمثِّلُ الارضية لـ «التحلي بالتقوى»، باعتبار ان (التخلية) يكون قبل (التحلية)، و (التطهير) قبل «اعادة البناء»^(٢) دائماً.

على أية حال، فلو لم يكن ادراكُ حُسْنٍ وقُبْحِ الافعالِ فطرياً بالنسبة للانسان، أي لو كانت هناك حاجة للاستدلال من اجل فَهْمِ قُبْحِ الظلم وحُسْنِ العدل والاحسان والاعمال الاخرى فمن المسلَّم به سيختلُّ نظام المجتمع البشري، لأنَّ الكثير من الاختلافات العقائدية تنشأ عن الاستدلالات النظرية، حيث لا يوجد اساس وجداني متين لهذا المعنى، فيمنحُ كُلَّ شخصٍ لنفسه حرية القيام بأيِّ عمل.

أجلَّ انَّ هذه الهداية الالهية في الحياة الاجتماعية للانسان مصيريةٌ الى أبعدِ الحدود، وهذه النعمة وهذه الهداية مهمةٌ الى الحدِّ الذي لا يمكن قياسها بسائر

(١) نور الثقلين الجزء ٥ ص ٥٨٦ ج ٧.

(٢) روح المعاني ج ٣٠ ص ١٤٣.

النعم الاخرى.

* * *

وفي الآية الرابعة طُرحت مسألة فطرية الدين ، وهو (الدين الحنيف) أي الخالي من كل اشكال الهوى والاتجاه نحو الباطل والانحراف ، والطاهر من كافة اشكال الشرك والتلوث : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ .

ويوضح التعبير بـ ﴿ الدِّين ﴾ نظراً لسعة مفهومه ، حيث يشمل جميع اصول الدين ، والحد الأدنى من مجموع فروع الدين ، بانه ليس معرفة الله والتوحيد فقط ، وإنما اصول وفروع الدين كافة اودَعَتْ منذ البداية روح الانسان بنحو اجمالي وبصورة فطرية ، وهذه هي « الهداية التكوينية » التي يُمكنُ أن تُوجدَ اكثر الآثار جاذبية لدى الانسان فيما لو تناغمت مع « الهداية التشريعية » للانبياء (عليه السلام) .

بناءً على ذلك فإنَّ أصلَ كُلِّ دعوةٍ موجودةٍ في الشريعة يغور في اعماق فطرة الانسان ، ولا يعارضُ أيُّ دينٍ الارادات الفطرية للانسان ، بل يرشدُها وَيُكْمِلُها من خلال الطريق المشروع ، ولهذا فإنَّ التَّعَبُّدَ والتَّذَيَّنَ موجودان داخل روح الانسان بصفتي هداية تكوينية ، واذا ما حصل انحراف ما فائهُ طارئٌ ، لهذا فإنَّ دور الانبياء (عليه السلام) هو ازالة هذه الانحرافات الطارئة كي تحصل امكانية تَفْتُحَ الفطرة الحقيقية .

وهنا نكتفي بهذا المقدار حيث سنتكلَّمُ مفصلاً بخصوص هذه الآية في بحث التوحيد الفطري في المجلد الثالث ان شاء الله .

* * *

ويتحدَّثُ في الآية الخامسة عن التعليم الالهي بواسطة القلم ثم يتحدث بشكل عام عن تعليم الانسان للمسائل التي يَجْهَلُها اذ يقول تعالى : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ

بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾ .

قد يكون التعليم الالهي بواسطة القلم اشارة الى القراءة والكتابة التي حدثت لأول مرة على أيدي الانبياء (عليه السلام)، ^(١) أو لأن الله تبارك وتعالى قد أوجَدَ هذا الذوق والقابلية لدى الانسان هداية فطرية حيثُ أبتدِعَ بعد اتضاح القراءة والكتابة، فبدأت مرحلة ما بعد التاريخ مع إيجاد الخط (حيث نعلم ان الفاصل الزمني بين مرحلتي ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ هي مسألة اكتشاف الخط) .

على أية حال، فقد حصل التعليم بالقلم عن طريق الهداية الالهية .
ويمكن ان تكون جملة ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ اشارة الى العلوم الفطرية المختلفة التي أودعها الله تعالى فكر الانسان، المتضمنة لادراك القبح والحسن، والفجور والتقوى وكذلك القضايا البديهية التي تكون اساساً للقضايا النظرية في العلوم الاستدلالية، والاطلاع على قواعد الدين واصول الاحكام الالهية ايضاً .

* * *

وفي الآية السادسة بَعْدَ أَنْ يَنْسِبَ تَعْلِيمَ الْقُرْآنِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُصَدِّرُ جَمِيعِ الرَّحِمَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، يتحدث عن خلق الانسان ويقول: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ .

ولـ ﴿ الْبَيَانَ ﴾ مفهوم عام حيث يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُوضَّحٍ كَانواع الاستدلالات العقلية، والمنطقية التي تُبَيِّنُ المسائل المعقَّدة، أو الخط والكتابة، أو الكلام الذي يعد من ابرز مصاديقه .

وقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير ﴿ البيان ﴾، فقد اعتبرها فريق منهم بمعنى بيان الخير والشر، وفريق آخر بمعنى بيان الحلال والحرام، وثالث

(١) نقل عدة من المفسرين ان آدم (عليه السلام) كان اول من كتب بواسطة القلم (تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٧٢١٠ وتفسير روح البيان ج ١٠ ص ٤٧٣) .

بمعنى اعتبارها الاسم الاعظم ، ورابع بمعنى تعليم اللغة ^(١) .
 لكن من الواضح ان ظاهر (البيان) هو التكلم ، وتبدو بقية الاحتمالات
 ضعيفة ^(٢) .

وهنا كيف علّم الله تعالى الانسان التكلم ؟ قال بعض المفسرين : انّ الله هو
 الذي « وَضَعَ اللّغَاتِ » ثم علّم الانبياء (عليهم السلام) عن طريق الوحي ، لكن يبدو انه ليس
 هناك دليل واضح لهذا الرأي ، انما المقصود هو الالهام الباطني من قبل الله تعالى
 للانسان ، حيث استطاع من خلال ايجاد الصوت عن طريق الحنجرة ، ثم ايجاد
 الحروف عن طريق حركة اللسان والاعتماد على مخارج الحروف ، ثم تركيبها مع
 بعضها وايجاد الكلمات ، ثم تسمية الاشياء والمفاهيم المختلفة ، بحيث يعكس
 مقاصده الباطنية والمفاهيم المادية والمعنوية ، الجزئية والكلية ، المستقلة وغير
 المستقلة كافة عن هذا الطريق السهل الذي هو في متناول أيدي الجميع . والحقيقة
 انه لو لم تكن هذه الهبة الالهية الخلاقة ولم يعرف الانسان التكلم لما وُجِدَتِ
 الحضارة ، ولما ارتقى العلم الى هذا الحد ، ولما تمكّن الانسان من بناء قواعد حياته
 على اساس التعاون الجماعي ، لأنّ التعاون فرع من علاقة التقارب مع الآخرين .
 وورد في تفسير الميزان ان من اقوى الادلة على انّ اهتداء الانسان الى
 « البيان » قد تم بالهام الهبي ، هو اختلاف اللغات باختلاف الامم والطوائف في
 الخصائص الروحية والاخلاقية والنفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي
 فيها ^(٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٦٣٢٢ - روح المعاني ج ٢٧ ص ٨٦ .

(٢) اذا فُسِّرَت (البيان) في بعض الروايات على انها الاسم الاعظم فهو من باب ذكر
 المصداق الواضح .

(٣) تفسير الميزان ج ١٩ ص ١٠٧ .

وقد قدَّر بعض المحققين عدد اللغات الموجودة في العالم بـ «ثلاثة آلاف لغة»، وقال بعضهم ان العدد يفوق ذلك ^(١).

وهذا الاختلاف عجيب حقاً، وهو من براهين قدرة وعظمة الله تبارك وتعالى. فأصل التكلم من آيات الله العظيمة، وهذا التنوع في اللغات آية عظيمة أخرى، وكلاهما يعتبر من خصائص خلقه البشر.

من الممكن ان تنطق بعض الطيور عن طريق التعليم المتكرر عبارات جذابة، ولكن -مما لا شك فيه- انَّ عَمَلَهَا ليس الا تقليد لالفاظ محدودة صادرة عن الانسان من غير ادراك لمفاهيم هذه الالفاظ، فالانسان وحده الذي يستطيع -بنحو غير محدود وبادراك تام- أن يكون جُمَلًا ويصب فيها مفاهيم مختلفة ويعبر عنها.

وفي (توحيد المفضل)، يلفت الامام الصادق (عليه السلام) النظر الى هذه الآية العظيمة، حيث يقول (عليه السلام) للمفضل: «... أَطْلَ الفكر يا مفضل في الصوت والكلام وتهيئة آلاته في الانسان، فالحنجرة كألانبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفطان والاسنان لصياغة الحروف والنغم، الم تر إن من سقطت اسنانه لم يقم السين، ومن سقطت شفته لم يصح الفاء، ومن ثقل لسانه لم يفصح الراء، واشبه شيء بذلك المزمار الأحمر....» ^(٢).

ثم يشرح الامام (عليه السلام) تفاصيل ذلك للمفضل ويدعوه الى التفحص بهذا الأمر.

* * *

وفي الآية السابعة والاخيرة من بحثنا، يخاطب تعالى الرسول (ﷺ) ويأمره: «فَدَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُدَكَّرٌ»، فقد يكون المقصود من «التذكير» اشارة ان

(١) دائرة المعارف (فريد وجدي) ج ٨ ص ٣٦٤.

(٢) بحار الانوار ج ٣ ص ٧١.

حقائق هذه العلوم وعصارتها موجودة في روح الانسان طبقاً للهداية الالهية ، ثمّ تتفتح في ظل تعاليم الانبياء والرسل (عليهم السلام) ، حيث تخرج من مرحلة « الخفاء » الى مرحلة « الظهور » ، ومن « الاجمال » الى « التفصيل » ومن « الباطن » الى « الظاهر » .
وقد وردت هذه الآية اربع مرات في القرآن الكريم في سورة القمر عند بيان وقائع قوم « فرعون » و « عاد » و « ثمود » و « لوط » حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ^(١) .

وهذا الكلام معروف ايضاً عن بعض الفلاسفة اليونانيين ، حيث يقولون : « ليست العلوم والمعارف إلا التذكير ، ولقد أودعت جميع القواعد العلمية روح الانسان دون استثناء ، وقد نسيها الانسان ألا أنها تعود الى الذاكرة بمساعدة المعلمين » .

يقول الفخر الرازي في تفسيره : « لو قال قائل : هذا يقتضي وجود أمر سابق فنسي . ونقول : ما في الفطرة من الانقياد للحق هو كالمنسي فهل من مدكر يرجع الى ما فطر عليه » ^(٢) .

على أية حال ، فان جميع هذه الآيات دليل حي على الهداية الالهية الفطرية للانسان .

* * *

توضيحات :

الهداية (الفطرية) و (الغريزية) في العلم المعاصر :

مع تطور علم النفس ، وعلم التحليل النفسي ، وبحوث العلماء فيما يتعلق

(١) سورة القمر الآيات ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٢٩ ص ٤٢ .

بالحواس العجيبة للحيوانات ، أُكْتُشِفَت الكثير من اسرار الهداية الفطرية والغريزية المدهشة في عالم الاحياء ، ونواجه ظواهر تعجز العلوم عن تفسيرها ، ولا يمكن ابدًا الوقوف على مصدر هذه الهدايات ، إلا أن نُسَلِّمَ بأنَّ مبدئ عالم الوجود الذي تَكْفُلُ بهداية جميع الكائنات هو الذي وَهَبَ هذه العلوم عن طريق الالهام الباطني الخفي للانسان أو الحيوانات .

ولدينا في هذا المجال قدر وافر من الشواهد بحيث لو جُمِعت لشكَّلت كتاباً كبيراً ، منها الحالات الدقيقة الآتية :

١ - فالانسان حين ولادته يعرف جيداً ومن دون الحاجة الى معلّم كيفية الامساك بالثدي والرضاعة ، واستخدام اليد والاصابع لهذا العمل ، وعكس وايصال حاجاته الى الأم عن طريق البكاء .

ويصطحبُ معه الى الدنيا من أمه وضع اللغات ، وابداع الكلمات ، والتكلّم ، والمسائل المماثلة الاخرى على شكل استعداد خفي ، وكذلك ادراك الحُسن والقُبْح ، وجزء كبير من « الواجبات » و « الممنوعات » ، كما ويمتلك في نفسه معرفة بالله تعالى .

يقول أحد العلماء : حينما تحتضنُ الامهاتُ اطفالهنَّ لتهدئتهم فهنَّ يضعنهم على الجانب الايسر من الصدر بلا علمٍ منهنَّ بهذا الفعل ، حيثُ يضعنَ اطفالهن بجوار قلوبهن ، فيهدأ الطفل بمجرد سماعه ضربات قلب الأم لأنَّ هذا الصوت معروفٌ لديه لاعتياده عليه منذ المراحل الجنينية ، وقلما توجد ام ملتفتة الى هذه المسألة ، ولذا فانها تؤدي عملها هذا في هذا المجال بالهام فطريٍّ محض .

٢ - انَّ مسألة الهداية الفطرية والغريزية في عالم الحيوان أوسع بكثير عما هي عليه في الانسان ، حيث يعرض علماء العصر نماذج مدهشة منها ، فقد جاء في كتاب (البحر دار العجائب) تأليف (فرد ديناندلين) ما يأتي :

« ان تصرفات بعض الاسماك تُعدّ من اسرار الطبيعة حيث يعجز كل انسان عن بيان سببها ، فاسماك ال (قزل آلا) تترك مياه البحر لتعود الى مياه الانهار العذبة التي بدأت حياتها فيها ، وتسبح بجدي في الاتجاه المعاكس لتيار الماء ، وتقفز من فوق الصخور ، بل وتحلق فوق الشلالات ايضاً ، وقد تملأ النهر لكثرتها احياناً ، وعندما تصل هذه الاسماك الى المكان الذي تبحث عنه تضع بيوضها ثم تموت !

فكيف تعثر هذه الاسماك على الانهار المناسبة ياترى ؟ انها اكثر اثاره للعجب من اختراع المذياع والتلفاز ، لانها لا تمتلك خارطة ، كما ان رؤيتها تحت الماء ضعيفة ، وليس هناك من يُدّلّها على الطريق ايضاً ^(١) .

٣ - وجاء في نفس ذلك الكتاب : « إنَّ تصرف (الجري) اكثر عَجَباً من هذا ، فحينما يبلغ سمك الجريّ « الانجليزي » ثماني سنوات يهجر الحوض أو النهر الذي يعيش فيه ويزحف ليلاً كالافعى على الاعشاب الرطبة حتى يصل الى شاطئ البحر ، ثم يطوي المحيط الاطلسي سباحةً ويتجه نحو المياه القريبة من (مثلث برمودا) حيث تضع الاناث بيوضها تحت الماء هناك وتموت ... والمدهش ان صغار سمك الجريّ تعوم الى سطح الماء ثم تبدأ سَفَرًا طويلاً نحو الوطن الأم ، حيث تستغرق هذه الرحلة سنتين او ثلاث سنوات !

فكيف يعرف الجريّ هدفه هذا مع انه لم يسلك هذا الطريق ابداً ؟!

ان الجواب عن هذا السؤال يستوي فيه جميع الناس حتى أعلم العلماء وهو (لا أعلم) ^(٢) .

٤ - يقول (فيتوس درفيشر) مؤلف كتاب (الحواس الخفية للحيوانات) : « لقد اكتشف العلماء اسراراً مذهلة عن الخفاش ، منها وجود اربعة انواع من الخفافيش

(١) البحر دار العجائب ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق .

التي تصطاد الاسماك ، فهي تحلق ليلاً فوق الماء وتمد أرجلها فيه فجأةً لتصطاد سمكةً وتأكلها ، إنه سرٌّ مدهشٌ فمن اين لها العلمُ بأنَّ في تلك النقطة سمكةٌ تسبح تحت الماء ؟ لم يفلحُ الانسانُ بالقيام بهذا العمل حتى الآن بالرغم من وسائله واختراعاته العلمية ، فلا تستطيع أي طائرةٍ قاذفةٍ أن تحدّد مكاناً معيناً لغواصةٍ تحت الماء ، وان استطاعت فعلها ان تطلق موجات خاصة على الماء كي تحدد مكان الغواصة من خلال الذبذبات التي تنبعث من الغواصة الى الطائرة بواسطة الامواج اللاسلكية .

أجل ، فالطائرة على عكس الخفافيش لم تستطع الاطلاع مباشرةً على مكان وجود الهدف الذي تحت الماء ،.. يقول البروفسور (غيري فون) « ليس هناك توضيحٌ يمكنُ قبوله لهذا الموضوع ابداً » .

ثم يضيف قائلاً : (ولم يكتشف الانسان شيئاً حتى الآن الا ويجد الطبيعة قد سبقته اليه) .

ومن الطبيعي ان يبعث هذا الاكتشاف عند الانسان الغرور ، لكنه لا يلبث ان يجد نفسه متأخراً عن الطبيعة في هذا المضمار .

لهذا فقد استحدث العلماء الاميركيون علماً جديداً باسم « البولوجيا » - علم البيئة - ، وهدفه تعلم الفنون والاساليب الجديدة من الدروس التي تمنحها لنا الطبيعة من خلال الوصول الى اسرارها .

ثم يضيف قائلاً : « لو وضعنا أحد هذه اللبائن (الخفافيش) في صندوقٍ مُقفَلٍ مُظلمٍ وابتعدنا به ثلاثمائة كيلو متر عن عُشِّه ثم اطلقناه ، نجده يعود مباشرةً وباقصرٍ وقتٍ اليه بالرغم من كونه شبه اعمى ، وكون ذلك المكان مجهولاً بالنسبة اليه » ^(١) .

٥ - ويوضح الكاتب المعروف (كرسى موريسن) في كتابه (سرُّ خلق الانسان) وفي احد فصوله تحت عنوان (الشعور الحيواني) ، صوراً لنماذج من هذا القبيل منها :

ان الطيور تبني وتوجد اعشاشها بشكلٍ غريزي (على الرغم من انها لم ترَ نموذجاً من قبل) ، فطيّر السنونو الذي يبني عُشَّهُ في رواق البيوت يهاجر في فصل الشتاء الى المناطق الدافئة ، واما اذا لاحت طلائع الربيع فهو يعود الى وكره . والكثير من الطيور تهاجر نحو الجنوب والمناطق الحارة ، واغلبها يقطع مئات الفراسخ براً وبحراً إلا انها لا تَضِلُّ الطريق الى اوكارها ابداً .

والاسماك الحرّة تعيش سنواتٍ عديدةٍ في البحر ، ثم تعود الى النهر الذي جاءت منه ، والاكثر عجباً انها تقفزُ من شاطئ النهر المرتفع وتذهب الى النهر الذي وُلدت فيه ... فالاسماك الحرّة تتبّع شعورها الباطني ، وتذهب الى الساحل الذي كان محلاً لنشوتها ونموها ، فاي شعورٍ يؤدي الى ان يعود هذا الحيوان الى وطنه بهذا النحو الدقيق ؟ « لا عِلْمَ لأحد » .

فلو أخرجنا فرخ طيرٍ من عُشِّه وقمنا بتربيته في بيئةٍ اخرى ، فهو يبدأ ببناء عُشٍّ له عند بلوغه مرحلة الرشد والتكامل وبالاسلوب الذي يتبعه أبواه ، فهل انّ الاعمال المحددة والمختلفة التي تصدر عن جميع مخلوقات الارض تحدث صدفةً ، أم أنّ العقل وَ الشعور العام يؤدي الى صدورهما ؟ ^(١) .

٦ - ويقول أحد العلماء الفرنسيين ويدعى « فارد » بصدد طائرٍ يسمى (اكسيكلوب) ما يأتي :

« لقد تفحصتُ صفات هذا الطائر ، فوجدت من خصائصه أنه يموت عند ما

(١) سرُّ خلق الانسان ، الفصل ٨ ، الشعور الحيواني .

يُكْمَلُ وَضَعُ بِيوضِهِ ، أَيُّ أَنَّهُ لَا يَرَى فَرَاخَهُ أَبَدًا ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْفَرَاخَ سَوْفَ لَنْ تَرَى وَجَهَ الْأُمِّ الْمَلِيءَ بِالْحَنَانِ إِلَى الْأَبَدِ ، وَعِنْدَمَا تَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضَةِ تَكُونُ عَدِيمَةً الرِّيشِ وَالْأَجْنَحَةِ وَلَا قُدْرَةَ لَهَا لِلدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا تَجَاهَ مَا يَهْدِدُ حَيَاتَهَا ، لِذَلِكَ فَعَلِيهَا الْبَقَاءُ لِمُدَّةِ سَنَةٍ كَامِلَةٍ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَفِي مَكَانٍ آمِنٍ ، وَأَنْ يَكُونَ غِذَاؤُهَا إِلَى جَانِبِهَا ، لِهَذَا فَحِينَمَا تَشْعُرُ الْأُمُّ بِحُلُولِ مَوْسَمِ وَضْعِ الْبِيوضِ تَبْحَثُ عَنْ مَقْطَعٍ خَشْبِيٍّ وَتَقُومُ بِثَقْبِهِ ، ثُمَّ تَشْتَغِلُ بِجَمْعِ الْأَطْعِمَةِ ، فَتَجْمَعُ الْأَوْرَاقَ وَالْأَغْصَانِ الَّتِي يُمْكِنُ اسْتِخْدَامُهَا لِتَغْذِيَةِ فَرَاخِهَا لِمُدَّةِ سَنَةٍ كَامِلَةٍ وَتُعِدُّهُ لَوَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفَرَاخِ ، ثُمَّ تَضَعُهُ فِي نَهَايَةِ الثَّقْبِ وَتَضَعُ عَلَيْهِ بَيْضَةً وَاحِدَةً وَتَبْنِي فَوْقَهُ سَقْفًا قَوِيًّا نَسْبِيًّا مِنْ عَجِينَةِ الْخَشَبِ ، وَتَبْقَى تَشْتَغِلُ بِجَمْعِ الْأَطْعِمَةِ ، وَبَعْدَ تَأْمِينِ حَاجَاتِ سَنَةٍ كَامِلَةٍ لِفَرَخٍ آخَرَ وَوَضْعِهَا عَلَى سَقْفِ الطَّبَقَةِ الْأُولَى تَضَعُ بَيْضَةً أُخْرَى ثُمَّ تَبْنِي طَبَقَةً ثَانِيَةً ، وَهَكَذَا تَقُومُ بِنَاءِ عِدَّةِ طَبَقَاتٍ ثُمَّ تَمُوتُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْعَمَلِ ! (تَأَمَّلُوا جَيِّدًا .. مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ مَعْرِفَةُ هَذَا الطَّائِرِ الضَّعِيفِ بِأَنَّ لِفَرَاخِهِ مِثْلَ هَذِهِ الْحَاجَاتِ ؟ وَمِمَّ اسْتَلْهَمَ هَذِهِ التَّعَالِيمَ ؟ فَهَلْ تَعَلَّمَهَا مِنْ أُمِّهِ ؟ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَرَهَا أَبَدًا ، أَمْ مِنْ خِلَالِ التَّجَرُّبَةِ ، عَلِمًا أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَا يَقَعُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَيَاتِهِ ...

أَلَا يَجِبُ الْاعْتِرَافُ بِأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ يَسْتَنْدُ إِلَى الْهَامِ غَيْبِيٍّ وَغَرِيزِيٍّ حَيْثُ وَضَعَتْهُ يَدُ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي كَيَانِهِ ؟ !) .

٧ - يَقُولُ الْعَالِمُ النَّفْسَانِيُّ الرَّوسِيُّ الْمَعْرُوفُ (بِلَاتُونُوف) فِي كِتَابِهِ (عِلْمُ النَّفْسِ فِي الْإِتِّحَادِ السُّوْفِيَّةِ) :

« التَّقِيْتُ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْعَظْمَى صَدْفَةً بِطَبِيبٍ لَمْ يَرِ النَّوْمَ لِبُضْعِ لَيَالٍ ، ثُمَّ تَمَكَّنَ مِنَ النَّوْمِ قَلِيلًا ، وَاثْنَاءَ ذَلِكَ جِيءَ بِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْجُرْحِيِّ الَّذِينَ يَجِبُ عِلَاجُهُمْ فَوْرًا ، أَلَّا أَنَّ الطَّبِيبَ الْمَذْكُورَ لَمْ يَسْتَيْقِظْ ، فَحَرَّكَ نَاحِيَةَ رَأْسِهِ وَتَوَلَّى النَّوْمَ ، فَاشْتَرَتْ إِلَى الْمَوْجُودِينَ بِالسَّكُوتِ « كَيْ وَجْهِهِ ، فَكَانَ يَحْرُكُ رَأْسَهُ وَيَعُودُ إِلَى النَّوْمِ ، فَاشْتَرَتْ إِلَى الْمَوْجُودِينَ بِالسَّكُوتِ « كَيْ

اوقظهُ» ، ثم قلتُ له بهدوء وبشكلٍ واضحٍ : ايها الطبيب جاؤوا بالجرحى وهم بحاجةٍ ماسةٍ اليك ، هنا استيقظ فوراً .

ثم يضيف : كيف يمكنُ تبريرُ هذا الأمر ، فهؤلاء الذين كانوا يسعونَ لابقاظه كانوا يوجهون التأثيرات على القسم المحظور من دماغه ، بينما وضعتُ « دائرة حفظ الدماغ » تحت التأثير فهذا الجزء يبقى مستيقظاً حتى في اعمق حالات النوم ، ومن خلال دائرة الحراسة هذه يقيم الانسانُ علاقاته مع العالم الخارجي (ويودع المسائل التي يرغبُ بها في هذه الدائرة بلا شعور منه) .

والأمُ التي تنام الى جانب طفلها المريض ولا يمكن لأعلى صرخات المحيطين ان توقظها ، تستيقظ لأقلَّ أنَّهُ من طفلها .

والطَّحان الذي ينامُ عند حدوث العواصف المصحوبة بالبرق والرعد يستيقظ بمجرد توقف طاحونته عن العمل ، كل ذلك بسبب ايداعهم لما يريدونه في دائرة الحفظ في الدماغ بلا وعي^(١) .

٨ - ويقول (درفيشر) في كتابه حول الحمام الزاجل وعودته المدهشة الى

عشّه :

« لو وضعنا هذا الطائر في صندوقٍ مقفلٍ مظلمٍ وابعدناه مئات الكيلو مترات عن وكره ، وسلطنا به الطرق الملتوية والمعقّدة اثناء رحلتنا ، فانه حالُ أخراجه من الصندوق يطيرُ مباشرةً نحو عشّه بعد عشرٍ او عشرين ثانيةٍ من رؤية النور ، وقد ثبتَ ذلك عن طريق الاختبارات المتكررة التي قام بها عالمٌ معروفٌ يدعى الدكتور « غرامر » .. ويمكن توضيح اسلوب عمله بهذا المثال : فلو ان هذا الطائر كان في مدينة هامبورغ فانه يعلم اين تكون الشمس عند الساعةِ الفلانية من اليوم ، فاذا

(١) (علم النفس في الاتحاد السوفيتي) ، ص ١٩ « مع شيء من الاختصار » .

أخذه إلى مدينة « بروم » مثلاً فإنه يفهم أنَّ الشمس هناك تكون إلى الشمال من ١ / ٢٥ درجة شرقاً بنصف درجة .

فمن أجل عودته إلى وكره في هامبورغ يجب عليه التحليق نحو الشمال الشرقي مع الأخذ بنظر الاعتبار وضع الشمس في هامبورغ .

ألا أنه ليس معلوماً كيف تقوم هذه الطيور بتحديد طريقها عندما يكون الجو غائماً حيث تختفى الشمس ؟ لقد اثبتت التجارب أنَّ أغلبها يجد طريقه بلا توجيه من حركة الشمس» (١) .

ولو فرضنا أنَّ هذه الطيور تستخدم حركة الشمس ، فمن المسلّم به عدم امكانية تعيين الزوايا ، وهي زوايا صغيرة جداً ، من دون الاستعانة بالمنقلة لتحديد ما من انها مسائل لا يمكن تفسيرها إلا في ظل الهداية الالهية .

أنَّ هذا الطائر ومئات مثله دليلٌ حيٌّ على ان وراء الطبيعة علماً وقدره لا متناهية تهدي وتقود كلَّ موجودٍ في مسيرة حياته ... نعم كلُّ هذا دليلٌ على من لا دليل له .

٩ - ونختم الحديث بكلامٍ ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) طبقاً لما جاء في (توحيد المفضل) ، حيث يقول (عليه السلام) : « فكَرَّ يا مَفْضَلُ في خلقة عجيبة جعلت في البهائم ، فانهم يوارون انفسهم اذا ماتوا كما يوارى الناس موتاهم ، وألّا فاين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها لا يرى منها شيء ؟ وليست قليلة فتخفى لقلتها ؛ بل لو قال قائل : انها اكثر من الناس لصدق ، فاعتبر ذلك بما تراه في الصحاري والجبال من اسراب الظبا والمها والحمير والوعول والأياثل وغير ذلك من الوحوش ، وأصناف السباع من الأسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها ، وضروب الهوام والحشرات

ودواب الأرض ، وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا والاوز والكراكي والحمام
وسباع الطير جميعاً وكلها لا يرى منها شيء إذا ماتت إلا الواحد بعد الواحد يصيده
قانس أو يفترسه سبع....»^(١).

(١) بحار الانوار، ج ٣ ص ٩٩ (مع شيء من الاختصار).

٦- آيَاتُهُ فِي حَالَتِي النَّوْمِ وَالْيَقْظَةِ

تمهيد :

لم يُشر القرآن الكريم الى الموضوعات المهمة جداً كخلق السماوات والارض ، والشمس والقمر ، وروح الانسان ، بصفاتها آيات وبراهين من الله تعالى فحسب ، بل يستند احياناً الى المسائل العادية في نظرنا ايضاً ، لكي يوضح لنا أن ليس هناك شيء عادي في هذا العالم ، فكلها آيات حق كبيرها وصغيرها ، وبراهين عظيمة على علم وقدرة الباري تعالى .

ومن بين هذه الامور التي تُعدُّ عادية حسب الظاهر ، هي حالتا النوم واليقظة اللتان استند اليهما القرآن الكريم على وجه الخصوص .

بهذا التمهيد نقرأ خاشعين الى الآيات الآتية :

١ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .^(١)

٢ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ .^(٢)

٣ - ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ .^(٣)

٤ - ﴿ إِذْ يَغْشَىٰكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَّهُ مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

(١) (الروم الآية : ٢٣) .

(٢) (الفرقان الآية : ٤٧) .

(٣) (النبا الآية : ٩ و ١٠) .

لِيُطَهَّرَكُمْ بِهِ. (١)

* * *

شرح المفردات:

حينما يتطرق بعض ارباب اللغة الى مفهوم «النوم» يقولون إِنَّ له مفهوماً معروفاً. (٢)

إِلَّا إِنَّ الراغب يقول في كتاب المفردات:

النوم: قُسر على أوجه كلها صحيح بنظرات مختلفة، قيل هو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد اليه، وقيل هو ان يتوفى الله النفس من غير موت، قال: «الله يَتَوَفَّى الانْفُس» الآية، وقيل النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل. (٣)

و «النَّعَاسُ» «على وزن غُبار» ويعني النوم القليل والخفيف، وفُسِّرَ بعض على انه بداية النوم، وهنا حيث يكون النوم خفيفاً في بدايته فأنَّ كلا المعنيين يعودان الى حقيقة واحدة.

و «السَّبات» مأخوذة من مادة «سَبَت» (على وزن ثَبَت) أي «القطع»، ولهذا سُمِّيَ يومُ السبت بهذا الاسم في لغة العرب، حيث كان يوماً لتعطيل الاعمال من اجل الراحة، ومما يظهر أنَّ هذه التسمية مستوحاة من افكار اليهود حيث يعتبرون يوم السبت عطلة لهم.

وهذا ما يعتقد به اليهود، اذ يقولون إِنَّ الله تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد

(١) (الانفال الآية: ١١).

(٢) لسان العرب، مادة نوم، ج ١٢ ص ٥٩٥.

(٣) لسان العرب، مادة نوم.

وانتهى بعد ستة أيام فكان يوم السبت نهايةً لخلق البشر وللراحة ألا اننا نعلم ان هذا من الاخطاء الفاضحة لليهود ، لأنه في الوقت الذي لم تكن هناك سماء ولا ارض ولا شمس ولا قمر لم يكن هناك وجود لليوم والاسبوع ايضاً وحينما يقول القرآن الكريم : ﴿ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فالمقصود « ست مراحل » .
وكلمة ﴿ السبت ﴾ جاءت بمعنى الراحة ايضاً ^(١) .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

أَنْ نَوْمَكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ :

في الآية الاولى من البحث يَعُدُّ القرآن الكريم نوم الانسان في الليل والنهار أحد البراهين على علم وقدره الله تعالى فيقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ .

وهو في نهاية الآية يؤكد هذا البرهان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .
ومما لا شك فيه ان الكائنات الحية كافة تحتاج الى الراحة لتجديد قواها ، واكتساب الطاقة اللازمة لاستمرار نشاطاتها الحياتية ، الراحة التي تلاحقهم تلقائياً ، وتجبر حتى الحريصين على التمتع بها .

فأي عامل افضل من النوم يمكن ان نفكر به من اجل تحقيق هذا الهدف حيث يلاحق الانسان بشكل اجباري ويضطره لايقاف جميع نشاطاته الجسمية ، بل حتى بعض من نشاطاته الفكرية الاساسية ، وفي النتيجة يغط في راحة عميقة ، وخلال هذه الفترة تقوم أجهزة الجسم باعادة البناء والاستعداد للسعي والحركة من جديد .

(١) مفردات الراغب ، مجمع البحرين ، لسان العرب .

ومما لا شك فيه ان الانسان لولا النوم ، فانه يذبل ويتلف ، ويصيبه العجز والانكسار بسرعة ، لذلك فقد قالوا : إِنَّ النّومَ المعتدل والاستقرار سرُّ السلامة وطول العمر وحيوية الشباب .

واللطيفُ أَنَّ الآيةَ التي نبحثها وضعت «النوم» ، و «إِتِّغَاءَ فَضْلِ اللَّهِ» في مقابل بعضهما ، وحسب قول بعض المفسرين أنَّ الأول هو علامة الموت والثاني علامة القيامة .

انَّ تعبير «إِتِّغَاءَ فَضْلِ اللَّهِ» اشارة الى مسألة لطيفة ، تهتم بسعي وجدِّ الانسان في حياته ، وبفضل الله ايضاً ، أي أنَّ مزجها مع بعضهما يُفيدُ الانسان من هبات العالم .

وهذه نقطةٌ جديرةٌ بالاهتمام ايضاً حيث ذكرت الآية اعلاه النوم بالنهار اضافة الى النوم بالليل «مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» ، في الوقت الذي يُعتبرُ النومُ مرتبطاً بالليل حيث تؤكد آيات القرآن الكريم هذا المعنى ، ألا ان بعض الظروف التي تطرأ في حياة الانسان تجبره على أن يسهّر الليل وينام النهار ، ويلاحظُ هذا الأمر كثيراً في اسفار الليل ، وفي المناطق الحارة جداً حيث تتوقف النشاطات النهارية بسبب حرارة الجو .

وفي عصرنا الراهن حيث تكون الكثير من المؤسسات الصناعية ، ومعامل صناعة الادوية مضطرة للعمل ليلاً ونهاراً ، إذ من الصعوبة ايقاف العمل ، مما يدفع العمال الى تقسيم اعمالهم الى ثلاثة أدوار يومياً ، فتتضح الحاجة الى النوم في النهار اكثر من أي وقتٍ آخر .

والآن .. فلو لم يكن برنامج تنظيم النوم بيد الانسان ، ولم يتيسر النوم نهاراً بدلاً عن الليل ، فمن المسلّم به ان مشكلاتٍ كبيرةً ستعترض حياته .

وفي الآية الثانية بعد أن يُصرَّح ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يشير إلى مسألة النوم حيث يقول تعالى ﴿وَالنَّوْمُ سُبَاتًا﴾ .

ومن الممكن ان يكون تعبير ﴿هو الذي﴾ اشارة الى الجانب التوحيدي لهذه الامور، فكلٌ منها دليلٌ على الذات المقدسة، أو جانبِ الأنعامِ كي يعرف الانسانُ وليَّ نعمته، ومن المسلم به ان معرفة وليِّ النعمة ستكون مقدمةً لمعرفته ايضاً.

واللطيف أنه يقول بعد ذلك: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نَشُورًا﴾^(١).

أجل.. ففي وضوح النهار تنتشر الروحُ ويستيقظ الانسانُ بشكلٍ كامل، أذ لا يخلو من شَبهِ بنشورِ يوم القيامة والحياة ما بعد الموت.

وهذا الاحتمالُ ممكن ايضاً، حيث يشير إلى انتشار الناس في ميدان الحياة وحركتهم نحو مقاصدهم المعاشية المختلفة، وبهذا فإنَّ مزمار النوم والراحة يطلقُ مع حلول الظلام، ويُطلق مزمارُ النهوض مع بزوغ الشمس.

* * *

وفي الآية الثالثة كرَّرَ هذا المعنى باختصارٍ طفيف إذ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾، فكما يصون اللباسُ الانسانَ من انواع الاخطار ويكون اساساً لسلامته فإنَّ ظلامَ الليل له مثل هذا الأثر.

* * *

وفي الآية الرابعة والاخيرة في هذا البحث، وحينما يتحدث القرآن الكريم عن وقائع غزوة بدر يشير إلى أنَّ احدى نِعَمِ الله على المؤمنين في تلك الليلة التاريخية كانت ﴿أَذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ﴾.

لقد كانَ هذا النومُ الرغيدُ سبباً في تجديد قواهم والاستعداد للمعركة

(١) تأملوا جيداً أنَّ «النشور» معنى 'لمصدر، و«السبات» معنى 'لمصدرٍ ايضاً أو اسمٌ مصدرِي، واطلاقهما على الليل والنهار يفيد المبالغة والتأكيد.

الحاسمة في عَرَصَةِ بدرٍ صباحاً ، وبخاصة بعد قطع تلك المسافة الطويلة الى حدٍ ما ، تلك المعركة التي انتهت بنصرٍ مبينٍ للمسلمين .

ولعلَّ تعبير ﴿النُّعَاسُ﴾ اشارة الى عدم استحواذ النوم العميق عليهم بالرغم من تمتعهم بالراحة ، كي لا يستغل العدو الوضع السائد ويباغتهم ليلاً ، ولهذا كانت حقيقة ذلك النوم نعمةً وكيفيته نعمةً اخرى .

على أية حال ، فإنَّ الآية اعلاه تعتبر تأكيداً على أثر النوم على اعصاب وجسم وروح الانسان ايضاً ، وتجديد الطاقات من اجل مثابرة اكثر وجهادٍ اكثر فاعليةً في كافة المراحل .

* * *

توضيحات :

ظاهرة النوم الخفية :

مع انَّ « النوم » و « الرؤيا » تعتبر بالنسبة لنا أمراً عادياً ، إلا انَّ العلماء لم يتوصلوا الى عمق هاتين الظاهرتين المهمتين بالرغم مما بذلوه من مساع و جهود . فايُّ فِعْلٍ وانفعالاتٍ تطرأ على الانسان ليتوقف فجأة القسم الأعظم من نشاطاته الجسمية والروحية ؟ ! ويحصلُ هذا التغيير في جميع اجزاء جسمه وروحه كذلك ، فلا يفهم شيئاً ولا يبدي أيَّ حركةٍ ويستلقي جانباً كالميت ، ولو غرقت الدنيا بأكملها فهو نائمٌ لا يدري .

ومع كل هذه التوضيحات والآراء والفرضيات التي قيلت في هذا المجال ، فقد حافظ النوم على صورته المدهشة !

والاكثر عجباً من ذلك مسألة (الرؤيا) التي تُعَدُّ من الالغاز العظيمة كروح الانسان .

وطبعاً ان الحديث المفصّل بصدّد حقيقة واسرار هاتين الظاهرتين خارجٌ عن موضوع بحثنا، لأنّ الغاية من بحث الآيات المذكورة هي بيان المنافع الكثيرة، والفوائد التي لا تُحصى للنوم من جانب ومن جانب آخر كونه نعمة من نعم الله . فالنوم المعتدل دائماً يعتبر دليلاً على سلامة روح واعصاب الانسان، لذلك فان اهمّ اسئلة اطباء لمرضى النفس تدور حول كيفية نومهم .

فلا تتوقف الاجهزة الاساسية في جسم الانسان كالقلب والرئة اثناء النوم، لكنها تعملُ بهدوءٍ اكثر، ويصبحُ دوران الدّم في الاعضاء اكثر تناسقاً، ويتوقّف نشاطُ الدّماغ تقريباً، وتستقر جميعُ العضلات ايضاً، فتؤدي كلّ هذه الامور الى حصول هذه الاعضاء على فرصةٍ لتجديد بناء ذاتها .

وخلال النوم تُزالُ سمومُ الجسم، وتُعالجُ كثير من الامراض .
لقد اورد «روخلين» في كتابه (الرؤيا في نظر بافلوف) بحثاً تحت عنوان (العلاج بالنوم العميق) قائلاً:

« بناءً على فرضية «بافلوف» فإنّ النوم عبارةٌ عن ظاهرة توقّف من اجل الصيانة وتجديد القوى، وعليه فيمكن استغلاله كعاملٍ للعلاج من الامراض المختلفة، وتؤيّد التجارب اليومية دور النوم في ذلك ايضاً »
ثم يضيف: « انّ النوم العميق الطويل مؤثر على تحسّن صحة المريض، لأنّ المرضى ينامون اكثر من المعهود بعد مرضٍ طويلٍ من اجل استعادة قواهم وسلامتهم » .

ويقول: «لقد واجه العلاج عن طريق النوم رواجاً واسعاً في الاتحاد السوفيتي، وقد استخدمت هذه الطريقة لأول مرةٍ لمعالجة (جنون الشباب) «الشيزوفرينيا» الذي يعتبر من الامراض النفسية الشائعة » .

ويقول في جانبٍ آخر من حديثه: « تم الحصول على نتيجةٍ مرضيةٍ لعلاج

المصابين بارتفاع ضغط الدم عن طريق النوم العميق ... فالنوم الطويل الذي هو حالة من الراحة الكاملة للمخ ، يُجدد قدرة الجهاز العصبي ويوازن تنظيم نشاط الاعضاء الداخلية ، ويترك أثراً ايجابياً مساعداً للوضع العام للانسان^(١) .

أجل ؛ فالذي خلق الانسان سالماً من اجل السعي والنشاط ، وضع جميع وسائل ذلك تحت تصرفه ، وأحدها نظام النوم واليقظة ، النظام الذي تبرز فيه بكل وضوح براهينُ حكمةِ الباري عز وجل .

(١) النوم في نظر بافلوف ص ١١٢ - ١١٦ (مع الاختصار) .

٧- آياته في بسط السماوات والارض

تمهيد :

بعد أن ذكرنا آياتِ (الانفس) نتجه صوبَ آيات الآفاق :
لقد كَانَ النظر الى السماوات والارض على الدوام دافعاً لتفكير الانسان ، ولكن
كلّما تطوّر علمُ الانسان تعاظم العالم العلوي ذو الاسرار العجيبة في نظره ، فلو قيسَتْ
عظمة السماوات في نظر علماء اليوم مع ما مضى لكانت « كالفطرة » الى « البحر » ،
وليس معلوماً ان يكون « الغد » كذلك في قياسه مع « اليوم » .

فماذا يجري في هذه المنظومة والمجرات الجبّارة ، والنجوم الثابتة والسّيارة ؟
وما هي المعالم الموجودة فيها ؟

والى أيّ زمانٍ يعود تاريخ ظهورها ؟
وهل هناك من يسكنُ فيها ؟ واذا كان كذلك فهل ان حياتهم تشبه حياتنا ام
يختلفون عنا ؟

هذه الاسئلة وعشراتُ أخرى تشغلُ فكر كل انسانٍ باحثٍ ومتفحّصٍ في أمر
السماوات .

يقول علماء العصر: اننا اليوم نرى نجوماً في السماء قد اختفت من الوجود
قبل آلاف السنين وربما قبل ملايين السنين ، وهذا يعود الى الفاصلة الخارقة بينها
وبيننا ، وأن نورها قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السنين وما زال في طريقه الينا ،
فاذا كان الميدان الحقيقي للسماء هكذا - وهو كذلك - ، فالى أيّ حدٍ يختلف مع ما
نراه اليوم ؟ ليس هناك مَنْ يستطيع الاجابة عن هذا التساؤل « تأمل جيداً » .

وامثال هذه التساؤلات كثيرةٌ حيث يصعب الاجابة عنها من قبل العلماء .

لقد أصبحنا امام مثل هذا العالم من الاسرار، فعظمته من جانب، والنظام والتقنين اللذان يسودانه من جانب آخر، تكشف الستار عن القدرة والعلم اللامتناهي لمن له اليد في خلق ذلك.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الآتية :

١ - ﴿أَنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ^(١).

٢ - ﴿أَنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ^(٢).

٣ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(٣).

٤ - ﴿أَنَّ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٤).

٥ - ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٥).

٦ - ﴿أَنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ^(٦).

٧ - ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

(١) (آل عمران الآية : ٩٠).

(٢) (البقرة / ١٦٤).

(٣) (الروم الآية : ٢٢).

(٤) (الجاثية الآية : ٣).

(٥) (العنكبوت الآية : ٤٤).

(٦) (يونس الآية : ٣).

- وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ .
- ٨ - ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .
- ٩ - ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣) .
- ١٠ - ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ - وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٤) .
- ١١ - ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٥) .
- ١٢ - ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ (٦) .

* * *

شرح المفردات :

لكلمة ﴿الْخَلْق﴾ معنيان كما يقول صاحب «مقاييس اللغة»، احدهما تقدير الاشياء ، والآخر النقي والمسطح .

ويقول الراغب في المفردات :

«الْخَلْقُ أصله التقدير، ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء

(١) (العنكبوت الآية : ٦١) .

(٢) (غافر الآية : ٥٧) .

(٣) (ابراهيم الآية : ١٠) .

(٤) (الذاريات الآية : ٤٧ - ٤٨) .

(٥) (الانبياء الآية : ٣٢) .

(٦) (الرعد الآية : ٢) .

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ اي أبدعهما بدلالة قوله: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، ... وليس الخلق الذي هو الابداع إلا الله تعالى ، ولذلك قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، اما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الاحوال ، وتستعمل هذه المفردة في الكذب ايضاً (وربما اطلق على الكذب بسبب اختلاق وايجاد موضوع ما في فكر السامع »^(١) .

ويقول ابن منظور في « لسان العرب »: الخلق في كلام العرب ابتداء الشيء على مثال لم يسبق اليه .

وعليه .. جمع ان كلمة الخلق تعني في الاصل التقدير والتنظيم وتنقية الاشياء ، إلا انها استخدمت فيما بعد بمعنى الابداع والايجاد وتغيير هيئة الاشياء بالنحو الذي يتبادر هذا المعنى الآن .

وتعني ﴿ السماء ﴾ استناداً الى ما قاله ارباب اللغة ، الشيء الذي يرتفع عالياً ، لذلك فان بعضاً يعتقد ان لها صبغةً نسبيةً حيث يمكن أن تكون نسبةً شيء الى شيء آخر كالسما الى الارض ، واشتق « الاسم » من هذه المادة ايضاً لأن التسمية عامل في رفعة وسمو مقام المسمى .

واستناداً الى كلام مؤلف « التحقيق » فان السماء قد تكون ملموسة ومادية كـ ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أو معنوية كـ ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾^(٢) .
ويقول « ابن منظور » في « لسان العرب » ايضاً: السمو: تعني الارتفاع والعلو^(٣) .

(١) مفردات الراغب ص ١٥٨ .

(٢) (البقرة الآية : ١٤٤) .

(٣) في كتاب « العين » للخليل بن احمد ذكرت « سما » بمعنى الارتفاع ايضاً ، ص ٣٩١ .

وبناءً على ذلك فإن كلمة السماء لا تعني هذه السماء فقط بل أي نحو من الارتفاع والعلو، ولكنها جاءت في الآيات المنتخبة في هذا البحث بشكل عام بمعنى السماء.

وتُطلق «الأرض» في الاصل على الجزء الاسفل لكل شيء قبالة «السماء» التي هي الجزء الاعلى لكل شيء، قال هذا الكلام صاحب «مقاييس اللغة»، ويقول الراغب في تعبير مشابه: الارض هي الجرم الذي يقابل السماء، ويعبر عن اسفل كل شيء بـ «الارض».

وورد في كتاب «التحقيق» ان الارض لها مسميات متعددة بعضها أوسع من بعضها الآخر، فهي تُطلق على المسكن، والمحل، والقرية، والمدينة، والبلد، والكرة الارضية، وما تحت السماء، وحتى ما موجود في عالم الجسم وتحت عالم الارواح، حيث يقال لكل منها «ارض»، وفي هذه المفاهيم يلاحظ قيدان هما الانخفاض، ومقابلة الارتفاع.

«أَرْضَة» (على وزن حَدَقَة) وتعني الحشرة التي تخرج من الارض وتأكل الخشب.

واللطيف هو ان أحد معاني «الارض» هو مرض الزكام، والآخر هو «الرُعْدَة».

ولعل السبب في ذلك ان هذه الامراض تُعَدُّ الانسان وتُخلدُه الى الارض^(١).

* * *

(١) مقاييس اللغة، مفردات الراغب، لسان العرب، مجمع البحرين، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم ص ١٢ ج ٧ ص ١١٣.

جمع الآيات وتفسيرها:

كان ارتفاع السماء آية حق

الحديث في أول آية من البحث هو عن خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار اللذين يحصلان نتيجة دوران الارض حول نفسها مقابل الشمس اذ يقول تعالى: ﴿أَنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

وكما وضحنا في بحوث المعرفة في المجلد الأول فإن ﴿الالباب﴾ جمع ﴿لب﴾ أي العقل الصافي والعميق، نعم.. فَمَنْ لَهُمْ مِثْلَ هَذِهِ الْقَوْلِ وَالْأَلْبَابِ يستطيعون أن يَرَوْا آيَاتٍ وبراهين كثيرة عن الله تعالى في خلق السماوات والارض، واختلاف الليل والنهار، وليس آية واحدة أو براهاناً واحداً فقط.

واللطيف ما جاء في الرواية المشهورة الواردة في الكثير من التفاسير في ذيل هذه الآية حيث ورد فيها: قال ابن عمر: قلت لعائشة اخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله (ﷺ)، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى الصق جلده بجلدي، ثم قال لي: يا عائشة هل لك ان تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت يا رسول الله أني لأحب قربك وأحب مرادك قد اذنت لك، فقام الى قرية ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء، ثم قام يصلي، فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بليت الارض، فأتاه بلال يؤذن لصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال (ﷺ): يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً، ثم قال: مالي لا أبكي وقد انزل الله في هذه الليلة ﴿أَنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم

يتفكر فيها^(١).

صحيح أن كل من ينظر الى السماوات والاجرام السماوية يعثر على آيات من الله تعالى، ألا أن ذوي العقول والالباب يستفيدون اكثر من سواهم، فهؤلاء يرون آثار قدرة الله تعالى في كل بقعة من السماء، فهم يجدون في خلق كل منظومة، وكل مجرة، وفي حركاتها المنظمة العجيبة اسراراً لم يجدها سوى اولي الالباب.

وما يلفت النظر أنه ذكر في الآية الثانية ﴿قَوْمٌ يَعْقِلُونَ﴾ بدلاً من ﴿أولي الألباب﴾، وفي الآية الثالثة ﴿عالمين﴾، والرابعة والخامسة ﴿مؤمنين﴾.

وفي الحقيقة، كما فصل سابقاً في بحث (مصادر ومجالات المعرفة) في المجلد الاول من هذا التفسير فإن كلاً من الميزات اعلاه (الالباب، التعقل، العلم، والايمان) تعتبر ارضية مناسبة لمعرفة واطلاع اكثر عن آيات الله.

وهذه مسألة جديرة بالاهتمام حيث يصف القرآن الكريم ﴿أولي الألباب﴾ الذين تفتح امامهم ابواب معرفة الله من خلال مشاهدة خلق السماوات والارض اذ يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا﴾^(٢).

أي أن ذكر الله أولاً، والتفكر ثانياً، والتأمل في الهدف من الخلق ثالثاً، يدلهم كل ذلك على عظمة الخالق جل وعلا.

بناءً على ذلك فإن عدم عثور كبار العلماء في العلوم الطبيعية الذين يرون تنظيم دقائق جميع هذه الاعمال، على طريق الى الله، يعود الى انهم يتوقفون عند

(١) تفسير «ابي الفتوح الرازي» ج ٣ ص ٣٨٤، تفسير «الفخر الرازي» ٩ ص ١٣٤، وروح المعاني ج ٤ ص ١٤٠، تفسير «القرطبي» ج ٣ ص ١٥٥٢ وتفسير اخرى.

(٢) آل عمران الآية: ١٩١.

حد مطالعة المعلول والمخلوق ، ليس لديهم تفكيرٌ وتأملٌ في علّةِ العلل وفي الخالق والهدف من الخلق .

* * *

وكما في الآية الاولى فقد وردت مسألة خلق السماوات والارض في الآية الثانية ، الى جانب اختلاف الليل والنهار ، أي مجيء وذهاب الليل والنهار (أو اختلافهما التدريجي على مدى فصول السنة) ، حيث يمثل ذلك إحدى الظواهر البارزة في السماوات والارض ، اذ يسود النظام الدقيق هذه الظاهرة منذ ازمنة طويلة ، ويمكن تحديد لحظة شروق الشمس وغروبها قبل حصولهما ، والحدود الدقيقة لليل والنهار في كل فصلٍ وكلّ زمانٍ من السنة ، ولأي بقعةٍ من بقاع الارض ، ونعلم جيداً اينما يوجد نظامٌ دقيق يكمن وراءه علمٌ وعقلٌ ولبّ مدبرٌ .

* * *

وفي الآية الثالثة ذكر مسألة اختلاف اللسن والالوان ، التي هي من آيات الانفس ، الى جانب مسألة خلق السماوات والارض التي هي من آيات الآفاق ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ . وقد يكون اختلاف اللسن والالوان بمعنى اختلاف اللغات التي يتكلم بها الناس ، والوان وجوههم ، او بمعنى لحن اصواتهم واسلوب حياتهم ، وتفكيرهم واذواقهم ، وقابلياتهم ، او جميعها ، فهذا التنوع العجيب الذي يؤدي الى تعارف الناس على بعضهم ، والى عدم خلو أيّ من المناصب الاجتماعية ، من خلال النظام الدقيق الذي يسودّه ، لا ينفصل عن النظام العجيب السائد في السماوات والارض بل يرتبطان معاً ، وكلّ دليل على الذات المقدسة لله ، العالم القادر .

* * *

وتشير الآيتان الرابعة والخامسة الى خلق السماوات والارض فقط ، وتعدّه من

آيات الله، لأن مما لا ريب فيه أن هذا الخلق العظيم هو من آيات الله البينات، غير إن الآية الخامسة استندت الى مسألة التقنيين والهدف من هذا الخلق وبيانه من خلال تعبير ﴿بالحق﴾.

* * *

وفي الآية السادسة طرح موضوع جديد ألا وهو خلق السماوات والارض في ستة ايام، اذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وقد ورد ذكر خلق السماوات والارض في ستة ايام في سبع آيات من القرآن الكريم^(١).

وهذا يُبرهن على أن (القرآن الكريم) يولي اهتماماً خاصاً لمسألة الخلق التدريجي للعالم، وهو بذاته دليل آخر على عظمة الخالق جلّ وعلا ومع أن بعض الماديين غير الواعين وبسبب عدم معرفتهم بمعنى ﴿اليوم﴾، انتقدوا مثل هذه الآيات واستهزؤوا بها^(٢) حيث انهم يعتقدون أن ﴿اليوم﴾ هنا بمعنى بياض النهار أو (اربعة وعشرين ساعة)، إلا ان الجميع يعلم ان اليوم بهذا المعنى هو وليد حركة الارض وضوء الشمس، وعندما لم يكن وجوداً للسماوات والارض لم يكن هناك مفهوم لليل والنهار بهذه الهيئة.

فقد غفل هؤلاء عن هذه المسألة وهي ان كلمة ﴿اليوم﴾ وما يماثلها في بقية اللغات لها معانٍ مختلفة من حيث المفهوم والاستعمالات اليومية، فمنها ما يعني «المرحلة» وقد تكون هذا المرحلة قصيرة أو طويلة جداً، كما يقول الراغب في كتاب (المفردات) الذي هو من النصوص اللغوية المعروفة: اليوم يُعبرُ به عن وقت

(١) الفرقان / ٥٩، السجدة / ٤، ق / ٣٨، الحديد / ٤، الاعراف / ٥٤، هود / ٧.

(٢) المادية التاريخية ص ٨٧.

طلوع الشمس الى غروبها ، وَقَدْ يُعْبَرُ بِهِ عَنْ مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ أَيَّ مَدَّةٍ كَانَتْ .
ونقول في الاستعمالات اليومية ، إِنَّ النَّاسَ كَانُوا فِي يَوْمٍ مَا يَسَافِرُونَ عَلَى
ظهور الحيوانات ، واليوم بوسائط النقل السريعة ، وكلا هذين التعبيرين (يومٌ ،
واليوم) اشارة الى حقبة طويلة ، ونقرأ في الحديث المعروف عن امير
المؤمنين (عليه السلام) : (وَاعْلَمْ أَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ)^(١) .

بل ان الدنيا كلها عُدَّتْ يوماً واحداً ، وكذلك كل الآخرة في بعض العبارات ،
فيقول امير المؤمنين (عليه السلام) : « وَأَنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ بِلا حساب ، وغداً حسابٌ بلا عمل » .
والبيتان المعروفان عن الشاعر كلیم الكاشاني تعبير لطيف في هذا المجال ،
وهذه ترجمتها العربية :

أَنَّ الْحَيَاةَ سَيِّئَةُ الصَّبْتِ يَوْمَانِ لَيْسَ أَكْثَرَ (كلیم) فَدَعْنِي أَخْبِرُكَ كَيْفَ مَضَتْ ؟
فَيَوْمٌ مَرَّ بِتَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهَذَا وَذَاكَ وَيَوْمٌ آخَرُ مَضَى بِانْقِطَاعِ الْقَلْبِ عَنْ هَذَا وَذَاكَ
وعليه فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ هُوَ سِتُّ
مَرَاحِلَ ، وَقَدْ تَمْتَدُّ كُلُّ مَرَحَلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ مَلَائِينَ أَوْ آلَافِ الْمَلَائِينَ مِنْ
السَّنِينَ ، وَمِنْ الْوَاضِحِ عَدَمُ تَوْفُّرِ أَيِّ دَلِيلٍ يَعَارِضُ هَذَا التَّحْدِيدَ مِنَ النَّاحِيَةِ
الْعِلْمِيَّةِ .^(٢)

ولكن من المحتمل ان تكون هذه المراحل الست حسب التسلسل الآتي :
١ - مرحلةً كَانَ الْعَالَمُ كُلُّهُ فِيهَا مُجَامِيعَ عَظِيمَةً جَدًّا مِنْ غَازَاتِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ

(١) نهج البلاغة الرسالة ٧٢ .

(٢) ذُكِرَ أَيْضاً فِي كِتَابِ الْقَامُوسِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي هُوَ شَرْحٌ لِمَفَاهِيمِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ،
شَرْحٌ فِيمَا يَخْصُ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ حَيْثُ يُشَبَّهُ مَا وَرَدَ أَعْلَاهُ فِي بَعْضِ
الْجَوَانِبِ بِالرَّغْمِ مِنْ اخْتِلَاطِهِ بِبَعْضِ الْخَرَافَاتِ كَاسْتِرَاحَةِ اللَّهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ (الْقَامُوسُ
الْمُقَدَّسُ ص ٨٤ كَلِمَةُ الْخَلْقِ) .

نفسها.

٢ - مرحلة انفصال مجاميع عظيمة عنها والاخذ بالدوران حول محور المجموعة المركزية .

٣ - المرحلة التي فيها شكّلت بعض هذه المجاميع منظوماتٍ كمنظومتنا الشمسية على اثر الدوران .

٤ - المرحلة التي تكونت فيها الارض واستعدت للحياة ، وظهرت عليها المياه ، وتكونت البحار .

٥ - مرحلة ظهور الاشجار والنباتات وتهيئة الاقوات والاطعمة على الارض .

٦ - مرحلة ظهور الحيوانات وبعدها الانسان على الارض .

والمسألة الجديرة بالاهتمام هي انّ من بين الآيات الثماني التي بيّنت خلق السماوات والارض في ستة ايام ، تمت الاشارة في اربع آياتٍ منها فقط الى خلق السماوات والارض في ستة ايام^(١) .

وفي ثلاث آيات ورد خلق السماوات والارض وما بينهما^(٢) .

وفي آية واحدة فقط أشير بشكلٍ عام الى تفصيل هذه المراحل الست ، فمرحلتان لخلق السماوات ومثلهما لخلق الارض ، ومرحلتان لايجاد النباتات والحيوانات ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ... وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾^(٣) .

بناءً على ذلك ، فإنّ المراحل الست اعلاه تتعلق بخلق السماوات والارض

(١) الحديد - ٤ ، الاعراف ٥٤ ، يونس ٣ وهود ٧ .

(٢) الفرقان ٥٩ ، السجدة ٤ ، ق ٣٨ .

(٣) فصلت الآية : ٩ و ١٠ .

وموجوداتهما المتنوعة. (١)

* * *

وتقول الآية السابعة من البحث إنَّ هذا المعنى مسلّم به حتى لدى الوثنيين وهو: أنَّ الله تعالى هو خالقُ السماوات والأرض، ومسخرُ الشمس والقمر، وأن هؤلاء يفهمون أنَّ هذا العالم الجبار والنظام العجيب لا يمكن أن يكون مِنْ حَلْقِ الاصنام، بل أن ضميرهم يحكّمُ بأنَّه مِنْ خَلْقِ الله العالمِ القادر ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

وعليه فليس العلماء المفكرون وحدهم الذين يصلون إلى الذات الالهية المقدسة من خلال التفكير بأسرار الخلق، وإنما الوثنيون الجهلاء كذلك يتعرفون بشكلٍ عام على ذاته المقدسة من خلال مشاهدة هذا النظام بالرغم من أنهم يتيهون في وادٍ من الشرك بسبب الخرافات.

* * *

ومع أنَّ الآية الثامنة تقصدُ مسألة المعاد والقيامة بدلالة الآيات التي تليها وتقول إنَّ القادرَ على خلق السماوات والأرض بهذه العظمة، قادرٌ على أن يحيي الموتى، لأنَّ خلق السماوات والأرض أكبرُ من خلق الإنسان.

لكنها مع ذلك دليلٌ واضحٌ على مسألة معرفة الله ايضاً، لأنَّ وجودَ الإنسان بل وحتى وهو عضو واحد من اعضاء جسمه كالعين والاذن، بل حتى بناء خلية واحدة من خلايا هذه الاعضاء بكل ما فيها من التعقيد والابهام والأسرار والانظمة يمكن أن يكون من آيات الله تعالى. بناءً على ذلك فإنَّ (خلق السماء والأرض الذي هو أكبرُ واعظم من خلق الإنسان اوضحُ برهانٍ على عظمة الله تعالى) ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ

(١) ومن اجل توضيح أكثر في هذا المجال يراجع (التفسير الأمثل) فيما يرتبط بالآيات المذكورة (ج ٦ ص ٢٠٠، ج ٢٠ ص ٢٢٢ ذيل الآيات ٥٤ الاعراف، و ١٠ فصلت).

وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴿١﴾

ومن المؤكد ان يرجح خلق الانسان اذا ما قيسَ مع كل جزء من اجزاء هذا العالم ، إلا أنه اذا قيس بكل السماوات الواسعة والارض ، فمن المسلّم به ان يرجح خلقها .

والظريف ان القرآن الكريم حينما جاء بهذا التصريح لم يكن للناس حينذاك - ولا سيما المتخلفين في الحجاز - معرفة بعظمة السماوات ، ولعلمهم كانوا يظنون أنّ السماء سقّف رماديّ اللون قريبّ منهم ، ضُربت عليه مسامير النجوم الفضّية !
أجلّ .. اننا اليوم ندرك جيداً المفهوم العميق لهذه الآية ، لأنّ العلماء تفحصوا هذه السماء الواسعة من خلال المراصد الفلكية العملاقة ، وأهدّوا الينا عجائب مذهلة عن عظمتها والنظام السائد فيها ، ومن اين ندري ان ما يشاهدونه اليوم لا يبلغ معشار عظمة هذا العالم ، ولعل هذه الحقيقة تتضح غداً للملأ ، لهذا يقول تعالى في آخر الآية : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

وفي الآية التاسعة تمّ جمع دورة كاملة من دروس التوحيد ومعرفة الله في استفهام إنكاريّ حيث يقول : ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .
والجدير بالاهتمام هنا ان كلمة ﴿ فاطر ﴾ تعني المشقّق ، وجاء استخدام هذا التعبير اما بسبب تمزيق حجاب العدم والظلمة اثناء خلق السماوات والارض واشراق نور الوجود في خلق السماوات والارض ، او اشارة الى ما يُعرف اليوم لدى

(١) ما معنى « لا يعلمون » هنا ؟ هناك احتمالات مختلفة : اولها هو : ان الناس يجهلون عظمتها قياساً مع الانسان ، والآخر انهم يجهلون القدرة الالهية اللامتناهية ، والثالث ، انهم يجهلون قدرته على مسألة المعاد ، أو يعلمون ، وحيث انهم لا يفصحون عن عملهم هذا ، فهم في حكم الجهلاء (ولكن لا يُستبعد أن تجتمع كل المعاني الثلاثة الاولى في الآية وكما قالوا بان حذف المتعلق دليل على العموم) .

علماء الفلك حيث ان جميع هذه الكُرات والمنظومات كانت في اليوم الاول على هيئة مجموعة كبيرة تترايط معاً، وانفصلت عن المركز نتيجة لحركتها حول نفسها والقوة الطاردة، والقت بقطع منها الى الخارج وظهرت المنظومات والمجرات الثابتة والسيارة^(١).

على أية حال، سواء كان المشركون هم المخاطبون في هذه الآية أو منكروا وجود الله تعالى، او كلاهما. ويُستفاد من هذه الآية الكريمة هذه الحقيقة، وهي انَّ التَّمعنَ في خلق السماوات والارض يكفي لأن يقتلع كُلَّ نوعٍ من انواع الشك والريب في وجود الله ووحدانيته وقدرته من قلب الانسان.

* * *

ويشير في الآية العاشرة الى خاصية اخرى من خصائص السماء والارض اذ يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾.

فمن المسلم به انَّ خلق مثل هذه العوالم الجبارة يستلزم قدرة مناسبة له، وهي قدرة الباري عزوجل وحدها.

ويضيف فيما بعد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

وبالرغم من انَّ بعض المفسرين اعتبروا ذلك بمعنى توسعة الرزق عن طريق هطول المطر وغيره^(٢) تنفصل عن بعضها بسرعة.

يقول احد العلماء المعروفين ويدعى (جورج غاموق) في كتابه (بداية ونهاية

(١) يقول «الراغب» في «المفردات»: (فَطَرَ) (على وزن سَتَرَ) أي الشَّقُّ طولياً، ثم جاءت بمعنى الایجاد والابداع، و «فِطْرٌ» (على وزن مِتر) تعني الافطار وترك الصيام، وكأنَّ الصيام ينفطر، (والفطرة تعني الخلقة وهي مأخوذة من هذه المادة ايضاً).

(٢) وقد فسّر بعض المفسرين لفظة (موسعون) بمعنى (قادرون) ايضاً، لانه مفردة (الوسع) تأتي احياناً بمعنى «القدرة»، اما مفهوم «التوسيع» فهو اوضح.

العالم): « يَمُرُّ فضاء الكون الذي يتألف من مليارات المجرات بحالةٍ من الامتداد السريع ، والحقيقة هي أنَّ عالمنا ليس ثابتاً بل أنَّ إتساعَهُ مسلَّمٌ به ، والوقوف على كون عالمنا يَمُرُّ بحالةٍ من الاتساعِ يهيء لنا المفتاح الحقيقي لكنوز اسرار النظرية الكونية ، فلو ان العالمَ يَمُرُّ اليومَ بحالةٍ من الاتساع والامتداد فهذا يعني أنَّه كان يَمُرُّ بحالةٍ من الانكماش الشديد في عابر الازمان »^(١).

ومما يبعث على الدهشة إنَّ هذا التوسعَ يسيرُ سريعاً بالقدر الذي يقول عنه (فورد هوفل) في كتاب (حدود النجوم): (لقد تم قياس اقصى سرعةٍ لتباعد الكرات حتى الآن بما يقارب ٦٦ ألف كيلو متر في الثانية ، وتُدلُّ الصور الملتقطة عن السماء على هذا الاكتشاف المهم بوضوح ، حيث أنَّ الفاصلة بين المجرات النائية تتضاعف بسرعةٍ اكثر من المجرات القريبة)^(٢) !

فأَيُّ قوةٍ عظيمة تكمن وراء هذه الكرات والمنظومات الجبَّارة حيث تُبعدُها عن مركز العالم بهذه السرعة النادرة من دون أن تتلاشى على اثر هذه الحركة ؟!

ثم يشير الى الارض فيقول : ﴿وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ .

فالتعبير بـ ﴿الفرش﴾ من ناحيةٍ ، و ﴿الماهد﴾ من مادة (مهد) من ناحيةٍ اخرى ، اشارةٌ الى التغييرات الكثيرة التي حصلت منذ بداية تكوين الارض ، وتهيئتها لحياة الانسان ، وجعلها كالمهد أو فراش الراحة .

كل هذه دلائل عن ذلك العلم والقدرة الازلية .

* * *

ونقرأ في الآية الحادية عشرة تعبيراً جديداً حول خلق السماء إذ يقول : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ .

(١) (بداية ونهاية العالم) ص ٧٧ (مع الاختصار).

(٢) حدود النجوم ص ٣٣٨.

فهل هناك سماء في العالم على هيئة سقف يُحفظ من تغلغل الكائنات الخارجية؟ نعم.. فالسماء هنا يمكن ان تكون اشارة الى الفضاء الذي يحيط بالارض ويبلغ سمكه مئات الكيلو مترات، فهذه الطبقة التي تتألف من الهواء المضغوط اللطيف وبقية الغازات المحيطة بجوانب الكرة الارضية على هيئة سقف دائري، قوية بالقدر الذي يصفها بعض العلماء بأن لها مقاومة بقدر سقف فولاذي بسُمك عشرة امتار، وهي لا تمنع نفوذ الاشعاعات المدمرة فحسب، بل تمنع سقوط الصخور الفضائية التي تنجذب نحو الارض باستمرار، لأصطدامها بهذه الطبقة الجوية بسرعتها الخارقة، فتكون مانعاً لحركة تلك الصخور، كما ويؤدي هذا الاصطدام الى احتراق تلك الصخور وانصهارها.

فلو لم تكن هذه الطبقة الجوية العظيمة واصبح اهل الارض عُرضةً للملايين من قذائف الصخور الفضائية الصغيرة والكبيرة ليل نهار، فماذا سيحصل؟ وهل يكون هناك وجود للاستقرار في «مهد الارض»؟ وهل سيكون اسم المهد والمرقد لائقاً بها؟.

لا ضير ان تقرأ هذا الكلام الوارد على لسان عالم معروف يدعى (فرانك آلن) حيث يقول في كتابه (النجوم للجميع): (إنَّ الجوَّ الذي تألَّف من الغازات التي تحفظ الحياة على سطح الارض له من المقدار والسّمك «بحدود ٨٠٠ كم» بحيث يستطيع ان يكون كالدرع للارض يصونها من شر اصطدام ٢٠ مليون صخرة فضائية مدمرة تبلغ سرعتها ٥٠ كيلو متراً في الثانية يومياً!)^(١).

صحيح ان وزن بعض هذه الشهب التي تتقاطر نحو الارض يعادل $\frac{1}{1000}$ من الغرام ألا ان القوة الناتجة عن سرعتها تعادل قوة انطلاق ذرات القنبلة النووية!.. وقد

يبلغ حجم ووزن بعض هذه الشهب مقداراً كبيراً بحيث تجتاز هذه الطبقة وتصيب الارض ، ومن الشهب التي اجتازت الغلاف الغازي ووصلت الى الارض شهاب «سبيريا» العظيم المعروف الذي اصاب الارض عام ١٩٠٨ م وكان قطره بقدر كبير حيث احتل (٤٠ كم) تقريباً من الارض ، وادى الى حدوث اضرار جسيمة « وكأن الله تعالى يُنذِرنا بهذا الاسلوب .. لتتصور حالنا فيما لو تعرضنا لقصف الصخور السماوية يومياً » .

فلو كان الغلاف الجوي حول الارض يشكل أرق مما هو عليه « لأصابت الارض يومياً عدة ملايين من الاجرام السماوية والشهب الثابتة ، كما يقول (غرسي مورسن) مؤلف كتاب (سر الخلق) : « ولم تعد الارض صالحة للحياة » ^(١) . ولا ينبغي طبعاً نسيان الآثار المدمرة الناتجة عن اصطدام الاشعة فوق البنفسجية بالارض في حالة عدم وجود هذا الغلاف فهي اكثر بكثير من اخطار آثار هذه الصخور ، ولعل هذا الأمر كان السبب في ان يقول الباري تعالى في نهاية الآية : ﴿ وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُّعْرِضُونَ ﴾ .

* * *

ويشير في الآية الثانية عشرة والاخيرة الى خاصية اخرى من خصائص السماوات ، وهي من المعجزات العلمية للقرآن الكريم اذ يقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .

ويبرهن هذا التعبير على أن للسماوات عموداً إلا أنه غير قابل للرؤية ، فهو عمود غير مرئي ، فأي شيء يمكن أن يكون هذا العمود سوى توازن قانون « الجذب » و « الطرد » ، أي « القوة الطاردة المركزية » ؟ أجل ان تعادل الجذب والطرد

هذا هو عمود قويّ بحيث يرفع جميع كُرات المنظومة الشمسية وبقية المنظومات في مداراتها بأحكام، مع أنّه غير مرئيّ، كما ويمنع تساقطها على بعضها، أو الابتعاد عن بعضها فيختلّ نظامها.

وينبغي الانتباه الى ان ﴿عَمَدٌ﴾ (على وزن صَمَدٌ) اسمُ جمع من مادة «عمود»، ولو اراد القرآن ان يقول: «انّ السماء مرفوعة بلا عمود»، لكان يكفي أن يقول: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، إلا أنّ اضافة عبارة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ يدلّ على ان المقصود هو نفي الاعمدة المرئية، ويستلزم ذلك اثبات العمود اللامرئي.

لذلك نقرأ في الحديث المشهور عن الامام الرضا (عليه السلام) حيث كان يتحدث الى بعض الجهلاء الذين كانوا يقولون: انّ السماء بلا عمود، فقال الامام (عليه السلام): (سبحان الله أليس الله يقول بغير عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)، ويجب ذلك الشخص بنعم، فيقول الامام (عليه السلام) مباشرة: (ثُمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا) ^(١).

وقد رُوي هذا المعنى بتعبير «عمود من نور» في حديثٍ شَيِّقٍ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عليه السلام) حيث يقول: (هذه النجوم التي في السماء مدائنٌ مثل المدائن التي في الارض مربوطَةٌ كُلُّ مَدِينَةٍ إِلَى عَمُودٍ مِنْ نُورٍ) ^(٢).

والذي يثير الانتباه هنا هو بالرغم من أنّ قانون الجذب والطرْد لم يكن مذكوراً في تفاسير القدماء والسالفين، فإنّ منهم فسّر الآية كما ذكرنا آنفاً، حيث قال بوجود عمودٍ غير منظورٍ للسماء، بالرغم من إنّ البعض عبّر عن هذا العمود غير المنظور بقدرة الله ^(٣).

(١) تفسير البرهان ج ٢ ص ٢٧٨.

(٢) بحار الانوار ج ٥٥ ص ٩١ / البحار ج ٥٨ ص ٩١ / القرطبي ج ٩ ص ٢٧٩.

(٣) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٤٧، روح المعاني ج ١٣ ص ٧٨، تفسير الرازي ج ١٨ ص ٢٣٢، والقرطبي ج ٥ ص ٣٥٠٨.

على أية حال ، فهذه احدى آيات الله العظيمة ، حيث رفع السموات بهذه
الاعمدة القوية الغير منظورة ، والانظمة المهيمنة على قانون الجذب والطرْد ، بحيث
لو حَصَلَ اقلُ تغييرٍ في هذه المعادلة ، يختلُ توازنها او تتصادم فيما بينها بشدة
وتختفي أو تبتعد نهائياً وينفصم الارتباط بينها .

* * *

النتيجة :

مع ان الآيات المتعلقة بخلق السموات والارض في القرآن الكريم ليست
محصورة بما اوردها آنفاً ، واذا تقررَ أنَّ تُبحثَ كموضوع مستقل تحت عنوان
(السماء والارض في القرآن الكريم) فانها تؤلف كتاباً مستقلاً^(١) ، إلا اننا اقتطفنا هذه
الآيات الاثنتي عشرة من بينها واوردها ، ومن المستطاع ان يفتح هذا البحث - أي
بحث معرفة الله وآيات وجوده في هذا العالم الكبير - الطريق امامنا ، ويوضح لنا بأنَّ
في هذا الخلق العظيم دلائل وافرة للسائرين في طريق الله ، يُمكنهم من خلال التمعن
في هذا الكتاب العظيم المليء بالاسرار أنَّ يزدادوا قُرباً منه ، وتُملأ اوعية قلوبهم
وأنفسهم من حُبِّه اكثر فاكثر ، فيرددون هذا الكلام القرآني باستمرار ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَذَا بَاطِلًا ﴾ ! .

توضيحات :

١ - عَظَمَةُ وَوُسْعَةُ السَّمَوَاتِ :

لا عِلْمَ لِأَحَدٍ بِحُدُودِ سَعَةِ وَامْتِدَادِ السَّمَوَاتِ ، فَإِنَّ عِلْمَنَا بِمَقْدَارِ تَطَوُّرِ عِلْمِ

(١) في القرآن الكريم ذُكرت « السماء » اكثر من ثلاثمائة مرة بصيغة مفردة أو جمع (السَّمَوَاتِ) .

ومعرفة الانسان ، فقد تعاظمت السموات في نظره ، أي أنه اكتشف ابعاداً جديدة عنها ، وتقول آخر معلومات علماء الفلك بهذا الخصوص :

« انَّ منظومتنا الشمسية ترتبط بـ «درب التبانة» التي هي في الواقع احدى المجرات . وقد توصل العلماء في بحوثهم الى انها تتألف من مائة مليار نجمة احداها شمسنا هذه والتي تُعتبر اوسطها حجماً (لا تَنْسَى ان الشمس اكبر من الارض باكثر من مليون مرة) ، واذا ضربنا هذا العدد بمائة تصبح النتيجة مائة مليون مليار ، أي ان حجم مجموع كرات هذه المجرة يعادل الكرة الارضية بهذا المقدار ! .

واذا اضعفنا هذا العدد الى العدد الذي اكتشفه العلماء في هذا العالم وفقاً لبحوثهم ، وهو مليار مجرة على الاقل ، يقف العقل والعلم البشري متحيراً امام عظمة الاله الذي خلق هذا العالم اللامتناهي . (تفحصوا الارقام اعلاه وتفكروا في عظمتها) .

علماء ان هذه الاعداد والارقام هي ضمن حدود علم واطلاع البشر في الوقت الحاضر ، وليس واضحاً ما سيُكتشف من معالم جديدة في المستقبل .
وهناك شهادة لطيفة جداً لمرصد (بالومار) بخصوص عظمة السماوات حيث يقول :

في الوقت الذي لم تتم صناعة عدسة مرصد (بالومار) العملاق لم تكن سعة الدنيا حسب علمنا اكثر من ٥٠٠ سنة ضوئية (والمقصود من السنة الضوئية هو مقدار المسافة التي يقطعها الضوء بسرعة ثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية خلال سنة واحدة ، وثلاثمائة الف كيلو متر في الثانية تعني الدوران حول الارض سبع مرات خلال طرفة عين) .

ولكن هذه العدسة ضاعفت ديانا الى الف مليون سنة ضوئية ، وفي النتيجة تم اكتشاف الملايين من المجرات الجديدة ، حيث يبعد بعضها عنا مليار سنة

ضوئية ، ولكن هناك فضاءً عظيماً مهيباً ومظلماً بحيث لم يُرَ شيء من خلاله ابداً
ويبعد الف مليون سنة ضوئية ... ألا ان مما لا شك فيه وجود مئات الملايين من
المجرات في ذلك الفضاء المهيب المظلم حيث تُصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك
المجرات ، ويُعتقد انّ هذه الدنيا العظيمة التي نراها ليست سوى ذرة صغيرة متناهية
من عالمٍ اعظم ، ولسنا نقطع بعدم وجود عالمٍ آخر في مكانٍ آخر من الدنيا! ^(١)

* * *

٢ - الدقة العجيبة في القوانين التي تحكم السماء والارض :

من المعروف انه كلما تعاظمت الموجودات فلا بد أن تتضاءل دقة القوانين
السائدة فيها ، بينما لا يصدق هذا المعنى على هذا العالم الشاسع ابداً ، أي انه مع
عظمته وسعته العجيبة واثارته للجدل ، فهو ذو انظمةٍ دقيقةٍ وظريفة ، ومن اجل
ادراك هذه الحقيقة يكفيننا الالتفات الى المسائل الآتية :

أ - نحن نعلم انّ الانسان قد افلح في نهاية المطاف أن يُنزل سفينة الفضاء
بطاقم يتألف من شخصين في النقطة التي حددها العلماء في كوكب القمر ، ثم عادا
الى الارض (تأمل جيداً ..) فعلى مدى الايام الثلاثة التي قضتها السفينة في قطع
المسافة بين الارض والقمر ، كانت الارض تدور حول نفسها وتغير مكانها في السماء
حول الشمس ، وكوكب القمر كان يدور حول نفسه وحول الارض ايضاً ، فكم يجب
ان تكون هذه الحركات مُنظمةً ودقيقةً ومحبوكة وثابتة يستطيع العلماء أن يحسبوا
حساب هذه الحركات ويقدروها من خلال العقول الالكترونية حتى تحط سفينة
الفضاء في المكان الذي حدده على نحو كوكب القمر ، ومن ثم المكان الذي عيّنه

لعودتها الى كوكب الارض ؟ فاذا اختلفت احدى هذه الحركات وتداخلت فيما بينها ونقصت او ازدادت مقدار ثانية واحدة فمن المسلم به ان حسابات العلماء سترتبك ويبقى عملهم عقيماً.

أجل .. ان نظام عالم الوجود الدقيق هو الذي يمنح الانسان فرصة القيام بمثل هذا العمل ، أي الهبوط على سطح كوكب القمر وفي المكان الذي حدده.

ب - يستطيع علماء الفلك أن يحسبوا ويقدرّوا احداث المستقبل التي تتعلق بـ « الخسوف » و « الكسوف » في الكرة الارضية قبل عشرات السنين ، وعدد ساعات الليل والنهار وشروق وغروب الشمس وبزوغ وافول القمر ، وهذا يعود الى التنظيم الدقيق لحركاتها ليس إلا.

ج - كما اشرنا سابقاً ان قوة الجاذبية تجذب الكرات السماوية نحو بعضها ، بيد أن القوة الدافعة التي تحصل من حركة الدوران والتي تسمى بالقوة الطاردة تبعتها عن بعضها .

فاذا أريد أن تتحرك الكرة في مدارها ملايين السنين حركة دقيقة وفي مدار معين فيجب ان تتوازن هاتان القوتان تماماً ، وهذا ما نعرفه ايضاً حيث ان الجاذبية تتناسب طردياً مع حجم الموجودات ، وعكسياً مع الجذر التربيعي للمسافة بينها (فلو ازداد الحجم فإن الجاذبية تتضاعف ، واذا تضاعفت المسافات تضعف الجاذبية طبقاً للمعادلة اعلاه) .

وبناءً على ذلك فمن اجل ان تدور الارض حول الشمس لمدة طويلة جداً في مدار ثابت ، ينبغي ان يكون حجم الشمس والارض وكذلك المسافة بينهما ، وسرعة حركة الارض حول الشمس وفق حساب دقيق ، كي يتم التوازن بينهما ، وهذه المسائل ليست ممكنة دون تدخل من علم غير متناه وعقل مدبر .

٣- السموات السبع :

مايلفت النظر هو ان الحديث عن (السموات السبع) ورد فى سبع آياتٍ من القرآن الكريم ^(١).

وتمت الاشارة في احدى هذه الآيات الى طبقات الارض السبع ايضاً، حيث يقول تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ^(٢).

ومن بين جميع التفاسير المختلفة التي ذُكرت عن السموات السبع ، يظهر ان التفسير الصحيح هو إنَّ المقصود من « السموات السبع » هو المعنى الحقيقي للسموات السبع ، أي أنَّ السماء لا تعني الكرات ، بل مجموعة النجوم والكواكب في العالم العلوي ، والمقصود من العدد (سبعة) هو الرقم المعروف ، وليس هو للكثرة .
أنَّه ما يظهر من الآيات الاخرى هو أنَّ كل ما نراه من نجوم ثابتة ، وسيارة ، ومجرات ، وشُحُبٍ يتعلق (بالمجموعة السماوية الاولى) وعليه فهناك ست مجاميع عظيمة اخرى (ست سموات) تلي هذه المجموعة العظيمة ، حيث ان بعضها اكبر من البعض الآخر ، وتلك خارجة عن متناول علم الانسان (لحد الآن على الاقل) .

نقرأ في الآية ٦ من سورة الصافات : ﴿أَنَا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ .

وجاء فى الآية ١٢ من سورة فصلت : ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ .

(١) البقرة ٢٩ ، الاسراء ٤٤ ، المؤمنون ٨٦ ، فصلت ١٢ ، الطلاق ١٢ ، الملك ٣ ، نوح ١٥ (واشير في آيتين (المؤمنون ١٧ - النبأ ١٢) الى (سبع طرائق) وسبعاً شداداً ايضاً حيث يمكن ان يكونا اشارة الى السموات السبع ايضاً .
(٢) الطلاق الآية : ١٢ .

وورد هذا المعنى ايضاً باختلافٍ طفيفٍ في الآية الخامسة من سورة المُلْك .
والجدير بالذكر أنَّ المرحوم العلامة المجلسي قد ذكر هذا الاحتمال كأحد
التفسير لهذه الآية اذ يقول : « الثالث : ما خطر بالبال القاصر ، وهو ان تكون جميع
الافلاك الثمانية التي اثبتوها لجميع الكواكب فلکاً واحداً مسمى بالسماء
الدنيا »^(١) .

صحيحٌ أنَّ معدّاتنا العلمية الحديثة ثم تكشف استار عن العوالم الستة
الآخري غير أنه ليس هنالك من دليل ينفيها من الناحية العلمية ايضاً ، ويحتمل ان
يكشف النقاب عن هذا السرفي المستقبل .

بل يظهر من اكتشافات بعض علماء الفلك أنَّ هناك الآن براهين تلوح في
الافق عن وجود عوالم آخري شبيهة لما نقلناه آنفاً عن مرصد (بالومار) الشهير فيما
يتعلق بعظمة العالم ، ونكرر الجملة التي تشهد على كلامنا هذا « تم اكتشاف الملايين
من المجرّات الجديدة حيث يبعد بعضها عنّا مليار سنةٍ ضوئية ، لكن هناك فضاءً
عظيماً مهيباً ومظلماً لم يُرَ أيُّ شيء من خلاله ابداً ويبعد مسافة مليار سنة ضوئية ،
إلا أنَّ مما لا شك فيه وجود مئات الملايين من المجرّات في ذلك الفضاء المهيب
المظلم ، حيثُ تصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرّات ، ويُعتقد أنَّ هذه الدنيا
العظيمة التي نراها ليست سوى ذرّة صغيرة متناهية من عالمٍ أعظم ، ولسنا نقطعُ
بعدم وجود عالمٍ آخر في مكان آخر من الدنيا »^(٢) .

يقول أحدُ العلماء في مقالٍ كتبه حول عظمة عالم الوجود ، بعد ذكر
المسافات الهائلة والمذهلة للمجرّات ، وبيان الارقام المدهشة المحددة طبقاً الى
السنة الضوئية ما يأتي :

(١) بحار الانوار ج ٥٨ ص ٧٨ .

(٢) مجلة الفضاء العدد ٥٦ فروردين ١٣٥١ .

« لا زال المنجمون يعتقدون انهم لم يقطعوا سوى منتصف طريق ما يمكن رؤيته من العالم العظيم ، ولا زال عليهم اكتشاف فضاءات أخر غير مكتشفة »^(١) .
وعليه فان العوالم التي تكشفت للبشر لحد الآن مع عظمتها ما هي إلا زاوية صغيرة من هذا العالم الكبير ، وتصلح للمطابقة مع مسألة السموات السبع^(٢) .

* * *

٤ - لِمَ لا تنظرون الى السماء ؟!

إن كثرة ووفرة آيات الله في عرض السموات ، وجمال السماء في الليل ، دفع القرآن الكريم والاحاديث الى دعوة الناس باسرههم وخص المؤمنين منهم الى التفكير في السموات من اجل كسب المزيد من الايمان ، فيقول القرآن الكريم في الآية ٦ من سورة ق : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ؟ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥

وَرَوَى ان النبي (ﷺ) حينما كان ينهض الى صلاة الليل يبتدأ بالمسواك ثم يلقي نظرة على السماء، ويردد هذه الآيات (١).

وورد في صفات امير المؤمنين (عليه السلام) ايضاً عن احد اصحابه ويدعى (حبة العرنى) حيث قال : « بينا أنا ونوف (احد اصحاب الامام علي (عليه السلام)) نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين (عليه السلام) في بقية من الليل ، واضعاً يديه على الحائط شبيه الواله ، وهو يقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الى آخر الآية ، قال : ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمر شبه الطائر عقله ، فقال لي : أراقد انت يا حبه ام راقم ؟ قال : قلت : راقمٌ هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن ؟ فأرخى عينيه فبكى ، ثم قال لي : يا حبه ، إن لله موقفاً ولنا بين يديه موقفاً لا يخفى عليه شيء من أعمالنا ، يا حبه ان الله أقرب اليّ واليك من حبل الوريد ، يا حبه إنه لن يحجبني ولا إياك عن الله شيء » (٢).

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٥٥٤ الآيات الاخيرة من سورة آل عمران .

(٢) بحار الانوار ج ٤١ ص ٢٢ .

٨- آياته في خلق الشمس
والقمر والنجوم

تمهيد:

مع أنَّ الشمس والقمر تُعدَّانِ من كواكب وكرات السَّماء ، وقد تم الحديث بشكلٍ منفصلٍ عن عظمة السموات ، ولكن لقربهما من كرتنا الارضية فإنَّ لهما تأثيراتٍ جمَّةٍ على حياتنا ، وقد اشار القرآن الكريم اليهما بشكل خاص ، ووصف كلاً منهما بآية عظيمةٍ من آيات الله ، و اشار الى الفوائد الخاصة للنجوم إذ اعتبرها من آيات الله ، وأنَّ التفحُّص في كلٍ منها لا سيما في ظل اكتشافات العصر من الممكن ان يوضح لنا عظمة الباري تعالى من جهةٍ وعظمة تعاليم القرآن الكريم من جهة اخرى .

وبعد التمهيد المختصر نستمع خاشعين الى الآيات الآتية :

١ - ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِّيَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١) .

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ وَكَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا - وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾^(٢) .

٣ - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾^(٣) .

٤ - ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٤) .

(١) (يونس الآية : ٥) .

(٢) (نوح الآية : ١٥ و ١٦) .

(٣) (ابراهيم الآية : ٣٣) .

(٤) (فاطر الآية : ١٣) .

- ٥ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ^(١).
- ٦ - ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ - وَالْقَمَرَ
قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ - لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ
تُذْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ^(٢).
- ٧ - ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ﴾ ^(٣).
- ٨ - ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ ^(٤).
- ٩ - ﴿كَلاَّ وَالْقَمَرَ - وَاللَّيْلَ إِذَا أَذْبَرَ - وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ - إِنَّهَا لَأُخْدَعِي
الْكُبَرَ﴾ ^(٥).
- ١٠ - ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ^(٦).

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

القَسَمُ بالشمس والقمر والنجوم:

بالرغم من ندرة معلومات الانسان عن الشمس ، والقمر ، والنجوم ، أو ان

(١) (فُصِّلَتِ الْآيَةُ : ٣٧).

(٢) (يس الآيات : ٣٨ - ٤٠).

(٣) (الانبياء الآية : ٣٣).

(٤) (المعارج الآية : ٤٠).

(٥) (المدثر الآيات : ٣٠ - ٣٢).

(٦) (الانعام الآية : ٩٧).

نزول هذه الآيات ، واختلاطها بكثيرٍ من الخرافات (لا سيما في مهد نزول هذه الآيات) ، فإنَّ القرآن الكريم يتحدث عن الشمس والقمر والنجوم بتعظيمٍ عجيبٍ ، أذ تحدَّث كثيراً عن صفاتها ، فكان يصفُها بأنَّها آياتُ الله وبراهينُ على ذاته المقدَّسة . فيقول تعالى في الآية الاولى التي نبحثها : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ .

يقول بعض ارباب اللغة (ومنهم الطريحي في مجمع البحرين) وعددٌ من المفسرين : أنَّ الفرقَ بين ﴿ الضياء ﴾ و ﴿ النور ﴾ هو أنَّ « الضياء » يُطلق على النور الذي ينبعث من ذات الشيء ، ويُطلق النورُ على الضوء الذي يُكسبُ من الغير . وعليه فإنَّ الآية اعلاه اشارةً لطيفةً الى هذه المسألة حيث انَّ نورَ الشمس ينطلق منها ، في الوقت الذي يحصلُ نورُ القمرِ عن طريق ضوء الشمس الذي يَشُعُّ عليه ، ويتحدث القرآن الكريم بهذا في زمانٍ لم يكن للناس اطلاعٌ عليه .

ومما لاشك فيه انه لا يمكنُ انكارُ أنَّ كلاً من هذين المفهومين قد يُستعمل بمعنى اعمَّ من النور « الذاتي » أو « الاكتسابي » ، ومشاهدة حالات استعمال هذين المفهومين في القرآن الكريم وفي كلام العرب يشهد على ذلك ، وقد يكون لهما معنيان مختلفان فيما اذا تزامنا معاً ، كما جاء في الآية اعلاه .

* * *

وورد هذا المعنى في الآية الثانية بتعبيرٍ آخر ، فبعد أن يُشير الى خلق السموات السبع يضيفُ قائلاً : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ وعَبَّرَ عن الشمس بـ « السراج » في آيتين أخريين من القرآن الكريم ايضاً (الفرقان / ٦١ ، النبأ / ١٣) ، ونحن نعلمُ انَّ نورَ المصباح ينبعثُ من داخله وليس مُكتسباً من الخارج ، وقد جاء في بعض نصوص اللغة انَّ الضياء اكثر شدةً من

النور^(١)، ولعلَّ هذا الاختلاف مُستَمَدُّ من الاختلاف الاول ويعود اليه^(٢).
على اية حالٍ، فقد أُشيرَ هنا وقبل كل شيءٍ الى نور «الشمس» و «القمر»،
كآياتٍ من آيات الله ومن آلائه جلَّ وعلا.
فالشَّمْسُ بضوئها المشرقِ على الكون لا تقوم بتدفئة وانارة مهد الكائنات في
العالم فحسب، بل لها نصيبٌ اساسيٌّ في نمو النباتات وحياة الحيوانات.
واليوم قد ثبتت هذه الحقيقة، أذ انَّ كلَّ حركةٍ تُشاهدُ في الارض هي من
بركاتِ ضوء الشمس، فلو فكَّرنا بامعانٍ في حركة الرياح، والغيوم وامواج البحار
وجريان الانهار، والشلالات، والحيوانات والناس لوجدناها تنبُع من ضوء الشمس
بدون استثناء (فتأمل جيداً).
ولو انطفأت الشَّمْسُ وانقطعت هذه الاشعةُ التي تهبُّ الحياة عن الارض
فَسَيَعُمُّ الموتُ والسكوتُ والظلامُ كلَّ مكانٍ خلال فترةٍ قصيرةٍ جداً.
كما ان نورَ القمرِ الجميلِ لا يعتبر مصباحاً في ليلينا الحالكة ودليلاً؛ لقاطعي
الصحراء ليلاً فقط، بل إنَّ نورَهُ اللطيف والمناسب يبعثُ الطمأنينة والنشاط في البشر
باسرهم.
ويرى بعضُ المزارعين ان (نور القمر) ذو دورٍ حساسٍ في نمو الفواكه
والنباتات ايضاً.
وطبعاً ان ما كلَّ ما ذكرناه يختصُّ بنور الشمس والقمر، وسنقوم ببحث ما
يخص بقية بركاتهما بشكلٍ مستقلٍ.

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٣٢٩ - وروح البيان ج ٤ ص ١٢.

(٢) ينبغي الانتباه الى ان «الضياء» يأتي بصيغة «المفرد» و «الجمع» ايضاً، ويعتقد
بعض المفسرين أنَّ له صيغة الجمع في الآية اعلاه، وانه إشارة لطيفة الى تركيب ضوء
الشمس من سبعة ألوان.

ثم يشير القرآن الكريم في نهاية هذه الآية الى احدى البركات والفوائد المهمة لهاتين الكرتين السماويتين حيث يضيف ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ .

فالقمرُ بسيره المنظم ، وحركته الدقيقة يُعتبر تقويماً واضحاً وحيّاً وطبيعياً للغاية ، تسهّل قراءته على العالم والجاهل ، ويُنظّم برامج حياته على اساسه ، ولو أمعنا التفكير لوجدنا أنّ مسألة تنظيم حياة الانسان ترتبط بقوة بحساب السنين والشهور ووجود تقويم طبيعي ، حيث يتكفل القمر والشمس ودوران الارض المنظم حول نفسها وحول الشمس بانجاز هذا الدور ، وأنّ التقويمات الحالية التي نُظّمت استناداً الى حسابات المُنجمين لا تنفع إلا الذين لديهم امكانية فهمها ، والتقويم الوحيد المفهوم والمعلوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعي الذي يتوفر لدينا من حركة القمر ، منذ مرحلة (الهلال) وحتى وصوله الى مرحلة (البدر الكامل) ، ومن ثمّ الى (المحاق) ، ولو تفحص الانسان قليلاً لأستطاع ان يُحدّد ليالي الشهر من خلال ملاحظة حجم القمر ، لأنّ القمر لا يستقر على حالٍ واحده في السماء على مدى ليلتين ابدأ ، ولعلّ تنظيم العبادات الاسلامية وفقاً للشهر القمري نابع من هذا الأمر .

وكل هذه الدوافع أدّت الى أن يقول القرآن الكريم في نهاية هذه الآية :
﴿وَيُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

* * *

والحديث في الآية الرابعة والخامسة عن تسخير الشمس والقمر للانسان :
﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ .

بَيِّنَ أَنَّهُ عَبَّرَ فِي آيَةِ بـ ﴿دَائِبِينَ﴾ أَيِ (الحركة وفقاً لِسُنَّةٍ ثَابِتَةٍ) ^(١) وَفِي الْآخِرَى وَرَدَ تَعْبِيرُ ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيِ «أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَسْتَمِرُّ فِي حَرَكَتِهِ إِلَى حَدٍّ مُّعَيَّنٍ».

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ حَرَكَةَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ سَتَنْتَهِي عَلَى الْمَدَى الْبَعِيدِ، وَيَتَغَيَّرُ نِظَامُ الْمَنْظُومَةِ الشَّمْسِيَّةِ بَعْدَ مَلَائِينَ السِّنِينَ، وَهَذَا بِحَدِّ ذَاتِهِ أَحَدُ الْمَعْجَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِحَرَكَةِ الشَّمْسِ هُوَ دَوْرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ طَبْعاً، لِأَنَّ مَا يَظْهَرُ لِلْعَيَانِ أَنَّ الشَّمْسَ هِيَ الَّتِي تَتَحَرَّكُ، حَيْثُ أَنَّ الْأَرْضَ فِي الْوَاقِعِ هِيَ الَّتِي تُوجَدُ هَذَا الشُّعُورَ لَدَى الْإِنْسَانِ، أَذْ أَنَّ الشَّمْسَ تَتَحَرَّكُ بِاسْتِمْرَارٍ مَعَ الْمَنْظُومَةِ الشَّمْسِيَّةِ دَاخِلَ الْمَجَرَّاتِ، وَسَيُشار إِلَيْهِ فِيمَا بَعْدَ.

وَالْمَقْصُودُ بِتَسْخِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَبَقِيَةِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي يَعْتَبِرُهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَسْخَرَةً لِلْإِنْسَانِ، هُوَ إِنَّهَا تَتَحَرَّكُ فِي مَجَالِ مَصَالِحِ الْإِنْسَانِ وَخِدْمَتِهِ، فَكَمَا قُلْنَا سَابِقاً أَنَّ لُضْوَةَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ دَوْرًا مَهْمًا فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَكَافَةِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، لَا سِوَمَا ضِيَاءِ الشَّمْسِ إِذْ تَسْتَحِيلُ الْحَيَاةُ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ بِدُونِهِ لَحِظَةً وَاحِدَةً، وَحَتَّى فِي اللَّيَالِي الْمُظْلَمَةِ فَإِنَّا نَسْتَفِيدُ مِنَ الْحَرَارَةِ الْمَتَبَقِيَّةِ عَنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي الْأَرْضِ وَالْجَوِّ وَلَوْلَاهَا لَانْجَمَدَتِ الْكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ بِأَسْرَهَا، أَضَافَةً إِلَى الْفَوَائِدِ الْآخَرَى كَالْمَدِّ وَالْجَزْرِ فِي الْمَحِيطَاتِ، فَهُوَ مَصْدَرٌ لِلْكَثِيرِ مِنَ الْخِدْمَاتِ، وَسَنُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ فِي بَحْثِ آيَاتِهِ فِي الْبَحَارِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -، وَكَذَلِكَ وَضَعَ تَقْوِيمٌ طَبِيعِيٌّ وَخِدْمَاتٌ آخَرَى.

وَبَلَا شَكٍّ فَإِنَّ مَا نَعْرِفُهُ الْيَوْمَ مِنْ بَرَكَاتِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَعْرِفُهُ

(١) «دَائِبِينَ» مِنْ مَادَّةِ (دَوَّب) وَتَعْنِي اسْتِمْرَارَ الْعَمَلِ وَفَقاً لِعَادَةٍ وَسُنَّةٍ دَائِمَةٍ وَهُوَ تَعْبِيرٌ لِلْحَرَكَةِ الْمُنَظَّمَةِ وَالْمُتَّسِعَةِ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَلَا يُعْتَقَدُ بِوُجُودِ تَعْبِيرٍ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا التَّعْبِيرِ.

السالفون والمخاطبون بهذه الآيات عند نزولها، ولهذا فإنّ دروس التوحيد التي نقرأها على صفحاتها أكثر مما كان يقرؤه السابقون، لهذا يقول في نهاية هذه الآية: ان رَّبَّكُمْ هو الذي سَخَّرَ لَكُمْ كُلَّ هذه الموجودات، اما الذين تدعون من دونه فهم لا يملكون الحكم والمُلْكَ في هذا العالم قَدَرِ قشرة نواة التمر ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾^(١).

* * *

وفي الآية الخامسة يُعبّر بصراحة عن خلق الليل والنهار والشمس والقمر بأنّها من آياته، ألا أنّه يأمر في نفس الوقت بضرورة عدم الاعتقاد بأنّ هذه هي الإله كما يتصور عبدة الشمس والقمر.. كلا.. ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ أَنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

فأيّ دقة يتكلّم بها القرآن الكريم؟ أذ من الممكن ان يترك عدّ البركات المختلفة للشمس والقمر والليل والنهار وبقية الموجودات في هذا العالم هذا الأثر على العقول القاصرة، وهو إنّنا مدينون الى هذه الموجودات بنعمها، إذن يجب ان نَسْجُدَ لها وننوسل اليها، كما ابتلي بذلك الوثنيون على مرّ التاريخ. ويؤكد القرآن الكريم.. أن افتحوا اعيينكم، ولتكن لديكم نظرة ثابتة الى العلة في النور لتجدوا مسبب الاسباب خلف حُجُبِ العِلَلِ، فتَمَرَّغوا جباهكم بتراب عتبته، ولا تخذعكم وتُضِلَّكُمْ الاسباب.

* * *

ويتحدث في الآيتين السادسة والسابعة عن حركة الشمس والقمر ومنازلهما،

(١) القطمير، بتعبير بعض المفسرين هو القشر الخفيف الذي يغطي نواة التمر، ويقول البعض إنه النتوء الصغير الموجود خلف نواة التمر، وعلى أية حال فهو كناية عن موجودات متصاغرة ودينئة.

وَبَصَّرْخُ فِي نِهَآيَةِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِأَن كَلَامًا مِنْ هَذَيْنِ الْجُرْمَيْنِ يَسْبَحُ فِي فَلَكَهِ وَمَدَارِهِ وَخَطُهُ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(١) ، وهذه التعابير من عجائب القرآن من ناحية ، ومن عجائب عالم الخلق وعلم وقدره الباري تعالى من ناحية أخرى .

وتوجد هنا عدة تفاسير لما تعنيه جملة ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ ومفهوم ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ .

أولها: أن المقصودَ هي الحركة الظاهرية للشمس التي تبدأ منذ شروق الشمس وحتى استقرارها عند الغروب ، حيث يظهر للعيان أنها تختفي (ونعلم جيداً إِنَّ حَرَكَةَ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا هِيَ الَّتِي تُجَسِّدُ لَنَا مِثْلَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي الْوَاقِعِ) .

الثاني: أَنَّ المقصودَ هي حركات الشمس المحورية ، حيث تنحرف نحو الجزء الشمالي للكرة الأرضية مع بداية فصل الربيع ، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الصيف حيث تستقر (في النصف الشمالي للكرة الأرضية) محاذية لمدار السرطان (٢٣ شمالاً) وهو ما يصطلح عليه بالميل الأعظم الشمالي ، ثم تبدأ حركتها نحو الجنوب وتصل إلى محاذية خط الاستواء أوائل فصل الخريف ، ثم تنحرف نحو جنوب الكرة الأرضية ، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الشتاء حيث تصل إلى محاذية مدار رأس الجدي (٢٣ جنوباً) ويعبرون عن هذا الانحراف بالميل الأعظم الجنوبي ، ثم تبدأ حركتها نحو الشمال وتكون بمحاذية خط الاستواء في فصل الربيع .

بناءً على ذلك فإنَّ المقصود من جريان الشمس هو هذا الانحراف نحو الشمال والجنوب ، والمقصود من المستقر هو آخر نقطة للانحراف الجنوبي والشمالي أي (مدار رأس السرطان ومدار رأس الجدي) .

(١) يسبحون من مادة سباحة ونعني الحركة السريعة في الماء أو الهواء (مفردات الراغب) .

والمعروف (طبعاً) أنَّ هذه الحركة ناتجة عن دوران الارض حول الشمس ومع الاخذ بنظر الاعتبار انحراف محور الارض بمقدار ٢٣°، ولكن ما يبدو لنا هو أنَّ الشمس لها مثل هذه الحركة .

الثالث : المقصود هو الحركة الموضعية للشمس حول نفسها ، فقد ثبت اليوم ان الشمس تدور حول مركزها ايضاً (إذ ذكروا ان مدة هذه الحركة في دورة كاملة تعادل ٢٥ يوماً ونصف اليوم) ، وفي هذه الحالة ستكون اللام في «لـمستقر لها» بمعنى (في) أي ان الشمس تتحرك في مكانها (وطبعاً فقد اشكّل بعض المفسرين على هذا التفسير باعتباره لا يتناسب مع مفهوم كلمة جريان) .

الرابع : المقصود هو حركة الشمس في ابراج السماء على مدى اشهر السنة ، والتي تقابل في كل شهر أحد هذه الصور الفلكية الاثنا عشر ومن هنا تظهر السنة باثنتي عشر شهراً هذه الابراج ^(١) ، وعليه فإنَّ المقصود من المستقر هو نهاية هذه الدورة .

الخامس والسادس : الحركتين اللتين اكتشفهما العلماء مؤخراً للشمس ، احدها مع مجموعة المنظومة الشمسية في دورتها حول مجرتنا التي تأخذها باتجاه إحدى الصور الفلكية المعروفة بـ (صورة الجاثي) الواقعة شمالاً بالنسبة للشمس ، إذ تقطع اثناء هذه الحركة اكثر من (٦٠٠ مليون كم سنوياً) وهذا ما يشبه تماماً جلوس مجموعة في طائرة وانشغالهم بالدوران حول مركز واحد بينما تسير الطائرة بسرعة نحو اتجاه ما ، وقد تكون حركة الطائرة هادئة وخفيفة بالقدر الذي لا يحس الانسان بهذه الحركة السريعة .

(١) المقصود من «البرج» هنا مجموعة النجوم المتجمعة والتي تكونُ شكلاً خاصاً ، والابراج الاثنا عشر كما يلي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، السرطان ، والاسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت .

والحركة الاخرى هي دوران المنظومة الشمسية مع بقية المجرات حول المركز الاصلي لهذه المجرات التي نرتبط بها، ومما يثير العجب فقد ذكروا ان سرعة هذه الحركة المذهلة تقدر بـ ٩٠٠ ألف كيلو متر في الساعة (بل اكثر من ذلك قليلاً) ^(١).

وطبقاً لهذا التفسير فإن المقصود من المستقر هو المستقر الذي تبلغه الشمس عند نهاية العالم وحلول القيامة، حينها تصبح الشمس بلا ضياءٍ ويزول نظامها. و (طبعاً) لا تتعارض هذه التفسير مع بعضها، فيمكن ان تجتمع كل هذه التفسير الستة في مفهوم هذه الآية، لأن حركة كل من الارض والشمس ليست نوعاً واحداً.

وتعبير ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ تعبير لطيف حيث يعبر عن حركة الشمس والقمر السريعة والرقيقة والمتوازنة في نفس الوقت. وذكر في الآيات اعلاه منازل معينة للقمر حيث قال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَ نَازَةٍ مَنَازِلٍ﴾.

والمقصود تلك المنازل الثمانية والعشرون التي يطويها القمر كل شهر منذ بداية مرحلة الهلال وحتى المحاق (الظلام المطلق)، وفي الليلة الثامنة والعشرين يظهر ثانية على هيئة هلالٍ اصفر رفيع جداً وقليل الاشعاع والنور ويبقى ليلتين حيث يقال له (محاق) اذ تتعذر رؤيته.

ويشبه القرآن الكريم هلال آخر الشهر بـ ﴿الْعَرَجُونَ الْقَدِيمُ﴾ ^(٢)، وهذا التعبير لطيف وجذاب للغاية من عدة وجوه.

(١) راجعوا كتاب العوالم البعيدة ص ٢٩٣، وتسخير النجوم ص ٣٩٢.

(٢) «العرجون» من مادة «انعراج» أي الاعوجاج والانحناء، ويصفه البعض بذلك القسم من القرن المقوس الذي يتبقى على النخل بعد قطف التمر، و«القديم» تعني العتيق.

ونختتم هذا البحث الذي قد طال بعض الشيء بذكر هاتين المسألتين :
أولاً: ان المعنى اللغوي لـ ﴿الْفَلَكَ﴾ في الآيات اعلاه هو ليس المعنى الذي
قاله علماء الهيئة قديماً ، لأن ﴿الْفَلَكَ﴾ في اللغة تعني مدار النجوم ، وقد يطلق على
أيّ موجود يشبه الدائرة يكون أعلى من اطرافه ، ويعتقد «الراغب» انها في الاصل
من مادة «فَلَكٌ» (على وزن قُلْ) والتي تعني «السفن» ، لأن السفن لها حركات
دائرية حول مسيرها في البحر .

ولكن المنجمين القدماء سلكوا نهج بطليموس اذ كانوا يعتقدون ان السماء
تتألف من تسع طبقات مركبة بعضها فوق بعض كقشرة البصل ، ولأن هذه الطبقات
تتكون من مادة شفافة كالبلور فقد التصقت النجوم والكواكب في وسطها وتدور مع
دوران الافلاك فيظهر دوران النجوم فقط ، ولا يظهر شيء من دوران الافلاك ، وقد
بطل هذا الاعتقاد بنحو كامل اليوم ، واصبح من المسلّم به ان النجوم معلقة في فضاء
غير محدود وتحرك تحت تأثير قانون الجذب والطردي في مسيرة معينة ، والجدير
بالذكر ان القرآن الكريم نزل في زمان كانت تحكم فيه نظرية بطليموس على جميع
المحافل العلمية بكل قوة ، إلا ان تعابير القرآن (كالتعبير بـ «الجريان» و «السباحة»
التي وردت في الآيات اعلاه) لا تتلائم مع النظرية القديمة بأيّ نحو وتتطابق مع آخر
الاكتشافات العلمية في هذا العصر « تأمل جيداً » .

* * *

وورد في الآيتين الثامنة والتاسعة أيّمان تبعث على التأمل فيقول في
احدهما : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ ، فيمكن ان يكون هذا التعبير
اشارة الى المشارق والمغارب و «المكانية» المختلفة ، لأن كروية الارض تؤدي الى
وجود مشرق ومغرب بعدد نقاط سطح الارض ، أو أن يكون اشارة الى المشارق
والمغارب «الزمانية» ، لاننا نعلم ان حركة الارض حول الشمس تؤدي الى استحالة

شروق الشمس وغروبها من نقطة واحدة خلال يومين متتاليين .

هذا الاختلاف في المشارق والمغارب الذي يتم من خلال نظام دقيق ومنهجي سبب في حدوث « الفصول الاربعة » بما فيها من بركات من جهة ، ومن جهة اخرى فهو يؤدي الى موازنة الحرارة والبرودة والرطوبة على سطح الارض ، ويمنح حياة الانسان والحيوانات والنباتات نظاماً وترتيباً ، وكل منها آية من آيات الله وبرهان من براهينه .

وفي مكان آخر يُقسم بالقمر « كَلَّا وَالْقَمَرَ - وَاللَّيْلَ إِذَا أَذْبَرَ - وَالصُّبْحَ إِذَا اسْفَرَ » ثم يضيف : أَنَّ هذه الأيمان تُنبئ عن تحذير في أمر المعاد فيقول : « إِنَّ أحداث القيامة وجهنم من عظيمات الامور » **« إِنَّهَا لأُخْدِي الْكُبْرَى »** ، ^(١) .

واقسم في بداية سورة الشمس بالشمس ايضاً ، واشعتها التي تحيي الارواح ، والقمر الذي يبرز بعد غروب الشمس .

وهذا ما نفهمه ايضاً بأن القسم بشيء ما يدل على اهميته الخاصة ، واذا صدر هذا القسم عن شخص عظيم ستتضاعف اهميته ، واذا أقسم به من اجل موضوع مهم ستزداد أهمية هذا الموضوع ايضاً .

والآن تأملوا جيداً عندما يُقسم الباري جلّ وعلا بالشمس والقمر من اجل مسألة المعاد المهمة ، فهذا دليل على العظمة الفائقة لهذين النجمين ، ويشهد على هذه الحقيقة حيث ان كلاً من هذين النجمين ذو أهمية في نظر القرآن الكريم .

فلماذا يُقسم الباري تعالى بكواكب السماء والليل والنهار من اجل اثبات القيامة والحساب ؟ لأن النظام الحاكم على هذه الاشياء يبرهن على ان لجميع ذرات العالم حساباً خاصاً ، بناءً على ذلك كيف يمكن ان تكون اعمال الانسان الذي هو

(١) يقول الفخر الرازي : إِنَّ جهنم لها سبع مقامات ودركات وهي كما يلي ، جهنم ، ولظى ، والحطمة ، والسعير ، وسقر ، والجحيم ، والهاوية (ج ٣٠ ص ٢٠٩) .

زهرة عالم الوجود بلا حساب ولا كتاب ، ولا وجود للمعاد والمحكمة العادلة ؟ .

* * *

وجاءت الآية العاشرة الاخيرة بالحديث عن نعمة وجود النجوم والنظام الدقيق الذي يحكمها فيقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ثم يضيف : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

لقد كانت النجوم دائماً وعلى مدى مراحل التاريخ من أهم وسائل ارشاد الانسان في الليالي المظلمة ، حيث ينجو بمساعدتها في اسفاره البحرية والبرية ، حتى ان بعض العلماء يظنون ان الطيور المهاجرة ، أي الطيور التي تقطع آلاف الكيلو مترات في السنة احياناً ، وبعضها يستمر في طيرانه ليلاً ونهاراً بلا توقف ، تحدد طريقها نهاراً عن طريق الشمس ، وليلاً عن طريق نجوم السماء ، ولهذا فانها تتوقف مؤقتاً اذا كان الجو غائماً تماماً حتى تنكشف الغيوم وتظهر السماء والنجوم !
والعجب امكانية تحديد فصول السنة ايضاً من خلال النجوم .

على أية حال ، فان هذه الآية تُلَفَّتْ نظر كل المفكرين الى هذه المسألة وهي ان حركة النجوم في السماء واستقرارها في هذا الميدان العظيم تتمتع بنظام وحساب خاص ، وإلا لما استطاع أي أحد العثور على طريقه في ظلمة الليل من دونها .
وهذا النظام يدل على أن الخالق المدبر قد خطط له بكل حكمة ، ولهذا فان النظام السائد على نجوم السماء يُحررنا من ظلمات الشرك والكفر ايضاً ! .

ومع تطور علم الفلك ، فقد افلح العلماء في تقدير سرعة الكثير من كواكب السماء ، وحجمها ومسافاتهما وبقية خصائصها ، وتوصلوا عن هذا الطريق الى حقائق جديدة عن هذا النظام العظيم .

صحيح قد تم اختراع آلات ووسائل دقيقة يستطيع الانسان بمساعدتها أن يعثر على طريقة في البر والبحر ، ولكن لا ينبغي نسيان عدم امكانية استخدام جميع

المسافرين لهذه الوسائل العلمية المتنوعة ، اضافة الى حدوث الخلل في هذه المعدات والآلات الدقيقة احياناً مما يسبب الانحراف عن الطريق ، فاذا كان الانسان مطلعاً على مواقع ومواضع النجوم يستطيع من خلال ذلك إصلاح اخطاء هذه المعدات .

ورد في بعض الروايات تفسير آخر لهذه الآية عن اهل البيت (عليهم السلام) يمكن أن يُعَدَّ جزءاً من المعاني الباطنية والثانوية لهذه الآية ، وذلك ان المقصود من « النجوم » هم القادة الربانيون والائمة المعصومون الذين ينجو الناس بهم من ظلمات الحياة كما ورد في تفسير علي بن ابراهيم في بيان معنى الآية « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » حيث قال : « النجوم هم آل محمد »^(١) ، و - طبعاً - من المستطاع الجمع بين هذين المعنيين ، أي النجوم المادية والنجوم المعنوية والنجاة الظاهرية والباطنية .

* * *

توضيحات :

١ - هوية الشمس :

لقد أتضح لنا اليوم تقريباً ان الشمس عبارة عن كرة ، وانها اكبر من الارض بمليون وثلاثمائة الف مرة ، أي لو كانت الشمس مقعرة الوسط لكان من الممكن أن تستوعب مليوناً وثلاثمائة الف كرة ارضية ! وتتضح هذه العظمة المذهلة من خلال التأمل في قطر الشمس عند الوسط الذي يقرب من (مليون واربعمائة الف كيلو متر) .

(١) تفسير نور الثقلين ج ١ ص ٧٥٠ ج ٢٠٣ .

وتبلغ الفاصلة بيننا وبينها ١٥٠ مليون كيلومتراً تقريباً ، وأنَّ نورها الذي يقطعُ طريقهُ بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر في الثانية يصل إلينا خلال ٨ دقائق تقريباً .
ان جُرمَ الشمس العظيم يؤدي إلى زيادة وزن الأشياء فيها ، فمثلاً إنَّ الانسان الذي يبلغُ وزنه ٦٠ كيلوغراماً على سطح الارض سيكون وزنه ١٥٠٠ كغم فيما اذا كان على سطح الشمس ! .

لقد قدَّر العلماء وزن الشمس بما يعادل :

٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طن .

واخيراً فهم يُقدِّرون عمر الشمس منذ تكونها بشكلها الحالي بما يقارب ٥ مليارات سنة .

إنَّ للشمس ثلاثة انواع من الحركة تقريباً ، فحركةٌ حول نفسها (كلَّ ٢٥ يوماً مرّةً واحدة تقريباً ، وحركةٌ مع المنظومة الشمسية في قلب المجرّات نحو الصورة الفلكية (الجاثي) حيث تبتعد عن مكانها اكثر من ٦٠٠ كم كل ساعة ، وحركةٌ حول مركز المجرّات ، وتدور حول هذا المركز خلال هذه الحركة مرّةً واحدة كل ٢٥٠ مليون سنة .

أما حرارةُ سطح ومركز الشمس فهي عجيبةٌ للغاية ، وتُبينُ حسابات العلماء أنَّ حرارة سطح الشمس تعادل ٦٠٠٠ سانتغراد تقريباً ، ولا تحصل هذه الحرارة على الارض في أيِّ مختبرٍ أو فرنٍ أبداً ، ودليلُ ذلك واضحٌ جداً لأنَّ جميع المواد بطيئة الذوبان التي نعرفها والتي يمكن بناء فرنٍ منها لا تذوب في مثل هذه الحرارة فقط ، بل تصبحُ بخاراً ، ولهذا فإنَّ جميع المواد الموجودة على سطح الشمس ذائبةٌ على هيئة بخار .

والأعجبُ من ذلك حرارةُ عمقها التي تبلغُ ٢ مليون درجة سانتغراد ! وتندلُع من سطح الشمس السنّة نيرانٌ يبلغُ ارتفاعها أحياناً ١٦٠ ألف كم ، ومن السهولة ان

تضبع الكرة الأرضية فيها (لان قطر الارض ليس اكثر من ١٢ ألف كيلو متر) .
 ان هذه الحرارة لا تحصل بسبب الاحتراق ، وإلا لو كان جرم الشمس قد صُنِعَ
 من الفحم الحجري الخالص لانتهدت تماماً على مدى عدة آلاف من السنين كما يقول
 « جورج غاموف » في كتاب « تكوّن وموت الشمس » ، ولا يبقى شيء سوى الرماد .
 فالحقيقة ان مفهوم الاحتراق لا يصدق بخصوص الشمس وما يصدق هو الطاقة
 الناتجة عن الانشطار النووي ، ولكن بهذا الحال وطبقاً للحسابات العلمية فان كل
 ثانية تمر على الشمس ينقص من وزنها ٤ ملايين طن ، أي إن هذا المقدار من ذراتها
 يتحول الى طاقة ، فبالرغم من ان هذا الأمر ليس له تأثير على المدى القريب ، إلا انه
 من المسلّم به سيساعد في فناء الشمس على المدى البعيد ، وهذا ما صرّح به القرآن
 الكريم في آياته ، حيث سيأتي اليوم الذي ينطفئ هذا المصباح السماوي العظيم
 المنير^(١) .

* * *

٢ - البركات العظيمة للشمس :

مهما تحدثنا حول فوائد وجود هذا النجم السماوي وتأثيره البالغ على حياة
 الانسان وبقية موجودات الارض ، فأنا نكون مقصرين ، وفي الحقيقة يمكن تأليف
 كتاب كبير في هذا المجال يتسلسل كما يلي :

١ - ان جاذبية الشمس تؤدي الى ان استمرار الارض في دورانها في مدارها
 الثابت وإلا لسقطت في إحدى زوايا هذا الفضاء اللامتناهي ككرة مضطربة .

(١) اقتباس من كتب ١ - (تركيبات الشمس) ، ٢ - (نجوم بلا منظار) ، ٣ - (تكوّن
 وموت الشمس) ، ٤ - (تاريخ العلوم) ، ٥ - (من العوالم البعيدة) ، ٦ - (الاسلام
 والهيئة) .

٢- ان الحرارة الصادرة عن الشمس التي تُشرقُ نهاراً مباشرةً وتعود ليلاً على هيئة احتياطي في الاجسام التي على سطح الارض تساعد على نمو النباتات وديمومة حركة وحياة الحيوانات .

إنَّ الشمسَ تَضَعُ في خدمة الانسان نوراً سليماً ومجانياً وغير حارٍ او مُحْرِقٍ ولا باردٍ وخالٍ من الأثر، بشكلٍ دائمٍ، واذا قارنّا قيمة الطاقة الناتجة عن الشمس مع قيمة مصادر الطاقة الاخرى فلا بد أن تدفع البشرية اموالاً عَوْضاً عن النور والحرارة التي تستلمها من الشمس مقارنةً مع ثمن « الكهرباء » (ملياراً و ٧٠٠ ألف دولار كل ساعة) .

عندئذٍ يجب ان نفكّر كم ستكون هذه الميزانية على مدى سنةٍ كاملةٍ ؟
وبتعبيرٍ آخر، لو أرادَ أهلُ الارض تأمين الحرارة التي تمنحُها إياهم الشمس ، عن طريق شراء الفحم الحجري فيجب عليهم توفير ٦١ ألف مليار طن منه سنوياً ، او بعبارة اخرى توفير ٢٠ ألف طن لكل شخص ، أي تأمين ميزانية باهضة .

٣- نحنُ نعلمُ أنَّ ضوء الشمس يتركَّبُ من ٧ ألوان مُزجت مع بعضها وظهرت على هيئة هذا النور الابيض والشعاع الحالي ، وهذا النورُ يُعْتَبَرُ عاملاً مساعداً للنباتات حيثُ يمتصُّ غاز ثاني اوكسيد الكربون من الجو ويطرَحُ في المقابل غاز الاوكسجين الذي هو عِمادُ حياتنا ، فهو يساعد النباتات في نموها بسحب ثاني اوكسيد الكربون .

ونحنُ نميزُ الاشياء حسب العادة عن طريق الوانها ، وهذه الالوان تحصلُ في شعاع الشمس ، لأنَّ كلَّ موجودٍ يقوم وحسب تكوينه بامتصاص جانبٍ من الوان الشمس فنطلقُ على اللون الذي لم يُسحب لونَ الشيء ، أي انَّ الورق الاخضر للنباتات يمتص جميع الوان الشمس عدا اللون الاخضر ، إذن فنورُ الشمس هو الذي يُظهرُ جميع الالوان .

٤ - إِنَّ الْأَشْعَةَ فَوْقَ الْبِنْفَسْجِيَّةِ وَالتِّي هِي مِنْ أَشْعَاعَاتِ الشَّمْسِ تُفِيدُ فِي الْقَضَاءِ عَلَى ٩٠٪ مِنَ الْجَرَائِمِ ، وَتَقُومُ بِدَوْرِ مَنَعِ التَّعَفُّنِ بِنَجْوٍ تَامٍ ، وَلَوْلَاهَا لَتَبَدَّلَتِ الْأَرْضُ إِلَى مَسْتَشْفَى كَبِيرٍ ، وَلَعَلَّ أَشْعَةَ الشَّمْسِ اعْتَبِرَتْ لِهَذَا السَّبَبِ مِنَ الْمَطْهَرَاتِ فِي الْإِسْلَامِ « مَعَ شُرُوطٍ خَاصَّةٍ طَبْعاً » .

٥ - لَقَدْ اسْتَطَاعَ الْعُلَمَاءُ مِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامِهِمُ لِلْعَدَسَاتِ الْمُحَدَّبَةِ الْفَخْمَةَ مِنْ تَوْلِيدِ حَرَارَةٍ هَائِلَةٍ بِأَمْكَانِهَا تَشْغِيلَ الْمَصَانِعِ الْمَهْمَةِ ، وَلَعَلَّ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَوْسُوسَاتِ الصَّنَاعِيَةِ الْحَسَّاسَةِ سَيَتَمُّ تَشْغِيلُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ بِالِاسْتِفَادَةِ مِنْ نَوْرِ الشَّمْسِ ، وَتَحُلُّ الطَّاقَةُ الشَّمْسِيَّةُ عِنْدَئِذٍ مَحَلَّ الْكَهْرَبَاءِ فِي الْبُيُوتِ .

٦ - إِنَّ تَكُونُ الْغُيُومِ نَتِيجَةٌ لِأَشْعَةِ الشَّمْسِ عَلَى الْمَحِيطَاتِ وَهَبُوبِ الرِّيحِ نَتِيجَةٌ لِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ عَلَى الْأَرْضِ بِسَبَبِ أَشْعَةِ الشَّمْسِ ، ثُمَّ حَرَكَةِ الْغُيُومِ نَحْوَ الْيَابَسَةِ وَهَطُولِ الْأَمْطَارِ الَّتِي تَبْعَثُ الْحَيَاةَ ، هِيَ أَحَدُ الْفَوَائِدِ الْمَهْمَةِ لِلْغَايَةِ لِنُورِ وَحَرَارَةِ الشَّمْسِ .

٧ - أَنَّ حَرَكَةَ الشَّمْسِ الْمُنْظَمَةَ فِي أَبْرَاجِ السَّمَاءِ (الصُّورِ الْفَلَكَيَّةِ) وَشُرُوقِهَا وَغُرُوبِهَا الْمُنْهَجِي الَّذِي يَجْرِي بِنِظَامٍ وَتَعَاقِبٍ دَقِيقٍ وَمَحْسُوبٍ عَلَى مَدَى أَيَّامِ السَّنَةِ ، إِضَافَةً إِلَى مُسَاعَدَتِهَا فِي تَكْوِينِ الْفُصُولِ الْمُتَعَدِّدَةِ ، فَهِيَ تَسَاعِدُ فِي إِيجَادِ تَقْوِيمٍ وَحِسَابٍ مُنْظَمٍ لِلزَّمَانِ الضَّرُورِيِّ جَدًّا لِلْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلبَشَرِ ^(١) .

* * *

(١) فَكَمَا قُلْنَا أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسِيَّ لِحُصُولِ هَذِهِ الْأُمُورِ هُوَ فِي الْوَاقِعِ دَوْرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ الشَّمْسِ ، وَلَكِنْ بَمَا أَنَّ حَرَكَةَ الشَّمْسِ هِيَ الَّتِي تُرَى كَسَبَبٍ لِهَذَا حَسَبِ الظَّاهِرِ ، فَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَعْتَبِرُ كَلَامًا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (حِسَابَانِ) أَيْ (وَسِيلَةً لِلنِّظَامِ وَالْحِسَابِ) - الْإِنْعَامُ ٩٦ .

٣ - القمر وبركاته :

إنَّ القمر كوكبٌ صغيرٌ نسبياً فهو اصغر من الارض بـ (٤٩ مرّة) وفقاً لحسابات العلماء ، لهذا فإنَّ قوة جاذبيته تعادل $\frac{1}{4}$ قوة جاذبية الارض ، ومتوسط بُعده عن الارض اكثر من ٣٨٤ الف كيلومتر ، لذلك فإنَّ نور القمر يصل الينا خلال اكثر من ثانية واحدةٍ بقليل .

وتبلغ سرعة حركته في دورته حول الارض كيلومتراً واحداً في الثانية ، ويدور حول الارض مرة واحدة على مدى شهرٍ قمرى واحد أي « اكثر من ٢٩ يوماً بقليل » ، ويدور حول نفسه ايضاً مرة واحدة خلال نفس هذه الفترة ، وبما أنَّ هاتين الحركتين متناسقتين فإنَّ جانب القمر الذي يقابل الارض يكون ثابتاً على الدوام ، ولا عجب اذا قلنا أنَّ نور القمر حين اكتماله ليلة البدر أقل من ضوء الشمس بـ (٤٦٠) ألف مرة ، إلا ان هذا النور الضئيل يضيء الليالي المقمرة ، ويظهر كمصباحٍ جميلٍ كثيف الشعاع ومريح للفؤاد وبمنظرٍ شاعريٍّ محبَّب .

ولم تكن الاشارة الى القمر في الآيات السابقة فقط ، فقد تمت الاشارة الى القمر وبركاته وفوائده في آياتٍ كثيرة من القرآن الكريم ، وورد القَسَمُ به في آياتٍ اخرى ايضاً ، وجاء الحديث عن « القمر » في ما مجموعه « ٢٧ » آية من القرآن الكريم ، وأشير الى تسخير القمر في سبع آياتٍ من هذه الآيات التي تُبيِّنُ اهمية فوائده في حياة البشر ^(١) .

أنَّ فوائد وبركات القمر كثيرةٌ للغاية ، حيث نشير هنا الى عددٍ منها :

١ - أنَّ دوران القمر حول الارض يُشكِّلُ تقويماً طبيعياً لطيفاً ، وقد مرَّ شرحُهُ

(١) الاعراف ٥٤ ، ٢ - الرعد ٢ ، ابراهيم ٣٣ ، النحل ١٢ ، لقمان ٢٩ ، فاطر ١٣ ،

الزمر ٥ .

في الابحاث السابقة .

٢- انّ الضياء المناسب الذي يمنحه القمر بالرغم من انه لا يزيل ظلمة الليل كلياً (ولا ينبغي ان يزيلها لأنّ نفس الظلمة لها فلسفة مهمة) ، ولكن يُمكن ان يساعد الانسان الى حد ما في الكثير من الليالي على اكتشاف طريقه في المدن والصحارى والبحار ، لا سيما ان نور القمر مناسب وملائم بحيث لا يزعج الانسان والموجودات الاخرى اثناء النوم والراحة ليلاً ، بل يشعر الانسان باطمئنان خاص من خلال نور القمر .

٣- انّ مسألة المدّ والجزر في البحار إحدى الآثار البارزة لوجود القمر ، فالذين ذهبوا الى البحار كان بإمكانهم ملاحظة هذا الأمر في الليل والنهار حيث يرتفع وينخفض منسوب المياه مرتين كل يوم ، ويُعبّر عن ذلك بالمد والجزر ، ويستمر كلّ منهما لمدة ٦ ساعات تقريباً .

فثناء المدّ يرتفع منسوب المياه ويغطي معظم سواحل البحر ، وخلال الجزر تنكشف سواحل البحار .

ولهذا المدّ والجزر فوائد مهمة في حياة البشر منها : تراجع مياه الانهار التي تصب المياه العذبة في البحار مما يؤدي الى ري الاراضي الواسعة عن طريق ذلك كما يشاهد في بساتين النخيل الساحلية الواسعة في خوزستان .

ومن الفوائد الاخرى للمد والجزر هي حركة المكائن في المصانع ونشاط الخزانات الكهربائية ، وكذلك الإبحار ، حيث ان السفن الكبيرة تستطيع خلال المد ان ترسو في معظم السواحل حيث يتم تحميل وتفريغ حمولتها ، وتنظيف الموانئ ، وصيد الاسماك ، وتحريك مياه البحر وموازنة حرارته ومركباته ايضاً

وامور اخرى^(١).

* * *

٤ - القمر والشمس في كلام الائمة المعصومين (عليه السلام):

عندما تقع عين الامام السجّاد (عليه السلام) على القمر فهو يخاطبه ، وهذه الكلمات درس في التوحيد ومعرفة الله حيث يقول :

(ايها الخلق المطيع ! الدائب السريع المتردد في منازل التقدير المتصرف في فلك التدبير ، آمنت بمن نور بك الظلم ، وأوضح بك البهم ، وجعلك آية من آيات ملكه ، وعلامة من علامات سلطانه ... سبحانه ما اعجب ما دبّر في أمرك ، وألطف ما صنع في شأنك جعلك مفتاح شهر حادث لامر حادث ...)^(٢).

وفي توحيد المفضل عن الامام الصادق (عليه السلام) :

(فكّر يا مفضل في طلوع الشمس وغروبها لاقامة دولتي النهار والليل ، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كلّ فلم يكن الناس يسعون في معاشهم ، ويتصرّفون في امورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتهنئون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه ، والإرب في طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإطناب في ذكره ، والزيادة في شرحه ، بل تأمل المنفعة في غروبها ، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم الى الهدوء والراحة ...

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لاقامة هذه الازمنة الاربعة من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة ...

فكّر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لاقامة دور السنة ... وفي

(١) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة ، ودائرة المعارف للمصاحب وكتب اخرى.

(٢) « بحار الانوار » ج ٥٨ ص ١٧٨ ج ٣٦.

هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهي إلى غاياتها، ثم تعود فيستأنف النشوء والنمو...

انظر إلى شروقها على العالم كيف دبر ان يكون، فانها لو كانت تبرز في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات .
أفلا يرى الناس كيف أن هذه الامور الجليلة ؟ التي لم تكن عندهم فيها حيلة صارت تجري على مجاريها ، لا تعتل ولا تتخلف عن مواقيتها لصالح العالم وما فيه بقاؤه ؟

استدلّ بالقمر ، ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة في معرفة الشهور ، ولا يقوم عليه حساب السنة ... فكّر في انارته في ظلمة الليل والإرب في ذلك ، فانه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شيء من العمل ، لانه ربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في تقضي الاعمال بالنهار ، اولشدة الحر وافراطه ... وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ، ونقص مع ذلك من نور الشمس وضياؤها لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار ، ويمتنعوا من الهدوء والقرار...^(١).

(١) بحار الانوار ج ٥٥ ص ١٧٥ الحديث ٣٦ «مع الاختصار» .

٩- آيَاتُهُ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

تمهيد:

بالرغم من أنَّ الليل والنهار من الظواهر التي تحصل نتيجة لضوء الشمس وحركة الارض ، ويعتبران من بركاتهما ، لكن نظراً لاهتمام القرآن بهما في آيات التوحيد بشكلٍ خاص ، واستناده الى هاتين الظاهرتين في الكثير من الآيات ، لذلك من الواجب الاهتمام بهما بشكل مستقل ، كي نرى فيهما آيات تلك الذات الغير معلومة ، ونتعرف اكثر على خالقِ وإله عالم الوجود ، ونزداد حباً له ، ونتشرف بالنظر الى حضرته المقدسة .

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الاثنتي عشرة الآتية :

- ١- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾^(١) .
- ٢- ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٢) .
- ٣- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾^(٣) .
- ٤- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾^(٤) .
- ٥- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آدَاءَ النَّهَارِ

(١) (الانبياء الآية : ٣٣) .

(٢) (النور الآية : ٤٤) .

(٣) (يونس الآية : ٦٧) .

(٤) (فصلت الآية : ٣٧) .

مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴿١﴾ .

٦- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً - وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ (٢) .

٧- ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ (٣) .

٨- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (٤) .

٩- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ (٥) .

١٠- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَاسَمْعُونَ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ - وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦) .

١١- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى - وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ (٧) .

١٢- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ

(١) (الاسراء الآية : ١٢) .

(٢) (النبأ الآية : ١٠ و ١١) .

(٣) (الفرقان الآية : ٦٢) .

(٤) (النحل الآية : ١٢) .

(٥) (يونس الآية : ٦) .

(٦) (القصص الآيات : ٧١-٧٣) .

(٧) (الليل الآية : ١ و ٢) .

سَمِيعٌ بَصِيرٌ^(١).

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

النظام العجيب لليل والنهار:

لقد تكررت كلمة ﴿الليل﴾ في القرآن الكريم اكثر من « ٧٠ » مرة، وكلمة ﴿النهار﴾ اكثر من « ٥٠ » مرة، والآيات السابقة تُعتبر نماذج مختلفة لهذه الآيات، حيث تمت الاشارة فيها الى البعد التوحيدي لخلق الليل والنهار على وجه الخصوص.

ففي الآية الاولى ذُكر اصلُ خلقِ الليل والنهار، والشمس والقمر، اللذين يرتبطان بهما بعلاقة قريبة كبرهانٍ لسالكي خط التوحيد ومعرفة الله، حيث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

وجاء هذا المعنى بنحو آخر في الآية الرابعة، اذ يقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

* * *

في الوقت الذي يقول في الآية الثانية: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

وقد يكون هذا التغيير في التعبير اشارة الى حصول الليل والنهار، او زيادة ونقصان مقداريهما، او اختلافهما من حيث البرودة والحرارة الذي يحدث

(١) (الحج الآية: ٦١).

خلالهما^(١)، ولكن لا مانع من شمول هذا التغيير كل هذه المعاني ابدأً.

* * *

واشار في الآية الثالثة الى احدى فوائد «الليل» و «النهار» المهمة، حيث يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾. والواضح ان الاطمئنان في ظلمة الليل أحد أهم النعم الالهية، كما ان نور النهار الضروري لمختلف النشاطات يُعتبر نعمة مهمة أخرى.

والملاحظ في هذه الآية انَّ النهار أُعْتَبِرَ «مُبْصِرًا»، والمُبْصِرُ في الأصل تعني البصير، ونحن نعلم انَّ النهار ليس بصيراً في نفسه، ولكن بما انه يؤدي الى أن يُبْصَرَ الآخرون، فلعلَّ هذا التعبير أُطْلِقَ عليه للتأكيد والمبالغة.

وفي الحقيقة لولا بريق النور فلا فائدة لألف عين مبصرة، لهذا فهو يضيف في ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي اولئك الذين يستمعون هذه الآيات ويتفكرون فيها.

* * *

في حين انه يعتبر كلاً من الليل والنهار في الآية الخامسة آيةً من آيات الله تعالى ويقول: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، ثم يشير الى فائدتي ذلك حيث يقول: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾.

فهل انَّ ابتغاء فضل الله من فوائد النهار فقط، ومعرفة حساب السنة والشهور من آثار الليل والنهار معاً؟ أم انَّ كلا المنفعتين لهما علاقة صميمية بالليل والنهار معاً؟ لانَّ الراحة في الليل لها أثر واضح في امكانية العمل والابتغاء من فضل الله

(١) وردت هذه الاحتمالات الثلاثة في تفسير روح المعاني ج ١٨ ص ١٧٣، وتفسير الفخر الرازي ج ٢٤ ص ١٥، ولكن ذكر التفسير الاول والثاني فقط في تفسير مجمع البيان (ج ٧ ص ١٤٨).

نهاراً، فالظاهر إنَّ المعنى الثاني اكثر تناسباً من حيث تناسقه مع الآية، بالرغم من أنَّ العديد من المفسرين ذكرَ المعنى الاول.

* * *

وفي الآية السادسة يشير الى هذا المعنى وينحو آخر حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا - وَالنَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

وقد يكون ﴿المعاش﴾ اسم زمانٍ أو مكانٍ أو مصدراً صميمياً، وهو يلائم المعنى المصدري^(١).

والتعبير بـ ﴿اللباس﴾ بخصوص «الليل» تعبيرٌ لطيفٌ جداً، حيث أنَّ الليل كاللباس بالنسبة لنصف الكرة الارضية، أو كالملابس بالنسبة للانسان، فكما ان اللباس يحفظ جسم الانسان من مختلف الاضرار ويمنحه جمالاً ورونقاً، فإنَّ ظلمة الليل والنوم العميق اثناء الليل يمنح روح الانسان وجسمه طراوةً ونشاطاً ويصونه من مختلف الامراض.

* * *

والحديث في الآية السابعة عن استخلاف الليل والنهار لبعضهما البعض، فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.

و ﴿خِلْفَةً﴾ على وزن «فتنه»، وكما يقول الراغب في «المفردات» فإنَّها تُطلقُ على شيئين يستخلف أحدهما الآخرَ باستمرار، لكن «خليفة» تعني «مختلف» وفقاً لرأي الفيروز آبادي في «قاموس اللغة»، ففي الحالة الاولى ينصب الاهتمام على

(١) قال بعض المفسرين: ان التعبير بـ «المعاش» اي «الحياة» بخصوص النهار هو لاجل ان النوم في الليل يشبه الموت كما يقول العرب في امثالهم «النوم أخ الموت»، وعليه فإنَّ النقطة المقابلة له اي النهار هو اساس الصحة والحياة، (الحياة بكل ابعادها).

تناوب الليل والنهار، فلو لم يكن هذا التناوب دقيقاً ومحسوباً، فأما أن تحترق موجودات الارض من شدة حرارة ضوء الشمس أو تنجمد من شدة برودة الليل، وفي الحالة الثانية اشارة الى اختلاف الليل والنهار وحصول فصول السنة الاربعة إذ إنها ذوات آثار خاصة في حياة الانسان.

واختار بعض المفسرين المعنى الاول، بينما ذهب البعض الآخر وراء المعنى الثاني، ولكن ليس هنالك من مانع في الجمع بين هذين المعنيين. وورد في الروايات ان الانسان يستطيع ان يقضي في النهار ما فاته من عبادات الليل وبالعكس، واعتبر الآية ناظرة الى هذا المعنى^(١).

ولا يتعارض هذا التفسير مع التفاسير السابقة ايضاً. وعلى أية حال، فإن الآية تشير الى نظام خاص ومتناوب لليل والنهار حيث يبرهن على العلم والقدرة اللامتناهية للخالق جلّ وعلا، بشكل لو كانت دورة الارض حول نفسها اسرع بقليل او اكثر ببطء مما عليه الآن لطال الليل والنهار وتعرضت حياة الناس بل كافة الموجودات على الارض الى الخطر.

* * *

والحديث في الآية الثامنة عن تسخير الليل والنهار وخدمتهما للانسان اذ يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾. وبما ان شرح معنى التسخير قد مرّ سابقاً في موارد مشابهة فلا نرى حاجةً للاعادة.

* * *

(١) ورد هذا التفسير في حديث عن النبي (ﷺ) «طبقاً» لما نُقل في تفسير الفخر الرازي، وفي حديث عن الامام الصادق (عليه السلام) «طبقاً» لما نُقل في نور الثقلين ج ٣ الآية المختصة بالبحث.

واشار في الآية التاسعة ، أولاً الى مسألة اختلاف الليل والنهار ، ثم الى كافة مخلوقات الارض والسماء التي خلقها الله تعالى كبرهان على عظمته وعلمه وقدرته فيقول : ﴿ اِنَّ فِيْ اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ لَاٰيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَّقُوْنَ ﴾ .

وهذا التعبير دليل على مدى اهمية خلقهما .

* * *

وفي القسم العاشر اشار في ثلاث آيات بتعابير جميلة الى الفوائد المهمة لليل والنهار فيقول : ﴿ قُلْ اَرَاَيْتُمْ اِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا اِلَى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ مَنْ اِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيْكُمْ بِضِيَاءٍ اَفَلَا تَسْمَعُوْنَ - قُلْ اَرَاَيْتُمْ اِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا اِلَى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ مَنْ اِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيْكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُوْنَ فِيْهِ اَفَلَا تُبْصِرُوْنَ - وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوْا فِيْهِ وَلِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴾ .

والجدير بالذكر انه يقول في نهاية احدى الآيات : ﴿ اَفَلَا تَسْمَعُوْنَ ﴾ ، وفي نهاية آية اخرى : ﴿ اَفَلَا تُبْصِرُوْنَ ﴾ .

ولعل هذه التعابير اشارة الى ان هناك دلائل حسية في هذا النظام الدقيق لليل والنهار يجب ان تُنظر بالعين ، وكذلك هناك دلائل نقلية يجب ان تُسمع ، وهذا جدير بالتأمل أيضاً اذ يقول في مورد خلود الليل : ﴿ اَفَلَا تَسْمَعُوْنَ ﴾ ، وفي مورد خلود النهار : ﴿ اَفَلَا تُبْصِرُوْنَ ﴾ ، لأنَّ الأذن تستخدم غالباً في الليل والعين في النهار .

* * *

إنَّ اهمية موضوع الليل والنهار بلغت الى الحد الذي يُقسم القرآن بهما في آيات عديدة من بينها ما يقوله في القسم الحادي عشر من هذه الآيات : ﴿ وَاللَّيْلِ اِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ اِذَا تَجَلَّى ﴾ .

وورد هذا المعنى في مكان ثانٍ وبتعبير آخر فيقول : ﴿ وَاللَّيْلِ اِذَا اَدْبَرَ وَالصُّبْحِ

إِذَا أَشْفَرَ ﴿١﴾ .

ويقول في مكانٍ آخر: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (٢) .

ويضيف في مكانٍ آخر: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ (٣) .

وأيمانٌ أخرى من هذا القبيل حيث تحكي كلها عن الأهمية الفائقة التي يوليها القرآن الكريم لليل والنهار كي يتمعن الإنسان بهما ويرى آيات الله في كلِّ موقعٍ منهما، لأنَّ القَسَمَ دليلٌ على أهمية وقيمة وحقيقة التأمل دائماً.

* * *

وفي الآية الثانية عشرة والآخرى نواجه تعبيراً جديداً في هذا المجال إذ يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ .

﴿يُؤَلِّجُ﴾ من مادة «ايلاج» وتعني الإدخال، وبما أنها جاءت بصيغة «الفعل المضارع» وحيث أننا نعلم أنَّ الفعل المضارع يفيد الاستمرار، فقد تكون إشارة إلى طول وقصر الليل والنهار التدريجي والمنظم على مدى فصول السنة المختلفة حيث ينقص أحدهما ويضاف إلى الآخر، فهذا النظام التدريجي عاملٌ مؤثرٌ في نمو النباتات وتكامل الكائنات الحيّة، فلو حدث فجأةً سيختل توازن هذه الموجودات فيكون مضراً، لهذا فقد جعله الباري تعالى أمراً تدريجياً.

ومن الممكن أن تكون إشارة إلى مسألة شروق وغروب الشمس، لأنَّ الشمس حينما تقترب من الشروق يشعُّ نورُها نحو الطرف الأعلى من الجو، ويضيء الجو قليلاً، وكلما ارتفعت الشمس من وراء الأفق يزداد هذا الضياء، وعلى العكس أثناء الغروب، فلا يحلُّ الليل دفعةً واحدةً، بل تختفي أشعة الشمس رويداً رويداً في

(١) (المدر الآية: ٣٣).

(٢) (التكوير الآية: ١٧).

(٣) (الضحى الآية: ١ و ٢).

الطبقات السفلى من الجو، ويحلُّ الظلام محلَّها، فهذا الانتقال التدريجي من النور الى الظلام وبالعكس يؤدي الى أن يتأقلم الانسان معه من الناحية الجسمية والروحية، ولو حلَّ الليل أو النهار بشكلٍ مفاجيء لترك آثاراً سيئة.

والجدير بالذكر أنَّ ظاهر الآية هو أنَّ دخول الليل في النهار والنهار في الليل يحدث في آنٍ واحدٍ، والواقع هو كذلك، لأنَّ الليل يقلُّ تدريجياً اثناء فصل الصيف في المناطق الواقعة شمال خط الاستواء ويصبح جزءاً من النهار أي إنه مصداق لـ ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ﴾، وفي ذات الوقت يقلُّ النهار في جنوب خط الاستواء ويصبح جزءاً من الليل حيث يكون مصداقاً لـ ﴿يُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾^(١)!

وجاء في الحديث المشهور عن المفضل، أنَّ الامام الصادق (عليه السلام) قال: فكَرَّ في دخول احدهما - الليل والنهار - على الآخر بهذا التدرج والترسل، فانك ترى احدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول احديهما على الأخرى مفاجأة، لأضر ذلك بالابدان وأسقمها، كما أن احدهم لو خرج من حمَّام حار الى موضع البرودة لضره ذلك واسقم بدنه، فلم يجعل الله عزوجل هذا الترسل في الحر والبرد إلا للسلامة من ضرر المفاجأة؟^(٢)

* * *

التوضيحات:

١ - اهمية النور والظلام وفوائد الليل والنهار:

لاحظنا في الآيات الآتية كيف أنَّ الله تبارك وتعالى يدعو الناس الى التفحص

(١) لقد ذكر «الطريحي» في «مجمع البحرين» هذه النكتة في مادة «ولج».

(٢) بحار الانوار ج ٣ ص ١١٨.

في هاتين الظاهرتين اللتين تبدوان عاديتين للعيان ، ويُعَدُّهما من آياته ، والحقيقة اننا كلما اعمنا النظر في هذا المجال نتوصل الى امور جديدة :

أ - فنحن نعلم انَّ اللَّيْل والنَّهَار في جميع انحاء العالم يختلفان تماماً ، فطول اللَّيْل عند خط الاستواء (١٢) ساعة ، وطول النَّهَار (١٢) ساعة ايضاً في كافة الفصول ، إِلَّا انَّ السَّنة كُلَّها في المنطقة الجنوبية وعلى خط ٩٠ ليست اكثر من يوم واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ حيث تكون مدة كُلِّ منهما ستة اشهر تقريباً « ومثل هذه المناطق غير مأهولة طبعاً » ، وهنالك مراحل وسط بين هذين الوضعين في باقي بقاع العالم . إِلَّا انَّ ماثير العجب هو بالرغم من هذا الاختلاف فانَّ جميع بقاع الارض تستفيد من اشعة الشمس بنفس النسبة على مدار السنة وهذا نظامٌ عادلٌ للغاية ! .

ب - انَّ النَّهَار اكثر طولاً اثناء الصيف واللَّيْل اكثر طولاً في الشتاء ، أي انَّ هذين الامرين يسيران بشكلٍ متزامنٍ ، زيادة طول النَّهَار ، والاشعاع العمودي « أو المنحرف عمودياً » للشمس ، فيكمل احدهما أثر الآخر ، ويؤديان الى زيادة حرارة الجو فتثمرُ الفواكه والمحاصيل الزراعية ، وفي الشتاء يؤدي الى زيادة البرودة وخمول الاشجار والنباتات ، واللطيف انه في المناطق الاستوائية حيث يشع ضوء الشمس عمودياً لا يطول النَّهَار ابداً ، وإلاَّ لداهما خطر السَّخونة واحترقت النباتات .

ج - إن ضوء الشمس يسبب اليقظة والحَذَر والغليان والحركة باستمرار ، على العكس من اللَّيْل الذي يبعث على السكون والاستقرار والنوم ، ويُلاحَظ هذا الأمر على وجه الخصوص في عالم الحيوانات ، حيث تستيقظ الطيور مع بزوغ الصبح وتتجه نحو الصحراء ، وتعود وتستريح في اوكارها مع افول الشمس ، وفي الارياض حيث ان لمعظم الناس حياةً طبيعية ، ويكون برنامج حياتهم كذلك ايضاً ، ولكن نظراً لتطور الآلة ، وصناعة النور الاصطناعي ، فانَّ الكثير من الاشخاص يسهرون جزءاً من

الليل وينامون بعض النهار، وهذا أحد الأسباب لبعض انواع الامراض ، وفي الحقيقة ان القرآن يُحذّر مثل هؤلاء الافراد بأن ترك النوم ليلاً يؤدي الى فقدان الاطمئنان الروحي وذلك من خلال عبارة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾^(١).

* * *

٢ - ظاهرة الليل والنهار في القرآن الكريم:

لقد ذُكِرت ظاهرة الليل والنهار اكثر من ثلاثين مرّة في القرآن الكريم كبرهانٍ على وجود الله ودليل على عظمته وقدرته ، حيث يقول احياناً: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(٢).

ويقول كذلك: ﴿لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾^(٣).

ويقول: ﴿آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

وفي الواقع ، أنّ العلاقة بين هذه الامور الثلاثة تتضح هنا حيث أنّ التفكير والتأمل الناضج والعميق كما ورد في حق ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يؤدي الى ظهور الايمان ورسوخه ، والايمان بدوره يؤدي الى ظهور التقوى في القلب والروح ايضاً . ولهذا فإنّ التمعّن في آيات عظمة الله وعلمه وقدرته في عرض عالم الوجود ، يُرسّخ العقيدة ويُربّي الانسان من الناحية العملية ايضاً .

(١) (يونس الآية : ٦٧) .

(٢) (النور الآية : ٤٤) .

(٣) (يونس الآية : ٦) .

(٤) (النمل الآية : ٨٦) .

١٠- آياته في خلق الجبال

تمهيد:

الكلُّ يعرفُ بشكل عام أنَّ الارياف واغلبَ المدن المهمة تتوسط الجبال الشامخة او تقع في اعماقها، وأنَّ الانهار الكبيرة التي هي عمادُ ازدهار المدن تنبعُ من الجبال الشاهقة، إلا أنَّ دورَ الجبال في حياة الانسان لا ينحصر بذلك فقط على الرغم من إنه مهمٌ بدوره ايضاً.

فالجبال لها دورٌ مهمٌ جداً في حياة الانسان بل جميع الموجودات التي تعيش على الارض، وفوائدها وبركاتها عديدةٌ جداً، ولا مبالغة اذا قلنا باستحالة الحياة على الارض بدون وجود الجبال.

ولهذا فإنَّ القرآن الكريم اشار في آيات كثيرة الى مسألة خلق الجبال كاحدى آيات التوحيد وبراهين على علم وقدره الخالق جلَّ وعلا.

بعد بهذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الآتية :

١- ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأِبِلِّ كَيْفَ خُلِقَتْ - وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ - وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ ^(١).

٢- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً - وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ ^(٢).

٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾ ^(٣).

٤- ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ

(١) (الغاشية الآيات : ١٧ - ١٩).

(٢) (النبا الآية : ٦ و ٧).

(٣) (الرعد الآية : ٣).

تَهْتَدُونَ ﴿١﴾ .

٥ - ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

٦ - ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ ثَلَاثِينَ ﴾ (٣) .

٧ - ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً ﴾ (٤) .

٨ - ﴿ أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

٩ - ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَالٍ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً ﴾ (٦) .

١٠ - ﴿ وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٧) .

* * *

شرح المفردات :

﴿ جبل ﴾ على وزن « عَسَل » ، بالرغم من أنَّ بعض ارباب اللغة فسَّرها بأنها

(١) (النحل الآية : ١٥) .

(٢) (الانبياء الآية : ٣١) .

(٣) (فصلت الآية : ١٠) .

(٤) (المرسلات الآية : ٢٧) .

(٥) (النمل الآية : ٦١) .

(٦) (النحل الآية : ٨١) .

(٧) (فاطر الآية : ٢٧) .

النقطة التي تعاكس الاراضي المنبسطة ، وفَسَّرَها بعضهم بالاجزاء المرتفعة من الارض حيث تكون عالية وطويلة ، فالظاهر أنَّ جميع هذه التعابير تشير الى معنى واحد .

وطبعاً قد يُستعمل هذا اللفظ في المعاني الكنائية ايضاً ، فقد يُقال (جبل) للاشخاص الصامدين والعظماء ، و « جِبَلِي » للصفات الثابتة في طبيعة الانسان والتي لا تتبدل ولا تتغير « كالجبل » ، وكذلك يقال (جِبِلٌّ) بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، للرھط والمجموعة في لغة العرب من باب التشبيه بالجبل في العظمة ^(١) .

و « الرواسي » جمع « راسية » أي الجبال الصلدة الراسخة ، وهي في الاصل من « الرسو » (على وزن رَسَمَ وغلُو) وهي مأخوذة من الثبات والرسوخ ، ويُطلقُ على الاواني الضخمة الراسخة والثابتة في مكان العمل بـ (الراسية) ايضاً ، (كالقدور الراسية) التي وردت في قصة سليمان (عليه السلام) في القرآن الكريم ، ويُطلقُ لفظ (رسي) على الاعمدة الثابتة في وسط الخيمة ايضاً ، ويقال لمكان رسو السفن بـ « المرساة » حيث تثبت وتستقر السفينة في مكانها .

وقد يُستخدم هذا اللفظ بمعنى ارساء السِّلَم في المجتمع ايضاً لأنَّ السِّلَم اساس ثبات كلِّ بلدٍ .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

البركات والاسرار العجيبة للجبال:

في القسم الاول من هذه الآيات يدعو الباري تعالى الناس الى التفحص في

(١) المفردات « للراغب » ، و « مجمع البحرين » ، و « لسان العرب » .

آيات الله في السماء والارض ، ثم يشير الى كيفية خلق الابل وكذلك ارتفاع السموات حيث ارتفعت بدون عَمَدٍ مع مالها من عظمة ، وأشار الى نصب الجبال فقال ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ .

ولعل هذا التعبير اشارة الى ثبات واستقرار الجبال في امكنتها ومنع حدوث الزلازل التي سيشار اليها في الآيات القادمة أو أُشِيرَ اليه آنفاً ، او الوقوف أمام الاعاصير والعواصف ، وتوفير الملاحيء الآمنة للبشر ، ومستودعات حفظ المياه على هيئة ينابيع وقنوات وانهار .

ويمكن ان يكون هذا التعبير اشارة ظريفة الى مسألة طبيعة تكوين الجبال ووجودها حيث كشف العلم المعاصر الستار عنها ، اذ يقول ان الجبال تكونت نتيجة لعوامل معينة : فقد يكون بسبب تعرُّج الارض ، واحياناً بسبب البراكين ، او نتيجة الترسبات الناتجة عن الامطار التي تغسل الارض وتجرف بعضها معها ويبقى الجزء القوي والصلب ثابتاً في مكانه .

وفي اعماق البحار تتكون الكثير من الجبال نتيجة الترسبات الحيوانية كالمرجانات حيث يطلق عليها الجبال او الجُزُر المرجانية .
ومن الممكن جمع كل هذه المعاني في عبارة ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ .

* * *

ويقول فى الجزء الثانى من الآيات كياناً للنعم الالهية : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً - وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ ؟ .

و ﴿الْأَوْتَادُ﴾ جمع «وَتْدُ» (على وزن حَسَدُ) ، وتُطْلَقُ على المسامير الضخمة القوية جداً ، وقد فسّرُها البعض بالمسامير التي تغور في الارض وتربط اليها

جبال الخيمة (١).

وهنا كيف تكون الجبال بمنزلة أوتاد الأرض؟ هناك تفسيرات متعددة: أولها وهو ما ثبت اليوم بأن الجبال لها جذورٌ عظيمة في أعماق الأرض، وهذه الجذور متشابكة معاً وتُمسكُ بقشرة الأرض كالدرع وتحفظها في مواجهة الضغوط الناشئة عن الحرارة الداخلية، ولولاها لما كان لسطح الأرض من قرار.

وفضلاً عن ذلك فكما أن جاذبية القمر والشمس تترك تأثيراتها على المحيطات، وتسبب الجزر والمد، فإن اليابسة لها تأثيرها أيضاً، فيمنحُ درعُ الجبال قشرة الأرض قدرة المقاومة أمام هذا الضغط الهائل.

ومن ناحية ثالثة فإن الجبال تصونُ بقاع الأرض المختلفة من العواصف والسيول وتقف أمامها كالسور العالي، بحيث لو كان وجه الأرض كله على هيئة صحراء لتعسّرت حياة الإنسان على سطحها أمام هذه السيول العارمة.

واهم من كل ما مضى فإن الجبال تعتبر بمنزلة الأوتاد القوية لنظام حياة البشر لكونها مركزاً ل ذخائر المياه.

وجاء في تفسير الميزان أن الأوتاد جمع وتد وهو المسمار إلا أنه أغلظ منه (٢) كما في المجمع ولعل عدّ الجبال أوتاداً مبني على أن عمدة جبال الأرض من عمل البراكين بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضية مذابة تستقر على فم الشق متراكمة كهيئة الوتد المنصبوب على الأرض تسكن به فورة البركان التي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والميدان.

* * *

وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة عبّر عن الجبال بـ «الرواسي» حيث

(١) تفسير المراغي ج ٣٠ ص ٤.

(٢) «الميزان» ج ٢٠ ص ٢٥٩.

يقول: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾ .

ويقول في مكان آخر: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ .

ويشاهد هذا المعنى في الآية الخامسة ايضاً .

يستفاد من مجموع هذه الآيات انَّ أحد أهم فوائد الجبال هو منع الحركات المضطربة والزلازل الارضية .

و ﴿تَمِيدٌ﴾ من مادة «مِيد» (على وزن صَيْدٌ) أي اضطراب الاشياء الضخمة ، وقال البعض انها الحركة المتزامنة مع الاضطراب يميناً وشمالاً ، كحركة السفن الخالية بسبب امواج البحر ، ولهذا يقال «مَيْدان» حيث الحركة فيه اثناء المسابقات او الحروب .

وقد تحدثنا في شرح الآيات السابقة عن تأثير الجبال في منع حركات قشرة الارض أثر الضغط الداخلي ، وجاذبية الجُزُر والمد للشمس والقمر ، والاضطرابات الناتجة عن السيول المستمرة ، ولا حاجة الى التكرار .

ويُفهم من هذه الآيات بصورة عامة ايضاً ، انَّ لتكوين الانهار علاقة بوجود الجبال ، وهو الصحيح ، فالانهار الكبيرة التي تجري على مدى السنة وتسقي الاراضي اليابسة هي من بركة المياه التي تجمعت في اعماق الجبال او قممها على هيئة جليدٍ أو بَرَدٍ ، ولهذا تُعتبر الجبال العملاقة في العالم ينابيع لانهار العالم العظيمة .

ونظراً لاحتمال تسبب وجود الجبال في حصول هذا الخلط لدى البعض حيث يتصورون انها تعزلُ اجزاءً من الارض عن بعضها ، وتغلُقُ منافذ العبور والمرور ، فقد ورد في الآيات اعلاه انَّ الله تعالى قد جَعَلَ فيها طُرُقاً واودية ، كي يهتدي الناس ويبلغوا مآربهم .

وهذه نكتة مهمة جداً حيث توجد على الدوام في اعماق الجبال العظيمة الشاهقة ممرات وطرق تمنح الناس فرصة المرور والعبور، أي انها في ذات الوقت الذي تشكل سداً قوياً امام السيول، فهي لا تمنع عبور ومرور الناس، ونادراً ما تقوم هذه الجبال بعزل اجزاء من الارض بشكل كامل.

وهنا نكتة جديدة بالاهتمام ايضاً، فلو كان سطح الارض مسطحاً لأصبح حاراً جداً واحترق بحيث تتعسر الحياة عليه بسبب حركة الارض السريعة حول نفسها، وحركة الهواء السريعة على سطح الارض.

لكن الباري تعالى الذي جعل الارض مهداً لراحة الانسان، أمر الجبال ان تُلقي بقبضتها في طبقات الجو، وتديرها معها حول الارض، كي تمنع اهتزاز الجو وحصول الحرارة.

بناءً على ذلك نلاحظ جيداً اهمية الدور الذي يلعبه وجود هذه القطع الصخرية الصماء في حياة الموجودات.

بالاضافة الى ذلك فإن الجبال توجد مساحات مسطحة شاسعة بسبب التعرجات والانكسارات وتؤدي الى مضاعفة الجزء الذي يمكن استغلاله من الارض لعدة مرات، وفي نفس الوقت فإن أغلبها يعتبر مكاناً لنمو اشجار الغابات الكثيفة وانواع النباتات الطبية والغذائية والمراتع.

* * *

ولعل لهذا السبب جاء الحديث في الآية السادسة عن بركات الارض واقواتها بعد نصب الجبال في الارض اذ يقول: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾.

لأن مما لا شك فيه ان الجبال نفسها وكذلك المياه التي تسيل من بطونها لها دور حساس للغاية في انتاج المواد الغذائية.

ومما يلفت الانتباه ما يقوله في نهاية الآية : ﴿سَوَاءٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ ، فلعلَّه إشارة الى هذا المعنى ، وهو أنَّ المواد الغذائية تعادل ما يحتاجه السائلون والمحتاجون تماماً ، ويمكن ان يكون تعبير ﴿السائلين﴾ إشارة الى كافة الحيوانات والناس والنباتات (واذا جاء بصيغة جمع المذكر للعاقل فهو من باب التغليب) نعم فالكل يسأل عن ﴿الاقوات﴾ بلسان حاله .

و ﴿اقوات﴾ جمع «قوت» وتعني الغذاء ، وقد فسَّرها بعض المفسرين بـ «الامطار» فقط ، والبعض الآخر فسَّرها بالمواد الغذائية المدخِّرة في باطن الارض ، إلَّا أنَّ الظاهر هو إنها إشارة الى كافة المواد الغذائية التي تخرج من الارض او التي تنمو عليها ، ولعلَّ التعبير بـ ﴿قَدَّرَ﴾ وهي من «التقدير» ، إشارة الى انه قد تم تقدير وتخطيط كافة احتياجات الانسان وبقية الموجودات قبل خلقها .

وقد ورد مضمون الآية السابعة في الآيات الآتية .



واشار في الآية الثامنة الى اربع نِعَمٍ الهية : فالارضُ مستقرةٌ بنحوٍ يستطيع الانسان والموجودات الاخرى من العيش عليها براحةٍ واطمئنان ، وتكوين الانهار في بطن الارض ، وخلق الجبال الصلبة الراسخة ، وتكوين البرزخ بين البحرين (من الماء العذب والمالح) كي لا يختلط احدهما بالآخر .

وهذه النعم الاربعة ترتبط مع بعضها بنحوٍ مدهش ، فالجبال اساسٌ استقرار الارض ، ومصدر وجود الانهار ، وهذه الانهار عندما تصبُّ مياهها في البحر فهي تبقى منفصلةً بواسطةٍ حاجزٍ غير منظورٍ لفترة طويلة لا تختلط مع المياه المالحة ، وهذا الحاجز ليس سوى اختلاف درجة سمك الماء «المالح» و «العذب» ، وبتعبير آخر أنَّ اختلاف كثافتهما يؤدي الى عدم امتزاج مياه الانهار العذبة بالمياه المالحة لمدة طويلة ، ولهذا فائدة ضرورية للزراعة في المناطق الساحلية ، لأنَّ هذه المياه

العذبة تتراجع الى الخلف عن طريق المد والجزر وتُغطي معظم الاراضي الزراعية فتغمر البساتين النّظرة والمزارع المزدهرة .

فليس جزافاً ان يقول في نهاية هذه الآية : ﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ ؟﴾ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

أَجَلٌ ... فهؤلاء يجهلون اسرار هذه النّعم والبركات ، النّعم الموجودة في كل زوايا وبقاع العالم ، وكلّ منها برهانٌ على تلك الذات المقدّسة ، إلّا أنّ هؤلاء الجهلة محجوبون عنها .



وفي الآيتين التاسعة والعاشرّة أشار الى مجموعةٍ اخرى من خصائص ومنافع الجبال ، فبعد أن ذكر خلق الجبال التي تقي الانسان حرارة الشمس المحرقة ، يشير الى الملاجيء الموجودة فيها حيث يقول : ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ .

و ﴿الأكنان﴾ جمع «كن» (على وزن جنّ) وكما قال صاحب مجمع البيان هو المكان الذي يضم الانسان بداخله ، إلّا أنّ البعض ذكر ذلك بمعنى كل نوع من اللباس ، حتّى انهم اعتبروا «الرداء» «كنّاً» للانسان ، والمقصود بـ «أكنان الجبال» هذه المغارات والكهوف التي يستطيع الانسان أن يستخدمها كملجأ له . قد تكون اهمية الملاجيء الجبلية والمغارات مجهولة بالنسبة لأهل المدن الآمنين ، غير انها ذات اهمية حسّاسة جداً للمسافرين العُزّل ، وقاطعي الصحراء ، والرعاة ، والسائرين ليلاً ، وغالباً ما تنقذهم من الموت المحتوم ، لا سيما وأنّ هذه الملاجيء دافئة في الشتاء وباردة في الصيف .

فضلاً عن ذلك فان بعض الناس منذ غابر الازمان وحتّى يومنا هذا ينحتون بيوتهم في بطن الجبال ، وهي مُحكّمةٌ جداً وآمنة تماماً في مواجهة الحوادث الطبيعية ، كما ورد في القرآن الكريم حول «اصحاب الحجر» (قوم ثمود) : ﴿وَكَانُوا

يَنْحُتُونَ مِنَ الْجِبَالِ مِيُونَاً آمِنِينَ ﴿١﴾ .

وهذه فائدة اخرى للجبال .

وفي قسم آخر من هذه الآيات اشارة الى الطرق التي صنعها الباري تعالى بالوانٍ مختلفة بيضاء وحمراء واحياناً سوداء بكاملها: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ .

و ﴿جُدَدٌ﴾ جمع ﴿جُدَّة﴾ (كفَدَدَ وغَدَّه) بمعنى الطريق والجادة، و ﴿بَيَضٌ﴾ جمع ﴿أَبْيَضٌ﴾، و ﴿حُمْرٌ﴾ جمع ﴿أَحْمَرٌ﴾، و ﴿غَرَابِيبُ﴾ جمع ﴿غَرِيبٌ﴾ وتعني شديد السواد، ولهذا يقال «غراب»، و ﴿سُودٌ﴾ جمع «اسود» ووردت هنا بعد كلمة ﴿غَرَابِيبُ﴾ للتأكيد .

فطرق الجبال المختلفة، بالوانها المتباينة تماماً، لها اهمية كبيرة حيث تساعد المسافرين في العثور على مقاصدهم، وتنقذهم من التيه، اضافة الى ان تعدد الالوان يدلُّ على اختلاف مركبات الصخور، وقد تكون دليلاً على وجود المعادن المختلفة التي تختفي فيها .

* * *

يستفاد جيداً من تسلسل هذه الآيات انَّ خلق الجبال بفوائدها الضرورية جداً والمصيرية، من البراهين المهمة على علم وقدره الباري تعالى وآيات حكمته ورأفته بالانسان، ويوضح جيداً ان خلق هذا العالم وذرات موجوداته، مليءٌ بالمعنى والمحتوى الى حدٍ كَلَمَّا تم التمعُّن به تنكشفُ للانسان اسرارٌ جديدة ويتولد على اثرها حبٌّ وارتباطٌ بالخالق جلَّ وعلا .

* * *

التوضيحات:

١ - دور الجبال والاعجاز العلمي للقرآن:

١ - لعلّ الى ما قبل قرنٍ من الزمان كانت نظرية العلماء تنصّ على سطحية الجبال ، وكان الاعتقاد السائد هو إنّ كل الجبال عبارة عن قطع صخرية كبيرة تستقر على سطح الارض ، ولكن مع مرور الزمان أزيلَ الحجابُ عن سرِّ مهم ، وتوصلَ العلماء الى هذه الحقيقة ، وهي ان الجزء الاعظم من كل جبلٍ يكمن تحت الارض ! وكما يقول « جورج غاموف » في كتاب « قصة الارض » : (طبقاً للنظريات المعاصرة فإن جبال الارض تشبه الجبال الجليدية التي تتكون تحت تأثير ضغط الثلوج في المناطق القطبية ، فكلّ من زار المناطق القطبية يعرف جيداً أنّ القطع الثلجية الضخمة حينما تتكسر اثر الضغط تتراكم على بعضها ، وتندفع نحو البحار - واثناء ذلك - تنهار اغلب كميات الثلج في المياه ، (ولعلّ عُشرها فقط خارج المياه وتسعة اعشارها تحت الماء) ، ولهذا ففي مقابل كلّ جبلٍ يرتفع عن الارض هنالك جبلٌ تحت سطح الارض ، متكون من مادة حجر الغرانيت يغوص في ثنايا طبقة من الصخور التحتية الناعمة)^(١).

وهنا نصل الى هذه المسألة الاعجازية في القرآن حيث يطلق على الجبال « اوتاد » ومسامير الارض ، لاننا نعلم ان القسم الاعظم من المسمار يغور في الجدار أو الاشياء الاخرى دائماً.

وهنا حيث تستخدم المسامير في تحكيم شيءٍ ما ، او ربط القطع المختلفة مع بعضها ايضاً ، فهذا التعبير يعتبر اشارة لطيفة الى التأثير المهم للجبال في منع

(١) « قصة الارض » تأليف جورج غاموف ص ١٢٦ مع شيء من الاختصار .

اضمحلال قطع الارض اثر الضغط الداخلي للكرة الارضية والضغط الناتج عن حالات الجزر والمد .

٢ - ليس للجبال أثرٌ حساسٌ في حفظ استقرار الارض فحسب ، بل تساهم في استقرار الجو المحيط بالارض ايضاً ، فالكل يعلم بصعوبة الحياة في الصحراء الشاسعة لأنّ الهواء هناك يكون عاصفاً وملئاً بالغبار والتراب على الدوام ، وليس انعدام الاستقرار هناك فحسب ، وانما يضيق التنفس ويصبح متعباً ايضاً .

نعم .. فهذا الارتفاع الشاهق للجبال هو الذي يقف امام هذه العواصف الجنونية ، ويصدّها ، أو يُرسلها الى طبقات الجو العليا .

٣ - اضافة الى ذلك فان للجبال تأثير بالغ في نزول الثلوج وهطول الامطار ، لأنها تقف في طريق الغيوم والرطوبة الصاعدة من البحر ، فتوقفها وتدفعها الى الهطول فينحدر بعض هذه الامطار من اطرافها ، وتحتفظ بالقسم الآخر في وسطها ، أو تحتفظ بها على هيئة ثلج وجليد في قمته .

٤ - وكذلك فانّ للجبال دوراً مهماً في تعديل حرارة الجو لا سيما في المناطق الاستوائية ، لأنّ ارتفاع الجبال يؤدي الى ابتعاد المناطق المجاورة لها عن سطح الارض ونحن نعلم اننا كلما ابتعدنا عن سطح الارض تزداد برودة الجو .

٥ - انّ الجبال مصدرٌ مهمٌ لانواع المعادن والثروات الهائلة التي تختفي فيها ، ومن اجل أن يظفر الناس بهذه الثروات فهم يهرعون الى الجبال دائماً للبحث عنها .

٦ - للجبال دورٌ مهمٌ آخر في ايقاف حركة الكثبان الرملية ، فنحن نعلم انّ الكثبان الرملية تتحرك اثناء هبوب الرياح في الصحراء القاحلة ، وقد تدفّن تحتها الاشجار والناس والقوافل وحتى القرى ، وتصبح سبباً في هلاك النباتات والحيوانات ، فاذا لم تتم السيطرة عليها فسوف تهجم على جميع انحاء الارض ، فأى عاملٍ افضل من الجبال يُمكنه السيطرة عليها ؟!

انَّ هذه الفوائد العظيمة اضافةً الى فوائد اخرى كثيرة ذكرناها في تفسير الآيات السابقة توضح لنا الدور المهم للجبال من جهةٍ ، وعظمة آيات القرآن الكريم في هذا المجال من جهة اخرى .

* * *

٢ - حديث للامام الصادق (عليه السلام) حول الجبال :

وفي حديث توحيد المفضل وهو حديث مليءٌ بالمعاني ، وكاشفٌ لاسرار الخلق في مختلف الجوانب لمعرفة الله ، جاء ما يلي :

(انظر يا مفضل الى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التي يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة اليها ، والمنافع فيها كثيرة : فمن ذلك ان تسقط عليها الثلوج فيبقى في قلالها لمن يحتاج اليه ، ويزوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الانهار العظام ، وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل ، ويكون فيها كهوف ومقاييل للوحوش من السباع العادية . ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الاعداء ، وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء ، ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر ، وفيها خلال اخرى لا يعرفها الا المقدّر لها في سابق علمه)^(١) .

وقد تكون العبارة التي جاءت في ختام حديث الامام (عليه السلام) اشارة الى الفوائد المهمة الاخرى التي اكتُشفت تدريجياً مع تطور العلوم وتمت الاشارة اليها في البحوث الماضية ، او المنافع التي لا زالت خافيةً عن انظار العلم البشري .

* * *

٣- كلامٌ عن عالمٍ كبير :

عندما يطرح العلامة المرحوم المجلسي بحث الجبال ، يذكر في تفسير الآية ﴿وَجَعَلَ الْجِبَالَ أَوتَاداً﴾ سبعة تفاسير ، ثالثها ما يلي :

(ما يخطر بالبال وهو أن يكون مدخلية الجبال لعدم اضطراب الارض بسبب اشتباكها واتصال بعضها ببعض في اعماق الارض بحيث تمنعها عن تفتت اجزائها وتفرّقها ، فهي بمنزلة الأوتاد المغروزة المثبتة في الابواب المركبة من قطع الخشب الكثيرة بحيث تصير سبباً لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرّقها وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار في الارض فانها تنتهي عند المبالغة في حفرها الى الاحجار الصلبة ، وانت ترى اكثر قطع الارض واقعةً بين جبال محيطة بها ، فكأنها مع ما يتصل بها من القطعة الحجرية المتصلة بها من تحت تلك القطعات كالظرف لها تمنعها عن التفتت والتفرق والاضطراب عن عروض الاسباب الداعية الى ذلك)^(١) .

انّ هذا الحديث واستناداً الى التصريح الذي اوردناه آنفاً لاحد العلماء المتأخرين ، والذي هو من اكتشافات القرن الاخير ، يعتبر أمراً مثيراً جداً حيث يشير هذا العالم الاسلامي الكبير الى ذلك قبل اكثر من ٣٠٠ سنة .

* * *

٤ - حديثٌ اعجازيٌّ حول تكوين الجبال :

وهذه نكتةٌ جديرةٌ بالاهتمام ايضاً حيث ورد في روايةٍ ان شخصاً سأل امير المؤمنين (عليه السلام) قائلاً: مِمَّ خُلِقَتِ الْجِبَالُ ؟ فقال الامام (عليه السلام) في جوابه : (من

الامواج).

وهذا الحديث يتطابق تماماً مع النظرية المشهورة للعلماء المعاصرين اذ يعتقدون بأنَّ اِغْلَبَ الجبال تكونت نتيجةً لتعرُّج قشرة الارض بسبب انجمادها كالتجعدات التي تظهر على قشرة التفاح عند جفافها وهذه التعرّجات تشبه الامواج التي تحدث على سطح الماء ، وقد يكون تعبير ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾^(١) ، اشارة الى خلق الجبال بعد خلق الارض ايضاً.

(١) (النحل الآية : ١٥) .

١١- آياته في تكوين الغيوم
والرياح والأمطار

تمهيد :

انّ دورَ الغيوم، والرياح والامطار، في حياة الانسان وكافة الكائنات الحيّة واضحٌ بالقدر الذي لا يحتاج الى تفصيل، صحيحٌ انّ الماء يغمر ثلاثة ارباع الكرة الارضية، ولكن أولاً: انّ المياه المالحة لا تصلح للري، ولا لشرب الانسان والحيوانات، وثانياً: لو فرضنا انّ كلّ مياه البحار كانت عذبةً فبأي طريقةٍ يُمكن نقلها الى المناطق والاراضي التي قد ترتفع عن سطح البحر عدة آلاف من الامتار؟ هنا نرى بجلاء القدرة العظيمة لمبدء الخلق، حيث القى هذا التكليف المهم على عاتق اشعة الشمس لتشرق على المحيطات وتقوم بتبخير وتصفيه مياهها، فيظهر على هيئة قطع من الغيوم، ثم تتجه به نحو المناطق الجافة بمساعدة الرياح، وتُنزله عليها بصورة قطرات مطر لطيفة وصغيرة وبهدوء، حيث تدب الحياة في جميع ارجاء المعمورة، وتنشُر الازدهار والاعمار والخُصرة في كُل مكان، وهذا يأتي من خلال نظامٍ دقيقٍ جداً ومحبوكٍ تصحبه ظرافةٌ بالغة.

وبعد هذا التمهيد القصير نتجه نحو آيات القرآن الكريم بهذا الخصوص فنقرأ خاشعين الآيات الآتية:

١ - ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنِيْرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(١).

- ٢ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ^(١).
- ٣ - ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ^(٢).
- ٤ - ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ^(٣).
- ٥ - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتُضْرِفِ الرِّيحُ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ^(٤).
- ٦ - ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ - أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ - لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ^(٥).
- ٧ - ﴿أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ^(٦).
- ٨ - ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ

(١) (الروم الآية : ٤٦).

(٢) (الاعراف الآية : ٥٧).

(٣) (فاطر الآية : ٩).

(٤) (البقرة الآية : ١٦٤).

(٥) (الواقعة الآيات : ٦٨ - ٧٠).

(٦) (النمل الآية : ٦٣).

وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿١﴾ .

٩ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾ .

١٠ - ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً - لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴿٣﴾ .

١١ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴿٤﴾ .

١٢ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ .

* * *

شرح المفردات :

﴿الرياح﴾ تكرر هذا اللفظ عشر مرات في القرآن الكريم ، تسع منها اشارة الى

(١) (الحجر الآية : ٢٢) .

(٢) (الزمر الآية : ٢١) .

(٣) (النبا الآيات : ١٤ - ١٦) .

(٤) (الفرقان الآية : ٤٨) .

(٥) (الم السجدة الآية : ٢٧) .

(٦) توجد في القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا المجال ، وما ورد اعلاه مقتطفات من هذه الآيات بامكانها تبين ابعاد هذه الامور الثلاثة المهمة وهي كما يلي : الانعام ٩٩ - ابراهيم ٣٢ - النحل ٦٥ - طه ٥٣ - الحج ٦٣ - النمل ٦٠ - العنكبوت ٦٣ - لقمان ١٠ و ١١ - فاطر ٢٧ - فصلت ٣٩ - الرعد ١٧ - الاعراف ٥٧ - الحجر ٢٢ - النمل ٦٣ .

الرياح التي تُحركُ الغيوم وتُعِدُّها لتنزل الامطار.

و «الرياح» في الاصل جمع «ريح» وتعني الهواء المتحرك، واصْلُها «رَوْح»، وغالباً ما تعتبر مؤنثاً لفظياً، والجدير بالذكر انها تستخدم بصيغة الجمع دائماً في الآيات التي تتعلق بحركة الغيوم ونزول الامطار في القرآن الكريم، وذكر البعض دليلاً على ذلك بأنَّ الرياح اذا تحركت بشكلٍ جماعي فانها تنشر الغيوم وتكوّن امطاراً غزيرة ومليئة بالبركة، واذا تحركت على هيئة اجزاء متفرقة فانها تكون عقيمة وغير مفيدة، بل مضرّة عندئذ، لذلك ورد في الدعاء - اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً -^(١).

ويقول «الراغب في المفردات»: في جميع الموارد التي ذكر الله تعالى لفظة «الريح» بصورة مفردة (في القرآن) فهي تحكي عن «العذاب»، واينما ذكرت بصيغة الجمع فهي تحكي عن الرحمة.

وقول الراغب صائب في ما يخص «الرياح» في صيغة الجمع، ولكن ليس هناك تعميم في مورد «الريح» بصيغة المفرد، لأنَّ «الريح» استخدمت في القرآن بصيغة المفرد في مورد النعمة ايضاً، كما في: «حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا»^(٢).

ونقرأ ايضاً بخصوص سليمان (عليه السلام): «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ»^(٣).

و «تَصْرِيفِ الرِّيحِ» تعني نقل الرياح من حالٍ الى حال (من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال)، وهي من مادة (صرف) (على وزن حرف) أي

(١) جمع البحرين - مادة «ريح».

(٢) (يونس الآية: ٢٢).

(٣) (سبا الآية: ١٢).

تحويل الشيء من حالة إلى حالة أخرى أو إبداله بشيء آخر^(١).
وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى أن الرياح لو سارت باتجاه واحد باستمرار فمن الممكن أن تدفع بالرطوبة والغيوم المتصاعدة من البحار نحو جهة واحدة فقط أما تغير الرياح فانه يؤدي إلى أن تتحرك الغيوم من مكان إلى مكان آخر، وتستفيد أغلب المناطق الجافة من الأمطار إلى أقصى حد.

فضلاً عن ذلك وكما سيأتي فان فائدة الرياح لا تنحصر بحركة الغيوم، بل لها منافع كثيرة أخرى سنشير إليها في تفسير الآيات - ان شاء الله -^(٢).

و «السحاب» من مادة «سحب» (على وزن مَحْو)، وتعني في الأصل الجرّ، حيث تُسحب الغيوم بواسطة الرياح، أو أن الغيوم تسحب المياه نحو أي اتجاه، فيُطلق اسم «السحاب» عليها، وقد يُستخدم هذا المفهوم بمعنى الظل أو الظلام من باب التشبيه.

واللطيف إنه قد تمّ التعبير في الآيات اعلاه بـ «سُقناه» من مادة «سوق» أي «الدفع» وقد استعمل هذا التعبير لأن الله تبارك وتعالى يدفعها نحو اتجاه معين بالرغم من أن السحاب يتحرك طبيعياً).

و «مُزن» على وزن «حُزن» وتعني «الغيوم الواضحة»، وفَسَّرها البعض بـ (الغيوم الممطرة)^(٣).

ولهذا يُطلق على الهلال الذي يبرز من بين الغيوم بـ (ابن مُزنة)، و (مازن)

(١) «مجمع البحرين» ومفردات الراغب.

(٢) يُقسَّم العربُ الرياحَ إلى أربعة اقسام: «الشمالية» التي تهب من الشمال، و «الجنوبية» التي تهب من الجنوب، و «الصبا» التي تهب من الشرق، و «الدبور» التي تهب من الغرب.

(٣) مفردات الراغب ولسان العرب - مادة مُزن.

تعبيرٌ يُستخدم في مورد النمل الابيض .

و ﴿بُشْر﴾ (على وزن عُشر) ، وحسب ما جاء في (مصباح اللغة) فهي مأخوذة من (بَشَر) (على وزن سَقَر) أي السرور والفرح^(١) .
والسبب في تسمية القرآن الكريم للغيوم بـ ﴿بُشْر﴾ و ﴿مُبَشِّرَات﴾ لأنها غالباً ما تكون مبشّرات بهطول المطر الذي يَهْبُ الحياة .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

ظاهرة الريح والامطار المليئة بالاسرار:

يشير في الآية الاولى من البحث وكتعريف بالذات الالهية المقدسة الى مسألة هبوب الرياح وحركة الغيوم بواسطتها حيث يقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ .

ثم يشير الى بسط الغيوم على وجه السماء ، وتراكمها فوق بعضها ، وفي الختام يشير الى خروج قطرات الامطار من وسطها ، ويقول: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ .

و ﴿الكِسْف﴾ تعني هنا تراكم قطع الغيوم حيث تستعد لنزول المطر ، و ﴿وَدْق﴾ (على وزن خَلَق) تُطلق على الرذاذ الذي يشبه الماء ، وفَسَّرها البعض بانها قطرات المطر .

وفي نهاية الآية يشير الى استبشار عباد الله اثر نزول المطر فيقول: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

(١) «بُشْر» اسم مصدر وتأتي بمعنى اسم فاعل (مُبَشِّر) ايضاً .

وعليه فإنَّ الرياح لا تُحرِّكُ الغيومَ فقط ، بل تبسطها في السماء ثم تركمها على بعضها وتتعهد بتبريد أطراف الغيوم واعدادها لانزال المطر .

فالرياح ذات تجربة غنية كالرعاة حين يقومون بجمع قطيع الماشية في وقتٍ محدّدٍ من اطراف الصحراء ويسوقونها في طريقٍ معينٍ ، ثم يحضرونها للحلب .

وليس سُمْكُ الغيوم يكون الى الحد الذي يمنع خروج قطرات المطر ، ولا شدة الرياح بالقدر الذي يمنع نزول هذه القطرات الى الارض .

ولا تكون قطرات الامطار صغيرة بالقدر الذي يجعلها تبقى معلقة في السماء ، ولا كبيرة حيث تؤدي الى تدمير المزارع والبيوت .

ولا يُعتبر نزول المطر مُبَشِّراً للناس لأنه اساس الاعمار والازدهار فقط ، بل انه يُصَفِّي وَيُلَطِّفُ الجو ويبعث على النشاط .

واللطيف انه يقول في سياق هذه الآية من سورة الروم : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ؟!

ومن اجل ادراك مفهوم هذه الآية يكفيننا مشاهدة صررٍ من بعض الصحارى ، ومزارع بعض المناطق في أفريقيا كيف خيم عليها شبح الموت أثر التصحر المستمر ، وَرَحَلَ عنها مَلَكُ الحياة .

والعجيب انَّ هذه الامواج اللطيفة للرياح التي تَخترقها قطراتُ الامطار بسهولة ، تقوم باقتلاع الاشجار الضخمة ، وتُدمِّرُ المباني ، وتختطفُ الانسان معها الى السماء ثم تقذفه الى مكانٍ آخر اذا ما أمرت بذلك .

* * *

وتتعبُّ الآية الثانية هذا الموضوع ايضاً بشيءٍ من الاختلاف ، فهي تصفُ الرياحَ بالمبشّرات ، وبالإضافة الى مسألة نزول الامطار فهي تشير الى حركة السفن بواسطة الهبوب المنظم للرياح ايضاً ، فجاء في النهاية : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .

ومن الممكن ان تكون عبارة ﴿وَلْيَذِيقْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ اشارة الى بقية فوائد الرياح ، كتلقيح النبات ، ودفع البخار المكثف ، والتعفن المتصاعد ، وتنقية الجو وغيرها كما تم توضيحه في تفسير الميزان ^(١) .

والحقيقة انَّ قَدَرَ النعمة لا يُعرف إلا اذا سُلبت من الانسان ، فلو توقفت هذه الرياح والنسمات يوماً واحداً لا صبحت اجمل البساتين والمزارع اسوأ من السجون المظلمة ، ولو هبَّت نسمةٌ على طامورةٍ انفراديةٍ فهي تضيء عليها صبغة الفضاء الطلق .

ولو توقَّفت الرياح فوق المحيطات ، وتوقَّفت الامواج ، فانَّ حياة الكثير من الاحياء المائية تتعرض الى الخطر بسبب نقص الاوكسجين ، وتتبدَّل البحار الى مستنقعات متعفنة رهيبة .

* * *

واهتمَّ في الآية الثالثة بهذا الأمر ايضاً مع هذا التفاوت وهو اعتبار الرياح مقدمة لرحمته ، ووصف الغيوم بـ ﴿الثَّقال﴾ أي (الأحمال الثقيلة ، جمع ثقل) لأنَّ الغيوم الممطرة اثقل من بقية الغيوم ، وتكون قَريبة من الارض ، لذلك عبَّر عنها القرآن الكريم بـ ﴿الثَّقال﴾ .

و ﴿اَقَلَّتْ﴾ من مادة «اَقْلَلُ» وتعني حملُ شيءٍ يكون خفيفاً بالنسبة لقدرة الحامل ، فهو يعتبره قليلاً ولا قيمة له ، انَّ وجود هذا التعبير في الآية اعلاه يبرهنُ على انَّ الغيوم الثقيلة التي قد تحملُ معها ملايين الاطنان من المياه لا تُحْمَلُ الرياح

ثقلًا كبيراً، وهذا عرضٌ لقدرة الله تعالى .

* * *

ويذكرُ في الآية الرابعة أنَّ إرسالَ الرياحِ لاداءِ هذا الواجب العظيم هو أحد آثار الذات الالهية المقدَّسة ، إذ يُحيي الاراضي الميتة بواسطتها .
والجدير بالذكر إنه يُعبَّرُ في هذه الآية بـ ﴿تثير﴾ أي ان الرياح تُثير السُّحبَ ، وقد يكون هذا التعبير اشارة الى تكوُّنِ الغيوم بسبب هبوب رياح المناطق الحارَّة على سطح المحيطات حيث تؤدي الى حصول الغيوم ، لأنَّ مسألة حركة الغيوم أُخِذَتْ بالاعتبار في عبارة ﴿فسقناه﴾ ، وعليه فإنَّ الرياح لها أثرٌ مهمٌ في حصول الغيوم ، وكذلك في تحريكها نحو المناطق الجافة ، ورفعها الى اعالي الجو وتهيئة الظروف لهطول الامطار .

وذكرُ هذه العبارة بصيغة الفعل المضارع «تثير» اشارة الى عمل السُّحبِ الدائم والمستمر ايضاً .

على أية حال فإنَّ هذه المسألة تُعتبر برهاناً على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا وكذلك دليلٌ على قدرته في المعاد ، ولهذا تمت الاشارة الى مسألة المعاد في ختام بعض هذه الآيات .

* * *

واستند في الآية الخامسة من بحثنا الى خلقِ سبعةِ اشياءٍ مختلفةٍ كآياتٍ لله تعالى بالنسبة للمتفكرين والعقلاء وهي : خلق السماء ، والارض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، والامطار ، وهبوب الرياح واختلافها ، والسحب المعلقة بين الارض والسماء .

واستند في هذه الآية على مسألة الحركات المختلفة للرياح ﴿وَتَضْرِيفِ الرِّيحِ﴾ ، وكذلك الغيوم المعلقة بين الارض والسماء ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، السحبُ التي تحتوي البحار في ذاتها ، وهي في ذات الوقت معلقة بين الارض والسماء ، فهي في الواقع من اعظم آيات الله ، « فعندما تُحيي الارض بنزول المطر فهي تَبَثُّ انواعاً مختلفةً من الدّواب على وجه الارض »
﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ .

وعندما نشاهد أنّ الرياح والغيوم قد طُرحت في هذه الآية بعد نزول الامطار فلعلّها من اجل تعليم هذا الامر ، وهو أنّ فائدة الرياح لا تنحصر بتحريك الغيوم وانزال المطر فحسب ، بل لها فوائد جمّة اخرى تَمَّت الإشارة اليها سابقاً ، وسيشار اليها في الفذلكة ايضاً .

ناهيك عن نزول الامطار ، فإنّ الغيوم لوحدها تعتبر مسألة عجيبة ايضاً ، لأنها تحتفظ ببحارٍ من المياه وهي معلقة بين الارض والسماء ^(١) .

* * *

وتستند الآية السادسة الى مسألة مياه شرب الانسان ، وتذكر موضوعاً جديداً حيث تقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ - أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ ؟ ثم يضيف تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ فلو أنّ ماء البحر يصطحبُ اثناء تبخره الى السماء حبوب الاملاح الصغيرة ، وتنزل المياه المالحة والمرّة من الغيوم لتحوّلت الارض الى مملحة ، فلا ينمو نبات ، او شجر ، واذا اراد الانسان ان يدفع الموت عنه اثر العطش لم يستطع ان يتجرع منه أبداً .

هذا الامر الموجّه الى المياه بالتّبخّر ، والاملاح الموجودة في مياه البحر بالبقاء في مكانها ، قد اضيف طابعاً آخر على حياة الانسان ، بل كل الاحياء على سطح

(١) يجب الانتباه الى أنّ السحاب : البخار المتراكم تسميه العرب (ضباباً) - بالفتح -

مالم ينفصل من الارض فاذا انفصل وعلا سمي (سحاباً وغيماً وغباماً) «الميزان ج ١ ص ٤١١» .

المعمورة، فهل يستطيع شخصٌ ان يؤدي شكرَ هذه النعمة مدى حياته؟!
وكما قلنا فان ﴿المُزْن﴾ تعني الغيوم الممطرة و ﴿الأجاج﴾ تعني الماء
الشديد الملوحة او المرارة.

* * *

واشار في الآية السابعة الى هبتين عظيمتين أخريين من هبات الله الى عباده
وهما: وهبة الهداية في ظلمات البر والبحر «بواسطة النجوم»، وهبة ارسال الرياح
كمبشّراتٍ قبل نزول امطار رحمته، فحيثما تنزلُ الامطار تصدحُ الحياة بنغماتها
وتكون اساساً لانواع الخير والبركة.

ويستند في نهاية الآية على هذين الموضوعين كوثيقة لاثبات وحدانية الله
تعالى، ويخاطب المشركين: ﴿أِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولعلّ ذكرُ
هاتين الهبتين معاً إشارة الى هذا المعنى وهو عندما يكون الجو صافياً يمكن
الاستفادة من النجوم ليلاً في العثور على الطريق للوصول الى الهدف، واذا كان الجو
غائماً فيتبع ذلك رحمةً اخرى، إذن ففي كلا الحالتين هناك وهبةٌ ورحمةٌ، وهو
برهانٌ لمعرفة الذات الالهية المقدسة.

* * *

وفي الآية الثامنة يتحدث عن مسألة الرياح ونزول الامطار بتعبيرٍ جديد،
فيقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾.

فهل انّ المقصود هو تلقيح النباتات بواسطة الرياح ونثر لقاح ذكور النباتات على
الاناث، وحملُ الفواكه والحبوب الذي يحدث عن طريق الرياح؟ أو حملُ قطع
الغيوم والحاق بعضها ببعض.

نظراً لقوله في تكملة الآية: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾،
فيظهر انّ المعنى الثاني اكثر تناسباً، بالرغم من امكانية الاستفادة من المعنيين معاً.

على أية حال ، فإنَّ التعبير اعلاه تعبيرٌ لطيفٌ جداً حيث شَبَّهَ قِطْعَ الغيوم بالامهات والآباء ، حيث يخلطها عن طريق الرياح ثم تحملُ ، وتضعُ جنينها أي قطرات الامطار على الارض !

ويشيرُ في ختام الآية الى خزانات المياه المغطاة تحت الارض ، والتي هي من الذخائر الالهية للناس ، فيقول : ﴿وَمَا أُنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ .

فنحن الذين أمرنا طبقات الارض أن تحتفظ بمياه الامطار الصافية في داخلها ، وقد تكون الآبار و القنوات التي تستخدمونها اليوم هي من احتياطي المياه التي دُخِرَت لكم منذ آلاف السنين في باطن الارض ، من غير أن تَتَلوْث او تتعفن .

وقد نقوم بخزنها عن طريق تجميدها في قمم الجبال على هيئة بَرَدٍ وثلج كي تصبح ماءً بشكلٍ تدريجيٍّ ، ونسقيكم انتم وحيواناتكم ومزارعكم ، وربما تكون المياه التي تنحدر من القمَّة الفلانية اليوم مخزونة منذ آلاف السنين .



وفي الآية التاسعة ، الاضافة الى اشارته الى نزول الامطار من السماء ، فهو يشير الى مسألة تَكْوُنِ الينابيع ، فيقول : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْابِيعَ﴾ .

و ﴿ينابيع﴾ جمع «ينبوع» وتعني العين ، وهي في الاصل مأخوذة من مادة (نَبَعَ) وتعني انبثاق الماء من الارض ، ومن الطبيعي إنَّ تَكْوُنَ الينابيع في الارض الذي يجعل الانسان يستفيد من الماء الجاري بدون الحاجة الى قوة اخرى ، يتبع ظروفاً خاصةً اولها : ان تكون طبقة الارض قابلة للاختراق كي يتغلغل الماء خلالها ، ثم يجب ان يكون ما تحت هذه الطبقة صلباً كي يتوقف الماء ويُخزَنَ هناك ، وان يكون هناك فارقٌ في المستوى بين خزانات المياه والمناطق الاخرى حتى ينساب الماء من هناك الى بقية النقاط ، ومن المسلّم به استحالة تناسق هذه الأمور لولا

تخطيط مُبديء العلم والقدرة .

ويضيف في سياق الآية ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ .

فيمكن أن يكون اختلاف الألوان هذا إشارة إلى ألوان النباتات المختلفة تماماً ، أو إشارة إلى أنواع النباتات وأزهار الزينة والطب والغذاء والصناعة التي لها أنواع لا تحصى في الواقع .

أجل .. ان الله تعالى يستخرج من هذا الماء الذي لا لون له مئات الآلاف من ألوان الورود والنباتات الموجودة في هذه الروضة وكما يقول الشاعر نقلاً عن الفارسية :

فاذا توصّلت إلى أسرارها

ستعرف أن هذا هو سر الأسرار

حيث هناك واحد ولا يوجد غيره

«وحده لا اله الا هو»

لهذا فهو يقول في نهاية الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

* * *

وتمت الإشارة في الآية العاشرة إلى نكتة جديدة أخرى ، فيقول : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾ .

و ﴿مُعْصِرَاتٍ﴾ جمع ﴿مُعْصِرٍ﴾ من مادة «عَصَرَ» وتعني الضغط ، والمُعْصِرَات تعني الضاغطات ، وهنا ما هو المقصود بهذا التعبير ؟ لقد ذكروا تفاسير متعددة : فالبعض اتخذها صفةً للغيوم ، إذ اعتبرها إشارة إلى نظام خاص يتحكم بها عندما تتراكم على بعضها ، فكأنما تعصر نفسها كي تجري الأمطار منها ، واعتبر هذا التعبير

من المعاجز العلمية للقرآن الكريم^(١).

إلا أنّ البعض الآخر اتخذها صفةً للرياح ، واعتبرها إشارة الى العواصف والزوابع الترابية ، حيث لها تأثير عميق في تكوين الامطار والرعد والبرق (علماً ان «الاعصار» يعني الزوابع الترابية) .

فيقول هؤلاء .. اثناء هبوب الزوابع الترابية الشديدة على سطح البحار والمحيطات فانها تحمل معها البخار من على سطح المحيط ، وحينما تصل به الى نقاط الجو العليا الباردة جداً ، وحيث تكون قدرة اشباع البخار هناك ضعيفة ، يحصل الرعد والبرق الشديد ، وبما أنّ «ثَجَاج» صيغة للمبالغة ، وهي من مادة «ثَجَّ» (على وزن حج) وتعني سكب الماء تتابعاً وبكثرة فهي تتناسب كثيراً مع مثل هذا الرعد والبرق^(٢).

واعتبرها البعض إشارة الى الغيوم التي تتزامن مع الزوابع الرملية والعواصف^(٣) ، فهذه العواصف تسوق الغيوم نحو الاعلى ، وتأخذها نحو مناطق الجو الباردة حيث تتبدّل هناك الى قطرات من الماء ، وبما أنّ هذا العمل يتم سريعاً فهو يولد زوابع رعدية شديدة و «الماء الثَجَاج» ، ونلاحظ كثرة مثل هذه الزوابع الرعدية في فصل الربيع ولعله بسبب كثرة حالات الزوابع الرعدية والعواصف في هذا الفصل .

ويضيف في سياق هذه الآيات ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ ، ويشمل هذا التعبير جميع انواع النباتات والحبوب واشجار

(١) يُراجع كتاب «الرياح والمطر» ص ١٢٦ .

(٢) (اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة) ص ٦٧ .

(٣) «التفسير الكبير للرازي» ج ٣١ ص ٨ إذ ذكر هذا المعنى كأحد التفاسير لهذه الآية .

الفاكهة .

* * *

وفي الآية الحادية عشرة ، وبعد بيان ما جاء في الآيات السابقة ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ، يَرِدُ ما يلي ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ .

وهذا موضوع جديد حيث يستند اليه في هذه الآية .

و ﴿الطَّهْرُ﴾ صيغة مبالغة من « الطهارة » والنقاوة حيث تفيد طهارة الماء وكذلك كونه مطهراً ، ولو لم تكن للماء صفة التطهير لتلوث كل مقومات حياتنا واجسامنا وارواحنا خلال يوم واحد ، ويمكن ان نلمس حقيقة هذا الكلام اذا ما ابتلينا تارة بفقدان ماء للتنظيف ، حينها يصعب توفير الغذاء ، وسنفقد نظافة الجسم والنشاط والطراوة والصحة والسلامة . صحيح ان الماء لا يقتل الجراثيم ولكن لكونه (مُحَلِّلاً) جيداً فهو يقوم بتحليل انواع الجراثيم ويزيلها ، ولهذا فهو عامل مؤثر من اجل تأمين السلامة ، ويطهّر روح الانسان من الادران عن طريق الوضوء والغسل ايضاً .

وليس عبثاً ان يأتي في الآية ﴿لِنُخَيِّ بِهٖ بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ .

* * *

ثم نواجه في الآية الثانية عشرة والاخيرة مسألة جديدة وهي ان الله تعالى يسوق المياه الى الارض «الجُرْزُ» أي الجافة اليابسة الخالية من الكلاً ، فيقول : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ ؟! ﴿فَنُخْرِجُ بِهٖ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ ، فيأكلون الحبوب وتأكل بهائمهم السوق والاوراد والجذور .

ويستفاد من كلام ارباب اللغة ان «الجُرْزُ» مأخوذة في الاصل من مادة (جَرَزَ) (على وزن مَرَضَ) وتعني (الانقطاع) أي انقطاع الماء ، والنبات ، والاعمار

والطراوة ، ولذا يقال للناقة التي تأكل وتقطع كل شيء بـ « ناقة جروز » ، ولمن يأكل كل ما موجود على خوان الطعام ويفرغها تماماً بـ « رجل جروز »^(١) .

ويقول في نهاية الآية داعياً الى التفحص في هذه النعم الالهية العظيمة وآيات التوحيد : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

ولكن لماذا تقدمت ﴿ الانعام ﴾ على الانسان في الآية اعلاه ؟ يقول بعض المفسرين : لأنّ الزرع اول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان بالاضافة الى انّ الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه ، في حين ان للانسان اغذية اخرى^(٢) .

النتيجة :

يستفاد جيداً من الآيات الأنفة وبالاتباه الى المسائل الدقيقة والظرفية التي انعكست فيها ، انّ هناك نظاماً دقيقاً جداً ومضبوطاً يسود وجود الرياح والغيوم والأمطار ، حيث كلما أطال الانسان التمتع فيها تزداد معرفته بالظرافة والمنافع والبركات الكامنه فيها .

فقد اعتُبر الماء في بعض هذه الآيات اساساً للحياة ، وفي بعضها وسيلةً للنظافة ، وفي بعضها كموجودٍ مباركٍ (سورة ق ٩) ، وفي البعض الآخر كمشروبٍ سائغٍ ﴿ مَاءٌ فُرَاتًا ﴾^(٣) .

ومن مجموع ذلك فاننا أينما وجهنا النظر وحدقنا نعر على آثار حكمة الله البالغة ، وأينما يقع بصرنا فاننا نرى صورةً عن الله تعالى .

* * *

(١) (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) و « مصباح اللغة » .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٢٥ ص ١٨٧ .

(٣) (المرسلات الآية : ٢٧) .

التوضيحات :

١ - تكوين الرياح وفوائدها :

إنَّ مصدرَ حصولِ الريح هو الاختلاف في درجة الحرارة بين منطقتين مختلفتين من الأرض ، ويمكن تجربة هذا أثناء فصل الشتاء حيث يكون هواء الغرفة حاراً وفي خارجها بارداً ، فلو وضعنا شمعتي إضاءة عند طرفي الباب العلوي والسفلي وفتحنا الباب قليلاً سيتضح هذا الأمر جيداً إذ أنَّ الهواء البارد وبسبب ثقله يدخل من الأسفل والهواء الحار يخرج من الأعلى لخفته ويجرُّ شعلة الشمع معه (أنَّ الهواء الحار يكون ممتداً وخفيفاً والهواء البارد ثقيلاً ولو لم تكن هذه الصفة وتتوقف الرياح فأيُّ بلاءٍ عظيم ينزلُ على الإنسان ؟!) .

كما نعرفُ أيضاً أنَّ للكرة الأرضية ثلاث مناطق ، فالمنطقة الباردة (الاطراف القطبية) ، والحارة جداً (المناطق الاستوائية) ، والمعتدلة (المناطق التي تتوسط هاتين المنطقتين) .

وهذا الاختلاف في درجات الحرارة على الأرض يُنتجُ انتقال الهواء من جهةٍ إلى أخرى وأهمه الرياح التي تُسمى « الرياح القطبية » (وهي الرياح التي تهبُّ من القطب نحو المنطقة الاستوائية ولأنَّها تكونُ باردةً فهي تسير مع الأرض) ، والرياح « الاستوائية » (وهي الرياح التي تهبُّ من المنطقة الاستوائية نحو القطب وبما أنَّها تكون حارةً فهي تتحرك في طبقات الجو العليا)^(١) .

(١) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة ص ٦٥ .

فضلاً عن ان ماء المحيطات لا يكون حاراً كحرارة السواحل اثناء شروق الشمس ، اضافة الى انّ ماء البحر يفقد حرارته ليلاً اسرع مما يفقده الساحل ، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة بين ماء البحر والساحل يتسبب ايضاً في هبوب الرياح باستمرار من البر الى البحر ومن البحر الى البر ايضاً .

واضافة الى كل هذا فانّ كروية الارض تؤدي الى أن تقع بعض المناطق في مواجهة الشمس مباشرة (اثناء الظهر) ، وأن تَشَعّ الشمس على المناطق الاخرى بشكلٍ مائلٍ (اثناء الشروق والغروب) ، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة احد اسباب حصول الرياح في مختلف المناطق ايضاً (وكذلك هناك عوامل معقّدة اخرى) .

وتتظافر هذه الاسباب في تحريك الرياح في سائر انحاء الكرة الارضية وتترامن معها الفوائد الجمّة التالية التي تمّت الاشارة اليها في الآيات السابقة :

- ١ - للرياح نصيبٌ مهمٌ في تكوين الغيوم بسبب هبوبها على المحيطات .
- ٢ - انّ الرياح تصطحبُ معها الغيوم الى المناطق الجافة واليابسة ولولاها لاحترق جانبٌ كبير من الكرة الارضية بسبب الجفاف .
- ٣ - انّ الرياح تُلطِّفُ الجوَّ وتجلبُ الاوكسجين الضروري من المناطق البعيدة .
- ٤ - انّ الرياح تأخذ معها التلوث حيث تساعد في تنقية الجو عن هذا الطريق .
- ٥ - انّ الرياح تُقلِّلُ من ضغط حرارة الشمس على اوراق النباتات ، وتمنع الاحتراق ، وبصورة عامة فانها وسيلةٌ مهمةٌ لاعتدال الجو في بقاع الارض .
- ٦ - انّ الرياح - وكما قلنا في تفسير الآيات - تعصّر الغيوم وتُعَدُّها لانزال المطر .
- ٧ - انّ الرياح تسوقُ الغيوم نحو طبقات الجو العليا ، وبسبب البرودة وفقدان قدرة التشبّع تتحول الى قطرات مطرٍ تهبُ الحياة .

٨ - انّ الرياح تُحرِّك السفن الشراعية في المحيطات ، كما انها تُعتبر أحد

المصادر المهمة للطاقة .

٩ - تُستخدم الرياح لتشغيل الطاحونات الهوائية .

١٠ - أنَّ الرياح تُعتبر وسيلة مهمة جداً للمزارعين في تصفية الحنطة وغيرها

وعزلها عن التبن .

١١ - أنَّ الرياح تعمل على رَجِّ مياه البحر فتحصل الامواج وهذه الامواج تؤدي

بدورها الى اختلاط الهواء مع الماء ، فيكون اساساً لحياة الموجودات في البحر ،
ولولا الرياح والامواج لتبدل البحر الى مستنقع ميت .

١٢ - وختاماً فإنَّ الرياح تساهم في تلقيح النباتات ، اذ تنثر حبوب اللقاح في

الاجزاء الانثوية ، ولو أضربت عاماً واحداً لتناقصت كمية الفاكهة المنتجة لدينا !

هذا جانبٌ من بركات هبوب الرياح الذي توصَّل اليه العلمُ البشري حتى الآن

ومن المسلم به أنَّ بركاتها لا تنحصر بما قلناه ، وينبغي الانتظار حتى يرفع العلمُ

الحجابَ عن اسرار جديدة ، ولكن كُلاً من الامور المذكورة اعلاه يكفي لوحده ان

يبرهنَ لنا على علم وقدره الخالق جلَّ وعلا ، ناهيك عن مجموعها ، فكم رحيمٍ

ورؤوفٍ ذلك الاله الذي يَكُنُّ لعباده كُلَّ هذا العطف والمحبة ، وكم مليئة بـ (البركة)

تلك « الحركة » التي تترك كل هذه الآثار الايجابية المهمة اثناء هبوب ذرات الهواء ؟ .

* * *

٢ - اسرار تكوين الغيوم وهطول الامطار :

لا يخفى أنَّ الغيوم هي ذرّات بخار الماء ، أو بتعبير اكثر دقة هي ذرات الماء

التي انفصلت جزئياتها عن بعضها وتحولت الى بخار ، أنَّ التمعن في ما يخص تكون

الرياح والامطار يكشف لنا اسراراً لطيفةً عن هاتين الظاهرتين العجيبتين منها :

١ - أنَّ اغلب السوائل لا تتبخر اذا لم تصل الى درجة الغليان ، إلا أنَّ الماء من

السوائل المستثناة حيث يتبخر في أي درجة من الحرارة، ولولا هذه الميزة في الماء لما تبخرت قطرة واحدة من ماء البحر، ولم تتكون الغيوم، ولم ينزل المطر ولا احترقت اليابسة من الجفاف.

٢ - وهذا ما يجدر بالاهتمام ايضاً، فثناء عملية التبخر يتبخر الماء الصافي فقط، وتبقى الاملاح والذرات الاخرى التي فيه في مكانها، أي أن هناك عملية تصفية طبيعية كي ينال البشر المياه الصالحة.

٣ - لو لم تكن الطبقات العليا من الجو اكثر برودة من الطبقات السفلى لما امطرت الغيوم المضطربة في الجو أبداً، ولكن هذا الاختلاف في درجات الحرارة هو الذي يؤدي الى نزول الامطار، وكذلك لو كانت قدرة اشباع ذرات البخار متساوية في الهواء البارد والحر لما نزلت الامطار، ولكن بما أن الهواء البارد له قدرة اشباع ضعيفة فإنه يُنزل البخار الذي تحول الى ماء.

٤ - ان الامطار اضافة الى توفيرها للماء الضروري لنمو النباتات، تقوم بغسل الارض وتحمل الاوساخ معها نحو البحار.

٥ - ان الامطار تُنظف الجو ايضاً، وتقوم بانزال التراب والغبار والذرات المعلقة في الجو التي تذوب فيها الى الارض، ولولا هطول الامطار لتلوث الجو بعد مدة قصيرة واستحال التنفس على الانسان.

٦ - ان الامطار تغسل صخور الجبال شيئاً فشيئاً، ليخرج منها التراب الذي يمكن استثماره، فتمتد السهول الواسعة على سطح الارض.

٧ - ان الامطار تحمل معها الاتربة الغنية من المناطق البعيدة وتنشرها في المزارع لتقويتها، كما يجلب جريان الماء معه افضل الاسمدة الطبيعية للنباتات الى بعض المناطق (كسواحل النيل).

٨ - ان الامطار لا تهب الحياة في المناطق الجافة فحسب، بل ان هطول

الامطار على البحار يُعتبر مؤثراً للغاية ايضاً ، وليس اقل من تأثيره في المناطق اليابسة كما يقول بعض العلماء ، لأنَّ سقوط الامطار في البحر يساعد على نمو النباتات الصغيرة في وسط امواج المياه ، حيث تكون طعاماً مناسباً جداً للأسماك والاحياء البحرية ، وفي السنة التي يقلُّ فيها نزول الامطار يسوء فيها وضع الصيد .

٩- انَّ ارتفاع الغيوم عن سطح الارض اكثر من ارتفاع اعلى نقاط الارض ولهذا فلا تُحرم أية بقعة من الاستفادة من ماء المطر .

١٠- انَّ العديد من اشجار الغابات والاعشاب الطبيعية والغذائية تنمو على الجبال الشاهقة ، وهذا يدل على انَّ الامطار تقوم بايصال الكمية اللازمة من الماء اليها ، ولولا الامطار لجفَّت جميعها .

١١- لو تأملنا جيداً بالسدود الضخمة التي انشئت في عصرنا هذا والتي تُؤمنُ جانباً مهماً من الطاقة الكهربائية في العالم ، وتقوم بتشغيل المعامل العملاقة لوجدناها من بركات هطول الامطار على المناطق الجبلية .

١٢- انَّ بعض ترشحات الغيوم تنزل الى الارض على هيئة جليدٍ فتُخزن في قمم الجبال كمصادر للمياه ، وتقوم بمساعدة خزانات المياه الموجودة تحت الارض ايضاً لأنها تذوب تدريجاً وتنفذ داخل الارض ، ولكن لو تساقط الجليد باستمرار بدلاً من المطر فلا وجود عندئذٍ للكثير من المنافع التي ذُكرت اعلاه .

١٣- الغيوم بحار معلقة في السماء ، وما اعظم الاله الذي يرسل كل هذا الماء الى السماء خلافاً لقانون الجاذبية ، ويقوم بنقله بسهولة من نقطة الى اخرى .

١٤- بالاضافة الى كل هذا فانَّ للغيوم تأثيراً ملموساً في خفض درجة البرودة شتاءً وخفض درجة الحرارة صيفاً .

١٥- انَّ الغيوم تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدي الى وقوع الرعد والبرق ، وسوف نتحدث عن هاتين الظاهرتين في البحث الذي يتعلق بالرعد

والبرق ان شاء الله .

وعلى العموم فإنَّ هاتين الظاهرتين اللَّتين نعتبرهما من الامور العادية جداً نتيجة لأُنسِنَا بهما ، مدهشتان ومليّتان بالاسرار ، ويمكن مشاهدة آيات التوحيد العظيمة في اعماق اسرارهما ، والوصول الى عظمة تلك الذات المقدسة من خلال هذه الآيات العظيمة .

* * *

٣ - الرياح والامطار في الروايات :

نقرأ في الحديث المعروف بتوحيد المفضل عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال : « وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها ، ألسنت ترى ركودها اذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد أن يأتي على النفوس ، ويحرّض الاصحاء وينهك المرضى ، ويفسد الثمار ، ويعقّن البقول ، ويعقّب الوباء في الابدان ، والآفة في الغلات ؟ ففي هذا بيان أن هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق . ولو أن ملكاً من الملوك قسّم في اهل مملكته قناطير من ذهب وفضة ألم يكن سيعظم عندهم ويذهب له به الصوت ؟ فأين هذا من مطرة رواء ؟ اذ يعمر به البلاد ويزيد في الغلات من قناطير الذهب والفضة في اقاليم الارض كلها .

تأمل نزوله على الارض والتدبير في ذلك فأنه جعل ينحدر عليها من علو ليتنشّى ما غلظ وارتفع منها فيرويه ولو كان انما يأتيها من بعض نواحيها لما علا على المواضع المشرفة منها ويقل ما يزرع في الارض وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدات مؤونة سياق الماء من موضع الى موضع ، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذوو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء . ثم انه حين قدّر ان ينحدر على الارض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ليغور في قطر

الارض فيرويها ولو كان يسكبه انسكابا كان ينزل على وجه الارض فلا يغور فيها ثم كان يحطم الزرع القائمة اذا اندفق عليها فصار ينزل نزولا رقيقاً فينبت الحب المزروع وفي نزوله ايضاً مصالح اخرى فانه يلين الابدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء» .
ويقول في جانب آخر من الرواية :

« فكَرَّ يا مفضل في الصحو والمطر كيف يعتقان على هذا العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساد ، ألا ترى أنَّ الامطار اذا توالى عفت البقول والخضر واسترخت أبدان الحيوانات وخصر الهواء فأحدث ضرراً من الامراض وفسدت الطرق والمسالك وأنَّ الصحو اذا دام جفَّت الارض واحترق النبات وغيض ماء العيون والاوذية فأضرَّ ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً أخرى من الامراض فاذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الاشياء واستقامت » (١) .

ونقرأ في حديث آخر عن الامام السجاد (عليه السلام) :

« انزل من السماء ماءً يعني المطر ينزله من أعلى ليلبغ قلل جبالكم وتلالكم وهضابكم واوهادكم ثم فرقه رذاذاً ووابلاً وهطلاً لتنشفه ارضوكم ، ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة فيفسد ارضيكم واشجاركم وزروعكم وثماركم » (٢) .

٤ - لقد كشفت البحوث الحديثة للعلماء النقاب عن اسرار جديدة وبيَّنت التأثيرات المهمة للرياح في نزول الامطار بكيفية جديدة حيث يُعتبر التوضيح الآتي

(١) بحار الانوار ج ٣ ص ١١٩ - ١٢٦ (مع الاختصار) .

(٢) « نور الثقلين » ج ١ ص ٤١ ، وفي كتاب بحار الانوار ج ٥٦ ص ٣٤٤ - ٣٧٤ أيضاً وردت رواية اشارت الى اسرار تكوُّن الغيوم والمطر .

نموذجاً منه (يجب توفر شرطين لتكوين الغيوم وهطول الامطار) وهما :

١ - وجود بخار الماء في الهواء .

٢ - تشبّع الهواء بالبخر وتقطيره .

أما فيما يتعلق بالشرط الأول فبالرغم من أنّ الهواء لا يخلو على الإطلاق من بخار الماء وتبلغ ادنى نسبة له نحو ٥٠ غراماً في المتر المكعب ، إلا أنّ هذا المقدار من الرطوبة لا يكفي لتكوين الغيوم ونزول الامطار ، بل يجب امدادها باستمرار ، أي يجب أن يصل هواءٌ جديدٌ مُحمّلٌ ببخر الماء بعد تكوين الغيوم ونزول الامطار تباعاً ، ويستمر هبوب الريح ، ويكون انطلاقها أو مسيرتها من البحر أو الغابات الكثيفة كي يتزود من الرطوبة بالمقدار اللازم .

وأما الشرط الثاني أي الوصول إلى حالة الاشباع وحصول ظاهرة التقطير (تعرّق الهواء وتحول البخار إلى سائل) فهذا يستلزم برودة الهواء ، كما يحدث في الشتاء اذ يتعرّق زجاج شبابيك الغرف التي تحتوي على ما يكون البخار كالسماور والقدور

والعامل الوحيد المؤثر في برودة الهواء ويوصله إلى مرحلة تكوين الغيوم والتقطير هو ارتفاع الهواء وعلوه ، ويحدث ارتفاع الهواء على ثلاثة اشكال او في ثلاث حالات ، وينزل في كل حالةٍ منها مطرٌ خاصٌ وهي :

أ - اصطدام الهواء بالاجزاء البارزة من الارض والصعود من وسط الجبال حيث تنتج عنه الامطار الجبلية .

ب - حرارة وخفّة الهواء وصعوده السريع اثر اشعة الشمس وملامسة المناطق الحارة وتنتج عنه (امطار العواصف) .

ج - اصطدام جناحي الهواء الحار والبارد وتقلبهما وتنتج عنه (الامطار الغزيرة) ، وأنّ الغيوم والامطار كافة تنشأ عن أحد هذه الوقائع الثلاث واهمها النوع

الآخر.

اذن فالهواء يرتبط بالغيوم والأمطار في كل المراحل فهو يتدخل ابتداءً من حمل البخار وإيصاله إلى المناطق الجافة، مروراً وانتهاءً بهزّ الغيوم وانزال المطر، وليس من الممكن حصول الغيوم والأمطار بدون الهواء، والمعروف ان الغيوم ليست سوى الهواء (أي الهواء المحمّل بالماء).

وورد في قسم آخر من هذا البحث: «أنّ قطرات الأمطار تسيل من الغيوم المتكونة من عدة طبقات والتي ترتفع أكثر من عشرة كيلو مترات، وهذه الغيوم العارية الصاخبة تظهر على هيئة جبالٍ حيث يُغطى القسم الأعلى منها بقضبان الثلج وقطع الجليد وقد تكون ممثلة بالبرَد».

وحتى قبل الحرب العالمية الأولى حيث تمكنت الطائرات حينذاك من الارتفاع فوق الغيوم وشاهد الطيارون الستائر المتكونة من الجليد والناشئة من الغيوم المتصاعدة، لم يكن لأي شخص علم بوجود الجليد والبرَد في غيوم السماء.

«فالصعود المتقلّب اللاتطقي للرياح الرطبة والحارة يؤدي إلى تكوين جبالٍ عاليةٍ من الغيوم المتجمدة التي تتزامن مع الزوايح الشديدة وسط الرعد والبرق المتتابعين»^(١).

ويمكن ان يعطي هذا التوضيح تفسيراً جديداً للآية «٤٣ من سورة النور» ويرفع الحجاب عن معجزة علمية لطيفة للقرآن الكريم، حيث يقول: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ قُصِيبٌ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ فأيّ جبلٍ في السماء توجد فيه قطع البرَد؟ هذا السؤال الذي كان صعباً ومعقداً بالنسبة للكثيرين، ولهذا فقد ذكروا له عدة تفاسير.

(١) «الهواء والمطر» ص ٥٧ - ٦٥ (مع الاختصار).

ولكن من خلال الاكتشافات اعلاه يتضح عدم الحاجة الى التبرير والتقدير
والمجاز وامثال ذلك لتفسير الآية المزبورة ، ويتبين معنى الآية في ظل هذا الأمر^(١) .

(١) من اجل المزيد من الايضاح يراجع التفسير الامثل ج ١٤ ص ٥٠٢ وما بعدها .

١٢- آياته في حدوث الرعد والبرق

التمهيد :

هنالك القليل ممن يولي ادنى اهتمامٍ لهاتين الظاهرتين السماويتين قبل دراسة اسرار الرعد والبرق ، وعادةً ما يمرُّ الجميعُ عليها مرور الكرام ، ولعلَّ بعضهم ينظرُ اليها وكأنَّها مزاحُ الطبيعة ، كما يتحدث بعض آخر حولها بقصصٍ خرافية ، إلا أنَّ الحقيقة هي أنَّ هاتين الظاهرتين تحدثان من خلال نظامٍ خاصٍ ، ولهما آثارٌ وبركاتٌ جديدةٌ باهتمام الانسان حيث سيأتي شرحها في تفسير الآيات الآتية .

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين بعض آيات القرآن الكريم في هذا المجال :

- ١ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .
- ٢ - ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ ^(٢) .

- ٣ - ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ ^(٣) .

* * *

(١) (الروم الآ٥ : ٢٤) .

(٢) (الرعد الآ٥ : ١٢) .

(٣) (الرعد الآ٥ : ١٣) .

شرح المفردات :

﴿ البرق ﴾ كما يقول الراغب في المفردات تعني في الاصل النور الذي يظهر من الغيوم ، ثم استعملت للتعبير عن كل شيء ساطع ، فمثلاً يقال للسيف اللامع : (السيف البارق) .

اضافة الى ذلك ، يستفاد من «مقاييس اللغة» أنّ «البرق» لها معنى آخر ، وهو اجتماع السواد والبياض في شيء واحد ، ولكن الظاهر إنّ المعنى الثاني يعود الى المعنى الأول ، لأن السواد عندما يكون الى جانب البياض يُبدي بريقاً أكثر ، كما اعتبر بعض مفهوم الشدة والضغط جزءاً من معنى البرق ايضاً فيقولون : إنّ البرق واللمعان يحدثان بشكل خاص من خلال الشدة والضغط ^(١) .

ويقول «الراغب» أنّ «الرعد» هو صوت الغيوم ، وتُستعمل كناية ايضاً عن تحطّم وسقوط الشيء الثقيل المتزامن مع الصوت ، إلا أنّ صاحب «مقاييس اللغة» ذكر أنّ معناها الحقيقي هو الحركة والاضطراب ، ولكن بصورة عامة ، يستفاد جيداً من كتب اللغة أنّ المعنى الحقيقي هو الصوت الذي ينطلق من الغيوم ، وبقية المعاني لها صبغة كنائية .

و «الصواعق» جمع «صاعقة» ، وتعني في الاصل الصوت الشديد المهب الذي ينطلق من الجو مصحوباً ببريقٍ نارٍ عظيم ، وجاءت هذه المادة ايضاً بمعنى الدهول بسبب سماع الاصوات القوية ، وقد تستعمل بمعنى الهلاك ايضاً .

وقال بعض ارباب اللغة : إنّ موارد استعمال الصاعقة ثلاثة وهي : «الموت» و «العذاب» و «النار» ^(٢) إلا أنّ الظاهر أنّ جميعها من لوازم المعنى الحقيقي .

* * *

(١) «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» مادة «برق» .

(٢) «مفردات الراغب» و «لسان العرب» و «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» .

جمع الآيات وتفسيرها:

اسرار خلق الرعد والبرق:

تعتبر الآية الاولى من البحث بشكل صريح ، أن برق السماء أمن آيات الله فتقول ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ .

الخوف الناتج عن الصوت المهيّب الذي يرافقه ، واحتمال تزامنه مع صاعقة مميتة ، والامل والطمع بسبب احتمال نزول المطر ، لأنه في كثير من الحالات يعقب الرعد والبرق زوابع مليئة بالبركة .

ولعلّه لهذا السبب يضيف في سياق هذه الآية ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ .

فالارض اليابسة والمحترقة تحيي بقليل من المطر والزوابع التي تهب الحياة ، بحيث تبتسم الازهار والنباتات وكأنها ليست لتلك الارض السابقة .

ولهذا يضيف في نهاية الآية للتأكيد فيقول : ﴿أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

فهم يفهمون ان هذه الظواهر ليست ظواهر عادية تحدث صدفة ، فيتفكرون فيها ويتعرفون على اسرارها .

* * *

وورد هذا المعنى في الآية الثانية من بحثنا بتعبير آخر تعريفاً بالذات الالهية المقدسة عن طريق آثاره فيقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ .
الخوف من الصواعق والتفاؤل بنزول المطر ، أو خوف المسافرين ، وتفاؤل المقيمين في المدن والارياف .

واللطيف انه يقول بعد ذلك مباشرة : ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ .

وقيل في بيان هذه الجملة (تتزامن مع العواصف القويّة زوابع من الغيوم ، فتغطي اعالي الجو القرب من الارض ، فيصبح الجو مظلماً ، وتتولد الكهرباء نتيجة تلاطم الرياح ، وتهتز الارض والجو بسبب صوت الرعد المتتابع ، واخيراً فإنّ الغيوم المتراكمة في طبقات الجو السفلى سميكة ومحملة بكثير من قطرات المياه الكبيرة لذلك تكون ثقيلة للغاية على الرياح المحركة^(١) .

* * *

ويشير في الآية الثالثة والاخيرة من بحثنا الى ظاهرة «الرعد» فيقول:
﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ .

ويُبيّنُ هذا التعبير أنّ هذه الظاهرة السماوية ليست مسألة عادية ، بل تُنبئُ عن علم وقدره الله تعالى ، لأنّ **﴿التسبيح﴾** يعني التنزيه عن كل عيب ونقص ، و **﴿الحمد﴾** تعني شكره مقابل الكمالات ، وعليه فإنّ صوت الرعد يتحدث عن الاوصاف الجمالية والجلالية لله تعالى !

ويمكن ان يكون هذا الكلام بلسان الحال ، كما يتحدثُ اختراعُ مهمّ عن علم ووعي المخترع ، او لوحة جميلة جداً عن الذوق الحاد للرسام ، او قطعة شعرية عن الذوق الادبي للشاعر ، فتمدحه وتشكره ، فتكون لسان حالٍ ، كما قال بعض المفسرين بأنّ لدى ذرات هذا العالم كافة عقلاً وشعوراً ، كل حسب حظه ، وتسبيحها وحمدها ينبع من العقل والشعور والادراك .

يقول الفخر الرازي في تفسيره :

« فلا يبعد من الله تعالى ان يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في اجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلا له .

فاذا لم يبعد تسبيح الجبال في زمن داود (عليه السلام) ولا تسبيح الحصى في زمان محمد (ﷺ)» (١).

فليكن اي الاحتمالين ، فليس هنالك اختلاف في بحثنا ، وعلى كل حال ان هناك اسراراً خفية في هذه الظاهرة السماوية حيث تكشف عن عظمة الخالق وآية من آياته .

والمعروف ان الماء والبخار ، والغيوم موجودات لا تتوافق مع النار ، ولكن بقدرة الخالق تنطلق منها نار هائلة اكثر احراقاً من انواع النيران على الارض كافة ، وكذلك البخار ، الجسم اللطيف جداً ، ولكن ينطلق منه صوت لا ينطلق من سقوط اثقل واقوى الاجسام .

يستفاد جيداً من مجموع هذه الآيات ان كلاً من « الرعد » و « البرق » من ظواهر عالم الوجود الجديرة بالاهتمام ويجب دراستها بجدية ، للتوصل الى اسرارها ، والتعرف على عظمة الخالق عن طريقها ، وسيأتي هذا الأمر في قسم التوضيحات ان شاء الله تعالى .

* * *

التوضيحات :

١ - الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر :

يعتقد العلماء المعاصرون أن بريق السماء يحدث من خلال تقارب قطعتين من الغيوم المحملة بالشحنات الكهربائية المختلفة واحدة موجبة والاخرى سالبة ، فتحدثان بريقاً كما يحصل من اقتراب قطبي الموصل الكهربائي تماماً .

(١) «التفسير الكبير» ج ١٩ ص ٢٥ .

وحيث تتحمّل قطع الغيوم بالشحنات الكهربائية العظيمة يكون بريقها عظيماً ايضاً، ونحن نعلم أنّ لكلّ بريق صوتاً، وكلّما اشتد البرق كلما تعاظم صوته، ولهذا قد يكون الصوت المهيّب لهذا البرق من الشدّة بحيث يهزّ جميع المباني ويحدث صوتاً كالقنابل الضخمة.

ولكن البرق لا يظهر بين قطعتي الغيوم دائماً لتكون بعيدة عن متناول الانسان ولا تُسبب أيّ خطر، بل قد تقترب الغيوم الحاوية على الشحنات الموجبة من الارض، وبما أنّ الارض تحتوي على الشحنات السالبة لذلك يحدث البرق بين «الارض» و«الغيوم»، وهذا البرق العظيم الذي يسمّى بالصاعقة خطيراً للغاية، فهو يحدث هزّة شديدة في المنطقة التي يقع فيها، وكذلك يولد حرارة عالية جداً بحيث اذا اصابته أيّ شيء تجعله رماداً^(١).

ونظراً لتجمع الشحنات على الاجزاء المدببة للاجسام ففي الصحاري التي تحدث فيها الصواعق، يظهر البرق في النقاط المرتفعة كرووس الاشجار، وحتى رأس الانسان المار عبرها، لذلك يعتبر التوقف في الصحاري اثناء الجو العاصف المليء بالرعد والبرق خطيراً للغاية، وفي مثل هذه الحالات يمكن ان يزيل اللجوء الى الوديان أو الاقتراب من الاشجار واسفل الجبال والتلال الخطر الى حد ما (ان الاتكاء على الاشجار والشبابيك الحديدية لا يخلو من خطورة ايضاً).

تتضح جيداً من خلال التوضيح اعلاه اخطار البرق وعامل الخوف الذي أُشير اليه في الآيات الآتية.

(١) مع أنّ مدة الصاعقة لا تتجاوز عشر الثانية وقد تكون — من الثانية، ولكن الحرارة التي تنتج تصل الى ١٥٠٠٠ سانتيغراد بامكانها التسبب في حدوث اخطار بالغة الشدّة (حرارة سطح الشمس ٨٠٠٠ فقط) (اعجاز القرآن ص ٧٨).

٢ - فوائد وبركات الرعد والبرق :

بالرغم من اخطار الرعد والبرق التي أُشير اليها سابقاً فإن لها فوائد جمّة ايضاً ، حيث سنشير الى بعضها هنا :

أ - الري - من المعروف ان البرق يولّد حرارة عالية جداً ، قد تبلغ ١٥ ألف درجة سانتيفراد ، وهذه الحرارة كافية لاحتراق مقدار كبير من الهواء المحيط مما يؤدي الى هبوط الضغط الجوي مباشرة ، ونحن نعلم ان الغيوم تُمطرُ اثناء هبوط الضغط ، ولهذا فغالباً ما تبدأ الزوابع عقب حدوث البرق وتنزل قطرات الامطار الكبيرة ، وفي الواقع يعتبر الري من هذا الجانب أحد بركات البرق .

ب - رش السموم - عندما يظهر البرق بتلك الحرارة ، تتألف قطرات المطر بكميات اضافية من الاوكسجين ، فيحصل الماء الثقيل أي الماء المؤكسد (H, ٥٢) ، ونحن نعلم ان من آثار هذا الماء هو القضاء على الجراثيم ، ولهذا يستعمل طبياً في تنظيف الجروح ، فهذه القطرات تقضي على بيوض الآفات المسببة لامراض النباتات عندما تنزل الى الارض ، وتقوم برش السموم على احسن وجه ، لذلك فقد قالوا : في كل سنة يقل فيها الرعد والبرق تزداد الآفات النباتية .

ج : التغذية والتسميد - ان قطرات المطر واثار حدوث البرق وحصول الحرارة الشديدة الناتجة عنه وتركيبها الخاص ، تحصل على حالة من حامض الكاربونيك ، فتقوم بتكوين سماد نباتي مؤثر اثناء تناثرها على الارض وتخللها فيها ، فتتغذى النباتات عن هذا الطريق .

ويقول بعض العلماء : إن كمية السماد الحاصل من حالات البرق في السماء خلال سنة واحدة يبلغ عشرات الملايين من الاطنان ، وهذا رقم مرتفع للغاية .

بناءً على ذلك نرى ان هذه الظاهرة الطبيعية العادية وغير المهمة الى أي حد

مفيدة ومليئة بالبركة ؟ فهي تسقي ، وترش السموم ايضاً ، وتقوم بالتغذية ، وهذا نموذج صغير من الاسرار العجيبة لعالم الوجود حيث يصلح أن يكون دليلاً في الطريق لمعرفة الله .

كل هذا من بركات البرق ، ولكن الحرائق التي تنتج عن نوع منه وهي الصواعق من جانب آخر قد تحرق الانسان أو البشر والمزارع والاشجار ، بالرغم من ان هذا الأمر قليل ونادر الوقوع ويمكن اجتنابه ، إلا أنه بامكانه ان يصبح عامل خوف وهلع ، وعليه فإن ما قرأناه في الآية السالفة بأن البرق اساس للخوف واساس للأمل ايضاً قد يكون اشارة الى مجمل هذه الأمور .

ومن الممكن ان تكون عبارة ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ الواردة في نهاية الآية اعلاه لها ارتباط بميزة البرق هذه التي تؤدي الى تحمّل الغيوم بقطرات الامطار .

١٣ - آياته في خلق البحار والفلك

تمهيد :

نحنُ نعلمُ أنَّ الماءَ يغطي ثلاثة ارباع سطح الارض ، وان المحيطات والبحار ترتبط مع بعضها ، كما نعلم أنَّ الانسان قد استثمر البحار للحمل والنقل منذ غابر الأيام على افضل وجه ، بالاضافة الى استغلاله لجانبٍ مهمٍ من المواد الغذائية الكامنة في البحر ، وكذلك فإنَّ القسم الاعظم من مختلف المواد التي تُستعمل في الصناعات يُستخرجُ من البحار .

والاهم من كل ذلك ، أنه لا يخفى على أي شخص دور البحار في تكون الغيوم وسقي الاراضي اليابسة كافة ، وواضحٌ للجميع تقريباً وضعُ حيوانات البحار وتنوعها وعجائبها .

لهذه الاسباب اعتبرَ القرآنُ الكريمَ البحارَ والفلَك من آيات الله ، ودعا الناس الى التمعنِ في اسرارها .

بعد هذا التمهيد نيممُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونقرأ خاشعين الآيات

الآتية :

١ - ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

٢ - ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ

أَجَاجٍ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ .

٣ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

٤ - ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ أَنْ يَشَاءِ يُسَكِّنِ الرِّيحَ
فَيُظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٣) .

٥ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٤) .

٦ - ﴿ أَنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ... لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

٧ - ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ
بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٦) .

* * *

شرح المفردات :

﴿ الْبَحْر ﴾ حسب قول الراغب في « المفردات »، أنَّ « البحر » هو المكان
الواسع الذي يتجمع فيه ماء كثير، كما يطلق على كل شيء واسع، و « متبحر » أو

(١) (فاطر الآية : ١٢) .

(٢) (الجمانية الآية : ١٢) .

(٣) (الشورى الآية : ٣٢ و ٣٣) .

(٤) (لقمان الآية : ٣١) .

(٥) (البقرة الآية : ١٦٤) .

(٦) (الاسراء الآية : ٦٦) .

« مستبحر » : يقال للشخص الذي يمتلك علماً واسعاً ، ويقال للتغيّر الذي يحدث للعليل فجأة بـ « بُحْران » (ثم أُطلقَ لفظ « بُحْران » على الحوادث الحادة) واعتبر بعض أن الملوحة تدخل في مفهوم « البحر » ايضاً علماً أن البحر يُطلق على الماء العذب ايضاً^(١) ، و « الفُلك » (على وزن قُفْل) وتعني السفن ، ويستوي فيها المفرد والجمع والمذكر والمؤنث ، ولفظ « فَلَكَ » (على وزن فَذَكَ) يعني مسير ومدار النجوم وتفرّع من هذا الأصل .

و « الجوّاري » جمع « جارية » وهي مأخوذة في الاصل من « الجري » أي العبور السريع ، ويقال « جارية » للسفن التي تجري وتتحرك في البحار ، ويقال للشابة في لغة العرب « جارية » ايضاً وذلك لنشاط الشباب الذي يملأ كل وجودها . وجاء في « المصباح المنير » أن اطلاق لفظ « الجارية » على الخادمة لكونها مسخرة لأوامر مولايها وتجري لانجاز الاعمال باستمرار .

و « مواخر » جمع « ماخرة » وتعني السفينة وهي من مادة « مَخَرَّ » (على وزن فَخَر) كما تطلق على جريان الماء في الارض وانفطارها ، وكذلك تطاير الماء من على جانبي السفينة ، كما تستعمل هذه المفردة لأصوات هبوب الرياح ، والظاهر انها من لوازم المعنى الاول^(٢) .



(١) « صحاح اللغة » و « المقاييس » و « مفردات الراغب » و « مجمع البحرين » و « لسان العرب » .

(٢) « مفردات الراغب » « المصباح المنير » « التحقيق في كلمات القرآن » « لسان العرب » .

جمع الآيات وتفسيرها:

عجائب البحار!

تقول الآية الاولى معرفة بالذات الالهية المقدسة ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ .
ويدلُّ هذا التعبير على أنَّ البحر بكل وجوده في خدمة الانسان ، والحق
كذلك ، فاولُ براعم الحياة تفتح في البحار ، وقد كان البحر فيما مضى وحاضراً
مصدراً مهماً لانواع حاجات الانسان وديمومة حياته .

ويستند في سياق هذه الآية الى ثلاثة مواضع :

اولها : يستطيع الانسان أن يستخرج من البحر لحماً طرياً اذ يقول : ﴿لِتَأْكُلُوا
مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ .

لحمٌ كثيرٌ لم يتحمل الانسان عناء تربيته ابدأً ، ويكون طرياً بشكلٍ كامل وفي
متناول يده في اغلب نقاط الارض .

أنَّ الاستناد الى طراوة وطزاجة هذا اللحم ، اضافة الى اشارته الى لذة لحم
الاسماك ، فهو تذكيرٌ بهذه النكته ، وهي أنَّ الناس في تلك العصور والازمان كانوا
يستغلُّون اللحوم القديمة بسبب المشكلات التي تواجههم في صيد اللحوم الطرية ،
وهذه النعمة ذات اهمية خاصة ، وفي عصرنا وزماننا حيث تتوفر اللحوم القديمة
والمجمدة لاسباب مختلفة تتضح اهمية هذا التعبير .

ويقول بعض المفسرين : هذا التعبير اشارة الى عظمة الله عز وجل وقدرته في
خلق اللحوم الطرية اللذيذة في المياه المالحة^(١) .

ويمكن ان يكون التعبير بـ ﴿اللحم﴾ اشارة الى أنَّ القسم الاعظم من جسم

(١) روح المعاني ج ١٤ ص ١٠٢ .

السّمك يتكون من اللّحم وفيه قليلٌ من العظام ، علىّ العكس من بقية الحيوانات .
وتتضح اهمية هذه النعمة الالهية اكثر من خلال الالتفات الى ان استغلال
لحوم الاسماك لتغذية البشر اصبحت تحظى باهتمامٍ بالغٍ بسبب ندرة المواد
الغذائية .

وثانيها: يذكر فائدة البحر في استخراج وسائل الزينة لا سيما الجواهر
﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ .

فكأنه يقول: يخرجُ من البحر المواد الغذائية الضرورية جداً وحتى الحاجات
غير الضرورية والكمالية ، ﴿وَكُلُّهَا مُسَخَّرَةٌ لَّكُمْ﴾ .

وفي الموضع الثالث يخاطب النبي (ﷺ) قائلاً: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ
فِيهِ﴾ .

« انَّ الله قد منحكم هذه النعم كي تبتغوا من فضله ، لعلكم تؤدون شكر
نعمائه » ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

ومن اجل ان تتمكن السفنُ من الابحار في المحيطات والبحار واستخدامها
كأفضل وسيلة لحمل ونقل السلع التجارية وتنقل البشر لابد من تظافر عدّة عوامل :
نوعية القوانين التي تسودُ المواد الثقيلة والخفيفة التي تصونها على سطح
الماء ، وارتجاج الماء ، وهبوب الرياح المنظم على سطح المحيطات ، والعمق اللازم
للبحار ، فتتظافر كلها كي تتحرك السفن العملاقة على سطح المحيطات ، اما السفنُ
التي تعمل بقوة البخار فهي اعظم ما صنعه الانسان ، وقد يكون حجم أحدها بقدر
مدينة وتستطيع انجاز ما يعادل عمل عشرات الآلاف من السيارات لوحدها (انَّ
السفن التي تستوعب خمسمائة الف طن تحمل ما يعادل حمولة ١٥٠ ألف سيارة
ذات حمولة ١٠ أطنان !) .

انَّ هذه المسألة بالاضافة الى مسألة استخراج انواع المواد الغذائية وغير

الغذائية ومواد الزينة ، تعتبر دليلاً على علم وقدرة خالق الكون الذي وضع كل هذه النعم في متناول الانسان مجاناً .

* * *

وفي الآية الثانية تكررت ذات النعم الثلاث التي أُشير اليها في الآية السابقة (اللحم الطري ، والحلي ، وحركة السفن على سطح البحار) ايضاً ، واستند اليها ، مع هذا الاختلاف حيث يشير في مطلع الآية الى بحار الماء العذب والماء المالح فيقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ . ومع انّ اكثر مياه البحار على سطح الارض مالحة إلا أنّ بحار وبحيرات المياه العذبة ليست قليلة ايضاً ، حيث تُشاهد نماذج عديدة منها في الولايات المتحدة ، وكثيراً ما يستفاد منها ، اضافة الى الانهار الكبيرة التي تصب في البحار المالحة وتتوغل فيها ، فتدفع المياه المالحة الى الخلف ولا تختلط معها لفترة طويلة فتشكّل بحراً من الماء العذب حيث يسقي كثيراً من السواحل اثناء المد والجزر ، مما يؤدي الى ازدهار البساتين والمزارع الواسعة .

ويعتبر الفخر الرازي في تفسيره هذين البحرين اشارة الى المؤمنين والكافرين ، إلا انّ التمعّن في لحن الآيات يدلّ على انه لا يقصد هذا المعنى ، بل انّ الهدف هو بيان آيات وآلاء الله في عَرْضِ الخلق .

* * *

وجاء الحديث في الآية الثالثة عن تسخير البحار للانسان ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ﴾ .

ولكن استند الى مسألة الإبحار فقط من بين مختلف بركات البحر ، والتي تمت الاشارة اليها في الآيات السابقة .

* * *

وفي الآية الرابعة اعتبر السفن العملاقة التي تشبه الجبال المتحركة والتي تظهر على سطح البحر من آيات وآلاء الله ، فيقول ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ .

حقاً .. مَنْ خلق المحيطات بهذه السعة والعمق والخصائص ؟ ومن الذي منَح الخشب والحديد هذه الميزة بحيث يطفو على وجه الماء ؟ ومن الذي أمر الرياح أن تهبَّ بشكلٍ منظمٍ على سطح البحار وتمنح الانسان فرصة الانتقال من نقطة الى اخرى ، ويستخرج ملايين الثروات عن طريق البحر ؟

أليس هذا نظام متقن ومُحكَم ، وكذلك النظام السائد على قوة البخار والبرق دليل جلي على علم وحكمة الخالق جلَّ وعلا ؟

هنا يشبَّه القرآن الكريم السفن الضخمة بـ ﴿ الْأَعْلَامِ ﴾ و « الْأَعْلَامِ » جمع « عَلَم » (على وزن قَلَم) وتعني في الاصل (كما يقول الراغب في المفردات) الاثر الذي يحصل منه علمٌ بوجود شيءٍ ، كالعلامات التي توضع على الطرق ، وعلم العسكر ، ولهذا اطلق على الجبل اسم « عَلَم » حيث يعتبر دليلاً واضحاً يبرز من بعيد ، ولهذا السبب شُبِّهت السفن العملاقة بالجبال حيث تتضح من بعيد كالجبال . واللطيف ان القرآن يقول عقب هذه الآية ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ .

ولو شاء جعلَ الرياح مضطربةً وغير منظمةٍ بحيث لا تستطيع اية سفينة بلوغ هدفها ، بل يغرقها في البحر ، لذلك يكرر التأكيد في نهاية الآية ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

اولئك الذين استوعبوا آيات الآفاق من خلال الصبر والتحمل ، ويؤدرون شكر هذه النعمة بعد ادراك الحقيقة ، ويركعون على اعتاب ساحة القدس الالهية العظيمة .

واشار في الآية الخامسة الى هذا الموضوع أي حركة السفن في البحار كأحد النعم الالهية العظيمة ايضاً، مع هذا الفارق حيث يقول: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾.

* * *

وفي الآية السادسة ايضاً حيث يأتي البحث عن سبع آيات من آيات الله، فهو يذكر الفلك كآية ثالثة حيث تجري في البحر بما ينفع الناس ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ ويؤكد في ختام هذه الآية أنّ في هذه الامور آيات من الذات الالهية المقدسة وآيات عن وحدانية الله لقوم يعقلون ﴿لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

* * *

وفي الآية السابعة يستند الى ربوبية الله تعالى فيقول: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ فلا تتبعوا الاوثان لانها ليست بربكم.

وهنا نواجه تعبيراً جديداً ﴿يُزْجِي﴾ وهو من مادة «إزجاء» التي تعني «تسيير الشيء بمدارة ورقة» بالنحو الذي ورد في «مصباح اللغة»، ويُستفاد من «مقاييس اللغة» بانها تعني «التسيير الدائم والمستمر»، وهاتان المسألتان في حركة السفن على سطح المحيطات جديرتان بالاهتمام، لا سيما في السفن الشراعية، فالمعروف أنّ الرياح تسوق السفن برفقٍ واستمرارٍ.

فلو كان للرياح هبوبٌ شديدٌ، أو تكون متقطعةً فأنّها تجعل السفن تواجه حركاتٍ واضطرابات قوية، وقد تتوقف وتضيع في وسط البحر أيضاً، إنّ هذا التعبير يبين اسراراً جديدة عن هذه الآية الالهية.

ولهذا يستفاد من مجموع الآيات السالفة أنّ لخلق البحار فوائد مختلفة حيث تعتبر كل منها آية من آياته تعالى، لا سيما حركة السفن الدقيقة على سطح المحيطات.

وتُعرف النعمة دائماً بعد فقدانها، فلولا البحار لم يتكدّس القسم الاعظم من

السلع التجارية التي تُنقلُ عبر المياه فحسب ، بل تختفي كميات كبيرة من المواد الغذائية والحلي ايضاً ، وأهم من ذلك ، تنعدم الغيوم ولا تهطل الامطار ، ويجر الهواء الجاف والحرار جميع الكائنات الحية الى الفناء .

* * *

توضيحات :

١ - البحر قاعدة لانواع النعم :

لم يكن هنالك احدٌ عندما تكونت البحار ، كي يرى طريقة تكوينها ، إلا أن العلماء يعتقدون أن كُرتنا الارضية بعد انفصالها عن الشمس كانت حارة وساخنة ، وبردت رويداً رويداً ، كالتفاحة الناضجة تعرّج قشرها وتجعّد وحصل الانخفاض والارتفاع ، برزت الجبال والوديان والبحار .

ومن الممكن ان يرد هذا التساؤل وهو من أين جاءت مياه البحار ؟ هنالك رأيان : يعتقد بعض أنها تكونت نتيجة لتفاعل الاوكسجين والهيدروجين الموجودين في اعماق الارض وانبثقت كالينابيع التي تتدفق حالياً ، وملأت منخفضات الارض تدريجاً .

إلا أن أشهر الآراء هو ان السماء غطّت جوانب الكرة الارضية بالغيوم المتراكمة ، وحينما انخفضت حرارتها سالت على هيئة امطار غزيرة ، وهطل المطر لآلاف السنين ، وغمرت السيول كافة انحاء الكرة الارضية بنحو لا يمكن تصوره ، وحصلت البحار ، وحتى أمدٍ طويل كانت امواجه تغسل اعماقه وكذلك الصخور والسواحل ، ثم هدأت تدريجاً ، واستقر على هيئته الحالية .

على اية حال ان البحر له تاريخ قديم جداً وملئ بالاسرار ، ولكن الأهم من ذلك هي البركات والمنافع التي ينالها الانسان اليوم من البحار حيث بإمكاننا ان ندرج

قسماً منها، ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها:

١- إنَّ البحْرَ له أهميةٌ بالغةٌ في الإبحار وحمل ونقل الناس والسلع التجارية، وكما اشرنا فان البحار تعتبر اهم وسائل البشر للحمل والنقل. لا سيما الخطوط البحرية التي تمتد بشكلٍ طبيعيٍّ الى بقاع الارض كافة، ويكفينا الالتفات الى هذه الحقيقة وهي صناعة البواخر العملاقة التي تستطيع ان تستوعب (خمسمائة الف طن) من النفط وتنقله الى أي نقطةٍ في العالم.

وهذا يلزم توفر (خمس وعشرين الف سيارة ذات حمولة ٢٠ طناً) لحمل هذه البضاعة.

٢- المواد الغذائية - ومن اهم الفوائد الاخرى للبحار هي المواد الغذائية التي يحصل عليها الانسان منه.

فمن اجل معرفة اهمية هذا الأمر يكفينا العلم بأنه يتم صيدُ ست وعشرين مليون طن من الاسماك سنوياً، علماً أنَّ هذا الاحصاء يتعلق بثلاثين عاماً مضت، ومن المسلّم به أنَّ هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر.

وليس الانسان وحده بل انَّ الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً، وهذا بحدّ ذاته اقتصادٌ في استهلاك المواد الغذائية الجافة.

فيقول بعض العلماء من خلال الاحصاءات التي قاموا بها: إنَّ الطيور البحرية التي تعيش على الجبال الساحلية والجزر الصخرية تستهلك لوحدها مليونين وخمسمائة الف طن من الاسماك سنوياً!.

ونعلمُ ايضاً أنَّ جانباً مهماً من علف الدواجن يتم تأمينه من عظام اسماك البحر، (نفس هذه الاسماك المصطادة)، أي انها تتدخل بصورةٍ غير مباشرة في تغذية الانسان.

٣ - الاعشاب والادوية - يحصل من كل هكتارٍ من البحر خمسمائة طنٍ من العلف الاخضر، في حين انَّ افضل مزارعنا لا تنتجُ اكثر من اربعة اطنان وفي بعض البلدان يُستغلُّ هذا العلف لتغذية المواشي، ويُستعملُ رماده سماداً للمزارع ايضاً. ويستخرجون من الاعلاف البحرية مختلف المواد، كالكحول الجامد والسلولوز والنشاء والمواد الجلاتينية، حيث تُستثمر في الصناعات الكيماوية واعداد الطعام (وبعض الادوية).

٤ - المعادن والنفط - ان البحار غنيّة بالمعادن، ويكمنُ جانبٌ من هذه المعادن في اعماقها، ويعومُ الجزء الاعظم منها على سطحها، ومنها الفلزات التي يمكن استخلاصها من ماء البحر «كالمغنيسيوم» الذي يُستعملُ في الصناعات، وكذلك «البوتاسيوم» و «البروم» و «سلفات الصوديوم» وغيرها.

يقول العلماء إنَّ اكثر من اربعين عنصراً (عدا ما ذكر) موجودٌ في ماء البحر، لها قيمةٌ صناعيةٌ جدية بالاهتمام، كما ويعثر على الذهب في ماء البحر ايضاً، غير أنَّ استخراج الكثير من الغازات ما زال يحتاج الى ميزانية هائلة لا يمكن مقارنتها بالاستهلاك، وقد يأتي اليوم الذي يتمكن فيه الانسان من ان ينالها من خلال طرقٍ اكثر يُسرّاً.

وتقوم بعض الشركات العملاقة بتصنيع اكثر من خمسمائة مادةٍ مختلفةٍ من معادن البحر، حيث هنالك مليارات الاطنان من المعادن.

ويعتبر النفط - وهو من أثمن المستخلصات - من هدايا البحر، لأنَّ المليارات من الموجودات البحرية ترقد في احضان البحار العظيمة، وبما انَّ القارات ارتفعت فيما بعد فقد دُفنت هذه الموجودات تحت الرمال التي تحوّلت الى صخورٍ بعد ذلك، وبقي النفط الناتج عنها في اعماق الارض.

والملح هو أحد اهم المواد المعدنية التي تُستخرج من البحر، له دورٌ مهمٌ في

حياة الانسان ، وقد ذكروا في السابق انّ الملح بلغ من الاهمية بحيث انّ جنود الروم كانوا يتقاضون رواتبهم على هيئة ملح ، وحتى في روسيا فقد اندلعت « ثورة الملح » ! بسبب ارتفاع سعره .

انّ اهم مصادر استخراج الملح هو البحر ، وحتى ان بعض المناطق الملحية الموجودة على اليابسة والتي يبلغ قطرها (٨٠٠) م هي من آثار البحار عندما كانت تغمر جميع بقاع الارض .

لقد قدّروا الاستهلاك العالمي للملح بـ (٢٢) مليون طن سنوياً ، بحيث لو أراد الانسان استهلاك مخزون الملح الموجود على اليابسة لَنفَذَ عاجلاً او آجلاً في حين انّ البحر مصدر لا ينفد للملح ، فيمكن ان تؤمّن املاح البحر ما يحتاجه البشر لمدة مليون وسبعمائة الف سنة .

٥ - افضل منتج للطاقة - لقد انتبه الانسان منذ القِدم الى هذا الأمر ، وهو امكانية انتاج الطاقة من خلال السيطرة على المياه المتراكمة بسبب المد ، وتنسحب اثناء حدوث الجزر ، فتستغل لتحريك المطاحن وغيرها .

وتفيد بحوث العلماء المعاصرين أنّه يُمكنُ انتاج الكهرباء بكمية كبيرة من هذه البحار ، وأن يستعان بها بصفاتها أهم مصدرٍ لانتاج الطاقة ، فالجزر والمد الذي يحدث مرتين ليلاً ونهاراً بتأثير جاذبية القمر يقوم برفع وخفض ماء البحار بمقدار كبير ، وهذا الأمر اضافة الى مسألة الطاقة التي أُشير اليها فهو يؤثر في سقي المناطق الساحلية ، لأنّ مصبات الانهار التي تصب في البحار تمثل بحراً من الماء العذب ، فيندفع ماء الساحل العذب الى الخلف ويُغطي كثيراً من الاراضي ، لذلك سخر البشر منذ القِدم اراضي واسعة للزراعة من خلال شق الانهار في مثل هذه المناطق .

ولعلّ هنالك الملايين من اشجار النخيل في سواحل الخليج الفارسي حيث تُسقى بنفس هذه الطريقة فقط ، لأنّ الماء يتراجع الى مسافات بعيدة عن الساحل ،

فهذا الماء العذب الفرات الذي يجاور الماء المالح الاجاج ولا يختلط معه يعتبر ثروة عظيمة لسكان السواحل .

٦ - وسائل الزينة المختلفة - من المنافع الاخرى للبحار التي ذُكرت بشكل خاص في الآيات المزبورة هي وسائل الزينة التي تُستخرج من البحر، كاللؤلؤ الذي ينمو في نوع خاص من الصدف، والمرجان الذي هو نوع من الاحياء البحرية، ولكن على هيئة اغصان اشجال لها منظر جميل ومرغوب، اضافة الى صفة الزينة فهو يُستعمل في الطب ايضاً .

٧ - تلطيف الجو عن طريق البحار - ليست الرياح التي تهب من البحار نحو اليابسة هي التي تُرطب وتُلطف الجو فقط، بل هنالك انهاراً عظيمة متحركة في قلب محيطات العالم تتحرك من المناطق الحارة الى المناطق الباردة وبالعكس، وبصورة عامة لها أثر بالغ في تلطيف الهواء على الكرة الارضية .

وواحد من اعظمها هو « غولف استريم »، هذا النهر العظيم الذي يتحرك من سواحل امريكا الوسطى ويطوي المحيط الاطلسي، ثم يصل الى سواحل شمال اوربا، وهذه المياه تكون حارة حينما تتحرك من المناطق القريبة من خط الاستواء، حتى ان لونها يختلف احياناً عن لون المياه المجاورة لها، واللطيف ان عُرض هذا النهر البحري العظيم أي « غولف استريم » نحو مائة وخمسين كيلو متراً، وعمقه عدة مئات من الأمتار^(١)، وتبلغ سرعته في بعض المناطق حداً بحيث يقطع مائة وستين كيلو متراً في اليوم، وتختلف درجة حرارته عن حرارة المياه المجاورة بـ ١٠ - ١٥ درجة .

ان « غولف استريم » يتسبب في حصول رياح حارة، ويعطي نسبة كبيرة من

(١) وقد ذكر في بعض الكتب ان عمقه يصل في بعض المناطق الى (٨٠٠ م) (البحر والعجائب ص ٤٦) .

حرارته الى البلدان الواقعة شمال اوربا، فيعمل على تحسين جوّها، ولعل لولا هذا الجريان لتعسرت الحياة كثيراً في هذه البلدان واستحالت في بعضها.

والعجيب أنّ هذه الانهار البحرية العظيمة والتي يكمن السبب الرئيس وراء ظهورها في التفاوت في درجة حرارة المناطق الاستوائية والمناطق القطبية قليل ما تمتزج بالمياه المحيطة بها، وتطوي آلاف الكيلو مترات بهذا الشكل، فهي مصداق لطيف لـ ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (١١)(٢).

٨ - استثمار ماء البحر طيباً - لا حاجة لتوضيح أنّ ماء البحر له آثار مفيدة لجسم واعصاب الانسان، ولهذا ينتشر اليوم وفي معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الامراض الجلدية والعصبية، او لحفظ الصحة والسلامة، ولو تمّ القضاء على التلوث الاخلاقي في هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط الناس.

٩ - المصدر الرئيس للمياة الجوفية - إنّ أهمّ واعظمّ واكثر فوائد البحر هي الابخرة التي تتصاعد منه، ثم تولّف الغيوم، وتساق هذه الغيوم نحو المناطق اليابسة والجافة، فتحييها، حيث ذكر ذلك في فصل الرياح والامطار بشكلٍ مفصّلٍ.

١٠ - توفير الماء العذب - يتمّ في الكثير من المناطق التي يصعب الحصول على الماء العذب، تأمين هذه المادة الحياتية من خلال تقطير ماء البحر فتصبح المناطق المهجورة مسكونة بسبب ذلك.

هذا جانب من منافع وبركات البحار التي وقف عليها الانسان حتى هذا اليوم، وليس معلوماً ما حجم المنافع التي سينالها الانسان في المستقبل، وهنا نقف على

(١) (الرحمن الآية: ١٩ و ٢٠).

(٢) لمزيد من التوضيح في هذا المجال يراجع التفسير الامثل ج ٢٣ ص ١٣١.

عظمة هذا التعبير القرآني : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾^(١).

* * *

٢ - البحر دار العجائب :

لو فكرنا جيداً فإنَّ جميع الموجودات في العالم تبعث على الدهشة ، ولكن لا يشبه أيُّ منها الاحياء التي في اعماق البحار ، وقد ذكر بعض العلماء أنَّ عدد انواع الاحياء البحرية التي تمت معرفتها مائة واربعون الف نوع ، علماً أنَّ عدد هذه الانواع كثيرٌ للغاية على سطح المحيطات ، ولكن كَلَّمَا نفدنا في الأعماق فانها تقلُّ ، أو على الأقل تقلُّ معلوماتنا عنها .

والمسألة المهمة التي تخص البحار هي أنَّ التَّصَوُّرَ كان ينصبُّ على عدم وجود أيِّ كائن حيٍّ في اعماق البحار ، لأنَّ اشعة الشمس تنفذ الى عمق « ٦٠٠ » متر في الماء فقط ، وتختفي نهاية الاشعة في مثل هذا العمق ، فيغطُّ كلُّ شيءٍ في « ظلام دامس » .

بالاضافة الى أنَّ ماء البحر يكون بارداً جداً في هذه المنطقة ، والأهمُّ من ذلك الضغط الذي يولده الماء على موجودات تلك المنطقة ، لأنَّ ضغط الماء في عمق كيلو متر واحد يكون في نحو من مائة كيلو غرام لكل سنتيمتر مربع واحد ، ومن المسلم به لو كان الانسانُ هناك مجرداً من ملابس الوقاية لتحطمت وسُحقت عظامُهُ^(٢) ، ولهذا لا يمكن النزول الى البحار بعمق عشرة امتار فاكثر بدون ملابس

(١) تُراجع كتب « البحر دار العجائب » ، « اسرار البحر » ، « عجائب البحر » ،

« نشرة الميناء والبحر » ، « رسالة الثقافة ج ١٢ » و « افضل الطرق لمعرفة الله » .

(٢) أنَّ الغواصين يغوصون الى عمق ٣٠ متراً فقط بدون ملابس الغوص والى

واقية، ولا بدّ من استخدام الواقيات الفولاذية السميكة اثناء الغوص في الاعماق،
والآ لدمّر ضغطُ البحر كلّ شيء، ولا يمكن الذهاب بكل وسيلة الى الاعماق في
بعض المراحل بسبب عدم وجود شيء يقاوم الضغط.

على أية حال فقد اثبتت بحوث العلماء فيما بعد أنّ هنالك في اعماق البحر
موجودات حيّة كثيرة وعجيبة، حيث تقوم بإبطال مفعول الضغط العجيب للماء من
خلال الضغط الداخلي الموجود فيها.

ولا تنمو الحشائش هناك كي تستفيد منها الاحياء الموجودة في قاع البحر،
لكن يد القدرة الالهية تقوم بتهيئة الغذاء اللازم لها والذي هو عبارة عن المواد النباتية
المختلفة على سطح المحيط وتحت ضوء الشمس، وبعد إعداده ينزل الى سُكان
اعماق البحر على هيئة مائدة سماوية، وترسب هناك. بالاضافة الى الاحياء
الموجودة على سطح الماء التي تموت حيث تُعدّ جثثها طعاماً لذيذاً للموجودات
الحيّة في قاع البحر.

ولكن لنر كيف تُحلّ مشكلة الظلام الدامس؟ فقد وفّرت القدرة التي خلقت
هذه الموجودات للعيش في هذه المنطقة والنور اللازم لها، لأنّ أغلب هذه الاحياء
تقوم باشعاع النور منها، نورٌ كنور ليلة مقمرة من ليالي الصيف فتضيء ذلك المحيط.
وينطلق نورٌ احمر من رأس نوع من الاسماك، ومن ذيل اخرى نورٌ ازرق،
وينشر بعض الاسماك نوراً باللون الاحمر والابيض والازرق.

يقول أحد العلماء: إنّ اكثر المناطق عجباً في البحر ليست قرب سطح الماء
ولا قاع المحيط، بل هي المنطقة التي تتوسطهما، فليس لها سماءٌ فوقها ولا ارضٌ
تحتها، وانما يحيط الماء بكل شيء، ولا بيت للموجودات التي تحيى هناك، فهي

→ عمق ١٥٠ متراً بملابس الغوص، في حين أنّ ضغط الماء يبلغ ٧ أطنان لكل انج
مربع في اعماق نقاط البحر (البحر دار العجائب ص ٨٩).

في حركةٍ مستمرة، وهنالك الاسماك التي تُحَيِّرُ العقول، فاسنانُ بعضها طويلٌ بالقدر الذي لا يتمكن من ان تغلقَ فمها أبداً ونوعٌ من الاسماك يتسع بطنه بحيث يتمكن من ابتلاع سمكةٍ تعادل حجمه ثلاث مرات، وقد اطلق على هذه الاسماك اسماءً عجيبةً وغريبةً مثل «البالع الاسود» و «الافعى البحرية» و «ثعبان السمك»!

لنترك قعر المحيط ونأت الى سطح الماء فهناك عجائب أيضاً، وهنالك اسماك كلٌ منها اعجبٌ من الآخر، منها الاسماك ذوات الشحنة الكهربائية حيث تستطيع انتاج كميات كبيرة من الكهرباء بايعاز من الدماغ، إذ تصيب العدو او الفريسة بالشلل، تلك الشحنات الخطيرة حتى على الانسان ايضاً.

و «الاسماك الطائرة» التي تخرج من الماء وتطير الى مسافة ستين متراً، وتقفز احياناً أعلى من الاشجار.

و «السمك ذو الدواة» الذي يفرز مادةً سوداء اللون في ماء البحر للاختفاء عن العدو والافلات منه، كما يُصنع اليوم في الحروب التقليدية، حيث يُملأ ميدان المعركة بالدخان كي يتوارى الاشخاص عن العدو.

و «مائدة السمك» احد الانواع العجيبة للسمك، حيث تكون عريضةً وكبيرة جداً، إذ تبسط نفسها على سطح المحيط فتشكل مائدة، وبمجرد وقوع الفريسة على هذه المائدة تجمع اطرافها المبسوطة عليها وتنشغل بأكلها.

يعيش في البحر اصغر الاحياء، وأكبرها ايضاً، إذ يبلغ طول الحيتان الموجودة في البحر ثلاثين متراً، وقطرها اكثر من اربعة عشر متراً، ويبلغ طول فكّها اكثر من سبعة امتار، ووزن لسانها ثلاثة اطنان، ووزن قلبها نصف طن، ووزن كبدها طناً واحداً، ويبلغ طول وليدها سبعة امتار احياناً^(١).

(١) «عجائب البحر» و «رسالة الثقافة».

وكان طول احدى الحيتان التي تم اصطيادها في جزائر «نيو جورجيا» ثلاثاً وثلاثين متراً، ووزنها مائة وخمسة وعشرين ألف كيلو غرام^(١).
وكذلك هناك نباتات مجهرية، ونباتات يبلغ طولها خمسين متراً تعيش في البحار ايضاً.

* * *

٣ - البحر في كلام المعصومين (عليه السلام):

وهنا نترنم بهذه الجملة المشهورة في دعاء الجوشن من خلال عالم من الخشوع والاخلاص ولنقل: (يا مَنْ في البحار عجائبه)^(٢).
في ذلك اليوم حيث رويت هذه العبارة في دعاء الجوشن عن النبي (ﷺ) لم تزل اسرار البحار غير مكشوفة لأحد، واليوم تتجلى لنا عظمة هذه العبارة اكثر من أي وقت.

وورد في دعاء ومناجاة اخرى لأمر المؤمنين (عليهم السلام) حيث يقول:
(أَنْتَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ عَظَمْتُكَ، وَفِي الْأَرْضِ قُدْرَتُكَ، وَفِي الْبَحْرِ عَجَائِبُكَ)^(٣).

ونواصل هذا البحث بحديث آخر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث يقول:
(سَخَّرَ لَكُمُ الْمَاءَ يَغْدُو عَلَيْكُمْ وَيَرْوَحُ صَلاَحاً لِمَعَايِشِكُمْ وَالْبَحْرَ سَبِيّاً لِكَثْرَةِ أَمْوَالِكُمْ)^(٤).

(١) «البحر دار العجائب» ص ١٢١.

(٢) دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ٥٨.

(٣) «بحار الانوار» ج ٩٧ (٩٤) ص ٢٠٢.

(٤) بحار الانوار ج ٦٠ ص ٣٩ ح ٣ (باب الماء وانواعه والبحار).

ونختتم هذا البحث بمقطع من الحديث المشهور بـ «توحيد المفضل» عن
الامام الصادق (عليه السلام)، اذ يقول (عليه السلام):

«فاذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين، فانظر الى ما
في البحار من ضروب السمك ودواب الماء، والاصداف والاصناف التي لا تحصى ولا
تعرف منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث؛ مثل القرمز فانه انما
عرف الناس صبغه بأن كلبة تجول على شاطئ البحر فوجدت شيئاً من الصنف الذي
يسمى «الحلزون» فاكلته فاخضب خطمها بدمه فنظر الناس الى حسنه فاتخذوه
صبغاً...»^(١).

نعم.. ففي البحر وموجوداته ونباتاته وغيرها منافع وبركات تتكشف عنها
المزيد من الاسرار في كل يوم يمر من حياة البشر، وتظهر له فوائد جديدة بحيث
تجبر الانسان على الخضوع الى خالق هذه النعم.

١٤- آيَاتُهُ فِي خَلْقِ الظَّلَالِ

تمهيد :

هل انّ الظّلّ شيءٌ يمكنُ من خلاله الوصول الى خالق العالم ؟ نعم .. فقد تمت الاشارة في آيات القرآن الكريم الى هذه المسألة التي تبدو عاديةً اثناء وصف نِعَم الخالق جلّ وعلا والتعريف بالذات الالهية المقدسة ، فهو تعالى يريدُ بيانَ هذه الحقيقة ، وهي اينما يقع بصرُك في هذا العالم المليء بالعجائب والاسرار فانّ عظمته تتجلى فيه ، وبراهينُ حكمته وقدرته مكتوبةٌ في جبين كل الموجودات صغيرها وكبيرها .

بعد هذا التمهيد نستمع خاشعين للآيات الآتية :

١ - ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ^(١) .

٢ - ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢) .

٣ - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ^(٣) .

٤ - ﴿ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ

(١) (الفرقان الآية : ٤٥ و ٤٦) .

(٢) (النحل الآية : ٨١) .

(٣) (النحل الآية : ٤٨) .

بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴿١﴾ .

* * *

شرح المفردات :

﴿ظِلَالٌ﴾ جمع ﴿ظِلٌّ﴾ ، إلا أنَّ العالم والمفسرَ المعروف ﴿الراغب﴾ يقول في كتاب ﴿المفردات﴾ : أيُّ مكانٍ لا تشرق فيه الشمس يُعتبر ظلاً سواء أشرقت عليه سابقاً أم لا ، ولكن ﴿الفني﴾ (على وزن شيء) ، يقالُ للمكان الذي اشرقت عليه الشمس سابقاً ثم غطَّاه الظلُّ .

في حين أنَّ بعض ارباب اللغة اتخذ الاثنين بمعنى واحد ، وقال البعض أنَّ ﴿الظل﴾ هي الظلال التي تنزل اثناء الصباح ، و ﴿الفني﴾ يُطلقُ على الظلال التي تنزلُ عصراً ، إلا أنَّ المعنى الاول يتناسب كثيراً مع حالات استعمال هذين اللفظين . ويطلقُ لفظ ﴿الظل﴾ كنايةً في مورد العزَّة والمَنعة والرفاه والراحة لأنَّ من المعروف أنَّ هذه الاحوال تحصل في الظل (٢) .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

هل إنَّ الظلَّ نعمةٌ عظيمةٌ ؟

إنَّ الحديث في هذه الآيات عن الظلال ، والمسألة تبدو وكأنها عادية لكنَّ التفحُّص فيها يمكنُ أن يُقربنا ويُعرفنا أكثر بخالقِ هذا العالم .

(١) (الرعد الآية : ١٥) .

(٢) «لسان العرب» و «مفردات الراغب» .

ففي الآية الاولى يخاطبُ النبي (ﷺ) قائلاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ .

ويضيف في نهاية الآية قائلاً: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ، ويضيف في الآية التي تليها: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ .

وهنا ما المقصود بهذا الظل الذي يمدُّه الباري تعالى ثم يجمعه تدريجياً ؟ قال بعض المفسرين : المقصود هو ظلُّ الليل حيث ينسبطُ على جميع سطح الارض وينقبض بنحوٍ متناوب ، ويعتبر وجود الشمس دليلاً وإشارة عليه ، اذ ﴿تُعْرَفُ الْأَشْيَاءُ بِأَضْدَادِهَا﴾ .

ويعتبره البعض إشارةً الى الظل الذي يمتدُّ بين الطلوعين (بين طلوع الصبح وطلوع الشمس) ، فيغطي وجه الارض وهو افضل الظلال والساعات .

واعتبره البعض بمعنى الظلال التي تحصل اثناء النهار بسبب اصطدام ضوء الشمس بالجبال والاشجار وبقية الاجسام ، ثم ينتقل تدريجياً .

من هنا حيث لا تتعارض هذه التفاسير الثلاثة ، وبما انَّ تعبير الآية مُطلق وجامع ، فيمكن ان يكون إشارة اليها كلها إذ انَّ كلاً منها نعمةٌ ثمينة .

اننا نعلمُ انَّ اللَّيْلَ في الواقع هو ظل نصف الكرة الارضية الذي يقع أزاء الشمس ، الظلُّ المخروطي الشكل الذي يمتد في الفضاء في الجهة المقابلة ويتحرك باستمرار ، ولولا ظلُّ اللَّيْلِ لاحتُرقت كافة الكائنات الحية بفعل ضوء الشمس والحرارة الناتجة عنه ، وهلك النسل البشري بسرعة .

وكذلك لولا وجود سائر انواع الظلال ، ولو كان الانسانُ مجبوراً على قضاء النهار تحت الشمس لوقَعَ في حَرَجٍ بالغ ، ولاصبحت الحياةُ شاقّةً بالنسبة له لاسيما في فصل الصيف ، انَّ الله تعالى فتحَ الظلَّ للانسان كي ينال الراحة والاستقرار هو ومن يتعلق به .

وبتعبير آخر فإن بعض الأشياء خلقت «معتمة»، والبعض خلق «شفافاً»، بحيث يعبرُ النور من خلاله، فلو كانت كل الأشياء شفافةً فلا وجود للظل إطلاقاً وستبدلُ حياة الإنسان مقابل ضوء الشمس المستمر إلى جهنم محرقة، وإذا تفكّر الإنسان قليلاً في هذا المجال فسيتعرف على عظمة وأهمية هذه النعمة ويتمكن من خلال ذلك الوصول إلى الخالق الحكيم.

ولعلّ التصريح بـ «النظام التدريجي للظل» في الآية أعلاه إشارة إلى هذه الحقيقة وهي لو أن الظلال تحصل أو تزول فجأة لأدت إلى اضرار جسيمة، إذ لا يخفى على أحد الاضرار الناتجة عن الانتقال المفاجيء من النور إلى الظلام وبالعكس، أو من الحر إلى البرد وبالعكس.

ولكنَّ «الظل» بما له من بركاتٍ ولطفٍ، مضرّ أيضاً فيما إذا دام وخلدَ لأنه يحرم الإنسان من نعمة النور، لهذا يقول في الآية أعلاه: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾، (ولكنه للطفه وكرمه لم يفعل ذلك كي يَنعَمَ العباد بنعمة النور والظل على السواء).

* * *

ويقول في الآية الثانية التي تمّ بيانها ضمن آيات التوحيد في سورة النحل، بعد تعداد بعض آيات الآفاق ونعم الخالق جلّ وعلا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾.

قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود هنا الأشياء التي تتسبب في ايجاد الظلال، كالجبال والاشجار، والغيوم، والسقوف والجدران^(١).

ومما لاشكّ فيه لو كانت جميع الأشياء - كما المحنا سابقاً - شفافةً ومضيئة كالبلور، ولا وجود للظل في العالم لكانت الحياة قاتلةً بالنسبة للإنسان.

(١) روح المعاني ج ١٤ ص ١٨٦ والقرطبي ج ٦ ص ٣٧٧٥.

ويشير في سياق الآية الى سائر النعم التي هي في الواقع مكملّة لوجود الظلّ ،
كالملاجىء المستحدثة في الجبال على هيئة مغاراتٍ وثغور، والتي تقي الانسان من
حرارة الشمس المحرقة، كالدرع حين يصدّ طعنات العدو في ساحة الحرب :
﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
بَأْسَكُمْ ﴾^(١).

وهنا لماذا اشار في الآية الأنفة الى اللباس كوقاءٍ ازاء الحرّ فقط ، من دون
الاشارة الى البرد ؟ يقول بعض المفسّرين : لأنّ المناطق التي نزلت فيها هذه الآيات
تطرح فيها مسألة الحر بكثرة ، او لكثرة وسرعة اخطار الحمى والاحتراق عند مواجهة
الشمس ، في حين تتزايد طرق وقاية الانسان لمواجهة البرد .

ولكن لا يجب نسيان أنّ في آداب العرب حينما يريدون التلميح الى ضدّين
فهم يحذفون أحدهما في اغلب الموارد ويذكرون واحداً فقط ، وهذا الاثر له قرائن
كثيرة .

والجدير بالاهتمام انه يقول في نهاية هذه الآية بعد ذكر هذه النعم الثلاث
(الظلال ، والمساكن ، والملابس) : ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ .
نعم .. فالتأمل بهذه النعم واسرارها المختلفة يعرف الانسان بعلم وقدره الله
تعالى من ناحية ، ومن ناحية اخرى يدفعه الى التسليم الى اوامر الخالق جلّ وعلا
ذي اللطف والرحمة ، من خلال تحريك الشعور بالشكر له .

* * *

وفي الآية الثالثة يوجه اللوم والتوبيخ للمشرّكين في آيات التوحيد فيقول :

(١) « سراويل » جمع « سربال » (على وزن مثقال) وقد فسّرها البعض بكل انواع
الملابس ، واعتبرها البعض بمعنى الرداء (حيث يرتدون الدرع كالرداء) إلا أنّ المعنى
الاول اكثر تناسبا هنا .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾^(١).

أيُّ تعبيرٍ لطيفٍ؟ فقد خضعت الظلالُ بأسرها وسجدت امام ذاته المقدسة، لأنها مُسَلِّمةٌ لأمره وهذا التسليم والخضوع امام قوانين الخالق هو سجودها لحضرته تعالى.

فكيف يتضاءل الانسان امام الظلال، ويسجدُ للاصنام، ولا يسجدُ للخالق جلَّ وعلا؟!

انَّ سجودَ الظلالِ جزءٌ من سجودِ كافة الكائنات في السماء والارض، ولهذا فقد اشارَ في سياق هذه الآية الى هذا السجود العام، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾.

وهنا ستطرحُ بحوثٌ مفصلةٌ خلال بحث السجود العام لموجودات العالم امام الباري عزَّ وجل، على أية حالٍ ففي هذه الآية إشارة لطيفة الى اهمية الظلال وآثارها حيث تصلح كمصدرٍ لإلهام التوحيد.

* * *

وفي الآية الرابعة يضع الظلال في جُملة موجودات السماء والارض التي تخضع وتسجدُ لله تعالى، فيقول: ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

وربما يكون التعبير بـ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ إشارة الى تسليم الموجودات العاقلة

(١) «يَتَفَيَّؤُا» من مادة «فيء» وتعني العودة والرجوع، ويحصرها بعض ارباب اللغة بمعنى 'ظلال الاشياء حين عودة الشمس عصرًا، واطلاقها على غنائم الحرب يعود إما بسبب رجوع المسلمين بها، أو زوالها أو فنائها النهائي كالظلال، و «داخر» تعني المتواضع.

و ذات الاحساس رغبةً وطوعاً ، والى تسليم الموجودات غير العاقلة كالظلال بحكم قوانين الخلق الاجبارية .

او الى ان المؤمنين يسجدون رغبةً وطوعاً ، وغير المؤمنين الذين ليس لديهم الاستعداد للسجود طوعاً فان جميع ذرات وجودهم مسلّمة لله تعالى بحكم قوانين الخلق الاجبارية ، ولديهم السجود التكويني امام ذاته المقدسة .

أو ان المؤمنين يُمرّغون جباههم بالتراب أزاءه في كل الاحوال (في الراحة وعند حلول المشكلات ، مطمئنين كانوا أم مضطربين) ، إلا ان الكافرين لا يتوجهون نحوه إلا حينما تباغتهم المشاكل .

ومما لا شك فيه انه ليس هنالك تعارض بين هذه التفاسير الثلاثة ، ويمكن جمعها في مفهوم واحد .

والتعبير بـ ﴿ مَنْ ﴾ في الآية أعلاه مع إنه يختص باصحاب العقول حسب الظاهر ، إلا ان من المحتمل ان يكون له مفهوماً عاماً يشمل كافة الموجودات العاقلة وغير العاقلة ، فيصبح التعبير بـ ﴿ مَنْ ﴾ من باب التغليب .

وأما تعبير ﴿ الغدو ﴾ و ﴿ الأصال ﴾ (الصباح والمساء) فلعله كان بسبب امكانية زوال الظلال وسط النهار ، أو كونها ضئيلة جداً ومحدودة ، في حين انها ليست كذلك في الصباح والمساء ، وفضلاً عن ذلك ، فان هذا التعبير جاء في الكثير من الحالات لبيان الديمومة والتعميم ، فمثلاً تقول : انّ الشخص الفلاني يدرس صباحاً ومساءً ، أو إنه يخرج شخصاً آخر ، أي إنه كذلك على الدوام .

يُستفاد جيداً من مجموع هذه الآيات إنّ القرآن الكريم يولي اهتماماً خاصاً حتى للظلال ، ويعتبرها من آيات عظمة الله ، والتعبير بـ ﴿ السجود ﴾ الذي هو غاية الخضوع اشارة الى هذا المعنى .

توضيحات :

لو لم تكن هناك ظلال...!؟

من اجل ادراك أهمية أيّ موجودٍ لابد من احتمال زواله تماماً في لحظةٍ أو يومٍ أو شهرٍ ما ، ثم الالتفات الى آثاره .

والأمر كذلك في مسألة الظلال التي تبدو موضوعاً عادياً وغير مهم للوهلة الاولى ، افترضوا انّ كل انواع الظلّ والمظلات رُفعت عن الكرة الارضية لمدة اسبوع ، فلا جبال ، ولا اشجار ، ولا حائط بيتٍ ولا سقف ، ولا حتى ظلّ نصف الكرة الارضية الذي يُغطي النصف الآخر وهو الليل ، واختفت كلّها بصورةٍ مفاجئة ، وتبدلت جميع الاجسام في هذا العالم الى حالةٍ كالبلور ونفذ ضوء الشمس من خلالها ، فكم ستصبح الحياة صعبةً ولا يمكن تحملها ، اذ يشعّ ضوء الشمس باستمرار ، ويضغط على كل شيء ، ويسلب كل اشكال الاستقرار والاطمئنان والراحة من الانسان وسائر الموجودات ، ولو حدثت مثل هذه الفرضية في فصل الصيف فسوف تهلك جميع الكائنات الحية خلال فترة قصيرة .

بناءً على ذلك يمكن القول ان لوجود الظلال دوراً مؤثراً جداً في حياة الانسان لاسباب الآتية :

١- ان وجودَ الظلال ضروريٌّ للغاية من اجل تخفيف ضوء وحرارة الشمس ، لأنّ الاشعة الحياتية للشمس لو لم تُخَفَّف بالظهور المتناوب للظلال ستُفني كل شيء وتحرقه خلال فترة قصيرة .

يقول الفخر الرازي في تفسيره : « إن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة ، وهو ما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس ، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران ، وهذه الحالة أطيب الاحوال ، لان

الظلمة الخالصة يكرها الطبع وينفر عنها الحس ، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية ، فاذن أطيب الاحوال هو الظل ، ولذلك وصف الجنة به فقال : ﴿ وَظِلٌّ مَّعْدُودٌ ﴾^(١) .

٢ - يبدو أن دور الظلال لاسيما الظلال المتحركة حيوي جداً بالنسبة للمسافرين وقاطعي الصحراء ، فهؤلاء يستطيعون الاستعانة بالخيام ووسائل النقل المسقفة من وقاية انفسهم أزاء اخطار اشعة الشمس المباشرة .

٣ - والمسألة الاخرى الجديرة بالاهتمام ، هي انه خلافاً للتصور العام فإنّ النور لا يكفي لوحده لرؤية الاشياء ، بل يجب ان يكون متزامناً مع « الظلال » كي تتوفر امكانية رؤية الاشياء ، وبعبارة اكثر جلاءً :

لو انّ النور يشعّ على موجودٍ ما من اربعة جهات بحيث لا يوجد أي شكل للظل أو بعضه ، فلا يمكن رؤية ذلك الشيء الذي يغرق في النور المتساوي من جميع الجهات ، اذن فكما لا يستطيع الانسان رؤية الاشياء في الظلام المطلق فهو غير قادر على رؤية الاشياء في النور المطلق ايضاً ، بل يجب أن يتظافرا معاً كي تيسر رؤية الاشياء (تأمل جيداً) .

فالخالق الذي أناط هذه الادوار المهمة والحيوية لموجودٍ عاديّ بهذا المستوى ، جديرٌ بالعبودية والخضوع والسجود .

نختتم هذا الحديث بعبارةٍ لاحد المفسرين ، اذ يقول لمن غفل عن السجود

لله تعالى :

« اما ظلك فسجد لربك واما انت فلا تسجد له بئسما صنعت »^(٢) .

(١) « تفسير الفخر الرازي » ج ٢٤ ص ٨٨ .

(٢) « تفسير الفخر الرازي » ج ٢٠ ص ٤٣ .

١٥- آيَاتُهُ فِي عَالَمِ النَّبَاتَاتِ وَالثَّمَارِ

تمهيد :

إنَّ النباتات هي اكثر الكائنات الحيّة الموجودة على الارض ، وتحتل المرتبة الاولى من حيث التنوع والكثرة ، والعجائب والزينة ، وكذلك من حيث الآثار المفيدة والثمينة ايضاً .

لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية مراراً على مسألة خلق النباتات ، ومزاياها المختلفة ، ودعا الانسان الى التفحص في اسرار هذه الموجودات الرائعة في عالم الخلق ، الموجودات التي يُمكنُ أن تُقدّم ورقة واحدة منها كتاباً عن معرفة الله تعالى .

بعد هذا التمهيد نستمع خاشعين للآيات الآتية ومواضيعها اللطيفة :

١ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ - إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

٢ - ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاثَ بِهِجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ شَاكِرُونَ ﴾ ^(٢) .

٣ - ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ - هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ

(١) (الشعراء الآية : ٧ و ٨) .

(٢) (النمل الآية : ٦٠) .

دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ .

٤ - ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ - وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ - سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ .

٥ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ .

٦ - ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ .

٧ - ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥﴾ .

(١) (لقمان الآية : ١٠ و ١١) .

(٢) (يس الآية : ٣٣ - ٣٦) .

(٣) (الانعام الآية : ٩٩) .

(٤) (الرعد الآية : ٤) .

(٥) (النحل الآية : ١٠ و ١١) .

٨- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفٌ أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا
مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ﴾^(١).

٩- ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ مُؤْتُونَ- وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾^(٢).
١٠- ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى... ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتِ تُوَفَّكُونَ﴾^(٣) (٤).

* * *

شرح المفردات :

﴿النَّبات﴾ يعني في الاصل كل نوع في الزرع الذي ينبت من الارض سواء
كان له ساق كالشجر، او بدون ساق كالذي يُسميه العرب بـ «النَّجم»، إلا ان هذا
اللفظ غالباً ما يُطلق على الزرع الذي ليس له ساق، وفي التعابير الاكثر شمولاً يُطلق
«النبات» على كل موجودٍ نامٍ سواء كان نباتاً ام حيواناً أم انساناً^(٥).
و «الشَّجَرُ» تعني النباتات ذات السيقان، ولهذا جاء في القرآن الكريم أزاء

(١) (الانعام الآية: ١٤١).

(٢) (الحجر الآية: ١٩ و ٢٠).

(٣) (الانعام الآية: ٩٥).

(٤) هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير الى هذا المعنى كالايات التالية: النبأ ١٥،
طه ٥٣، عبس ٢٧، ق ٧، البقرة ٢٦١، البقرة ٢٢، ابراهيم ٣٢، الانعام ١٤١، الاعراف
٥٧، النحل ٦٧.

(٥) «النبات» لها معنى مصدرى، واسم مصدرى أيضاً.

« النجم » الذي يعني النبات الذي لا ساق له : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾^(١) .
 وورد في « مقاييس اللغة » ان « الشَّجَرَ » له معنيان في الاصل : هما الارتفاع والعلو ، وتداخل اجزاء الشيء مع بعضها ، وحيث ان الاشجار ترتفع عن الارض ، وكذلك فان اغصانها تتداخل فيما بينها ، لذلك أطلق عليها « شَجَرٌ » ، و « مشجرة » تعني النزاع والاختلاف والمحاذلة لأن حديث الجانبين يتداخل مع بعضه .
 إلا ان البعض يعتقد ان اصل هذه المادة يعني الشيء الذي ينمو ويرتفع وتتفرع منه اوراق واغصان ، وقد يُطلق على الامور المعنوية ايضاً كما في :
 ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ ﴾^(٢) .

(التي تم تفسيرها بمعنى « شجرة الزقوم » او « اليهود » او « بني أمية »)^(٣) .
 وكما يفهم من كتب اللغة المختلفة فان « الزرع » تعني في الاصل نثر البذور والحبوب في الارض ، ومن هنا حيث سيتبع نثر البذور نمو النبات وحصاده ، فيُطلق على كل واحد من هذه العمليات « زرعاً » .
 ويقول بعض اللغويين : انّ الزرع تعني الإنماء ، وهذا في الحقيقة هو فعل الله تعالى ، واذا أطلق لفظ الزارع على العباد فهو بسبب توفيرهم لاسباب ومقدمات ذلك ، وقد يقال لـ « المزروع » زرعاً ايضاً .
 وغالباً ما يُطلق لفظ « زرع » على الحنطة والشعير ، إلا ان مفهومه اكثر شمولاً ، حيث يشملهما وغيرهما^(٤) .

(١) (الرحمن الآية : ٦) .

(٢) (الاسراء الآية : ٦٠) .

(٣) مفردات الراغب ، مقاييس اللغة ، مصباح اللغة ، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم .

(٤) مفردات الراغب ، لسان العرب ، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم ، وصحاح اللغة .

واما الـ «ثَمَرٌ» ، فقد جاء في «مقاييس اللغة» أنّ هذا اللفظ يعني في الأصل كلّ شيءٍ يتولد من شيءٍ آخر، وقال بعض اللغويين ، انه يعني ما يحصل من الشجرة فقط .

وصرّح قسمٌ آخر من ارباب اللغة ، بان كل موجود يحصل ويتولد عن موجودٍ آخر مأكولاً كان أم غير مأكول ، مرغوباً كان أم غير مرغوب ، حلواً كان أم مُراً ، يسمى «ثَمَراً» .

لكن الظاهر أنّ الثمر كان له في الاصل مفهوماً محدوداً وهو الفاكهة الحاصلة من الشجر، لكنّ هذا المفهوم اتّسع فيما بعد وأطلق مجازاً على محصول ومنتوج أي شيء ، حتى أصبح يقال أنّ ثمرة هذا المذهب وهذه التعاليم كانت كذا وكذا . وجاء في الرواية : (أُمُّكَ أَعْطَتْكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِهَا) ، اشارة الى حليب الام او محبتها ، وفي الروايات أيضاً أطلق على الولد بانه ثمرة الفؤاد .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الورق الاخضر للاشجار:

اشار في الآية الاولى الى المشركين أو الجاحدين ، فقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ .

ثم صرح قائلاً : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

أجل .. فلو تَمَعَّنَ هؤلاء في هذه النباتات الملونة ، والازهار ، والثمار ، والاشجار ، والخضار ، والسنبال ، وانواع الزروع الاخرى ، سَيَرَوْنَ آياته فيها بكلّ جلاء ، فهؤلاء لا يريدون أن يؤمنوا وينظروا الى صورة ذاته المقدسة ببصار قلوبهم ، وإلا فإنّ جماله لا يخفى على أحدٍ ، نعم فهؤلاء ليست لديهم آذان للاستماع الى

آيات الله التشريعية ولا أبصار لمشاهدة آياته التكوينية .

وهنا ما المقصود من «زوج» ؟ فالكثير من المفسرين فسّر ذلك بمعنى النوع والصنف ، واعتبروه إشارة الى تنوع وتشعب النباتات ، حيث أنّ عددها غير محدود ولا يمكن حصره ، وأياً منها يُعتبر آيةً من آيات الباري عز وجل .

في حين احتملها البعض إشارة الى «الزوجية» (أي الذكر والانثى) الموجودة في عالم النباتات ، وهذه الحقيقة اكتشفت لأول مرة على نطاقٍ واسعٍ على يد عالم النبات السويدي المعروف «لينه» اواسط القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث أنّ النباتات - على الاغلب - تحمل وتثمر كالحوانات عن طريق اختلاط الذكر والانثى ، في الوقت الذي وردت هذه الحقيقة في القرآن الكريم قبل قرون عديدة .

ومن هنا حيث لا تعارض بين هذين المعنيين فيمكن ان تكون إشارة اليهما معاً .

انّ وصف «الزّوج» بـ «كريم» علماً بأنّ لفظ «كريم» يعني الموجود الثمين ، إشارة الى اهمية انواع النباتات وقيمتها الفائقة .

انّ تنوع النباتات كثيرٌ الى الحد الذي يقول بعض العلماء انّ «النخل» اكثر من ثلاثة آلاف نوع ، و «الكاكتي» او «التين الهندي» ألف وسبعمائة نوع ، و «ورد الثعلب» ألف ومائتا نوع ، ونسبوا لـ «للکما» مائة الف نوع ، و لـ «الطحالب» اربعة آلاف نوع ، و لـ «التفاح» سبعة آلاف نوع ، وذكروا لـ «الحنطة» خمساً وثلاثين الف نوع! ^(١١) .

حقاً.. كم هو عجيب عالم النباتات الفسيح بكل هذا التنوع ؟ وكم هو عظيم

خالقه ومدبره!.

* * *

وفي الآية الثانية ومن اجل اثبات « وحدانية المعبود » يدعو الناس الى تفحص اسرار خلق السموات والارض ثم نزول المطر، ثم يقول: ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ ^(١)، وليس في امكانكم ابداً أن تُنبِتوا اشجارَ هذا البستان الجميلة ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾، ومع هذا تقولون هناك إله مع الله ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَنْ هُوَ يُعَدِّلُونَ ﴾. إلا أن هؤلاء افراد يجهلون حيث يعدلون عن الخالق العظيم الذي أبدع كل هذه العجائب والغرائب ويجعلون الموجودات التي لا حول لها ولا قوة ندّاً لله ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

ومن الممكن ان يكون التعبير بـ ﴿ يعدلون ﴾ بمعنى عدولهم عن الله الواحد المنفرد، أو اختلاق مثيل ونظير له. أجل.. فعمل الانسان نثر البذور والرّي وامثال ذلك، والله وحده الذي خلق الروح في قلب هذه البذرة الصغيرة، واعطاها القدرة على أن تتحول الى شجرة عملاقة مثمرة مزدهرة نضرة حيث يبعث منظرها في البساتين الفرح والسرور في نفس الانسان، ولو وضع الانسان قدمه وسط أحد هذه البساتين المزدهرة النضرة في أحد أيام الربيع، وفتح بصيرته الى جانب بصره الظاهري، ليرى كل هذا التنوع والعجائب والمناظر الخلابة والازهار الملونة والاوراق والثمار المختلفة، لا ستنشق عطر التوحيد وأرتوى من كأس العبودية واصبح مسحوراً مفتوناً، بنحو يجعله يترنم بلحن التوحيد ويعترف بهذه الحقيقة - نقلاً عن الفارسية -:

(١) « الحدائق » جمع « حديقة » وتعني « البستان »، وهي تعني في الاصل قطعة الارض التي تجمع فيها الماء، وقد فسرها الكثير من المفسرين بانها البستان الذي ضرب حوله بسور وفيه ما يكفي من الماء.

هناك واحد ليس سواه

وحده لا اله إلا هو

وهنا يثمر هذا الامر:

كُلُّ نَبَاتٍ يَنْمُو مِنَ الْأَرْضِ

يَقُولُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

* * *

وفي القسم الثالث من الآيات اعلاه وضمن تعرضه لخمسة اقسام من براهين توحيد الخالق جلّ وعلا وآيات الآفاق (خلق السموات بغير عمد ترونها، وخلق الجبال، وخلق الدّواب والحيوانات، وخلق المطر، وخلق النباتات)، خاطب المشركين قائلاً: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

واضاف في ختام الآية: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

فكيف يُمكن لمن يملك بصرًا ويرى آثار قدرة وحكمة وعظمة الخالق في عرض عالم الوجود، ثمّ يخضع تعظيماً لغيره؟!.

ونواجه في هذه الآيات مرةً أخرى التعبير بـ ﴿كُلُّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ بخصوص النباتات، حيث يتحدث عن التنوع الضروري جداً للنباتات، وعن الزوجية في عالمها، ويُشعر سالكي طريق التوحيد باهمية هذا الموضوع.

لفظة ﴿ظلم﴾ لها معنى واسع حيث يشمل وضع اي شيء في غير محله. وحيث كان المشركون يعتبرون تدبير الكون بيد الاصنام، او يتصورونها واسطةً بين المخلوق والخالق ويسجدون لها، فقد ضلّوا وارتكبوا ظُلماً عظيماً، ولهذا جاءت هذه الكلمة في الآية اعلاه بمعنى الشرك، أو بمعنى واسع حيث إنّ الشرك مصداق واضح له.

لا يخفى ان عبارة ﴿فَأَرُونِي﴾ - في الواقع - جاءت على لسان النبي (ﷺ)،

وبتعبيرٍ آخر: أنّه مكلفٌ بأنَّ يقول هذه الجملة للمشرّكين ، لأنَّ الآراء لله لا يمكن ان يكون لها مفهوم .

* * *

ويقول بصراحةٍ في الجزء الرابع من هذه الآيات الذي ورد في سورة يس :
﴿وَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ .

وفي الحقيقة أنّ مسألة الحياة من اهم أدلّة التوحيد ، سواء كانت في عالم النباتات ، أم الحيوانات والبشر ، انها المسألة الغنيّة بالاسرار والمدهشة التي حيرت عقول كبار العلماء ، ومع كل النجاحات التي حققها الانسان في مختلف الحقول العلمية ، لم يُفلح أيُّ شخصٍ من حلّ لغز الحياة حتى الآن ، ولا عِلْمٌ لأيّ أحدٍ كيف وتحت تأثير أية عوامل تبدّلت الجمادات الى كائناتٍ حيّة؟!

ثمّ اشارَ خلال بيان مسألة احياء الارض الميتة ، الى إنماء المحاصيل الغذائية (كالحنطة والشعير والذرة و...) ، وبساتين العنب والنخيل النضرة ، وتكوين ينابيع الماء الصافي ، وقال في الختام : ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ .

إنّ عبارة ﴿مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ اشارة لطيفة الى أنّ هذه الثمار الطازجة ، غذاءٌ كاملٌ مهياً للاكل دون الحاجة الى طبخه وإضافة المواد الأخرى اليه ، فليس للانسان تدخلٌ في اصل وجودها ، ولا في اعدادها للأكل ، فعملُ الانسان لا يتعدى نثرُ البذور وسقي الاشجار فحسب ^(١) .

(١) وهذا في حالة كون « ما » في عبارة (وما عملته) نافيةً (وهذا هو الظاهر) ، ألا انهم احتملوا أن تكون موصولةً ، تلميحاً الى الثمار التي تنتج عن طريق التطعيم والتي للانسان دخلٌ فيها ، أو الى المشتقات التي يأخذونها من الفاكهة كالعصير والخل التي تؤخذ من العنب والتمر ، ومما لا شك فيه انّ المعنى الأول اكثرُ تناسباً .

على أية حال، لم يكن الهدف من خلق كل هذه النعم المختلفة إنهماك الانسان بالأكل كالحيوانات، وأن يقضي عمره على هذه الحال، ثم يموت ويصبح تراباً، كلا، فالهدف ليس هذا، بل ان الهدف هو ان يرى ذلك ويعيش في ذاته الشعور بالشكر، ومن خلال «شكر المنعم» يصل الى معرفة واهب النعم حيث ينال اسمى المواهب وارفع مراحل تكامل الانسان.

والمسألة الجديرة بالاهتمام في الآيات اعلاه هي انها تضع الزوجية في عالم النباتات الى جانب الزوجية في عالم الانسان فتقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فهذا التعبير دليل على ان الزوجية هنا تعني جنس الذكر والانثى، ووجودها على نطاق واسع في عالم النباتات، وهذا من المعاجز العلمية للقرآن الكريم، لأن هذا المعنى لم يكن آنذاك واضحاً لدى الانسان بأن هنالك وجود لقوام الذكر والاجزاء الانثوية في عالم النباتات، وتنطلق الخلايا التي هي نطف الذكور لتستقر في الاجزاء الانثوية وتتلاقح معها وتنعقد نطفة النبات.

ويمكن ان تكون عبارة ﴿ومما لا يعلمون﴾ اشارة الى ان مسألة الزوجية لها نطاق واسع، وما اكثر الموجودات التي تجهلون وجود الزوجية فيها، وسيزيل تطور العلم النقاب عنها (كما ثبتت هذه المسألة في الذرات حيث تتركب من قسمين مختلفين يكمل أحدهما الآخر كالزوجين: ف«الالكترونات» تحمل الشحنات السالبة، و«البروتونات» تحمل الشحنات الموجبة)، ومواضيع اخرى لم يتوصل اليها العلم البشري حتى الآن.

* * *

وفي الآية الخامسة حيث تبدأ بالتعريف بالله من خلال الآيات المختلفة، أشار أولاً الى نزول المطر من السماء، ثم قال: ﴿فَاخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وربما يكون التعبير بـ ﴿نَبَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى أنواع النباتات المختلفة ، حيث تُسقى بماءٍ واحدٍ ، وتنمو على ارضٍ واحدةٍ ، ومع هذا فهي تختلف في الشكل والطعم والخواص واحياناً تتعارض في ذلك ، وهذا من عجائب خلق الله .
أو أنّ المقصود هو النباتات التي تحتاجها الطيور والبهائم البرية والبحرية وكذا الانسان ^(١) ، (ويمكن الجمع بين هذين المعنيين ايضاً) .

ثم يتطرق إلى ذكر مسألةٍ اخرى ، فيضيف : ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ ، وبهذا يشير إلى مادة « الكلوروفيل » الخضراء التي هي من اهم وانفع اجزاء النبات ، هذه الخُضرة التي تبعث الحيوية ، واللطافة ، والجمال ، وتسلب القلوب والتي تخرج من التراب الغامق والماء الشفاف .

إنّ التعبير بـ ﴿خَضِرًا﴾ بالرغم من اطلاقه ، إلا أنّه استناداً إلى الجملة التالية التي تقول ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ ، يشير بالاساس إلى سيقان وسنابل الحنطة والشعير والذرة وما شابه ذلك ^(٢) .

ثم يُلفتُ النظرَ إلى اشجار النخيل ، فيقول : ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ .

﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع «قِنْو» (على وزن حزب) ، وتعني الفروع الرفيعة التي تخرج من الطلع بعد تَفْتُحِهِ ، وهي التي تُكوّنُ عذوق التمر فيما بعد .

وقد يكون التعبير بـ ﴿دَانِيَةٌ﴾ إشارة إلى قرب هذه العذوق من بعضها أو انحنائها نحو الاسفل بسبب ثقل ثمار الرطب .

ويقول بعض المفسرين بما أنّ عذوق التمر تختلف ايضاً ، فالبعض يكون في

(١) في هذه الحالة يكون مفهوم الجملة « فخرجنا به نباتاً لكل شيء » .

(٢) « مُتَرَاكِبٌ » مأخوذة من مادة « ركوب » وتعني الصعود ، وهي إشارة إلى الحبوب التي تتراكب على بعضها على هيئة سنبلة ذات منظرٍ جميلٍ ومحَبَّبٍ للغاية .

الجزء الاسفل من النخل ويَمَكُن استثماره بيسر، والبعض الآخر بعيداً عن تناول اليد فتكون الاستفادة صعبةً بعض الشيء، فقد اشار الباري تعالى الى الصنف الأول باعتباره اكثر فائدة. (١)

واشار في سياق هذه الآية الى بساتين العنب والزيتون والرمان: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾، التي تتشابه في نفس الوقت الذي تختلف فيه، وتختلف فيما بينها في حين انها متشابهة ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

يقول بعض المفسرين ان هذه الثمار تتشابه في المنظر، إلا انها تختلف في الطعم (كانواع العنب والرمان الحامض والحلو).

وقال البعض الآخر ان اوراق اشجارها تتشابه احياناً (كاوراق الزيتون والرمان)، في حين ان ثمارها مختلفة.

ولكن المناسب اعطاء اوسع مفهوم لتوضيح الآية وهو الاشارة الى انواع التشابه والتفاوت.

واللطيف انه يدعو الجميع للتمتع في الثمار فيقول: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾.

«لأن في هذا، آيات وبراهين عن عظمة وقدره وحكمة الباري تعالى لأهل الايمان» ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وليست آية واحدة بل فيها آيات جمعة لله تعالى، لأن تكوين الثمار كولادة الصغار في عالم الحيوانات، حيث تنتقل نطف الذكور الى الاقسام الانثوية عن طريق الرياح أو الحشرات، وبعد انجاز عملية التلقيح والاختلاط فيما بينهما يتم تشكيل البويضة والنطفة أولاً، ثم تظهر في جوانبها خلايا الثمار والعضلات واللحوم والفروع

الجذابة التي تغذيها .

وفي داخل هذه الثمار تكمن هناك اعظمُ المختبرات الخفية التي تعمل باستمرار في صناعة المركبات الحديثة بمزايا جديدة ، وقد يكون الثمر بلا طعم في بداية الأمر ، ثم حامضي الطعم تماماً ، ثم يصبح حلواً ، وفي كل وقت يحدث فيها انشطارٌ وتفاعلٌ جديد ، كما تتغير ألوانها باستمرار وهذا من عجائب خلق الله التي يدعو القرآن الكريم لا سيما في الآية الآتية الانسان الى التمعن فيها .

* * *

واشار في الآية السادسة من البحث في بادئ الأمر الى قطع الارض المختلفة التي تملك قابليات متفاوتة لتربية انواع الاشجار والنباتات وغيرها ، اذ يقول : ﴿ وفي الأَرْضِ قِطْعٌ مُتجاوِرَاتٌ ﴾ مع ان هذه القطع يلتصق بعضها ببعض الآخر ، فبعضها خصبٌ ومستعدٌ لأي شكلٍ من الزراعة ، وبعضها مالحٌ لا تنبت فيه سنبلةٌ أبداً ، وقد يناسب بعض هذه القطع زراعة الاشجار أو نوع خاصٍ منها فقط ، ويناسب البعض الآخر نوعاً خاصاً من الزراعة ، وهذا عجيبٌ حيث تتفاوت الاراضي المترابطة بشكلٍ تستعد للقيام بواجباتٍ مختلفة .

وبعد ذكر هذه المقدمة اشار الى انواع الاشجار والزراعات ، فاضاف قائلاً : ﴿ وجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ ﴾ .

﴿ أَعْنَابٍ ﴾ جمع عَنَب وتعني الكَرْم و ﴿ نَخِيلٍ ﴾ جمع «نخل» و «نخيله» وتعني شجرة التمر ، وذكرهما بصيغة الجمع يُحتمل ان يكون اشارة الى الانواع المختلفة للعنب والتمر ، لأن لهاتين الفاكهتين مئات او آلاف الانواع المختلفة .

والتعبير بـ «صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ» بالالتفات الى ان «صِنْوَانٍ» جمع «صنو» وتعني الفرع الذي يخرج من البدن الاصل للشجرة ، من الممكن ان يكون اشارة الى قابلية الشجرة على تغذية الثمار المختلفة عن طريق التطعيم ، لهذا تظهر على

أغصان شجرة واحدة لها ساق واحد وجذر واحد وتتغذى من ماءٍ وارضٍ واحدةٍ انواعٌ مختلفةٌ من الثمار، وهذا من عجائب الخلقة.

ومن الممكن ان يكون هذا التفاوت اشارة الى تفاوت الاغصان التي تنمو على اصل واحد، وتفاوت من حيث الثمار الطبيعية.

ثم يُصرِّح بأن هذه الاشجار مع هذا الاختلاف فانها تُسقى بماءٍ واحدٍ: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾، وفي نفس الوقت فأننا نُفَضِّل بعضها على البعض الآخر من حيث الثمر ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾.

ومن المسلم به ان في هذا الأمر آيات وبراهين للمتفكرين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

حقاً إنه مدهش، فالماء واحد، والتراب واحد ايضاً، أما الاختلاف بين الثمار فكثير بحيث إن أحدها حلو والآخر حامض تماماً (ففي الكثير من المناطق تنمو اشجار الليمون الحامض الى جانب اشجار النخيل) أو تنمو المحاصيل الزيتية والمحاصيل النشوية وغيرها في مزرعة واحدة، وتفاوت تماماً، حتى ان لهذه الفواكه والمحاصيل انواعاً مختلفةً بالكامل.

ما هذا الجهاز العجيب المكنون في اغصان الاشجار وجذورها الذي لديه القدرة على صنع المواد الكيميائية مختلفة الخواص من خلال استغلال نوع واحد من المواد (نوع واحد من الماء والتراب)؟! فلو لم يكن هنالك دليل على علم وحكمة خالق الكون سوى هذه المسألة لكانت كافية لمعرفة هذا الخالق العظيم، وكما يقول احد شعراء العرب: (١)

والارض فيها عبرة للمعتبر تخبر عن صنع ملك مقتدر

تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ اشْجَارُهَا وَبِقَعَةٍ وَاحِدَةٍ قَرَارُهَا
وَالشَّمْسُ وَالْهَوَاءُ لَيْسَ يَخْتَلِفُ وَأَكْلُهَا مَخْتَلِفٌ لَا يَأْتَلِفُ
فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ ذَا التَّفَاضُلَا إِلَّا حَكِيمٌ لَمْ يَرِدْهُ بَاطِلَا

* * *

وفي الآية السابعة يتطرق الى شرح ادلة التوحيد ومعرفة الله بقرينة بدايتها ونهايتها، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شُرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

فليس كل ماء صالح لشرب الانسان، ولا كل ماء صالح لنمو النبات والشجر، إلا ان هذا الماء السماوي مفيد لكل واساس لحياة كل شيء.

﴿شَجَرٌ﴾ كما قلنا له معنى شامل في اللغة، حيث يشمل انواع النباتات سواء كانت ذات سيقان أم لا، و ﴿تُسِيمُونَ﴾ من «إسامه» وهي من مادة «سَوَم» وتعني رعي الحيوانات^(١)، وحيث ان الحيوانات تتناول كلاً من الاعشاب واوراق الاشجار عند رعيها فالتعبير بـ ﴿شَجَرٌ﴾ يبدو مناسباً جداً لاشتماله على كليهما.

ثم يضيف ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

واللطيف ان الآية اعلاه مع انها تتحدث عن كافة الثمار وجميع انواع المحاصيل الزراعية بما فيها الحبوب، فهي تستند خاصة الى ثلاثة ثمار هي: الزيتون، والتمر، والعنب. وهذا يعود للاهمية الفائقة لهذه الثمار من حيث المواد الغذائية، وانواع الفيتامينات والميزات العلاجية التي تمت معرفتها مع تطور العلوم

(١) وطبعاً ان المعنى اللغوي لـ «السَوَم» هو وضع العلامة، وبما ان الحيوانات حين العلف تترك اثرأ على الارض اطلق عليه هذا الاصطلاح.

الغذائية في هذا العصر. (١)

لهذا يعود ويؤكد في نهاية الآية بأن في هذه الامور برهاناً واضحاً عن حكمة وقدره وعظمة الله لاولئك الذين يتفكرون: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. والذين لا يتفكرون في هذه الآيات الجليلة لا يستحقون أن تُطلق عليهم كلمة الانسانية، كما يقول الشاعر نقلاً عن الفارسية:

عجب لهذا الرسم على باب وجدار الوجود

فكلما فعل فكرك كان رسماً على الحائط

هل يتمكن ان يعطي فاكهة ملونة من الخشب؟

أم يقدر أن يستخرج من الشوك ورداً بمائة لون؟

لقد تناثر الارجوان على عتبة المرج الخضراء

عيوناً نبقى الابصار حيرى فيه!

* * *

وفي الآية الثامنة نواجه تنوعاً آخر في عالم النباتات والاشجار الذي يُطرح كأحد ادلة التوحيد ومعرفة عظمة الله، اذ يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَّعْرُوشَاتٍ﴾.

﴿معروش﴾ من مادة «عَرَشَ» وتعني السرير المرتفع أو السقف، وما يعنيه

هذا المفهوم في هذه الآية، هنالك خلاف بين المفسرين:

فقال بعضهم: ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ ما انبسط على الارض مما يفرش، مثل الكروم

والزروع والبطيخ، و﴿غَيْرِ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ ما قام على ساق مثل النخل وسائر الاشجار

وقيل: المعروشات ما ارتفعت اشجارها وأصل التعريش الرفع، وعن ابن عباس

(١) طالعوا شرح هذا الكلام في التفسير الأمثل ج ١١ ص ١٧٢ وما بعدها.

أيضاً: المعروشات ما أثبتته ورفعته الناس - واحيط بسور -، وغير المعروشات ما خرج في البراري والجبال من الثمار. (١)

ولكن يظهر أنَّ التفسير الاول اكثر ملائمةً .

على اية حالٍ ، فالعجب أنَّ بعض الاشجار كالسرو والصنوبر تمتد مستطيلة في السماء باتزانٍ ولا تستطيع الرياح العاتية والعواصف من ثنيها عن استقامتها ، في حين أنَّ البعض الآخر كاشجار الكروم لا تملك غصناً مستقيماً واحداً ، وتهتز وتنحني باستمرار ، وكلُّ منها له عالمة الخاص .

فاشجار العنب بعناقيدها الثقيلة لو كانت لها قامة كاشجار الصنوبر لانكسرت ولم تستمر يوماً واحداً ، فضلاً عن ابتعادها عن تناول الانسان ، في حين أنَّ طفلاً صغيراً باستطاعته اقتطاف جميع الثمار في بساتين العنب .

ثم يضيف مستنداً الى اربعة انواع من الثمار والزرع : ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ ، لابد من الانتباه الى ان ﴿ جنات ﴾ جمع ﴿ جنة ﴾ تُطلق على البستان ، وعلى الاراضي التي يغطيها الزرع ، و ﴿ أكل ﴾ (على وزن دهل) من مادة ﴿ أكل ﴾ (على وزن مكر) وتُطلق على جميع المأكولات . على اية حالٍ ، فالاشجار والزرع والنباتات لا تختلف كثيراً من ناحية الظاهر فقط ، بل أنَّ ثمارها ومحاصيلها تتفاوت للغاية ايضاً ، من حيث اللون والطعم و الشكل الظاهري ، وكذلك من حيث ما فيها من مواد غذائية وخصائص متنوعة ، اضافة الى أنَّ منها المرغوب والمتوسط ، وهذا عرضٌ لقدرة الخالق جلَّ وعلا الذي أوجدَ مثل هذا التنوع العظيم الواسع في عالم النباتات ، وكلُّ نوعٍ يُسَبِّحُ بحمده وثنائه .

(١) وردت هذه التفاسير الثلاثة في تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٥٣٤ .

وفي نهاية الآية يُصدرُ أوامره: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ .

وعليه فإنَّ الأمر بـ ﴿كُلُوا﴾ دليل على حليتها الكاملة ولكن بشرطين: الإيفاء بحقوق المحتاجين، وعدم الاسراف.

وبالرغم من أنَّ بعض المفسرين قالوا أنَّ المقصود بـ ﴿حَقُّ﴾ هنا هو الزكاة، إلَّا أنَّ أغلب المفسرين واستلهاماً من الروايات الواردة عن طريق أهل البيت (عليهم السلام) وأهل السنة، صرَّحوا بأنَّ المقصود بهذا الحق ليس الزكاة^(١).

بناءً على ذلك لا بد أن يُخصَّص أصحاب المزارع والبساتين نصيباً للمحتاجين أثناء قطف الثمار، وحصاد المحاصيل كحكم الهيئ، وهذا النصيب ليس له حدٌّ معين في الشرع، بل يتعلق بهمة المالكين. وعليه فإن ذيل الآية تتحدث عن حكم أخلاقي وصدرها يشتمل على دورس توحيدية.



ويشير في الآية التاسعة إلى موضوع آخر من عجائب عالم النباتات والأشجار، فيقول بعد ذكر مسألة بسط الأرض وتكوّن الجبال: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ .

بالرغم من أنَّ ﴿موزون﴾ من مادة «وزن»، إلَّا أنها هنا إشارة إلى النظام الدقيق والمحدّد، والتقدير المتلائمة والمتناسقة التي تحكم جميع ذرات النباتات، إضافة إلى أن «وزن» كما أوردها الراغب في المفردات تعني في الأصل معرفة قدر الشيء.

(١) يُراجع «سنن البيهقي» ج ٤ ص ١٣٢، و«وسائل الشيعة» ج ٦ كتاب الزكاة «ابواب زكاة الغلات»، وتفسير «الميزان»، والتفسير «الامثل»، و«القرطبي»، فيما يخص الآية.

وقال بعض المفسرين ايضاً إِنَّ الْمُرَادَ من هذا التعبير هو إِنَّ الله خلقَ من كُلِّ نباتٍ بِقَدَرٍ حاجة الانسان^(١).

كما قالوا إِنَّ المراد من ﴿موزون﴾ هو وجوب تظافر كميات محدّدة من الماء والهواء والتراب وضوء الشمس كي تنمو النباتات.

واحتمل بعض المفسرين ان التعبير بـ ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ يشتمل على المعادن ايضاً، ولكن من خلال الفهم بان عبارة ﴿انبتنا﴾ لا تتناسب كثيراً مع المعادن، فإنّ هذا التفسير يبدو بعيداً، إلّا انّ الجمع بين التفسيرين ممكن، وورد في بعض الروايات اشارة الى التفسير الثاني ايضاً.^(٢) ويردّدها الاشارة الى توفير الوسائل المعاشية والحياتية للناس ولحيواناتهم ولاولئك الذين يرتزقون على مائدة الخالق الواسعة فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

﴿معايش﴾ جمع «معيشة» ولها معنى واسع جداً، فتشمل كل شيء يعدّ من وسائل حياة الناس، وجملة ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ اشارة الى الحيوانات والكائنات الحيّة التي ليس بمقدور الانسان ان يطعمها، فوضع الباري تعالى الطعام المناسب لكلّ منها في اختيارها على اساس النظام الخاص الذي يسود العالم، ولو فتحنا اعيننا وتأملنا طريقة تغذية انواع الحيوانات من النباتات، لوجدنا فيه عالماً من أدلة معرفة الله.

فبعضها يستفيد من الثمار، وبعضها من الحبوب، ومجموعة من اوراق الاشجار، وطائفة من السيقان، وآخر من القشور، والبعض من رحيق الازهار، وقسم

(١) ذكر «الفخر الرازي» هذا في تفسيره كاحتمالٍ أولٍ، والتفسير الثاني كالثالث احتمال، (ج ١٩ ص ١٧١).

(٢) تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٦، اشار الامام علي (عليه السلام) في هذه الرواية الى المعادن المختلفة التي أوجدها الله في الجبال وتباع وتشتري بالوزن.

يأكل الجذر فقط .

* * *

وفي الآية العاشرة والاخيرة من البحث أُشير الى ميزة اخرى لعالم النباتات ، وهي مسألة انفلاق حبوب ونوى النباتات تحت الارض .

وقد وُصِفَ الباري تعالى في هذه الآية كما يلي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ ، ويقول في نهاية الآية ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ ﴾ .

﴿ فالتق ﴾ من مادة « فلق » ، وكما يقول الراغب في المفردات فهي تعني انفطار الشيء ، وانفصال جزء عن جزء آخر^(١) ، و ﴿ الحب ﴾ تعني حبوب الطعام والغذاء او كل اشكال الحبوب النباتية ، و ﴿ النوى ﴾ تعني نوى الثمار ، واذا حَصَرها البعض بمعنى نوى التمر فذلك بسبب تكاثره في ذلك المحيط .

على اية حال ، فإن اهم والطف مراحل حياة النباتات هي مرحلة تفتح الحب والنوى ، وفي الحقيقة فإن هذه الحالة تشبه حالة ولادة الطفل ، والعجيب ان هذا البرعم النباتي بما فيه من رقة وظرافة يشق هذا الجدار القوي الذي يحيط به ، ويخرج الى العالم الخارجي ، فيولد هذا الكائن الحي الذي كان محبوساً الى ما قبل لحظات في القشرة والنوى ، ولم تكن له علاقة بالعالم الخارجي ، وقيم علاقاته مع الخارج فوراً ، فيتغذى من المواد الغذائية الموجودة في الارض ، ويرتوي من الماء والرطوبة التي تحيط به ، ويبدأ بالحركة بسرعة في اتجاهين متعاكسين فمن جهة ينفذ في الارض على هيئة جذر ، ومن جهة اخرى يستقيم فوق الارض على هيئة ساق .

فالقوانين الدقيقة التي تسود هذه المرحلة من حياة النبات مدهشة حقاً ،

(١) قد يستعمل هذا اللفظ بمعنى « الخلقة » ، كأن حجب ظلمة العدم تتمزق وينكشف

نور الوجود عنها (تفسير روح المعاني ج ٧ ص ١٩٦) ، ولنفس هذا الشيء يسمى بياض الصبح « فلق » على وزن « شفق » ايضاً .

وتعتبر دليلاً حياً على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا .
يستفاد من مجموع ما ورد في هذه الآيات القرآنية حول خلق النباتات
وخصائصها المختلفة ابتداءً من رشد النباتات الى تنوعها ومسألة اللقاح والزوجية ،
وانواع المواد الغذائية للانسان والحيوانات ، حتى كيفية نمو طلع التمر ، والحبوب
المرتبة بعضها فوق بعض كالحنطة والشعير ، وتكاثر الثمار والزروع المتباينة تماماً
الناجمة عن ماء واحد وارض واحدة ، وسيادة القوانين الموزونة على جميع
المراحل ، وانفلاق الحبوب والنوى ، انها جميعاً آيات لتلك الذات المقدسة ، ودليل
حي على وحدانية الرب ونفي كل اشكال الشرك .

* * *

توضيحات :

١ - التركيب المذهل للنباتات :

من الطبيعي ان تنسى عجائب واسرار كل شيء اذا بدا لنا واضحاً فيكون
مصدّقاً للآية الشريفة ﴿وَكَايُنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ
عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(١) ، فنمر عليها مرور الكرام في الوقت الذي يكمن فيها عالم من
عجائب وقدرة وعظمة الخالق جلّ وعلا .

لنبداً من جذور النباتات ، فالجذر بلطافته ورِقَّتِهِ له قدرة مذهلة ، فهو ينفذ في
طبقات الصخور والاراضي الصلدة ، واحياناً يغور تحت قطع صخرية تزن عدة اطنان
ويرفعها عن مكانها وتتحرك العمارات والاحواض التي أنشأت من القوالب والطبقات
المسلحة نتيجة نمو الاشجار حولها .

(١) (يوسف الآية : ١٠٥) .

فعملُ الجذر هو امتصاص المواد الغذائية والرطوبة من كل ناحية، وكأنها تعرف مراكز الرطوبة والمواد الغذائية من خلال شعورها العجيب فتسعى نحوها. ولكل جذر جهازٌ عظيمٌ له قدرةٌ خاصة في انتخاب نوع الغذاء وتغييره وتبديله، ثم يدفعه إلى داخل الاغصان بعد التغييرات التي يحدثها فيه، ومنها إلى الثمار، وتجري عليها تفاعلات كيميائية جديدة في كل مرحلة، كي يصنع من التراب فاكهةً طيبةً كالعسل، أو يصنع دواءً شافياً وصحياً.

ومن اهم واجبات الجذر امتصاص -النروجين المذاب -الضروري لبناء النبات الذي لا تتمكن بقية اجزاء النبات من جذبه.

وبناء الاوراق اكثر عجباً منه، فلو وضعنا ورقةً أمام اشعة الشمس ستلفت نظرنا الفروع الدقيقة جداً الممتدة فيها والتي يكون واجبها ايصال الماء والغذاء إلى كافة خلايا الورقة. وفي الواقع ان كل ورقة تعتبر بحد ذاتها مدينةً كاملةً، وهذه الفروع هي الانابيب المنظمة لهذه المدينة ابتداءً من الانبوب الرئيس، وحتى اصغر التفرعات.

والورقة مع رقتها لها سبع طبقات، وكل طبقة لها بناءٌ وبرنامجٌ خاص يبعث على الدهشة، والغلاف الذي يغطي الورقة كجلد الانسان ذو مساماتٍ دقيقة جداً، وكل من هذه المسامات لها خلايا للصيانة تقوم بتنظيم انفتاح وانغلاق المسامات. وتنفس الورقة من خلال هذه المسامات، فتستنشق الهواء وتفصل عنه غاز ثاني اوكسيد الكربون، لتصنع به «الكلوروفيل» النباتي، وفي المقابل تطرح الاوكسجين وكميةً من الرطوبة لتلطيف وتطهير الجو كموهبتين عظيمتين لدنيا الانسانية.

والارقام التي يقدمها العلماء هنا تبعث على الحيرة اذ يقولون: من اجل أن يتمكن النبات من صناعة رطل واحد من السكر يجب أن تستنشق الاوراق ما يعادل

ثلاثمائة ألف لتر من الهواء وتحلله .

وبناء الازهار ومن ثم الثمار أعجب من ذلك ايضاً ، فهناك الاقسام الذكرية والانثوية ، وتفاعل الذرات الذكرية الدقيقة جداً مع الاجزاء الانثوية ، ثم تكوين البويضة في رحم النبات بعد هذا الزواج الصامت ، وكيفية نموه ، انه عالمٌ عجيبٌ يسلب معه روح وعقل الانسان ، ويجعله غارقاً في محيطٍ من العجائب .

انّ تفصيل بناء هيكل النباتات والازهار والثمار لا يفي بالغرض المطلوب في هذا البحث المختصر ، فقد تمّ تأليف العديد من الكتب من قبل العلماء حول هذا الموضوع ، وظهر علمٌ واسعٌ بأسم (علم النبات) ، فمن الأولى ان نكتفي هنا بكلامٍ لأحد خبراء الزراعة ونغلق هذا الملف الضخم على عجل ، يقول عالم النبات « تشرالدت » : (انّ الاله يظهر من خلال القوانين الثابتة والرمزية التي يدير بها عالم النبات انه يظهر ويتجلى من خلال هذه الطرق :

١ - النظام والترتيب : الذي يُنجز نمو وانتاج المثل وتفرعات الخلايا و تكوين اقسام النبات المختلفة بشكلٍ منظم .

٢ - التعقيد - فلا تقاس أيُّ مكنةٍ من صنع الانسان مع مكنةٍ معقدةٍ ومذهلةٍ لنباتٍ عاديٍّ .

٣ - الجمال - انّ جمال الساق ، والورق والزهر أمرٌ الهيّ ، إذ لا يقدرُ أيُّ نحّاتٍ ماهرٍ ورسامٍ مجرّبٍ من تقديم تمثالٍ او لوحةٍ بهذا الجمال .

٤ - الوراثة - فكلُّ نباتٍ يولّد مثله وهذا هو انتاج المثل ، وهو يجري وفقاً لارادةٍ وتخطيطٍ ، فمهما عملوا وبأيّ شكلٍ ربّوا فانّ « الحنطة تنبتُ من الحنطة والشعير من الشعير » .

ثم يضيف : « باعترادي ، ان هذه المظاهر دليلٌ على وجود الخالق ذي

الحكمة البالغة والقدرة اللامتناهية»^(١).

يقول «تايلر» استاذ علم البيئة السابق في جامعة مانشستر: «تأملوا النباتات التي اصطفت على جانبي الشوارع، فهل تستطيع الآلات الحديثة التي صنعها البشر حتى الآن أن تضاهي هذا النبات الطبيعي؟!»

فهذا النبات الآلي بكل معنى الكلمة مذهش ومذهل حيث ينمو باستمرار ويقوم يومياً بآلاف الأفعال والتفاعلات الفيزيائية والكيميائية، وكل ذلك يجري بإشراف المادة البروتوبلازمية التي تكوّن فيها كل حياة طبيعية، فهذه الآلة الحيّة العجيبة من صنع أيّ قدرة؟!».

* * *

٢ - فوائد وبركات النباتات :

أنّ النباتات تُمثّل الركن الأساس للحياة على الكرة الأرضية، وكافة الكائنات الحيّة الأخرى تتعلّق باطرافها، ففوائد النباتات كثيرة ووفيرة للغاية حيث يمكن الإشارة إلى اثنتي عشرة فائدة متسلسلة :

١ - أفضل مادة غذائية - يتم تحضير أفضل اطعمتنا نحن البشر من النباتات والحبوب والفاكهة، فطاقتنا وقدرتنا وسلامتنا تُؤمّن عن طريق الغذاء النباتي، والكثير من الطيور والدّواب واللبائن والأسماك في البحر تستفيد من النباتات، لهذا فكلّ بلد يتمكن من تأمين منتجاته الغذائية عن طريق النباتات فانه يبلغ الاكتفاء الذاتي في الواقع.

٢ - التهوية - نحن نعلم أنّ الإنسان واغلب الموجودات الحيّة تستخدم

(١) «عالم الأزهار» (اقتباس وتلخيص).

او كسجين الهواء بنحوٍ دائمٍ وتقوم باحرقه ، ولولا وجود مصدرٍ يعوّض ذلك فسيُستهلك هذا الاوكسجين الموجود في الجو والارض خلال مدة قصيرة ، ويهلك هذا الصنف من الموجودات أثر الاختناق ، إلا أنّ الاله الحكيم اناط مسؤولية تعويض هذه الخسارة بالنباتات ، فهي تتنفس على العكس من الانسان ، اذ تأخذ غاز ثاني اوكسيد الكربون وتُحلّله وتطرح غاز الاوكسجين ، لهذا فإنّ هواء البساتين والمزارع منعش ومُنشّطٌ ، كما يوصون لنفس هذا السبب بأن تقام في كلّ مدينةٍ متنزهاتٍ مُشجّرةٍ ، وتخصّص لكل شخصٍ مساحةً من هذه المتنزهات ، ويطلقون على هذه المتنزهات « رئة المدينة » .

٣- الملابس - ان الجانب الاعظم من ملابسنا يتم تصنيعه من الياف النباتات ، وفي الواقع فان المصدر الذي لا ينفد لملابس الانسان في الدرجة الاولى هو النبات .

٤ - البيت واثاثه - لو القينا نظرة على ما حولنا في البيت لوجدنا ان اغلب الابواب والشبابيك واللوازم الاخرى هي من منتجات الاشجار ، بنحوٍ لو اردنا الغاءها من حياتنا فستصبح الحياة صعبةً بالنسبة لنا ، وفي الكثير من المناطق يصنعون بيوتهم من الخشب بشكلٍ كاملٍ ، ولهذه البيوت مزايا كثيرة ، وأحد اللوازم المهمة للحياة المعاصرة هو النايلون ، ونحن نعلمُ إنّ مادته الاصلية تُستخرج من عصير شجر (المطاط) .

٥ - الاعشاب الطبية - كانت اغلب الادوية في السابق تُستخلص من النباتات ، واليوم فإنّ القسم الكبير منها يستخرج من النباتات ايضاً ، ونظراً للآثار السلبية للادوية الكيماوية فقد بدأت الآن حملةٌ للعودة الى الادوية النباتية ، وهناك صيدليات جميع ادويتها من النباتات .

٦ - السيطرة على الكثبان الرملية - انّ أحد الاخطار الجديّة التي تهدد المدن لا سيما القريبة من الصحاري الرملية هي الكثبان الرملية حيث تدفن تحتها احياناً

قريةً كاملةً ، وفضل سبيلٍ لتثبيت هذه الرمال هو استخدام النباتات المختلفة التي توقف حركتها وتقدّمها .

٧ - تحضير الورق - نحن نعلمُ أنّ اختراع الورق كان له نصيب مهم للغاية في تطور الحضارة والعلم البشري ، والنباتات هي المصدر الاساس لهذه الوسيلة .

٨ - معادلة الحرارة والبرودة - أنّ النباتات وبسبب الرطوبة المناسبة والمعتدلة التي تلقيها في الفضاء تقوم بالحدّ من شدة البرد ، وكذلك الحدّ من شدة الحرارة ، ولهذا فإنّ الجو في المناطق كثيفة الاشجار يكون معتدلاً دائماً .

٩ - وسائط النقل - أنّ الكثير من البواخر والقوارب كانت تصنع سابقاً وتصنع حالياً من الخشب ، وهي تعتبر من افضل وسائط النقل التي يستخدمها الانسان سابقاً وفي الوقت الحاضر .

١٠ - الجمال والطراوة - لا يخفى هذا الأثر اللطيف للاشجار والنباتات والزهور على أحد حيث تبهّر روح الانسان بجمالها المدهش ، وتُريح القلب وتهديّ الانسان ازاء الضغوط الشديدة للحياة ، لهذا يقومون بتزيين المستشفيات بانواع النباتات والاشجار من اجل تحسين صحة المرضى ، ويلجأ الانسان باستمرار الى احضان الطبيعة في وسط الاشجار والبساتين ومزارع الحنطة من اجل ازالة المتاعب وتجديد النشاط .

١١ - المصدر المهم للطاقة - أنّ الخشب والورق وجذور النباتات كانت ولا زالت إحدى المصادر المهمة للطاقة ونتاج الحرارة ، وحتى الفحم الحجري الذي هو أحد مصادر الطاقة المهمة فهو من منتوجات الاشجار والنباتات ايضاً ، والحرارة التي نحصل من الخشب واوراق الاشجار ملائمة ، وتلويثها للبيئة ضئيل جداً ، وحتى الرماد المتبقي منها يصلحُ كسمادٍ للاشجار يستفاد منه مجدداً .

١٢ - اصناف العطور والمواد الكيماوية - نحنُ نعلمُ أنّ افضل العطور الملطفة

لروح الانسان كانت ولا زالت تُستخلص من رحيق الازهار، والاشجار والنباتات ذات الورق والخشب المعطر لطيف الرائحة ليست بالقليلة .

ناهيك عن كثيرٍ من المواد الكيميائية المستخلصة من النباتات التي تستخدم في مختلف الصناعات .

عظيمٌ ذلك الأله الذي خلق كلَّ هذه الآثار والفوائد والبركات في هذا المخلوق ، وجعله آيةً عظيمة من آيات علمه وقدرته .

انَّ التعابير الشاملة التي تَلَوْنَاهَا في الآيات اعلاه ، يمكن أن تجمع كلَّ هذه الفوائد في عبارة ﴿ معاش ﴾ جمع « معيشة » وتعني وسيلة الحياة .

* * *

٣- الانواع غير المحدودة للنباتات :

كما اشرنا سابقاً فإنَّ انواع النباتات كثيرةٌ بالقدر الذي لا يمكن حصرُها ، وقد تم حتى الآن احصاء ثلاثة آلاف نوع من النخيل ، والف وسبعمائة نوع من التين الهندي ، والف ومائتي نوع من ورد الثعلب .

يذكر مؤلف كتاب « عالم الازهار » (فردينا ندلين) انَّ عددَ النباتات ذي الحبِّ المغطى يبلغ مائة وخمسين الف نوع ، وقد تم بيان وتوضيح اكثر من ثمانية عشر الف نوع من النباتات في بعض كتب علم النباتات ^(١) .

وقد تم بحثُ الف نوع من الكمأة من التي تم احصاؤها ، واكثر من اربعين الف نوع من الطحالب ، وسبعة آلاف نوع من التفاح ، وخمسة وثلاثين الف صنف من الحنطة ^(٢) .

(١) « تاريخ العلوم » ص ٣٥٢ .

(٢) « معرفة الله » ص ٢٩١ و ٢٩٢ .

ومن بين النباتات ، هنالك نباتات لا تُرى بالعين المجردة ، وهنالك نباتات يصل طولها الى خمسين متراً ، وبعضها ينمو في بطن الصخور ، وبعضها يعوم وسط الماء ، وجذور بعضها يتفرع تحت الماء وازهاره فوق سطح الماء ، ولكل منها منظره البديع واللطيف في عالمه حيث يصدق بلحن التوحيد .

* * *

٤ - عجائب عالم النباتات :

لو تركنا كل ما قيل بخصوص النباتات بشكل عام ، سنلاحظ عجائب جمة في عالم هذه النباتات ، حيث اودع بعضها في زاوية النسيان لاعتيادنا عليها .
فاوراق وسيقان النباتات الضخمة ترفع يومياً مليارات الاطنان من الماء من الارض خلافاً لقانون الجاذبية ، ثم تنثره بخاراً في الفضاء المحيط بها ، أي قانون يسمح للنباتات أن تستعرض قوتها هكذا خلافاً لقانون الجاذبية التي تسحب كل شيء نحو الاسفل - لا سيما الماء - ؟ هنالك الكثير من النباتات كعين الشمس تدور مع حركة الشمس فتتحرك ازهارها الكبيرة نحو الشرق في اول الصباح ونحو الغرب اثناء الغروب .

والنباتات آكلة اللحوم من اكثر ظواهر عالم النباتات إثارةً .

وقد اجرى البروفسور « ليون برتن » مدير « متحف التاريخ الوطني الطبيعى الفرنسى » تحقيقاتٍ بخصوص هذه النباتات آكلة اللحوم حيث يوجد منها عشرة انواع فقط في فرنسا ، واشهرها النباتات الآتية :

أ - « آلدروفوند » : وتكثر في ولاية « جيرفوند » الواقعة غرب فرنسا على سواحل المحيط الاطلسي ، فهذا النبات ذو ورقة تتكون من قطعتين خاصتين متقابلتين كصفحتي كتابٍ مفتوح ، تتصلان من الاسفل بواسطة مفصلٍ خاص ،

وتغطي سطح الاوراق طبقة حساسة.

وعندما تقترب ذبابة منه وتمس ارجلها او جسمها هذه الطبقة ، تنطبق الصفحتان المذكورتان بسرعة ، فيقع الحيوان في وسط ذلك السجن ، وفي النهاية يهضم تدريجياً ويصبح جزءاً من جسم النبات أثر العصير الخاص الذي يُفرز من الورق .

ب - «دروزرا» : وهذا النبات له اوراق حمرة اللون تشاهد عليها مخالب رفيعة تشبه الشعر ، وحينما تضلّ الذبابة طريقها ، تجلس على اوراق هذا النبات ظناً منها بانها قد عثرت على المكان الآمن الخالي ، وفجأة تنطبق المخالب من ناحية رأسها ، فتجرها مخفورة الى داخل الورقة فتهضم ويمتصها النبات وسط الافرازات اللزجة للورقة .

ج - «نيانتس» : وهو اكثر النباتات الآكلة للحوم عجباً ، حيث يوجد في نهاية الفرع الدقيق ما يشبه الوعاء الصغير ، تكون فوهته نحو الاعلى ، وله باب خاص مفتوح خلال الاوضاع العادية .

ويعتبر هذا الوعاء فخاً خطيراً للحشرات الغافلة والهائمة في الجو ، فهو يحتوي باستمرار على العسل اللزج الحلو حيث يدعو الحشرات « عابدة البطن » نحوه ، وكذلك فإن جمال وشفافية لون الوعاء ذو جذب خاص للحشرات « ذات الذوق الجيد » .

فاذا وقعت حشرة ما اسيرة لهواها ودخلت الوعاء فإن فوهته ستغلق على الفور وستبتلي بسجن لا خلاص منه ابداً .

على أية حال ، هذا الوعاء يعتبر كالمعدة بالنسبة لهذا النبات ، والافراز الداخلي كافرازاتها ، ويجعل الحشرة قابلةً للامتصاص .

يقول العلماء : ان قيام هذه النباتات باصطياد الحشرات يعود لعدم قدرة

جذورها لامتناس (النتروجين) ، لهذا فهي تعوض هذا النقص عن هذا الطريق .
ويأمل العلماء بأن يأتي اليوم الذي يستطيعون فيه تربية كمية كبيرة من هذه
النباتات في حدائق البيوت او الى جانب الاحواض ، ويقضون بهذه الطريقة الصحية
والطبيعية على الذباب والحشرات الضارة الموجودة في بيئة الانسان .
وورد في مذكرات السيّاح والرّحالة قصص عجيبة حول النباتات التي تأكل
البشر ، فيقول بعض العلماء من الممكن ان تكون هذه النباتات من النباتات آكلة
الحشرات الا انها اكبر حجماً لنموها في ارض غنية ، وتستطيع أن تقتنص احياء اكبر
في بطن فروعها واوراقها وتمتصها تدريجياً (ولكن لا يمكن تأكيد وقبول ذلك
بسهولة)^(١) .

ومن اعجب والطف جوانب وجود النباتات هو انتاج الثمار .
وواحد من مئات الامور الظريفة فيها وجود سائل حلو ولذيذ في الكثير منها
مخزون في اوعية صغيرة خاصة مربوطة باحكام ، حيث يبدو افضل طرق الربط في
عصرنا الحاضر ، بدائية جداً أزاءها .

افتحو برتقالة واحدة ، ستجدون كأن شقٍ منها يتكون من مئات القطع
الزجاجية الصغيرة الظريفة التي تفيض بسائلٍ لذيذٍ ومعطرٍ ، الزجاجات التي تجمعت
معاً دون أيّ فاصلةٍ (ولو كان هنالك فاصلةٌ وهواء فيما بينها لفست بسرعة) .
لكن هذه الزجاجات لا تتكسر ابداً ، وتحمل صعوبات الحمل والنقل ،
واللطيف هو امكانية اكلها مع محتوياتها .

وكل مجموعة من هذه الزجاجات الصغيرة والظريفة مغلفةً بقشرةٍ اكثر سُمكاً
وهي بمثابة الغلاف ، وتظهر على هيئة شقٍ (وهذا الوعاء قابلٌ للاكل مع محتوياته

(١) نظرة على الطبيعة واسرارها ، تأليف البروفسور ليون برتن ص ١٣١ - ١٣٤ (مع الاختصار والاقتباس) .

ايضاً، بل هو مفيدٌ للجهاز الهضمي).

وهذه الاغلفة الصغيرة تجمعت بدونِ اقلِّ فاصلةٍ مع تفريغٍ كاملٍ من الهواء، والتوتُّ وسط عدة لفافاتٍ من اجل السلامة والأمان، وفي النهاية أصبحت معدة على هيئة حملٍ صالحٍ جاهزٍ للشحن لمسافات نائية.

ويلاحظ هذا الأمر على نحوٍ اكثر طرافةً داخل ثمار الرمان والعنب والتين ايضاً.

تأملوا جيداً لو أنَّ عصارة ايٍّ من هذه الثمار وُضعت في الهواء الطلق ستتغير بعد مرور ساعة واحدة، وقد تتعفن خلال عدة ساعات، إلا أنَّ تغليفها دقيقٌ ومحبوكٌ بنحوٍ لا يسمح بنفوذ الهواء الى داخلها أبداً، ولهذا فهي تبقى سالمةً لعدة شهور دون أقلِّ تغييرٍ في طعمها.

وهذا يتعلق بمسألة التغليف العادية فقط، وأما المركبات الكيميائية لكلِّ فاكهةٍ وخواصها الغذائية والطبية وانواع الفيتامينات وموادها الغذائية فهي بحد ذاتها ذات قصةٍ مفصلةٍ حيث يختص ببحثها المتخصصون بعلم الغذاء، وقد تم تأليف كتبٍ كثيرة في هذا المجال، ولو اردنا أنْ نطرقَ كلَّ هذه المسائل فسنخرج عن أطار كتابنا التفسيري، فضلاً عن ان « وزن كتاب كهذا سيبلغ الاطنان ».

* * *

٥ - اسرار خلق النباتات في توحيد المفضل :

ونقرأ في حديث توحيد المفضل عن الامام الصادق (عليه السلام) حيث قال :

« فكَرَّ يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب، فالثمار للغذاء، والأتبان للعلف، والحطب للوقود، والخشب لكل شيء من انواع النجارة وغيرها، واللحاء والورق والاصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع، أرايت لو كنّا نجد

الثمار التي نتغذى بها على وجه الارض ولم تكن تنبت على هذه الاغصان الحاملة لها كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا ، وان كان الغذاء موجوداً فان المنافع بالخشب والحطب والأتبان وسائر ما عددناه كثيرة ، عظيم قدرها جليل موقعها هذا ما في النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التي لا يعد لها شيء من مناظر العالم وملاهيته .

فكّر يا مفضل في هذا الريع الذي جعل في الزرع فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة واكثر وأقل وكان يجوز ان يكون الحبة تأتي بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع الا ليكون في الغلة متسع لما يرد في الارض من البذر وما يتقوت الزراع الى ادراك زرعها المستقبل تأمل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فانها تخرج في اوعية مثل الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات الى ان تشدّ وتستحكم كما قد تكون المشيمة في الجنين لهذا المعنى بعينه ، فأما البُرّ وما أشبهه فانه يخرج مدرّجاً في قشور صلاب على رؤوسها مثل الأسنان من السنبل ليمنع الطير منه ليتوقّر على الزراع تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فانها لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة في الارض لتنزع منها الغذاء فتؤديه الى الاغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الارض كالأم المربية لها وصارت اصولها التي هي كالأفواه ملتقمة للارض لتنزع منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان امهاتها .

تأمل يا مفضل خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبنوثة منها أجمع ، فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ، ومنها دقائق تتخلل الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً لو كان مما يصنع بالأيدي كصناعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عام كامل ولاحتيج الى آلات وحركة وعلاج وكلام فصار يأتي منه في أيام

قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الارض كلها بلا حركة ولا كلام الا بالارادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع» .

ثم اشار الامام (عليه السلام) في سياق هذا الحديث الى عجائب الثمار والنوى، وموت وحياة النباتات في كل عام، وتلقيح وحمل الاجزاء الانثوية عن طريق الالتحام مع الاجزاء الذكرية، وكذلك ادوية العلاج التي تستخلص من اصناف النباتات، والحبوب والنباتات التي يُعتبر كل منها غذاء لأحد الحيوانات، وقدّم شرحاً لطيفاً حول كل منها، حيث ان ذكرها جميعاً لن يكون ممكناً، وبمقدور الراغبين مراجعة الحديث اعلاه^(١).

نضطرُّ هنا الى لملمة هذا البحث الطويل ونختمه ببعض الابيات من الشعر التوحيدي الاصيل، فلو أطلق عنان العلم فيجب تأليف كتب عديدة في هذا المجال يقول الشاعر نقلاً عن الفارسية:

انَّ جَمِيعَ خَلْقِ اللَّهِ انْذَارٌ لِلْقَلْبِ

ليس له قلبٌ من لا يُقرُّ بالله

فالجبال والبحار والاشجار كلها تسبحُ

ولا يفهمُ كلُّ مستمعٍ هذه الاسرار!

والعقل متحيرٌ من عنقود العنب الذهبي

والذهنُ يعجزُ عن حقيقة ياقوتة الرُّمان

وتتدلى عنانقيد الرُّطب من النخل

والنخل من صنع قضاء وقدر ماهرٍ

(١) «بحار الانوار» ج ٣ ص ١٢٩ - ١٣٦ «مع الاختصار» .

ولكي لا يصبح ظلاماً ظلُّ الأشجار الكثيف
فقد وضع تحت كل ورقة مصباحاً من نور الزمان
وهبط الندى على الزهرة عند حلول السحر
يشبه عرق المـحبوب المعطر!
فافتح بصرك وانظر خلق النارج
يا مَنْ لا تصدِّق أنَّ « في الشجر الاخضر نار »
مقدَّر منزَّة الاله الذي سخر
الشمس والقمر بتقدير وكذلك الليل والنهار^(١)

(١) هذه الايات مترجمة من « كليات سعدي » ، فصل القصائد ص ٤٤٣ .

١٦- آيَاتُهُ فِي خَلْقِ الْأَرْزَاقِ الْعَامَةِ

تمهيد :

انَّ لكلَّ كائنٍ حيٍّ احتياجاتٍ من اجل استمرار حياته ، أو بتعبيرٍ آخر إنَّ
الفعاليات الحياتية تتطلب مواداً تولدُ الطاقةَ يجب أن تصل الى الكائن الحي دائماً ،
ويُطلق عليها بالاصطلاح (التلافي) ، وتعويض ما يتحلل .

ويجب أن تكون هذه المواد ملائمة تماماً لذلك المخلوق من جميع الجوانب
كي يتمكن من الاستفادة منها بيسر .

انَّ نظامَ الرزق في عالم الخلق ، وكيفية اعداده ، ثم كيفية وضعه في متناول كلِّ
موجود ، وكذلك الاستفادة منها ، نظامٌ جميل ودقيقٌ للغاية ، وملئٌ بالاسرار احياناً ،
حيث يختفي فيه جمع من الآيات المهمة لتوحيد الله وعلمه وقدرته ، لهذا استند
عليه القرآن الكريم مراراً في مختلف الآيات .

بعد هذا التمهيد نعود الى القرآن الكريم ونستمع خاشعين الى الآيات الآتية :

١ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ
يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْتِ تَوَفُّكُونَ ﴾ ^(١) .

٢ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴾ ^(٢) .

٣ - ﴿ أَمْنَ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

(١) (فاطر الآية : ٣) .

(٢) (الروم الآية : ٤٠) .

- أَلِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾
- ٤ - ﴿أَمْنَ هَذَا الَّذِي يُرْزَقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (٢).
- ٥ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣).
- ٦ - ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٤).
- ٧ - ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٥).
- ٨ - ﴿قُلْ مَنْ يُرْزَقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦).
- ٩ - ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ - رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ (٧).
- ١٠ - ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ - إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا - ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا - فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا - وَعَيْنًا وَقَضْبًا - وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا - وَحَدَائِقَ غُلْبًا - وَفَاكِهَةً وَأَبًّا - مَتَاعًا لَكُمْ

(١) (النحل الآية : ٦٤).

(٢) (المملك الآية : ٢١).

(٣) (الروم الآية : ٣٧).

(٤) (الذاريات الآية : ٥٨).

(٥) (هود الآية : ٦).

(٦) (سبا الآية : ٢٤).

(٧) (ق الآيات : ٩ - ١١).

ولأنعامكم ﴿ (١) (٢) .

* * *

شرح المفردات :

﴿ الرِّزْق ﴾ كما يقول الراغب في كتاب « المفردات » يعني البذل والعطاء المستمر، دنيوياً كان أو أخروياً، كما يُقال للحظ والنصيب رزقاً، وكذلك للمواد الغذائية التي تصل الى جوف الانسان .

يقول « ابن منظور » في « لسان العرب » ايضاً : (الرزق) نوعان : ظاهر للابدان كالاقتوات ، وباطن للقلوب والنفوس ، كأنواع المعارف والعلوم .

وورد في كتاب « التحقيق » ايضاً أنَّ الرزقَ يَعْنِي « العطاء الخاص الذي يناسب متطلبات وضع المقابل ويطابق حاجته لاستمرار حياته » .

وفي القرآن الكريم استعمل في كلا المعنيين فنقرأ « في سورة الملك الآية ١٥ » : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ .

وورد في الآية ١٦٩ من سورة آل عمران ، بخصوص الشهداء : ﴿ بَلِّ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرَزَّقُونَ ﴾ .

إلاَّ إنه يُستخدم غالباً بخصوص الارزاق المادية ، بالرغم من أنَّ استعماله بخصوص الارزاق المعنوية ليس قليلاً ايضاً ، وحيث أنَّ الله تعالى واهب جميع النعم

(١) (عبس الآيات : ٢٤ الى ٣٢) .

(٢) هناك آيات كثيرة اخرى وردت في هذا المجال لها شبهة بالآيات اعلاه منها ٣١ يونس ، ١٧٢ البقرة ، ٢٨ الروم ، ١٩ الشورى ، ٢٦ الرعد ، ١٢ الشورى ، ٢٧ الشورى ، ٢٢ البقرة ، ٣٢ ابراهيم ، ٧٣ النحل ، ١٧ العنكبوت ، و ١٣ غافر .

المادّية والمعنوية فإنَّ لفظ ﴿الرِّزَاقُ﴾ من صفاته الخاصة^(١).

و ﴿الطَّعامُ﴾ له معنىٌّ مصدرى واسم مصدرى معاً، أي أنه يُطلقُ على «أكل الغذاء»، وكذلك على نفس «الغذاء»، وقد يُستعمل هذا اللفظ بخصوص الحنطة، كما ورد في الرواية أنَّ النبي (ﷺ) أمرَ باعطاءِ صاعٍ من «الطَّعام» أو صاعٍ من «الشعير» (وهنا استُخدمَ الطَّعامُ بمعنى الحنطة في مقابل الشعير).

وذكر صاحب «لسان العرب» أنَّ الطَّعامَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يؤكل، إلاَّ إنه هو والرَّاغِبُ في المفردات صَّرحاً بأنَّ هذا اللفظ قد يُستخدمُ للمشروبات ايضاً كما في: ﴿وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَهُوَ مِنِّي﴾^(٢).

يقول الخليل بن احمد في كتاب «العين» ايضاً: يقالُ الطَّعامُ في كلام العرب للبرِّ خاصة، (إلاَّ إنه يعود على ما يبدو الى أنَّ الطَّعام الاساس غالباً ما يكون من الخبز الذي يُصنعُ بدوره من الحنطة، وإلاَّ فإنَّ الكثير من ارباب اللغة ذكروا أنَّ للطَّعام مفهوماً عاماً)^(٣). وقال بعض اللغويين إنَّ الطَّعام يعني التمر ايضاً، ويبدو أنَّ هذا الكلام يعود الى أنَّ التمر كان هو الطَّعام الاساس في ذلك الزمان وتلك البيئة.

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان ام صديقاً:

لقد قلنا مراراً أنَّ مشركي العرب لم يتخذوا الاصنامَ كخالقٍ لهم ابداً، إلاَّ انهم كانوا يعتقدون أنَّ الاوثان لها يدٌ في تدبير هذا العالم وحل مشكلات الناس فيبدلون

(١) لان العرب، المفردات، مجمع البحرين، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) (البقرة الآية: ٢٤٩).

(٣) لسان العرب، المفردات، كتاب العين، والنهاية لابن اثير.

العطاء لها ، لهذا يعتبرونها شفيعةً لدى الله ، او بسبب إناطة مسؤولية تدبير العالم في هذه الجوانب لها . لذلك فقد تم التأكيد في الآيات القرآنية أعلاه على هذه المسألة بتعابير مختلفة من اجل رد هذه العقائد الخرافية ، والتأكيد بأن الخالق والرازق واحد ، وجميع انواع الارزاق تأتي من ناحيته .

من البديهي اذا ما دُعِيَ الانسان الى مائدة وكان فيها من الاطعمة مالد وطاب ، ان يتقدم بالشكر قبل كل شيء الى صاحب هذه النعم ، لذلك فهو يذهب وراء صاحب تلك المائدة لمعرفة ، فهل هناك مائدة اوسع من مائدة الخالق ؟ وهل يجب معرفة صاحب هذه المائدة التي يتنعم بها العدو والصديق ؟ وتقديم الشكر له لعطاياه التي غمّرتنا من أمهات رؤوسنا وحتى اخامص اقدامنا ، ظاهراً وباطناً ؟ بناءً على ذلك فإن أهم الدوافع « لمعرفة الله » وكذلك أحد الطرق لمعرفة هذه الارزاق .

لذلك خاطب في اول آية من البحث كافة الناس قائلاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ .

﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

فهو يرسل لكم من السماء نور الشمس الذي يهب الحياة ، وقطرات المطر التي تحيي الارض ، والنسيم الذي يُنمي الارواح ، ومن الارض يُنبث لكم انواع النباتات والفواكه والمواد الغذائية ، وفي باطنها انواع المعادن والثروات . مع هذا يجب أن تعرفوا أن لا معبود سواه ، وهو وحده الجدير بالعبادة ، فكيف تنحرفون عن الصراط المستقيم وتجعلون هذا الخالق العظيم واهب الرزق وراء ظهوركم ، وتسجدون للاصنام : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُؤَفَّكُونَ ﴾ ^(١) .

(١) « تؤفكون » من مادة « إفك » ، وتعني تغيير الشيء عن وضعه الحقيقي ، ولهذا يقال

ويستند في الآية الثانية على أربعة أمورٍ لاثبات توحيد الربوبية (وحدانية الخالق) ، وكذلك التوحيد في العبادة ، وهي : خلق الانسان ، ورزقهُ ، ومَوْتُهُ ، واعادة احيائه . وقد تمَّ تعريفها من قبل الله تعالى ، لأنها جميعاً ذات نظامٍ دقيقٍ حيث تُبرهنُ انها تصدرُ عن مبدأ العلم والقدرة ، فيقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ بناءً على ذلك يجب أن تُسَلِّموا لنزاهته وعلوه عما يُشركون به ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .
فحيثما نعلم أنَّا خلقنا وموتنا وحياتنا بيده ، فلا معنى بأن نلهث وراء غيره ، ونخضع ونُسَلِّمَ لسواه .

والجدير بالذكر أنَّ الخلق يشملُ الرزقَ والموتَ والحياةَ ، لأنَّ كافة أنواع الرزق تعود الى خلقِ الله تعالى ، وكذلك فان الحياة جزءٌ من الخلق وتعقبها الارزاق والموتُ ، وعليه فإنَّ الاستناد الى هذه الجوانب الثلاثة ليس لكونها شيئاً منفصلاً عن الخلق ، بل لأنها في الحقيقة توضحُ مصاديقَ مهمةً عن ذلك الموضوع العام .
وهذه النكتة جديرةٌ بالتأمل ايضاً ، اذ بالرغم من أنَّ الإحياء بعد الموت لم يكن مقبولاً لدى مشركي العرب ، إلا أنَّ هذه الآية تُعتبر اشارة لطيفةً لهذا الاستدلال ، وهو أنَّ الخلق الأول ونعمة الحياة في بداية الأمر دليلٌ واضحٌ على امكانية تكراره يوم القيامة والبعث ، بل لو تأملنا جيداً فإنَّ مسألة الموت والحياة مستمرةٌ في هذا العالم ، فوجود الانسان يعتبر ساحةً للموت والحياة في كلِّ عامٍ وشهر بل في كلِّ يومٍ وساعة ، تموت الملايين من الخلايا ، وتحلُ مكانها ملايينُ أخرى ، فتتجسدُ مسألةُ المعاد باستمرار في هذه الدنيا ، إذن ما العَجَبُ في أن يَرْجعَ الامواتُ الى الحياة

→ للكذب والالتهام والانحراف عن الحق نحو الباطل بـ «إفك» ، وكذلك يُطلقُ على الرياح التي تنحرف عن مسيرتها المنظمة (مؤفكة) (مفردات الراغب) .

الجديدة في الآخرة؟.

* * *

وفي الآية الثالثة حيث جاءت في سلك آيات « التوحيد » إذ تُحصي آياته المختلفة في السماء والارض ، تم الاستناد ايضاً الى ثلاث مسائل هي : بداية الخلق ، ورجوعه ، والرزق والاقوات التي تصل الانسان من السماء والارض فيقول : أَيْهُمَا افضل .. مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَمْ مَنْ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ^(١) ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

ويضيف في النهاية ﴿ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ﴾

﴿ قُلْ : لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِدَلِيلٍ عَلَى رَبوبِيَةِ اللَّهِ فَهَاتُوا دَلِيلَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ !
﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وبتعبير آخر : « إِنَّ هَذِهِ الْبَرَكَاتُ تَصْدُرُ عَنِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، أَمَا هَذِهِ الْأَصْنَامُ فَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئاً كَيْ تَسْتَحِقَّ الْعِبَادَةَ » .

والتعبير بـ ﴿ خَيْر ﴾ أي (افضل) الذي حُذِفَ من هذه الآية والذي يتجلى بقرينة الآيات السابقة ليس المقصود منه ان للاصنام خيراً وبركات قليلة قياساً الى خير الله وبركاته بل ان هذا التعبير يُستعمل ايضاً في الحالات التي لا يكون هنالك خيراً في الفعل ابداً ، فمثلاً يقال لك امتنع عن تناول طعام معين كي تحافظ على صحتك أو ليس الصحة افضل من المرض ؟ مِنَ الْمُسْلِمِ بِهِ أَنْ لَا فَضْلَ فِي الْمَرَضِ بحيث تكون الصحة افضل منه ، ونقرأ في القرآن الكريم ايضاً : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ﴾ ^(٢) .

(١) هنالك جملة محذوفة حيث تتضح بقرينة الآيات الانفة (الآية ٥٩ من نفس

السورة) وتقدّر كما يلي « أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ... خَيْرٌ أَمْ مَا يَشْرَكُونَ » .

(٢) (البقرة الآية : ٢٢١) .

ويقول في مكانٍ آخر: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾^(١).

وخلاصة الأمر أنَّ لفظ ﴿خير﴾ بالرغم من انه من «افعل التفضيل» ويجب أن يستعمل في مورد شيئين أحدهما حَسَنٌ والآخرُ أحسن منه إلا أنَّ الهدف في اغلب الحالات هو اغراق المخاطب في التفكير وجعله يشعر بأنَّ ما يختاره ليس منشأً لايِّ خيرٍ ومنفعة.

إنَّ الاستناد الى قضية المعاد بالرغم من عدم ايمان المشركين بها انما هو لاجل كون الخلق أول دليل على المعاد.

* * *

وطرح هذا المعنى في الآية الرابعة بنحوٍ آخر، إذ يقول ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾^(٢).

تلميحاً الى أنه لو امتنعت السماء عن المطر بأمر الله، ولم ينم نبات ما، وعمَّ الجذب والقحط كلَّ مكان، فهل تستطيع هذه الاصنام أو أيُّ موجودٍ آخر أن يرزقكم ويُطعمكم؟ ولو انقطعت عنكم الارزاق المعنوية والروحية بأمرٍ من الله، فهل من هادٍ يرشدكم؟ ينبغي القول أنَّ الجواب على كل هذه التساؤلات سلبي، فكيف اذن يتمادى الوثنيون في عملهم القبيح هذا؟ فهل من سبب هنا سوى العناد والتعصب؟ لهذا يقول في خاتمة الآية ﴿بَلْ لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾^(٣).

* * *

(١) (الفرقان الآية: ١٥).

(٢) بالرغم من احتمال بعضهم بتقدير محذوف من الآية إلا أنَّ ظاهر الامر يشير الى ان لا محذوف هناك فيكون المعنى كما يلي «إِنْ أَمْسَكَ اللَّهُ رِزْقَهُ مِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ» فتكون «أم» هنا بمعنى «بل» (فتأمل جيداً).

(٣) «لجوا» من مادة اللجاجة و «العتو» تعني الطغيان و «النفور» تعني الابتعاد والهروب من الشيء.

وفي الآية الخامسة استند الى أمرٍ آخر يتعلق بمسألة الارزاق ، إذ يؤكد أنَّ بسط وقبض الرزق هو بمشيئة الله ، فيقول : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ؟!

صحيحٌ أنَّ سعيِّ ومثابرة الناس والمؤهلات والاستحقاقات تؤثر في تحصيل الرزق .

وصحيحٌ أنَّ العالم ، عالم الاسباب ، وغالباً ما يستفيد المثابرون اكثر من الكسالى في تحصيل الارزاق .

إلا أننا نرى استثناءات كثيرة قبالة هذه القاعدة ، فقد نرى أناساً مُقعدين قد فتحت امامهم ابواب الرزق ، وبالعكس فقد نرى مثابرين ومستحقين اينما يولّوا وجوههم فإنَّ الابواب مغلقة امامهم ، كما يقول الشاعر العربي المعروف :

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَغْيَتْ مَذَاهِبُهُ

وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقاً

وهذا من اجل ان لا يضيع الانسان في عالم الاسباب وليعلم ان وراء هذا العالم ، يداً قادرةً تديره وتعلو قدرتها فوق جميع القدرات ، وكى لا يصيب الغرور المتنعمين والمستفيدين بسبب امكانياتهم ، فيظلموا ويظفوا ، وحتى لا ييأس ذوو الامكانيات المحدودة ، لأنَّه من الممكن أن يتغير الوضع في كل لحظة حسب الارادة والمشيئة الالهية .

وبتعبير آخر: من اجل توفر الرزق والقوت لكل انسان تتظافر عشرات الاسباب أحدها سعي الانسان ومثابرته ، حتى أنَّ الله قد منح القدرة على السعي والمثابرة ودوافعهما ايضاً .

وهنا يتمكن الانسان من فهم نفحات من الذات الالهية المقدسة من خلال مسألة سعة الرزق وضيقه ، فقد قال في نهاية الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿ أولئك الذين لديهم استعداد لقبول الحق بسبب إيمانهم ، ويتعرفون أكثر على الذات المقدسة من خلال مشاهدة هذه الميادين يومياً .

وفي الحقيقة أن الآية أعلاه وقد تكرر مضمونها ومحتواها عشر مرات في القرآن الكريم تشبه ما نُقل عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث يقول : « عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحُلِّ الْعُقُودِ وَنَقْضِ الْهَمَمِ » (١) .

وتشابه ما نُقل عن بعض المفسرين أن أحد العلماء سُئل عن الدليل على وحدانية الله ؟ فقال : « ثلاثة أدلة : ذلُّ اللَّيْبِ وفقرُ الْأَدِيبِ وسُقْمُ الطَّيِّبِ » (٢) .

والتعبير بـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ إشارة إلى أن لو تمعن الإنسان قليلاً في حياة الناس لرأى هذه الاختلافات جيداً .

ولابد من ذكر هذه النكتة وهي أن ارتباط سعة وضيق الرزق بالارادة الالهية يعني الارادة الممتزجة مع الحكمة وإلا ليس لله مشيئة بدون حكمه سواء كان هنا أم في باقي الموارد .

علماً أن ضيق الرزق في هذه الآية (والآيات العشر) أعلاه لا يعني مُطلق الحرمان من الرزق ، حتى يتعارض مع الآيات الآتية التي تقول ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٣) .

بل المقصود قلة الرزق وفي نفس الوقت وجود الحد الأدنى والكافي منه .

* * *

وفي الآية السادسة بعد أن يؤكد على هذه النكتة وهي : أن الله لا يحتاج عبادةً وحينما يدعوهم إلى عبادته فليس بسبب حاجته فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

(١) نهج البلاغة - الكلمات القصار جملة ٢٥٠ .

(٢) « روح البيان » ج ٧ ص ٣٩ .

(٣) (هود الآية : ٦)

الْمَتَّينِ ﴿١﴾ و ﴿الرِّزَاقِ﴾ صيغةٌ مبالغةٍ تعني كثير العطاء ، وهذا يصدقُ بخصوص ذاته المقدسة فقط ، حيث جلست الكائنات الحية في كلِّ زاويةٍ من هذا العالم العريض : على الجبال ، في بطون الصخور ، في اعماق الوديان ، في قاع البحار ، وباختصارٍ في كلِّ زاويةٍ وجانبٍ من هذا العالم العظيم على مائدة احسانه ، متنعمة بامداداته وفيضه .

وبما أنَّ مثل هذا العطاء والبذل الواسع وغير المحدود يحتاج الى قدرةٍ وقوةٍ تامةٍ ، فقد ذكر بعد هذا وصفين آخرين : ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ و ﴿الْمَتَّينِ﴾ وهي من مادة «متن» وتعني في الأصل العضلتين اللتين تحيطان بالعمود الفقري ، وتقومان بشد عضلات ظهر الانسان من اجل انجاز الاعمال الشاقة ، وهنا كنايةٌ عن القوة والاقدار الخارق .

وفي الواقع أنَّ هذه الجملة وصفٌ للذات الالهية المقدسة في بذل الارزاق ، لأنَّ هذه الصفة تخصُّه فقط ، وأما الآخرون فكل ما يملكون فهو منه جلٌ وعلا ، واذا أُستعمل وصف ﴿الرِّزَاقِ﴾ لبعض الناس أو لاسباب الطبيعية فهو يعني في الحقيقة الوساطة في انتقال فيوضاته وليس الفياض وخالق النعم .

* * *

واستند في الآية السابعة الى موضوع آخر وهو شمول رزق الله لكلِّ الدواب ، هذا العمل الذي لا يمكن حصوله بدون احاطةٍ وعلمٍ كامل بجميع موجودات العالم ، فلا بد أن يعرف المُضَيِّفُ عددَ ضيوفه سلفاً ، وكذلك مقدار حاجاتهم واذواقهم ، كي يتمكن من تقديم الطعام الملائم لهم ، لهذا يقول في هذه الآية ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ .

ويُشير هذا التعبير بجلاء إلى أنَّه قد تكفَّل برزق عبادة، كي يَحُدَّ من حرص وطمع بعض الناس واضطراب وقلق بعضهم الآخر من جانب، ومن جانبٍ آخر يبرهنُ على أنه لو شوهدت شحَّة في الارزاق، فهي مفتعلة ومن المؤكد انها حصلت نتيجة لظلم جماعةٍ من الناس وهضم الحقوق، والاحتكار وافتعال الازمات الكاذبة أو في النهاية بسبب عدم السعي للاستفادة من هذه المائدة الالهية المبسوطة. تلك هي الاسباب التي يؤدي كلُّ منها أو مجتمعة، إلى حرمان بعض الناس من رزقهم وقوتهم، وإلا فإنَّ الله قد ضمنَ رزقَ كلِّ الدَّواب.

وبما أنَّ إيصالَ الرزق لهم يُعدُّ متعذراً بدونِ علمٍ كاملٍ بأماكنهم وخصائصهم فهو يقول في سياق الآية: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾. و «كُلُّ ذَلِكَ مَسْجُلٌ فِي كِتَابٍ جَلِّيٍّ (هو اللوح المحفوظ، لوح علم الخالق) ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾».

و «دَابَّة» من مادة «ديب» «وتعني الشيء البطيء» ويُطلق هذا اللفظ (دابة) على البهائم والحيوانات والحشرات، بالرغم من استعماله بخصوص الخيل في بعض الموارد، إلا أنَّ المسلَّم به هنا انه ذو معنى واسع وشاملٍ حيث يشمل جميع البهائم^(١).

ولفظ «مُسْتَقَرٌّ» يعني المقر، والمكان الثابت، وهو مأخوذ في الاصل من مادة «قر» (على وزن حَرَّ) وتعني البرد القارص الذي يجعلُ الانسان جليساً الدار. و «مُسْتَوْدَعٌ» يعني المكان غير الثابت، وهي من مادة «وديعة» وتعني في الاصل ترك واطلاق الشيء، ولهذا يقال للامور غير المستقرة «مستودع».

(١) أنَّ «التاء» في «دابة» لا تدل على التأنيث، بل تشمل جميع الحيوانات مذكرها ومؤنثها، وبتعبير آخر أنَّ تأنيثها لفظي وليس حقيقياً (مفردات الراغب وتفسير الفخر الرازي ج ١٧ ص ١٨٥).

وهذه الالفاظ تلمّح الى انه لا تظنّوا أنّ الله يوفرّ الرزق للموجودات في مستقرها فقط ، بل اينما تكون وفي أيّ نقطةٍ من الارض والسماء ، فهو يعلم ويبري مكانها ويعطيها رزقها هناك !

روى بعض المفسرين في ذيل هذه الآية حديثاً مفاده : « أن موسى (عليه السلام) عند نزول الوحي اليه تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه صخرة فانفلقت وخرجت منها صخرة ثانية ؛ ثم ضربها بعصاه مرة اخرى فانفلقت وخرجت صخرة ثالثة ، ثم ضربها بعصاه فانفلقت فخرجت منها دودة كأصغر ما تكون عليه النملة وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، وعند ذاك رفع الحجاب عن سمع موسى (عليه السلام) فسمع الدودة تقول : سبحان من يراني ، ويسمع كلامي ، ويعرف مكاني ، ويذكرني ولا ينساني » (١) .

كما ورد في حديث أنّ الامام الحسين (عليه السلام) كان له سيف كتب عليه : الرزق مقسومٌ والحريصٌ محرومٌ ، والبخيل مذمومٌ ، والحاسدٌ مغمومٌ (٢) .

ونختتم هذا الحديث بشعرٍ لأحد شعراء العرب ، اذ يقول :

وكيف اخاف الفقرَ والله رازقي

ورازقُ هذا الخلق في العسرِ واليسرِ

تكفلُ بالارزاق للخلق كُلِّهم

وللضَّبِّ في البِداء وللحوتِ في البحرِ

* * *

وفي الآية الثامنة ، يبدو وكأنّه يحاكمُ المشركين ، ويبينُ بطلان عقائدهم عن

(١) « تفسير الفخر الرازي » ج ١٧ ص ١٨٦ « روح البيان » ج ٤ ص ٩٧ و « روح

المعاني » ج ١٢ ص ٢ .

(٢) تفسير « روح البيان » ج ٤ ص ٩٧ .

طريق مسألة ايصال الرزق الى الخلائق ، ويوضح وحدانية الرب ، فيقول : ﴿ قُلْ مَنْ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من ضوء الشمس ، من قطرات المطر الذي يهب الحياة ، ومن هذا الهواء الذي يمد الكائنات بالحياة ، ومن انواع المواد الغذائية التي تغور في بطن الارض وتظهر على هيئة ثمراتٍ وغلاةٍ وخضروات .

ثم لا يدعُ النبي (ﷺ) ينتظر جوابهم فيردّ الجواب قائلاً ﴿ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ولأنه لا تجتمع عقيدتان متناقضتان ، وبما انكم لا تملكون دليلاً يثبت ان الاصنام هي منشأ البركات ، يتضح اذن اننا نتبع الحق وانتم في ضلالٍ مبينٍ .
ولو لاحظنا هنا ان النبي (ﷺ) لم ينتظر جوابهم ، لأنهم في الواقع لا يملكون جواباً لهذا التساؤل ، سوى السكوت الممزوج بالخجل ، وعليه يجب على المتكلم الفصيح أن يمسك بزمام الحديث في مثل هذه الحالات ويقدم الجواب بنفسه .
وأحد فنون الفصاحة هو أن يُلقى الكلام الغامض على الخصوم من خلال الحوار ويترك الفصل لهم ، لهذا يقول هنا ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ومن المسلم به ان الضال والمهتدي يتضح هنا ، ومن الافضل أن تبقى العبارة غامضة في الظاهر كي لا يتمادى هؤلاء في عنادهم ، وان يُكَلِّفُوا انفسهم عناء الاستنتاج .

والعجيب ان بعض المفسرين يعتقدون ان هذه العبارة من قبيل « التقيّة » في الوقت الذي لا مجال للتقيّة هنا ، والأمر مكشوفٌ بجلاء - ولكن بشيء من اللطافة - ، وحيث يقول في البداية : ﴿ إِنَّا ﴾ ثم يقول : ﴿ انتم ﴾ ويتابع قائلاً على ﴿ هدى ﴾ أو على ﴿ ضلال ﴾ ، وهذا التسلسل يوضح الأمر أكثر .

* * *

وفي الآية التاسعة ، بعد أن أشار الى نزول المطر المبارك من السماء ، استند

الى ثلاثة اصنافٍ من الارزاق التي يستفيد الجميع منها ، فيقول : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ .

﴿ وَالتَّخْلَ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ ^(١) ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ .

وفي الواقع فقد استند في هذه الآية الى الثمار والمحاصيل الغذائية لأنها تمثل اهم وأصلح جانبٍ من المواد الغذائية للناس ، واستند الى التمر بالخصوص من بين الثمار ، بسبب اهميته الغذائية الفائقة ، حيث بحثناه بالتفصيل في محله ^(٢) .
والجدير بالذكر : إنَّ بعض المفسرين يعتقد أنَّ استناد القرآن الى هذه الانواع الثلاثة من الارزاق جاء بسبب خصائص كلٍّ منها على حدة ، لأنَّ بعض النباتات يُثمرُ سنوياً ، دون الحاجة الى نثر البذور ، ك انواع اشجار الفاكهة ، وبعضها يحتاج الى نثر البذور سنوياً كالحنطة والشعير والرز والذرة وبعضها وسطاً بينهما كالنخيل الذي يكون اصله ثابتاً إلاَّ انه يحتاج في كلِّ عام الى « التلقيح » ، بالنحو الذي يرفعون طلع الذكر وينثرونه على ثمار النخلة كي تحمل بشكلٍ كامل ، ومن الممكن ان تلقح بطريقة اخرى (عن طريق الرياح والحشرات) إلاَّ انها لن تكون غزيرة الثمار .

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام ايضاً حيث ان في تعبير ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ ، ^(٣)

اشارة لطيفة الى هذه الحقيقة وهي وجوب استثمار النعم الالهية لسلوك طريق عبودية الله ، وهذه الموجودات مذعنة ومطبعة للانسان كي ينال الرزق ولا يأكله غافلاً عن الله ، كما قال احد الحكماء :

(١) « حصيد » تعني المحصود (او الجاهز للحصاد) ، و « باسقات » جمع « باسقة » وتعني الطويلة و « طلع » تعني ثمرة النخيل في بداية تكوينها ، و « نضيد » تعني المتراكم والكثيف الذي يبعث على التعجب لا سيما في ثمار النخيل أي التمر .

(٢) يُراجع التفسير الأمثل ج ٣ ص ٤٧ ، ذيل الآية ٢٥ من سورة مريم .

(٣) - انَّ نصبَ « رِزْقًا » جاء لكونه « مفعولاً لاجله » ، ويُستبعد احتمال كونه « مفعولاً مطلقاً » أو « حالاً » .

انت تعيش لتأكل وأنا آكل لأعيش وأذكر الله .

* * *

وفي الآية العاشرة وآخر الآيات في بحثنا استند الى الانواع المتباينة من الاطعمة التي وضعها البارئ تعالى في تناول الانسان والدواب ، ودعا الانسان الى التفحص فيها ، كي يُعَدَّهُ لمعرفة المُنعَم ومعرفة الله من خلال تحريضه على الشعور بالشكر .

فيقول : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .

ليرى كيف تظافت مختلف العوامل من الشمس والارض والهواء والمطر كي تضع في خدمته هذه النعم . فيجب أن ينظر ويرى كيف ﴿ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا ^(١) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدائقَ غُلَبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ^(٢) ﴾ .

مع أن ﴿ فاكهة ﴾ تشمل جميع انواع الثمار ، و ﴿ حدائق ﴾ تتضمن جميع البساتين ، إلا أن الاستناد الى ﴿ العنب ﴾ و ﴿ الزيتون ﴾ و ﴿ التمر ﴾ يأتي بسبب مزاياها المهمة للغاية التي ثبتت الآن في علم النبات بالنسبة لكل منها . وبالرغم من أن « طعام » تعني عادةً الغذاء البدني ، لا سيما بخصوص الآية التي تعقبها ، فقد ذكرت موارد عديدة للاطعمة المادية ، الفواكه والمحاصيل ، إلا أنه وكما ورد في بعض الروايات ، يمكن ان يكون للطعام معنى واسع وشامل حيث

(١) « قضب » (على وزن جذب) وتعني القطع والقطف ، وقد فسرها المفسرون بأنها الحُضْرُ التي تُقَطَّعُ عدة مرات .

(٢) « حدائق » جمع « حديقة » وتعني البساتين المحصورة بين الجدران ، و « غلب » جمع « اغلب » من مادة « غلبه » وتعني الضخم الجثه ، و « أب » تعني النباتات الطبيعية والمراتع الطبيعية ، أو الثمار التي تُجفَّف وتُحفظ . (والآية ٣١ من سورة عبس) .

يشمل الغذاء المعنوي ايضاً ، ويجب أن ينظر الانسان جيداً ممّ يكتسب العلم الذي هو غذاؤه الروحي ، فلا ينبغي ان تكون فيه تعاليم سامة .

والكلام الاخير حول هذه الآية الشريفة ، هو من الممكن ان تكون عبارة ﴿فَلْيَنْظُرِ﴾ هي النظر من اجل ادراك اسرار المبدأ ويشمل المعاد ، وكذلك النظر لتمييز الصنف الطيّب والطاهر ، من الخبيث والملوث ، والنوع المشروع من اللامشروع والمفيد من الضار .

يستفاد جيداً من مجموع ما قيل في شرح هذه الآيات انّ انواع الرزق الالهي آياتٌ وآثارٌ على عظمتِهِ ، وكيفية ظهورها ، والنظام المدهش الذي استعمل في بنائها ، والمزايا السائدة على كلّ منها ، والمواد المعاشية الموجودة في كلّ منها ، وكذلك كيفية ايصال هذه الارزاق الى المحتاجين ومطابقتها لحاجتهم ، فكلّ منها آية ودليل عن حكمة وعظمة الذات الالهية المقدسة .



توضيحات :

من عجائب عالم الارزاق .

حقاً لو تأملنا في النظام العجيب الموجود في ارتزاق مختلف الموجودات من المصادر الطبيعية ، لتجلّت لنا امورٌ لطيفةٌ ومدهشة عن قدرة الخالق جلّ وعلا .

الأمر الاول منها هو لماذا لا تقلص كمية المواد الغذائية الموجودة على الارض مع قتلها واستفادة الناس والحيوانات على مدى آلاف الآلاف من السنين؟! كيف لا تنتهي هذه المائدة الممتدة في كل مكان؟!

حينما نتأمل جيداً نرى انّ المواد الغذائية في هذه الدنيا لها شكلٌ خاص بحيث لو استُفيد منها لملايين الملايين من السنين ، لم ينقص منها بقدر رأس الابرة ،

وهذا بسبب « حركتها الدائرية » ، فمثلاً أنَّ المياه تتبخر من البحر ثم تظهر على هيئة غيومٍ وامطارٍ ، فيهطل قسمٌ من ماء المطر الى البحر ثانيةً ، والقسم الآخر يصبحُ جزءاً من جسم الانسان والحيوانات والنباتات ويتبخر وينتشر في الجو ، وتستمر هذه الحركة الدائرية دائماً .

فالاشجار تمتص المواد الغذائية من الارض وتتكون الفروع والاوراق ، ثم تتساقط الاوراق وتتفسخ وتتحول فيما بعد الى سمادٍ ومواد غذائيةٍ لنفس الاشجار ، وتستفيد الحيوانات من المواد الغذائية ثم تُصبحُ تراباً ، وجزءاً من المواد الغذائية في الارض .

ويتنفس الانسان والحيوانات غازَ « الاوكسجين » ويطرح غاز « ثاني اوكسيد الكربون » ، ولكن الاشجار على العكس من ذلك فهي تأخذ غاز « ثاني اوكسيد الكربون » وتطرح غاز « الاوكسجين » ، ويتكرر هذا التبادل دائماً ، هنا نشاهد أنَّ هذه المائدة الالهية السرمدية مبسوبة باستمرار لتجلس كافة المخلوقات اليها للارتزاق منها دون ان يصيبها النقصان .

وكيفية إعداد الرزق للحيوانات عجيبةٌ ايضاً ، فالبعض يتغذى على النباتات والرطوبة الموجودة على الارض ، وبعض يحصل على غذائه من الماء « النباتات العائمة » وبعض من الجو ، وبعض عن طريق الالتحام بنباتاتٍ أخرى « كبعض الطفيليات » وتعيش حيوانات اعماق البحار في مكانٍ لا ينمو فيه نباتٌ ابداً ، لأنَّ اشعة الشمس تتلاشى تماماً في عمق ٦٠٠ - ٧٠٠ م ثم يسود ماء البحر بعدها ليلاً حالكٌ وسرمديٌّ ، إلا أنَّ الباري تعالى يهيء ويعدُّ رزقها على سطح البحر ويرسله اليها في اعماق البحر ، فالنباتات التي تنمو بكثرة على سطح البحر وسط الامواج تصبحُ ثقيلة وتهبط الى قاعه بعد نضوجها وتخصيص قسم منها للموجودات الحية على سطحه ، وكذلك تنزل بقايا الموجودات التي تعيش على سطح البحر على هيئة

مائدة سماوية الى الموجودات في قاعه .

فقد تُصبحُ الطيورُ طُعمَةً لأسماك البحر، واسماك البحر طُعمَةً للطيور، وقد يجعل النباتات غذاءً للحيوانات، او الحيوانات غذاءً للنباتات التي تأكل اللحوم! وقد يصنع من فضلات ولعاب بعض الموجودات غذاءً لذيذاً لموجودٍ آخر (كما في بعض حيتان البحر حيث تخرج الى ساحل البحر بعد تغذيتها على اسماك البحر المختلفة، فتبقى الفضلات بين اسنانها، فتفتح فمها الذي يشبه الغار، فتدخلُ مجموعةً من طيور الساحل الى فمها وتقوم باخراج اللحوم المتبقية من بين اسنانها وتتخذها طعاماً لذيذاً لها، فتقوم بدور المسواك في تنظيف اسنان هذا الحيوان، الذي لا يسيء ردّ الجميل، فلا يُطبقُ فاهُ حتى خروج آخر طيرٍ من فمه، وحينما ينتهي الأمر ويتخلص من المواد المزعجة، وتمتليء بطون الطيور من الطعام حينئذ يُطبقُ فمهُ ويتجه نحو أعماق البحر.^(١)

وباختصار: كلما دققنا في هذه المسألة اكثر، سنحصل على نقاطٍ جديدة في مجال علمٍ وحكمة الخالق جلّ وعلا، والتدبير الذي صُرف في مجال الارزاق، بشكلٍ لا يبقى مجالاً لأي نوع من الصدفة.

يكفينا التأمل في وضع الانسان خلال المراحل الثلاث: الجنين، الرضاعة، و الأكل، كيف ان الله تعالى وضع في متناوله ما يناسب حاله في كلّ واحدةٍ من هذه المراحل الحساسة بدون نقص، فيتغذى طيلة مكوثه في رحم الام عن طريق جهاز الحبل السري المعقّد والارتباط المباشر بدم الام، وبعد الولادة، عندما لا توجدُ اسنانٌ لمضغ الطعام، ومعدته وامعاؤه غير مستعدةٍ لاستقبال الطعام، يهييء له ثدي

(١) يضيف الفخر الرازي في تفسيره ضمن اشارته المختصرة لهذا الموضوع، انه على رأس هذا الطائر شيء يشبه الشوك، فلو قرر التمساح ابتلاع هذا الطائر فسيؤلمه ذلك « تفسير الفخر الرازي ج ٢٤ ص ١١ ».

امه المليء بالحليب ، غذاء مناسب ، غني بكافة المواد الغذائية ، معتدل الحرارة ، لا تغلب عليه الحلاوة أو الملوحة ، ولا يحتاج الى مضغ ونشاط لمعدته كي تهضمه . وفي المرحلة الثالثة ، يضع في متناوله انواعاً من الاطعمة « المناسبة » ، فلو لم تكن اطعمة الانسان وباقي الحيوانات « ملائمة » ويكون مجبوراً على تناولها كالدوية المرّة ، فايّ مآزق سينشأ في حياته ، ألا يفنى معظم الناس بسبب عدم توفر الطعام السليم لهم ؟

ومن جانب آخر ، فقد أودع في الانسان الشعور بالجوع والعطش ، كي ينجذب نحوهما بشكل آلي عندما يحس بالحاجة الى هاتين المادتين الحيويتين ، فتأملوا ما يحصل لولا هذا الشعور ؟!

وكما يقول الامام الصادق (عليه السلام) في الحديث المعروف عن المفضل : « فكّر يا مفضل في الافعال التي جعلت في الانسان من الطعام والنوم والجماع وما دبّر فيها فانه جعل لكل واحد منها في الطباع نفسه محرّك يقتضيه ويستحث به فالجوع يقتضي الطعام الذي به حياة البدن وقوامه والكرى تقتضي النوم الذي فيه راحة البدن وإجمام قواه والشبق يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاؤه ، ولو كان الانسان انما يصير الى اكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه اليه ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره الى ذلك كان خليقاً ان يتوانى عنه أحياناً بالثقل والكسل حتى ينحل بدنه فيهلك ... ، فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الافعال التي بها قوام الانسان وصلاحه محرّك من نفس الطبع يحركه لذلك ويحدوه عليه » .^(١)

لهذا تُعتبر الرغبةُ في نوعٍ من الطعام بالنسبة للصحاء من الناس دليلاً على حاجة الجسم الى ذلك الغذاء على نحو الخصوص ، ويجب على مثل هؤلاء الاشخاص كذلك النزول عند هذه الرغبات الداخلية ؛ يقول العالم الروسي المعروف « باولف » : « إنَّ الغذاء الطبيعي والمفيد ، هو الغذاء الذي يؤكل بشهيةٍ وتلذذٍ » .

ولهذا ايضاً لا معنى للالتزام بنظامٍ خاصٍ في الامتناع عن الاطعمة التي يرغب الانسان بتناولها لأن تلك الرغبة تعتبر بحد ذاتها افضل دليل على حاجة الجسم لها . ما هذه التركيبات المحبوبة التي تحدّد بنفسها نوع حاجتها ، ووقودها ، وصنعها ؟ وبمجرد أن يحصل نقصٌ توقظ شعورَ الانسان وتدفعه نحو ذلك ؟ هل يمكن حمل مثل هذه الامور على الصدفة ؟ وهل هنالك امكانية لوجود مثل هذا البرنامج المنظم لولا وجود عقلٍ وتدبيرٍ واسعٍ ؟

* * *

٢ - هل انَّ الرزق مقسومٌ ؟

وردت هذه النكتة في بعض الآيات اعلاه وهي انَّ رزقَ كُلِّ دابةٍ على الله ، وقد تكفلَ الله به ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... ﴾^(١) .
وورد في بعض آخر ان سعة الرزق وضيقه مشيئة الهية^(٢) .
وأشير الى هذا المعنى في الروايات ايضاً ، فيقول امير المؤمنين (عليه السلام) : وقدَّر الارزاقَ فكثُرَها وقلَّلَها وقسَّمَهَا على الضِّيقِ والسَّعةِ^(٣) .

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام) نقرأ في حثِّه على طلب العلم إذ يقول :

(١) (هود الآية : ٦) .

(٢) (الروم الآية : ٣٧ وآيات اخرى) .

(٣) نهج البلاغة خطبة ٩١ .

إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجَبُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ ، إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَّمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَمَّنَهُ وَسَيَفِي لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَخْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ قَدْ أُمِرْتُمْ بِطَلَبِهِ .^(١)

والآن يبرز هذا التساؤل وهو لو كان الأمر كذلك فما هو مفهوم السعي والاجتهاد لطلب الرزق والتخطيط لتحسين الوضع الاقتصادي للمجتمع ؟ ولكن من خلال التمعّن في الآيات والروايات فيما اذا جُمعت مع بعضها يتضح الجواب على هذا السؤال بأنّ المقصود من ضمان الرزق من قبل الله تعالى وتكفله والتزامه بتقسيمه هو اعداد الارضية اللازمة ، ومتى ما تظافرت الارضية الخارجة عن طاقة الانسان ، والاستعدادات الموجودة في ذاته ، يستلم الانسان نصيبه من الرزق .

وهذا يشبه تماماً رواتب العاملين في مؤسسة ما والتي يحددها المدير إلا أنّه لا يجلب تلك الرواتب الى بيوتهم بل يجب عليهم أن يعملوا ، ثم يذهب كلّ منهم لملء بطاقة راتبه ليستلمه .

ولا يجب نسيان هذه الحقيقة بأنّ الله تعالى ومن اجل أن لا يضع الناس في «عالم الاسباب» ويعتبروا أنّ حاصل الرزق يأتي عن طريق السعي والاجتهاد فقط ، فهو يوصل الرزق احياناً لاناس لم يبذلوا جهداً جهيداً وقد يسلب الرزق من اشخاص مجتهدين كي يوضح أنّ وراء هذا العالم قدرة اخرى (ولكن يجب ان لا ننسى انّ هذا مجرد استثناء ، واما القاعدة الاساسية فهي السعي والاجتهاد) .

ولعلّه لهذا الأمر ورد في حديث عن الرسول (ﷺ) انه قال :

واعلموا انّ الرزقَ رزقان : فرزقٌ تطلبونه ورزقٌ يطلبكم فاطلبوا ارزاقكم من حلال ، فانكم ان طلبتموها من وجوها اكلتموها حلالاً وإن طلبتموها من غير وجوها

اكلتموها حراماً^(١).

هذا الفارق في الرزق يعتبر في الواقع دليلاً على الجمع بين الآيات والروايات التي تعتبر الرزق مُقَسَّمًا ومضموناً، والروايات التي تعاكسها، التي تعتبر الجِد والاجتهاد والمثابرة شرطاً للاستفادة من الرزق^(٢).

بالإضافة إلى أن التعرف على هذا الاختلاف في الرزق يدفع الحريصين إلى التخلي عن حرصهم، ولا يتلوث المؤمنون بتحصيل الرزق من الحرام، ولا ييأس المحرومون أيضاً.

* * *

٣- إذا كان الرزق مضموناً للجميع فلماذا يموت البعض جوعاً؟

في الآيات اعلاه تتجسد هذه الحقيقة جيداً بأن الله تعالى قد تكفل برزق جميع الموجودات الحية، وإيصاله إليها أينما كانت، ولكن يبرز هذا السؤال وهو: لماذا ماتت وتموت مجاميع من الناس جوعاً الآن وعلى طول التاريخ؟ ألم يؤمن رزقها؟!.

في الرد على هذا التساؤل يجب أخذ النقاط الآتية بنظر الاعتبار: أولاً: أن تأمين وضمنان الرزق لا يعني اعداده للإنسان العاقل والمكلف وإرساله إلى بيته، أو وضعه في فمه كاللقمة، بل قد أعدت الأرضية اللازمة، وسعي الإنسان واجتهاده يعتبر شرطاً لتحقيق هذه الأرضية وإيصالها إلى مرحلة الفعل، حتى مريم (عليها السلام) عندما كانت في ذلك الوضع الصعب وفي تلك الصحراء القاحلة حيث هيا لها الله

(١) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٢٩.

(٢) من أجل التعرف على هذه الروايات يراجع المجلد ١٢ من وسائل الشيعة كتاب التجارة ص ٩ و ١٦ و ١٨ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦.

تعالى رزقها رطباً جنباً على جذع النخلة أمرها بأن تسعى وخاطبها: ﴿وَهْزِي إِلَيْكَ
بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

ثانياً: لو أنّ الناس - في الماضي والمستقبل - يقومون بهضم حقوق الآخرين
ويسلبون أرزاقهم ظلماً فهذا ليس دليلاً على عدم تأمين الباري تعالى للرزق،
وبتعبير آخر: إضافة إلى مسألة السعي والاجتهاد فإن وجود العدالة الاجتماعية يعتبر
سراً في التوزيع العادل للارزاق، وإذا قيل: لماذا لا يمنع الله ظلم الظالمين؟ نقول:
أنّ أساس حياة البشر يقوم على الحرية وليس على الاجبار والاكراه كي يخضع
الجميع للامتحان، وإلا فلا يحصل التكامل « تأمل جيداً ».

ثالثاً: هناك مصادر كثيرة لتأمين طعام البشر على هذه الكرة الأرضية وغيره
يجب ان تكتشف وتستخدم بذكائهم ومعرفتهم، وإذا قصر الانسان في هذا المجال
فالذنب ذنبه.

لا يجب ان ننسى ان بعض مناطق افريقيا التي يموت شعبها جوعاً تعتبر من
اغنى مناطق العالم، إلا أنّ العوامل المدمرة التي اشرنا اليها آنفا جعلتهم يهيمنون في
ليلٍ مظلم.

نختتم هذا البحث المختصر بحديثٍ عن الامام علي (عليه السلام) ورد في نهج
البلاغة، يقول:

انظروا الى النملة في صغر جُثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا
بمُستدرك الفكر كيف دبّت على ارضها، وصُبّت على رزقها تنقل الحبة الى جحرها
وتُعدها في مستقرها، تجمع في حرّها لبردها، وفي وريدها، لصدرها^(١).

* * *

٤ - سعة الرزق وضيقه :

وردَ في الآيات اعلاه أنَّ الله تعالى يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويضيِّقه على مَنْ يشاء ، وهذا التعبير الذي تكرر في آياتٍ عديدةٍ يمكنُ ان يُوجدَ هذا الخلط وهو أنَّ نظام الرزق خارجٌ عن ارادة الانسان بشكلٍ كامل ، طبقاً لذلك فلو تَنَعَّمَ قومٌ وحُرِّمَ آخرون فهذه مشيئة الله وليس ما كسبته ايدينا وليس لنا حول ولا قوة ! ويُمكن ان يكون هذا مكسباً جيداً لأولئك الذين يضعون علامات استفهامٍ على اصل الدين ويعتبرونه وليداً للحركات والمشاريع الاستعمارية .

ولكن لو تأملنا في هذه الآيات والروايات وفكّرنا في اسباب ضيق الرزق وسعته لتجلى لنا تفسير هذه الآيات واسرارها وسيستأصلُ مريدوا تلك الافكار الهدامة ، ونتوصل الى امور مهمة وقيمة للغاية .

لقد قلنا مراراً أنَّ التعبير بـ « الارادة الالهية » لا يعني الارادة التي تخلق من الحساب و الكتاب ، بل الارادة الممتزجة بـ « الحكمة » .

إنَّ حكمة الله تقتضي ان من يسعى ويجتهد ويُخلص ويُضحى اكثر يكون رزقه اوسع ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾^(١) .
و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ ﴾^(٢) .

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾^(٣) .

(١) (النجم الآية : ٣٩) .

(٢) (المدر الآية : ٣٨) .

(٣) (الطلاق الآية : ٢) .

فالتقوى تؤدي الى سيادة العدالة الاجتماعية ومن ثم تؤدي الى سعة الرزق ، كما ان السعي والمثابرة تُعدُّ الارضية اللازمة للازدهار الاقتصادي وتعتبر سبباً في سعة الرزق ، وبناءً على ذلك فانَّ التعاليم اعلاه ونظراً لجذورها واصولها لا تعتبر سبباً في الخمول وترك السعي ، بل انها من العوامل المؤثرة في السعي والاجتهاد .
والشاهد هو هذا الحديث القيم الذي نُقل عن الامام علي (عليه السلام) ، حيث يقول :

إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمَّا اِزْدَوَجَتْ اِزْدَوَجَ الْكَسَلُ وَالْعَجْزُ فَتَنَجَا بَيْنَهُمَا الْفَقْرُ^(١) .

نعم .. ففقر كل قوم ، نتيجة مباشرة لضعفهم وخمولهم ، وقد اقتضت الحكمة الالهية أن يضيق الرزق على مثل هؤلاء .

انَّ التأمُّل في اسباب ضيق وسعة الرزق في الروايات شاهدٌ ناطقٌ آخر على القول السابق .

ومن جملة الامور التي ذكرتها في الروايات كاسباب لسعة وبسط الرزق ما يلي :

صلة الرحم ، نظافة الدار والأواني والجسم ، مواساة المسلمين ، السعي مبكراً لطلب الرزق ، شكر النعمة ، الاقلاع عن البخل ، اجتناب اليمين الكاذبة ، الاستغفار والتوبة من الذنوب ، حسن النية في الاعمال ، الاحسان الى الجيران وذكر الله^(٢) .
نقرأ في حديث عن النبي (ﷺ) : طيبُ الكلام يزيدُ في الارزاق^(٣) .

(١) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٣٨ .

(٢) بحار الانوار ج ٧٣ ص ٣١٤ (باب ما يورث الفقر والغنى) و « سفينة البحار » ج ١ ص ٥١٩ و ٥٢٠ .

(٣) ١ و ٢ و ٣ المصدر السابق .

وجاء في حديثٍ عن امير المؤمنين (عليه السلام): في سعةِ الاخلاقِ كنوز الارزاق^(١).
وورد في حديثٍ آخر عن الامام الصادق (عليه السلام): كَثْرَةُ السُّحْتِ يَمْحَقُ
الرِّزْقُ^(٢).

(١) ١ و ٢ و ٣ المصدر السابق .

(٢) ١ و ٢ و ٣ المصدر السابق .

١٧- آياته في خلق الطيور

تمهيد :

لقد عشقَ الانسانُ على مرّ التاريخ الطيورَ وتمتّع بتربيتها ومشاهدتها تُحلّق فوقَ رأسه في السماء بشكلٍ جميلٍ ، وكانت هذه الظاهرة تبعث على دهشته دائماً ، وهي كيفية امكان أن يحلّق جسم ثقيل في السماء ويتحرك بتلك السرعةِ خلافاً لقانون جاذبية الارض ؟ ! .

وليست هذه الصفة فقط بل صفات اخرى كالريش وجناح الطيور ، التغريد اللطيف لبعضها ، طراز بناء البيت والعش ، تربية الفراخ واطعامها ، الهجرة الطويلة لقسمٍ منها ، وامور اخرى من هذا القبيل كانت مصدراً لدهشته ، بالرغم من ان تكرار هذه الحالات المثيرة أدّى - وبالتدرج - الى أن يمرّ بعض الناس عليها مرور الكرام . وقد اشار القرآن الكريم في جانبٍ من آيات التوحيد الى هذه المسألة ، ودعا الجميع الى مشاهدة عالم الطيور ، كي يَرَوْا آيات وبراهين الباري تعالى .

بهذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات الآتية .

١ - ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) .

٢ - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ ^(٢) .

٣ - ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ

(١) (النحل الآية : ٧٩) .

(٢) (الملك الآية : ١٩) .

صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ^(١) .
 ٤- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ
 مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ^(٢) .

* * *

شرح المفردات :

﴿طَيْر﴾ جمع «طائر» وتُقال لكل حيوان ذي جناح وريش، ويحلّق في الهواء، ومصدرها «الطيران»^(٣) و «تَطَيَّر» تقول لطالع السوء الذي كانوا يستلهمونه في الجاهلية من حركة الطيور، ولكن أطلق فيما بعد على كل أشكال التشاؤم وسوم الطالع.

كما جاء لفظ «تَطَائِر» بمعنى الحركة بسرعة ايضاً^(٤).

﴿صَافَات﴾ من مادة «صف» وتعني وضع الاشياء في خطٍ مستقيم، كالناس أو الاشجار حينما يكونون في خطٍ واحد، فعندما يُطلق هذا اللفظ وصفاً أو حالاً للطيور ﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ﴾ فهو اشارة الى بسط الاجنحة في السماء اثناء الحركة، ويعاكسها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾.

ولفظ ﴿إِصْطَفَافٍ﴾ كناية عن التسليم والطاعة المحضة والخضوع التام، واطارة للخدم الذين يقفون في صفٍ واحد استعداداً لتقديم الخدمة^(٥).

(١) (النور الآية : ٤١).

(٢) (الانعام الآية : ٣٨).

(٣) وقد قالوا ان مصدر هذا الفعل «طَير» ايضاً، وطيور جمع الجمع (جمع طَير) وذكر بعضهم ان «طيور» جمع «طائر».

(٤) مفردات الراغب، لسان العرب، كتاب العين، ومجمع البحرين.

(٥) «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» و «مفردات الراغب».

وبطبيعة الحال ان احتمال ﴿وَالطَّيْرَ صَافَاتٍ﴾ اشارة الى مجموعة من الطيور التي تتحرك بشكل جماعي في صف أو عدة صفوف حيث تلفت الانتباه بتناسقها وارداً ايضاً، إلا ان عبارة ﴿ويقبضن﴾ تمنع هذا التفسير.

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الطيرُ يُسَبِّحُ وأنا صامت

يقول في الآية الاولى مؤكداً على ان تحليق الطيور في جو السماء خلافاً للجاذبية هو آية من آيات الله ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾^(١).

ونظراً لطبيعة الاجسام في الانجذاب نحو الارض فان حركة الطيور في اعالي الجو تبدو شيئاً عجيباً، ويجب أن تؤخذ مأخذ جد، فمن المسلم به ان هناك مجموعة من المزايا لدى الطيور تمكنها من الطيران بيُسْرٍ في السماء مستثمرة مختلف القوانين الطبيعية المعقدة، إنه لشيء يبعث على الدهشة بلا شك.

ان لهذا الميدان العجيب والقوانين التي تسبب هذه الظاهرة المدهشة رباً قادراً حكيماً مطلعاً على اسرار العلوم، بل ليست العلوم إلا شيء من القوانين التي وضعها، لهذا يقول في سياق الآية: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ويضيف في ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وسنرى في الايضاحات التي ستأتي في نهاية هذه الآيات - ان شاء الله - ما هي القوانين التي يجب أن تتطافر كي تحصل هذه الظاهره التي تدعى «الطيران»، لذلك

(١) لقد اتخذ بعضهم لفظ «جَوْ» بمعنى الفضاء الذي يحيط بالارض، وبعض بمعنى «الهواء» قريباً كان ام بعيداً عن الارض، ولكن يبدو ان ما يستعمل عادة هو المعنى الاول، وهو الذي يناسب الآية اعلاه حيث يمكن ان يكون مصدراً للاعجاب.

نواجه في كل خطوة آية جديدة من آيات مبدىء الوجود العظيم .

* * *

والآية الثانية تتشابه مع الاولى من عدة وجوه، إلا أنه يُلاحظ فيما بينهما اختلافات ايضاً، ففي هذه الآية يدعو الناس (لا سيما المشركين) الى تفحص اوضاع الطيور، هذه الموجودات التي تنطلق من الارض خلافاً لقانون الجاذبية، وتتحرك بسرعة بكل يسر في جو السماء لساعاتٍ واحياناً لاسابيع، وحتى احياناً لعدة شهور بدون توقف، حركة رقيقة وسريعة، بنحو يبرهن على انها لا تواجه مشكلة في عملها.

فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾^(١).

فلا أحد سوى الرحمن الذي عمّت رحمته كل شيء، يستطيع أن يمسكهن هناك: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾.

أجل.. الله الذي منحها كل ادوات الطيران، وعلمها طريقته واسلوبه، كما وضع قوانين وانظمة تستفيدها فتحلق بيسر وسهولة. فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكل شيء ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ﴾.

وابتداءً من الذرات حتى المنظومة الشمسية، والمنظومات الاخرى الجبارة، ومن النباتات والحيوانات المجهرية، حتى الموجودات العملاقة، الكل والكل يستمر في وجوده بتدبيره جلّ وعلا، التدبير الذي يُطلعنا في كل مرحلة منه على آية جديدة من علمه وقدرته تبارك وتعالى، وينفي كل اشكال الاحتمال بوجود الصدفة وقدرتها على الخلق، ويملأ القلب بحبه والايمان به.

ويمكن ان يكون التعبير بـ ﴿صَافَاتٍ﴾ و ﴿يَقْبِضْنَ﴾ اشارة الى وضع الطير،

(١) يقول بعض المفسرين لو تعدت «الرؤية» بـ «الى» فهي تعني الرؤية الحسية، واذا تعدت بـ «في» فهي تعني المشاهدة القلبية والمطالعة العقلية (روح البيان ج ١٠: ٩١).

حيث يبسطنَ أجنحتهنَّ تارةً، ويجمعنَّها أخرى، ويقدرنَّ على الطيران من خلال هذين الفعلين، ويردُّ هذا الاحتمال ايضاً بأن يكون إشارة الى صنفين من الطيور: الطيور التي غالباً ما تكون اجنحتها مبسوطة، وتركبُ امواج الهواء، وفي نفس الوقت تسيرُ في كلِّ اتجاهٍ بسرعة، فكأنما هناك قدرةٌ خفيَّةٌ تُحرِّكُها لا نراها باعيننا، والطيور التي تخفق اجنحتها باستمرار اثناء طيرانها، ولبعض الطيور حالةٌ وسطٌ بين هاتين الحالتين اثناء الطيران^(١).

* * *

وفي الآية الثالثة نواجه صياغة جديدة بصدد الآيات التوحيدية لحياة الطيور اذ يخاطبُ النبي (ﷺ) قائلاً ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ ۖ﴾.

الطيور التي تتحرك في الجو صفوفاً، بجلالٍ وعظمةٍ وجمال ولا تتعبُ العين من مشاهدتها ابداً، فهي ترسمُ اشكالاً هندسيةً مختلفة على صفحة السماء بحيث تذهلُ الانسان، اذ قد تطير المئات بل الآلاف من الطيور وتغيّرُ طريقها باستمرار من خلال أمرٍ خفيٍّ من دون أن يحدث اصطدامٌ فيما بينها.

ويضيف في سياق الآية ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾^(٢).

(١) لماذا جاءت « صافاتٍ » بصيغة الاسم الفاعل، و« يقبضنَ » بصيغة الفعل المضارع؟ وردت تفسيرات كثيرة أفضلها: يقال إنه عند انبساط الاجنحة يأخذ وضع الطائر نسقاً واحداً، بينما يتكرر رفيف اجنحته عند خفقانها، وهذا ما يناسب الفعل المضارع ويكسبه صفة الاستمرارية. وذكر تفسير آخر في «الكشاف» وأيده بعض المفسرين: بأن منشأ هذا التفاوت ينبع من أن الطيران هو الحالة الاصلية الاولى للطيور، والحالة الثانية هي عرضية. غير أن الغموض يكتنف هذا التفسير.

(٢) هنا حيث يعود الضمير في « عَلِمَ » الى « الله » او الى « كلِّ » هنالك جدالٌ بين

نعم.. فلكل منها صلاة وسر ودعاء وحاجات في عالمها الخاص، ولكل تسبيحه وتعظيمه وثنائه، ومن المعروف أن ذرات وجود أي منها وبناء مختلف أعضائه وحركاته وسكناته تُخبر عن مبدى عظيم يجمع كافة الكمالات ومُنزّه عن جميع النواقص، وهي دائماً التسبيح بحمده بلسان حالها.

ويعتقد بعضهم أن حمدّها وتسبيحها وصلاتها عن وعي، ويعتبرون لكل وجود حتى الذي نحسبه جماداً وبلا روح، عقلاً واحساساً، بالرغم من جهلنا به، كما نقرأ في مكان آخر: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١).

وكل تفسير من ذينك التفسيرين الصحيحين يصلح أن يكون شاهداً على ادعائنا بأن جميع الموجودات في هذا العالم، لا سيما الطيور التي تطير في جو السماء، آيات وبراهين على قدرة وعلم خالق الكون.

ويقول في نهاية الآية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

فهو يعلم كل أعمالهم ونواياهم وجميع حاجاتهم، وهنا لماذا استند في هذه الآية إلى بسط اجنحة الطيور فقط ﴿صافات﴾؟ لعل السبب هو هذا الوضع العجيب والمدهش حيث تستطيع أن تتحرك في جو السماء بسرعة بدون تحريك اجنحتها كما اشرنا إلى ذلك سابقاً.

والاحتمال الوارد أيضاً هو أن الطيور تتحرك في السماء بشكل جماعي بنحو يبعث على الحيرة، حركة هندسية منظّمة، متناسقة تماماً، وبلا قيادة

→ المفسّرين، ولكن ما يناسب وضع الآية هو ان يعود الضمير الى «كل» فيعني:

«كل واحد» أي أن كل واحد من موجودات الارض والسماء والطيور يعرف صلاته وتسبيحه جيداً.

(١) (الاسراء الآية: ٤٤).

ظاهرة.

* * *

واشار في الآية الرابعة والاخيرة من البحث الى مسألة جديدة اخرى من عجائب عالم الطيور فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

والتعبير بـ ﴿أُمَمٌ﴾ جمع «أمة» يدل على أنّ لها عقلاً واحساساً في عالمها، والتعبير بـ ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ يؤكد هذا المعنى ايضاً، لأنها تشابه الانسان في مسألة الادراك والفهم والشعور، وهذا تأكيد مجدد للتفسير الذي ورد في الآية السابقة، بأنّ لها تسبيحاً ودعاءً عن وعي في عالمها الخاص بها^(١).
انّ القرائن المتوفرة لدى الطيور، وباقي الحيوانات، تؤيد بانها ذات ذكاء وشعور.

لأنّ: أولاً: الكثير من الحيوانات تعمل بمهارة ودقة في بناء بيوتها وجمع غذائها وتربية فراخها، ورعايتها، وسعيها لسد حاجات حياتها الاخرى بدقة ومهارة لا يُصدق معها، صدور هذا العمل عن غير عقل وشعور؟.

وهي تبدي ردود فعل مناسبة ازاء الاحداث التي لا تمتلك تجربة سابقة حيالها، فمثلاً نرى أنّ الخروف الذي لم يَرِ ذئباً طيلة حياته له وعي كامل عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسه بكل وسيلة يستطيعها.

لقد قاموا بتربية الحيوانات من اجل غايات مهمة، كالطيور التي تنقل الرسائل، والحيوانات التي تُرسل الى السوق للشراء، وحيوانات الصيد، وكلاب

(١) لقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير تشبيهها بالانسان حيث يبدو أنّ ما اوردناه اعلاه اكثر تناسباً بالرغم من عدم وجود تعارض بين هذه الاحتمالات يراجع تفسير المنارج ٧ ص ٣٩٢ وتفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٤١٧.

الشرطة التي تستعمل للكشف عن المخدرات ، وملاحقة المجرمين وامثال ذلك ، فترى هذه الحيوانات بنحوٍ قد تكون افضل واكثر ذكاءً من الانسان في انجاز مهمتها ، حتى في هذا العصر الذي تنوعت فيه معدات كشف الجرائم لم يجدوا في انفسهم غنى عن هذه الكلاب !.

خصوصاً ان بعض الحيوانات كالنحل والنمل والأرضة ، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة ، وبعض حيوانات البحر كالاسماك الحرّة التي تقطع آلاف الأميال في اعماق البحر باتجاه منشئها الاصلي اثناء وضع البيوض ، تعيش حياةً دقيقةً ومليئةً بالاسرار بحيث لا يمكن نسبتها الى الغريزة ، لأن الغرائز تُعتبر عادةً مصدراً للأعمال ذات النسق الواحد ، في حين ان حياة هذه الحيوانات ليست كذلك ، وعمالها دليل على فهمها واحساسها النسبي .

يقول مؤلف تفسير «روح المعاني» :

انا لا أرى مانعا من القول بأن للحيوانات نفوساً ناطقة وهي متفاوتة الادراك حسب تفاوتها في افراد الانسان وهي مع ذلك كيفما كانت لا تصل في ادراكها وتصرفها الى غاية يصلها الانسان والشواهد على هذا كثيرة وليس في مقابلتها دليل يجب تأويلها لأجله^(١) .

والظاهر أن مقصوده من الشواهد هذه التلميحات أو التصريحات التي جاءت في القرآن الكريم في قصة «الهدد وسليمان» وكذلك «النملة وسليمان» ، وكذلك الروايات التي نُقلت في تفسير آية البحث بأن الحيوانات تُحشَرُ وتُنشَرُ وتحاسبُ يوم القيامة ايضاً^(٢) .

ولكن على اية حالٍ فسواء كانت اعمالها وتصرفاتها ناتجة عن عقلٍ واردةٍ أو

(١) تفسير روح المعاني ج ٧ ص ١٤٧ .

(٢) «مجمع البيان» ج ٣ ص ٢٩٨ .

عن غريزة فلا أثر لذلك على بحثنا ، فهي بأيّ نحو آية من آيات الله وبرهان من براهين علمه وقدرته .

واللطيف انه يقول في نهاية الآية ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١) .
﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ .

والتعبير بـ « حَشَرَ » يشير ايضاً الى انها ذات عقلٍ و ارادةٍ نوعاً ما .
يُستفاد من الآيات اعلاه انّ الطيور ومن عدة جوانب تعتبر من آيات الله ولا يمكن نسبة هذه الظواهر الدقيقة والمعقدة والملبئة بالاسرار الى الصدفة العمياء والصماء أو الى الطبيعة الهامدة .



توضيحات :

١ - فنّ الطيران المعقّد :

منذ سنواتٍ والانسان يُفكر : ما هذه القوة الخفيّة التي تحمل الطيور الثقيلة نسبياً خلافاً لجاذبية الارض وتجعلها تطير بانسيابية ويُسرٍ ومهارةٍ في اعالي السماء ، وتنقلُ بسرعةٍ ؟ ولكن باختراع الطائرة وصناعتها تم اكتشاف هذا السربانّ هناك قوة تسمى (القوة الرافعة) تستطيع أن ترفع الاجسام الثقيلة جداً وتجعلها تطير في السماء ، فضلاً عن الطيور . ويمكن توضيح ذلك في عبارةٍ بسيطةٍ وخاليةٍ من المصطلحات الفنية بما يلي :

(١) « فَرَّطْنَا » من مادة « تفريط » أي التقصير في اداء العمل وتضييعه بنحوٍ يضيع (صاح اللغة) ويردّ هذا الاحتمال ايضاً بانّ المقصود من عدم التفريط في هذا الكتاب السماوي يعني انّ للقرآن مفهوماً جامعاً حيث يشمل كافة حاجات الانسان إلا انه نظراً الى ذيل الآية فإنّ المعنى اعلاه يعتبر اكثر مناسبة .

لو كان لجسم سطحان مختلفان (كاجنحة الطيور أو اجنحة الطائرة حيث يكون سطحها العلوي منحنياً وبارزاً، فلو تحرك هذا الجسم افقياً ستتولد قوة خاصة ترفعه إلى الأعلى، وهذا يعود إلى أنّ ضغط الهواء سيتضاعف على السطح السفلي أكثر من العلوي (لأنّ السطح العلوي أوسع من السفلي).

وتعدّ الاستفادة من هذا القانون السبب الرئيس في تحليق الاجسام الثقيلة في الجو، ولو تأملنا اجنحة الطيور جيداً للمسنا هذا القانون الفيزيائي بكل دقة.

غير أنّ هذه مسألة واحدة فقط من عشرات المسائل المهمة في الطيران، ومن أجل تصور أوسع له لابد من التطرق إلى الامور الآتية:

١ - السرعة الاولى لحصول القوة الرافعة (فالطائرة تسير وقتاً طويلاً على الارض للحصول على هذه السرعة، أما الطيور فقد تركض قليلاً أو بقفزة سريعة في الهواء فتصل إلى هذه الغاية!).

٢ - كيفية التحكم بهذه القوة اثناء الهبوط (وهذا الأمر يجري في الطيور والطائرة بتقليل السرعة وتغيير هيئة الجناح!).

٣ - كيفية تغيير الاتجاه اثناء الطيران (ويتم هذا الامر عن طريق الاستفادة من حركات ذيل الطائرة أو الريش الخاص في أذنان الطيور التي تحدث حركات في مختلف الاتجاهات وتسوق الطائر نحو أيّ اتجاه).

٤ - اتخاذ الشكل المناسب للطيران بالنحو الذي يوصل مقاومة الهواء على جسم الطائر إلى الحد الأدنى (وهذا الأمر تمّ تأمينه من خلال الهيكل المغزلي للطيور، والرأس البيضوي، والمنقار المدبّب والحاد، وهيئة الطائرة تقليد له!).

٥ - أدوات التنسيق مع الطيران (وهذا المعنى متوفر من خلال الريش الذي يسمح للطيور أن تسبح في الهواء، ووضع البيوض بدلاً من الحمل، كي لا يصبح جسمها ثقيلاً، والعيون الحادة حيث ترى الفريسة أو الصيد جيداً من مكان بعيد

وامثال ذلك).

٦ - لقد كان العلماء ولمدة من الزمن يلاحظون أنَّ عجلات الطائرات علاوة على تخفيفها لسرعتها فهي لا تخلو من الاخطار اثناء طيرانها، حتى شاهدوا الطيور تجمع ارجلها اثناء الطيران وتفتحها قبل الهبوط بقليل فادركوا أنه يجب الاستفادة من العجلات المتحركة التي تُجمع بعد الارتفاع، وتُفتح قبيل الهبوط !.

ولا عجب في اجراء العلماء لبحوث كثيرة ولسنواتٍ متماديةٍ على مختلف انواع الطيور مهتمين بكيفية الطيران، والهبوط، وشكل الاجنحة والأذنان، وقاموا بصناعة انواع مختلفة من الطائرات تقليداً لمختلف الطيور.

فهل يُمكن ان تكون الاسس الضرورية المذكورة في الطيران وليدة للطبيعة العمياء والصّماء؟ أوليس جملة ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ اشارة دقيقة وجميلة الى جميع تلك الاسس؟ لا سيما وان المعنى يتم بعد جملة ﴿أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بِصِيرٌ﴾.

* * *

٢ - «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة»:

للطيور انواع مختلفة وعجيبة، وبعضها اكثرُ عجباً، اذ يقول بعض العلماء: شوهده ٢٨٩ نوعاً من الحمام و ٢٠٩ انواع من الحجل و ١٠٠ ألف نوع من الفراشة لحد الآن^(١).

ويمكن ذكر «الخفاش» مثلاً من بين الطيور العجيبة، فهو يضجر من ضوء الشمس على عكس سائر الطيور، ويطير في ظلام الليل بكل شجاعةٍ وجرأةٍ وبأيّ

(١) يراجع كتاب «اسرار حياة الحيوانات» ص ١٤٢ الى ١٩٦.

اتجاه شاء ، وجسمه خالٍ من الريش تماماً واجنحته متشكلة من جلد رقيق ، وهو لبونٌ ولودٌ ، فيحيضُ ، ويأكل اللحم ، ويقالُ أنَّ الطيور تنصبُ له العداة ، كما انه يعادياها أيضاً ! لهذا فهو يقضي حياته منعزلاً .

وحركته السريعة والجريئة في ظلمة الليل من دون أن يصطدمَ بمانع تبعث على الحيرة ، فهو يمر من خلال انحناءاتٍ والتواءاتٍ كثيرة بدون أن يضل طريقه ، ويوفر طعامه بدقة اينما كان مختفياً ومن دون خطأ ، لامتلاكه لجهازٍ خفي يشبه « الرادار » .

فهو يرى باذنه « أجَلْ باذنه ! » لأنَّ الامواج الخاصة التي يصدرها من حنجرتة ويرسلها الى الخارج عبر انفه ترتطمُ بكل ما يصادفها وتعود ، وهو يلتقط الامواج المنعكسة باذنه ، ويتحسسُ الوضع في جميع الجهات فيتجنب العقبات .
أنَّ بناء حنجرتة وانفه واذنه عجيَّب ، دقيقٌ لا يوجد له مثيل في ايٍّ من اللبائن .

والامواج التي يرسلها الى الخارج هي امواج ما وراء الصوت ، التي لا نستطيع سماعها ، وفي كلِّ ثانية يرسل ٣٠ - ٦٠ مرّة الى كل الاتجاهات المحيطة به ويستلم ردّها .

لقد اجروا بحوثاً كثيرة حول « الخفاش » وألفوا مقالاتٍ عديدةً ، تتشكل منها دروس حقة لمعرفة الله .

ولهذا يتحدث أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة في خطبةٍ معروفةٍ باسم « خطبة الخفاش » عن هذا الحيوان ، ويبيِّن مهارته ودقته في بيانه العظيم والبليغ ، حيث يقول :

« من لطائف صنعته ، وعجائب خلقته ، ما أَرانا من غوامض الحكمة في هذه

الخفافيش ...»^(١) ثم يضيف بصدده قائلاً:

« وقيل من الحيوانات من يحتضن صغاره ، ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه وهو في حنوه عليه واشفاقه عليه وربما ارضعت الانثى ولدها وهي طائفة ...»^(٢).

ومن عجائب الخلق طائر آخر يُسمى « الطاووس » ، بريشه الجميل الذي تصيب الدهشة من يتمعن بألوانه ، فكأنما خرج لتوه من تحت يد رسّام ماهر مليئاً بالالوان الحيوية الزاهية الشفافة والجذابة ، مصففاً ريشه بمظلة عجيبة التي لا يمكن نسيانها ، ان ذلك لآية اخرى من آيات خلق الله .

لهذا أكّد معلّم التوحيد ومعرفة الله ، الامام علي (عليه السلام) في احدى خطب نهج البلاغة « خطبة الطاووس » على هذا الأمر قائلاً:

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّائِوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ ... وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصْبَهُ وَذَنْبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ إِذَا دَرَجَ إِلَى الْإِنْثَى نَثَرَهُ مِنْ طَيْهِ وَسَمَا بِهِ مِطْلاً عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قَلْعٌ دَارِي عُنْجَةٍ نَوْتِيَّةٍ يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ ...»^(٣).

و « الطيور المهاجرة » من اكثر انواع الطيور اثارة للدهشة ايضاً ، فهي تقطع احياناً كل المسافة بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي ، ثم تعود الى مكانها الاول ، قاطعة سفرأ طويلاً بعيداً قد يبلغ آلاف الاميال ، والعجيب انها تستخدم في هذه المسافة الشاسعة آلات خفية تستطيع بها تشخيص طريقها بين الجبال والغابات والصحارى والبحار .

والاعجب من كل هذا مواصلة طيرانها لعدة اسابيع بدون توقف ليلاً ونهاراً

(١) نهج البلاغة - الخطبة ١٥٥ .

(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٤٠٣ .

(٣) تراجع بقية هذا الحديث في الخطبة ١٦٥ من نهج البلاغة .

دون الحاجة الى غذاء ، لأنها تبدأ بالأكل قبل بداية سفرها - بدافع داخليّ - ، اكثر من الحد اللازم ، وتختزن هذه الاطعمة على هيئة دهوناً في جسمها ، كي تكتسب الطاقة اللازمة لهذا الطيران الطويل المستمر .

فهل تستفيد من الجاذبية المغناطيسية للارض من اجل تشخيص طريقها ؟ أو من استقرار الشمس في السماء والنجوم اثناء الليل ؟ وفي هذه الحالة يجب ان تكون هذه الطيور من الفلكيين المرموقين ، أو تستفيد من طريقة خفيّة اخرى نجهلها لحد الآن ؟

والأهم من ذلك انها تنام في السماء احياناً وهي طائرة وتواصل مسيرتها نحو هدفها ! كما انها تتوقع التحولات في الجو قبل حصولها من خلال تنبؤ ذاتي ، فتستعد للحركة .

لعلكم شاهدتم باعينكم انّ الطيور المهاجرة تتحرك بشكل جماعيّ وتُشكّل نسقاً على هيئة رقم (٧) ، فهل هذا حدث صدفة ؟ لغز اثبتت بحوث العلماء انّ الطير عندما يحرك جناحيه في الهواء فهو يخفضه مما يسهل عملية تحريك جناح الطائر الذي يليه ، لهذا فانّ الطيور حينما تتحرك بالشكل اعلاه قليلاً ما تتعب ، وتختزن كمية لا بأس بها من طاقتها ، فايّ معلّم اعطاها هذا الدرس الدقيق ؟

والاسماك تواصل سيرها اثناء رحلتها بصورة جماعية وعلى هيئة مخروط يكون رأسه الى الأمام ، فقد اثبتت بحوث المتخصصين في هذا المورد انّ سرعة الاسماك تتضاعف ستة مرات عن حركتها الانفرادية فيما اذا استخدمت هذا الاسلوب .

٣ - الطيور في خدمة الانسان والبيئة :

يقول أحد العلماء : انَّ شقاءَ وقسوة الانسان ، وغفلته وجهله لاحدٌ ولا عدٌّ لها ، فيجب ان يعلم انَّ قتلَ الطيور يكلفه هذه الخسارة الفادحة التي يتحملها ، ويحرُمُهُ عونٌ ونصرة اعزَّ واغلى الاصدقاء والرفاق في صراعه مع الحشرات الضارة . فللانسان طريقتان في صراعه مع الحشرات المهاجمة : احدهما الاسلوب البدائي وهو عبارة عن أخذ البركات من البساتين والمزارع وقتلها والقضاء على الجراد وحشرة المنّ ، عن طريق السموم ، والآخر الصراع العلمي عن طريق « البيولوجيا » بواسطة الفايروسات والطفيليات الخاصة التي يتم تكثيرها لهذا الغرض .

إلاَّ أنه يدفعُ ثمناً غالياً في هذين الاسلوبين من الصراع ويتحمل المتاعب والمشقة ، بينما لو ترك الطيور سالمةً ، وقام بتكثير الطيور التي تقتل الحشرات كالبوم ، وبعض الطيور التي تتغذى على الحشرات فستكون المكافحة أسهل وافضل (وارخص) .

يقول عالمٌ يدعى « ميشيل » : « لولا وجود الطيور ستصبح الارض فريسةً للحشرات » ، ويكتبُ آخرُ يُسمى « فابر » في تأييده : « لولا وجود الطيور سيقضي القحط على البشر » ! .

وتحدّثنا الاحصاءات ، بأنَّ لو حصلنا على حسابات دقيقة نسبياً عن معدل البرقات والحشرات التي تستهلكها الطيور الصغيرة سنوياً في طعامها وطعام فراخها فستتضح هذه المسألة كثيراً .

فهناك طيرٌ صغيرٌ يدعى « رواتوله » يأكل سنوياً « ثلاثة ملايين » من هذه الحشرات المهاجمة ! وهناك نوع من الطيور يُسمى « الطائر الازرق » يأكل سنوياً

« ستة ملايين ونصف المليون » من الحشرات ، ويستهلك « اربعاً وعشرين مليون » لاطعام فراخه التي لا تقل عادةً عن اثني عشر أو ستة عشر فرخ ...
والسنونو تطوي يومياً أكثر من ستمائة كيلو متر وتأكل « الملايين » من الذباب ،
وهناك طيرٌ يدعى « تروغلوديت » يتغذى على « تسعة ملايين » حشرة منذ أن يخرج من البيضة وحتى طيرانه من العش ! وغالباً ما يعتبر الناس أن الغراب الاسود مضرٌ ،
ولكن لو ذبحتم أحدها وتفحصتم حوصلته تجدونه مليئاً بنوع الديدان البيضاء^(١) .
هذا جانبٌ من خدمات الطيور للمزارعين والبيئة ، فافترضوا الآن لو أنها تأخذ نصيباً من محاصيلنا الغذائية الذي لا يساوي واحداً بالالف مما تستحقه من هدية !
فهل يؤدي بنا هذا الى اعتبارها حيواناتٍ ضارةٍ ومؤذية ؟
فَمَنْ أَوْدَعَ هذا التكليف لدى هذه الطيور بأن تتكفل بدورٍ مهمٍ بموازنة القوى في عالم الحيوانات والحشرات التي لها فوائدها ايضاً .

* * *

٤ - دروس التوحيد في وجود الطيور :

يقول الامام الصادق (عليه السلام) معلمُ التوحيد العظيم في الحديث المشهور

بـ « المفضل » :

(تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدّر ان يكون طائراً في الجو خفف جسمه وادمج خلقه فتقصر به من القوائم الاربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ، ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جَوْجُوٍّ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السفينة بهذه

(١) نظرة الى الطبيعة واسرارها ص ١٩٥ - ص ١٩٧ « مع الاختصار » .

الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكُسي كلة الريش ليدخله الهواء فيقله ، ولما قدّر ان يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الاسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعمه فلا ينسجج من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم ، ولما عدم الاسنان وصار يزدد بالحب صحيحاً واللحم غريضاً أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعام طحناً يستغني به عن المضغ ؛ واعتبر ذلك بأن عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الانس صحيحاً ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر ثم جعل مما يبيض بيضاً ولا يلد ولادةً لكيلا يثقل عن الطيران ...^(١) .

ثمّ يشرحُ الامام (عليه السلام) بعد ذلك ، الامور المهمة والدقيقة الاخرى حول الطيور حيث تُعرض عنها مراعاةً للاختصار .

١٨- آيَاتُهُ فِي حَيَاةِ النَّحْلِ

تمهيد :

انَّ حياة النحل من اكثر ظواهر الخلق دهشةً ، وقد اكتشفت عجائب عن حياة هذه الحشرة الصغيرة من خلال بحوث العلماء ، اذ يعتقد البعض ان حضارتها وحياتها الاجتماعية اكثر تطوراً من حياة الانسان ، فانتم لا تعثرون على أي مجتمع متطور قد حلَّ مشكلة « البطالة » و « المجاعة » بشكلٍ كاملٍ ، إلا انَّ هذه المسألة حُلَّت تماماً في بلاد النحل (خلايا النحل) ، فلا يُعثر في هذه المدينة على زنبور عاطلٍ عن العمل أو زنبور جائع ايضاً .

فبناء الخلية ، وكيفية جمع رحيق الورود ، وصناعة العسل وخزنه ، وتربية الصغار واكتشاف المناطق المليئة بالازهار ، واعطاء عنوان السكن لباقي النحل ، والعثور على الخلية من بين مئات أو آلاف الخلايا كل ذلك دليلٌ على الذكاء الخارق لهذه الحشرة .

إلا انَّ من المسلّم به انَّ الانسان لم يكن يمتلك مثل هذه المعلومات عن النحل سابقاً ، ولكن القرآن الكريم اشار في السورة المسماة باسم هذه الحشرة « النحل » باشاراتٍ مليئةٍ بالمعاني الى الحياة المعقّدة والملهمة لهذه الحشرة .

بهذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات الآتية :

١ - ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ .

٢ - ﴿ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

(١) يَتَفَكَّرُونَ ﴿

* * *

شرح المفردات :

﴿النَّحْلُ﴾ اسمُ زنبور العسل و «نِحْلَةٌ» (على وزن قِبلة) تعني العطاء بلا عوض ، ومفهومها محدودٌ أكثر من مفهوم الهبة ، لأنَّ «الهبة» تشمل العطاء بعوض وبغير عوض بينما تشمل النحلة العطاء بلا عوض فقط ، و «نحول» تعني الضَّعف ، تشبيهاً بُهزالِ زنابير العَسَلِ ، و «نواحل» تطلق على السيوف الحادة «الرفيعة» .

وقد يُحتمل ان المنشأ الاصلي لـ «نِحْلَةٌ» يعني العطاء ، واذا أُطلق على زنبور العسل «نحل» فلاَّه يصطحبُ معه عطاءً وهبةً حلوةً لعالم الانسانية .^(٢)

و «أَوْحَى» من مادة «وحي» ولها معانٍ كثيرة وقد ذكرنا شرحها في الجزء الاول من «نفحات القرآن» في بحث «مصادر المعرفة» ، واصلها يعني «الاشارة السريعة» وبالنظر الى أنَّ أمر الله تعالى فيما يتعلق بالنشاطات المختلفة والمعقَّدة للنحل قريب الشبه من الاشارة السريعة أو الالهام القلبي فهذا المعنى استُخدم ايضاً فيما يخص النحل ، لأنَّ جميع هذه الاعمال المعقَّدة قد تُنجز من خلال اشارة الهية سريعة .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

لنزور بلاد النحل :

لقد استند القرآن الكريم في آيات عديدة الى جوانب مختلفة من حياة النحل

(١) النحل الآية : ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) مفردات الراغب .

حيث كلٌ منها اعجبٌ من الآخر، فقد اشارَ اولاً الى مسألة بناء بيوتها، قائلاً: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾. وقد يكون التعبير بـ ﴿اتَّخِذِي﴾ بصيغة الفعل المؤنث إشارة الى أنَّ النحل عندما يهاجر لاختيار بيتٍ جديدٍ فهو يسير خلف «الملكة» التي هي بمنزلة القائد في الخلية، وعليه فإنَّ المتنفس الحقيقي هي «الملكة».

والتعبير بـ ﴿أَوْحَى﴾ تعبيرٌ جميلٌ حيث يبرهنُ على أنَّ الله تعالى قد علَّم هذا الحيوان طراز بناء البيت الذي يُعدُّ من اروع اعمال هذه الحشرة بواسطة الهام خفيٍّ وسيأتي شرحه في «التوضيحات» ان شاء الله، وهي تقوم بانجاز واجباتها على افضل وجهٍ وفقاً لهذا الوحي الالهي، فقد تختار صخور الجبال، أو بطون الكهوف لبناء بيوتها، وتضع الخلية بين اغصان الاشجار احياناً، وقد تستخدم الخلايا الاصطناعية التي يصنعها الانسان لها على القصب، أو انها هي التي تقوم ببناء البيت على القصب.

انَّ الفاظ الآية تدلُّ جيداً على أنَّ بناء البيت هذا ليس بناءً عادياً وإلا لما عبَّر عنه القرآن بالوحي، وسنرى عاجلاً أنَّ الأمر هكذا.

* * *

وفي الآية الثانية توجَّه نحو صناعة عسل النحل مضيفاً: أنَّ الله قد أوحى لها أن تأكل من جميع الثمار: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ «واقطعي الطرق التي يسرها وسخرها لك ربُّكِ لتكوين العسلِ الحلو» ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا﴾. ﴿سُبُلٌ﴾ جمع «سبيل» وتعني «الطريق اليسير»^(١).

وهنا: ما المقصود من هذه السُّبُل في الآية اعلاه؟ لقد أبدى المفسِّرون

(١) (كما اوردها الراغب في المفردات).

احتمالات مختلفة :

فقال بعضهم : المقصود هي الطرق التي يطويها النحل نحو الازهار ، والتعبير بـ « **ذُلِّلَ** » (جمع « ذلول » وتعني التسليم والطاعة) ^(١) يدلُّ على أنَّ هذه الطرق تُعَيَّنُ بدقة بحيث يكون ارتيادها سهلاً وعادياً للنحل ؛ وتؤيدُ دراساتُ خبراء النحل هذا المعنى ايضاً ، فهم يقولون :

تخرجُ مجموعةٌ من النحل مكلفةً بتشخيص مكان الازهار صباحاً ، من الخلية ، وبعد اكتشاف المناطق المليئة بالازهار ترجع ، وتعطي للباقيين العنوان الكامل لذلك المكان بشكلٍ سرِّيٍّ ومدَّهشٍ ، وقد تشخَّصُ الطريق بوضعها علاماتٍ عليه متكونة من موادٍ ذات رائحةٍ خاصةٍ ، وينحوُّ لا يضلُّ اية نحلة باتباعها .

وقال بعضهم الآخر ايضاً : ان المقصود هو طريق العودة الى الخلية ، لأنَّ النحلَ قد يُجْبَرُ على قطع مسافاتٍ طويلةٍ ، ولا يبتلى بالتعب عند عودته ، فهو يتجه نحو الخلية بدقة ، بل وانه يعثر على خليته بيُسْرٍ من بين عشرات الخلايا المشابهة . وقال آخرون : إِنَّ « **السُّبُلَ** » هنا لها معنى مجازياً فهي تشير الى الاساليب التي يتبعها النحل لاعداد العسل من رحيق الازهار ، فهي تمتص رحيق الازهار بنحوٍ خاص ترسله الى « حوصلتها » وهناك حيث تكون كمخبر للمواد الكيميائية يتبدل الى « عسلٍ » من خلال التغيرات والتطورات التي تجري عليه ، ثم يستخرجه الزنبور من حوصلته .

أجل .. انه يعرف الاسلوب اللازم لاجراء هذا العمل جيداً ، من خلال أمرٍ الهَيِّ فيسلكُ هذا الطريق بدقة .

ونظراً الى ان هذه التفسيرات الثلاثة لا تتعارض فيما بينها وكون ظاهر الآية

(١) من الممكن ان تكون « ذللاً » حالاً « سبل » ، او لـ « النحل » ، ويبدو إن الاحتمال الاول اكثر صحةً .

عاماً.

يمكن القول : بشمول جميع هذه المفاهيم ، اذ يقطع النحل هذه الطرق الملتوية والمنحنية بالاستفادة من الشعور الذي منحه الله له ، او بالالهام الغريزي ، ويستخدم هذا الاساليب بكل مهارة واقتدار .

وفي المرحلة الآتية اشار الى صفات « العسل » وفوائده وبركاته قائلاً : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ .

وقد حَمَلَ بعضهم التعبير بـ ﴿ بُطُونٍ ﴾ (جمع بطن) على معنى مجازي وقالوا : انها تعني الافواه ، وقالوا انَّ العَسَلَ الذي هو رحيق الازهار مخزون في فم النحل ثم ينتقل الى الخلية .^(١)

بينما يعتقد بعضهم انَّ العسل هو فضلات النحل !

ويعتبره بعضهم الآخر من المسائل الخفية التي لم تُكتشف لحد الآن .^(٢)

ولكن بحوث العلماء برهنت على عدم صواب ايٍّ من هذه الآراء - كما أشرنا - ، بل انَّ النحل يُرسلُ رحيق الازهار الى مكان خاص في جسمه يسمى « الحوصلة » وبعد أن يجري عليه تغييرات وتطورات يقذفه خارجاً من فمه .^(٣)

والتعبير بـ ﴿ بُطُونٍ ﴾ شاهدٌ على هذا المعنى ، واجلئ منه التعبير بـ « كُلي » ، لأنَّ العرب لا يقولون لحفظ الشيء في الفم « أكل » ابداً ، وحمل هذه الجملة على المجاز تفسيرٌ مجازيٌّ لا ضرورة له .

(١) مجمع البيان ج ٦ ص ٣٧٢ .

(٢) وفي « تفسير القرطبي » ، ينقل عن ارسطو انه صَنَعَ خَلِيَّةً من الزجاج كي يرى كيفية صناعة العسل غير انَّ النحلَ كان يُعْتَمُّ الزجاجاة لكي لا ينكشف السر حينما يريد مزاولته عمله (المصدر السابق ليرى) .

(٣) « تربية النحل » لمحمد مشيري ص ١١٣ وكتاب « نظرة على الطبيعة واسرارها ص

واما المقصود من «الوان مختلفة» هنا فهي ذات تفاسير متباينة ايضاً، فقد اعتبرها بعضهم بمعنى هذا «اللون» الظاهري الذي يتفاوت فيه العسل فبعضه ابيض شفاف، وبعض اصفر، والآخر احمر اللون، وبعضه يميل الى السواد، ويمكن ان يكون هذا التباين مرتبطاً باختلاف أعمار النحل، أو مصادر الازهار التي يمتصها، أو كليهما.

وقد أحتَمَل ايضاً ان يكون المقصود من هذا التفاوت (نوعية) العسل، فبعض كثيف، وبعض خفيف، او ان عسل الازهار المختلفة له آثار ومزايا مختلفة ايضاً، كما يختلف العسل العادي كثيراً عن «الشهد» (العسل الخاص الذي يُصنع لملكة الخلية)، لأنَّ المشهور أنَّ لـ «الشهد» قيمةً من الناحية الغذائية بحيث يزيد كثيراً في عمر الملكة ولو تمكَّن الانسان أن يتغذى عليها فإنَّها تترك أثراً عميقاً في طول عمره.

وفي بعض البلدان هناك حدائق من ورودٍ متشابهة حيث تُنصب فيها الخلايا الخاصة بالنحل، وبهذا تُستخلص انواع مختلفة من العسل كلٌ منها مستخرج من زهرٍ خاص، ويتمكن الراغبون من شراء العسل من الورد الذي يرغبونه، وبهذا نواجه الواناً مختلفةً من العسل تدخل في المفهوم الواسع والعام للآية.

والتعبير بـ «شراب» جاء لأنَّ العرب لا يستخدمون لفظ بـ «اكل» بخصوص العسل كما يقول بعض شراح لغة العرب، ويُعبر عنه بالشرب دائماً (ولعلَّه بسبب أنَّ العسل في تلك المناطق يكون خفيفاً)^(١).

وفي الختام اشار الى تأثير العسل في العلاج قائلاً: «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ». والتعبير بـ «شفاء» بصيغة النكرة، اشارةً الى اهميته الفائقة، وكما سيأتي في

التوضيحات ان شاء الله ، فللعسل الكثير من المزايا العلاجية الجاهزة التي تحتوي عليها الازهار والنباتات الطبية الموجودة على الكرة الارضية ، وقد ذكر العلماء لا سيما في هذا العصر خصائص عديدة له تشمل الجانب العلاجي وجانب الوقاية من الامراض ايضاً .

فللعسل تأثيرات مذهلة في علاج الكثير من الامراض وهذا يعود الى الفيتامينات والمواد الاساسية التي يحتويها ، حيث يمكن القول : (انَّ العسل يخدم الانسان علاجياً وصحياً وجمالياً) .

وفي نهاية الآية اشار الى الجوانب الثلاثة الآتية (بناء خلية النحل ، طريقة جمع رحيق الازهار وصناعة العسل ، وخصائصه العلاجية) فيقول : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وعليه ففي كل مراحل حياة النحل ، واستخراج محصول هذه الحشرة الذكية والمثابرة ، تظهر للعيان آية بل آيات لعلم وقدره الخالق جلّ وعلا الذي ابتدع مثل هذه الظواهر المذهلة .



توضيحات :

١ - حضارة النحل العجيبة !

مع اتساع علم الحيوان وعلم الاحياء والدراسات المستفيضة للعلماء تم اكتشاف مسائل عجيبة وحديثة عن حياة هذه الحشرة الصغيرة اذهلت الانسان بشدة ، ولا يُصدّق ابداً بأنّ يسود حياة النحل مثل هذا النظام والتدبير والتخطيط بلا أيّ احساس طبيعي .

يقول احد العلماء المختصين بعلم الاحياء ويدعى « مترلينغ » الذي كانت له

دراسات كثيرة على مدى سنوات طويلة حول حياة النحل ، والنظام العجيب الذي يحكم ممالكها يقول : « انَّ الملكة في مدينة النحل ليست هي الزعيم كما نتصورها ، بل هي كسائر افراد هذه المدينة تخضع لسلسلة من القوانين والانظمة العامة ايضاً . ثم يضيف : « نحن لا نعرف مصدر هذه القوانين وبأية طريقة توضع ، ونحن ننتظر اليوم الذي نتوصل فيه الى معرفة واضع هذه المقررات ، إلا اننا نطلق عليه حالياً اسم « روح الخلية » ، ولا ندري اين تكمن « روح الخلية » وفي أي من سكان الخلية حلّت ، إلا اننا نعرف انَّ الملكة كالأخرين تطيع روح الخلية ايضاً » !.

« ان روح الخلية لا تشبه غريزة الطيور ، ولا تعمل بآلية واردة عمياء ، فهي تشخص تكليف كل واحد من سكان هذه المدينة العملاقة حسب قابليته وتعطي لكل منها واجباً ، فقد تأمر مجموعة ببناء البيت ، وحياناً تُصدر أمر الرحيل والهجرة »
« والخلاصة اننا لا نستطيع ادراك انَّ قوانين مملكة النحل التي توضع من قبل روح الخلية هل ستطرح في « مجلس شورى » ويُصادق عليها ويتخذ القرار بتنفيذها ؟ ، ومن الذي يُصدر أمر الحركة في اليوم المحدد » ؟^(١)

إلا أنَّ القرآن الكريم اعطى جواباً لجميع هذه التساؤلات بتعبير جميل ودقيق جداً اذ يقول : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ !

وهو نفس التعبير الذي ذكره بخصوص الانبياء (عليهم السلام) ، صحيح أنَّ هذا الوحي يختلف عن ذلك الوحي كثيراً ، إلا أنَّ تناسق التعبير دليل على اهمية العلم الذي اودعه الله لدى النحل ، كي يدعو مفكرى العالم الى دراسة اوضاعها .

فمن المسلّم به انَّ بناء خلية النحل يجري بالهام الهى ، لأنها تبني تشكيلات سداسية منظمة واسعة من كمية قليلة من الشمع (حيث يمكن استغلال جميع

(١) كتاب « النحل » تأليف « مترلينغ » ص ٣٥ و ٣٦ مع الاختصار .

زواياه ويكون مقاوماً أمام الضغط ايضاً) وتتكون بيوتها من طبقتين ، وعندما تبني بيتاً في الجبال أو على الاشجار فهي تقتصر على هاتين الطبقتين إلا انها تضيف طبقتين أخريين في الخلايا الاصطناعية وبما يمكن استيعابه منها .

ويتخذ قعر البيت شكلاً هرمياً حيث يتألف من ثلاثة سطوح لوزية الشكل ويغور الرأس والاجزاء البارزة بكل طبقة في قعر الطبقة السفلى .

وقد اثبتت التجارب أنه لو كان سطح الشمع مربع الشكل أو باي شكل آخر وُصِبَ في قوالب اصطناعية ويُطلَقُ النحل في داخله فسوف لا يرتضي مثل تلك الجدران الخاطئة ، بل يرفع الجدران الى الاعلى ويعيدها الى وضعها الصحيح .

لقد قاس احد العلماء ، قعر بيت النحل ، فكانت زوايته الكبيرة تُقدَّرُ بـ (١٠٩) درجات و (٢٨) دقيقة ، ثم طرحت هذه المسألة على مهندس الماني كبير يُدعى «كنيك» كسؤالٍ عامٍ بأن لو اراد انسان بناء هرمٍ بأقل كمية من مواد البناء وباكبر ظرفية بحيث يتشكل من ثلاثة سطوح لوزية فما مقدار زواياه ؟ .

فقام بحل هذه المسألة المعقدة بالاستعانة بحساب «ديفرانسيل» وكتب في الجواب ، مائة وتسعة درجات وستة وعشرين دقيقة بدون علم منه بأن هذا يرتبط ببيت النحل ومتفاوت معه بدقيقتين فقط .

ثم تلاه مهندس آخر يُدعى «ماغ لورن» فاجرى حسابات دقيقة وتأكد بأن تلك الدقيقتين كانتا نتيجة لاهمال المهندس الاول ، والجواب الصحيح كما في عمل النحل !^(١) .

ينقل العالم البلجيكي المعروف «متر لينع» في كتاب «النحل» عن احد العلماء ويُدعى «رايت» ما يلي : لدينا ثلاثة طرق علمية فقط في الهندسة لتقسيم

(١) تفسير «ابو الفتوح الرازي» هامش المرحوم الشعراي ج ٧ ص ١٢٣ «مع شيء من الاختصار» .

الفواصل المنظمة وربطها وتكوين الاشكال الكبيرة والصغيرة ، وهذه الطرق الثلاثة عبارة عن (المثلث القائم الزواية) و (المربع) و (المسدّس) وتستخدم الطريقة الثالثة أي « المسدّس » في بناء غرف النحل ، وهذا الشكل اكثر ملائمة لاستحكام البناء (لاننا لو دققنا قليلاً نجد انّ الشكل السداسي يشبه الاقواس من جميع الجهات حيث يمتلك الحد الاقصى لمقاومة الضغط ، بينما تتضرر المثلثات والمربعات امام الضغط كثيراً) .

بالاضافة الى انّ جسم النحل اسطواني الشكل تقريباً ويتلاءم كثيراً مع الخروج والدخول في مثل هذه البيوت .
على اية حال ، كلّما تحقّقنا بخصوص ما اشار اليه القرآن الكريم في مسألة بناء بيت النحل نحصل على مسائل عجيبة جديدة ، تجعلنا نعظم خالق ومبدع ومربي هذه الحشرة العجيبة .



٢ - جمع رحيق الازهار وصناعة العسل :

الأمر الثاني الذي استند اليه القرآن هو جمع العسل من رحيق الازهار ، وهو من المسائل المدهشة والمحيّرة حقاً .
يقول بعض العلماء : يجب ان تسافر ٥٠ الف نحلة من اجل اعداد كيلو غرام واحد من العسل ! .

وتؤكد حسابات العلماء ايضاً انه من اجل اعداد كيلو غرام واحد من الرحيق يجب أن يمتصّ النحل سبعة آلاف وخمسمائة زهرة كمعدلٍ ويستخرج رحيقها (وطبقاً لهذه المعادلة يجب امتصاص ٧,٥ مليون زهرة لاعداد كيلو غرام واحد من

العسل!)^(١).

ولابد أن نعلم ايضاً انَّ النَّحْلَ يسافر يومياً حوالي ١٧ - ٢٤ مرة من اجل جمع رحيق الازهار.

ولا عجب أن نعلم أن النَّحْلَ لم يَذُق طعمَ الراحةِ طولَ عمره، وانه لا يرى النومَ ابداً، فهو يقظٌ طولَ عمره!^(٢).

ومن اجل ان ندرك العَمَلَ المرهق لهذه الحشرة الكادحة يجب ان نقول انه يتعين على النحل ان يسافر ٨٠ ألف مرة ذهاباً واياباً على الاقل من اجل كل اربعمائة غرام من العسل الذي يحصل عليه، ولو ربطنا هذا الذهاب والاياب معاً وقدّرنا مسافة كلِّ مرة (كمعدل) بكيلو مترٍ واحدٍ، ستكون المسافة التي يقطعها النحل من اجل الحصول على اربعمائة غرام من العسل تعادل ضعف محيط الكرة الارضية، أي انَّ هذه الحشرة الكادحة تقطع مسافة ما يعادل ضعف محيط الكرة الارضية من اجل جمع شرابٍ يُصنعُ من اربعمائة غرام من العسل!^(٣).

ومن الضروري الانتباه الى هذه النكته وهي انَّ معظمَ الازهار لا تمتلك الرحيق باستمرار كي يستطيع النحل امتصاصه، بل انها تقدّم رحيقها مرةً واحدةً في اليوم وفي ساعاتٍ معينةٍ تتبع نوع الزهرة، فبعض الازهار تعطي رحيقها صباحاً، وبعضها ظهراً، وبعضها الآخر بعد الظهر، والعجيب ان النَّحْلَ يعرف هذه البرامج جيداً فيتوجه نحو الازهار وفقاً لها تماماً فلا يذهب وقته هدرًا!^(٤).

(١) «تربية النحل» ص ١١٢.

(٢) «تربية النحل» ص ١١٥.

(٣) «عالم الحشرات» (وفقاً لنقل عجائب الخلق ص ١٤٣).

(٤) «الحواس الخفية للحيوانات» (تأليف فيتوس دروشر) ص ١٥٧ (مع الاختصار).

ويحقُّ للإنسان ان يخجلَ عندما يشاهد هذه الأرقام والاعداد في مجال جمع العسل وعدد مرات الطيران وعدد الأزهار المستهلكة من اجل غرامٍ واحدٍ من هذه المادة الغذائية المهمة ، ولكن لو فكَّرَ بامعان في نفس الوقت بعظمة خالقِ هذه الحشرة الكادحة وتَحَقَّقَ بعلمه وقدرته لخضع امامه مؤدياً شكر هذه النعمة ، ويُمكن ان يكون كل ذلك مقدمةً لهذه الغاية السامية .

والنكتة الاخيرة التي يجب ان نذكرها ونغلقَ هذا الملف الكبير قبل ان نخرج عن مضمون البحث التفسيري ، هي انَّ النحل علاوةً على امتصاصه للرحيق فهو مكثَّف بجمع « الحبوب الصفراء » للأزهار المسماة « بولن » ومزجها مع العسل .
ولهذه الحبوب آثار حياتية فائقة ، فهي تحتوي على ٢١ نوعاً من حامض الامونيك وانواع الزيوت ، وهورمونات النمو ، والسكر ، والانزيمات ، كما تستخدم عصارة الحبوب تلك في معالجة الالتهابات والاورام المزمنة التي تعجز المضادات الحيوية عن علاجها ، كما أن لها آثاراً منشطة ايضاً^(١) .

وللارجل الخلفية للنحل نشوءات كأسنان المشط يثير بها غبار الأزهار ، ويصنع منه ذرات كروية ، وهنالك ايضاً الى جانب تلك النشوءات ما يشبه « السلة » وآخر يشبه « الملقط » حيث يجمع ذرات غبار الورد هناك ويحفظها ، وحينما يعود الى الخلية يجلب معه بالاضافة الى رحيق الأزهار كرتين صفراوين كانتاج لعمله اليومي^(٢) .

* * *

(١) (الجامعة الاولى) ج ٥ ص ٥٧ الى ٥٩ (مع الاختصار) .

(٢) « نظرة على الطبيعة واسرارها » ص ١٢٧ .

٣- العسل غذاء مفيدٌ ودواءٌ شافٍ.

لقد تحدث القرآن الكريم في الجزء الثالث من الآيات المذكورة عن مسألة التأثير المهم للعسل في شفاء المرضى بتعبير مختصر وغامض ويتم في هذا العصر ازالة الستار عن اسراره من خلال دراسات المختصين بعلم الغذاء ، اذ يذكر هؤلاء مزايا وأثاراً لا تُحصى للعسل تبعث على دهشة الانسان .

فهم يقولون : انَّ العسل مادةٌ لا تفسد ابداً وتبقى صالحةً لآلاف السنين فيما اذا كان صافياً ، لأن اي مكروب لا يعيش فيه ابداً^(١) .

وقد عُثِرَ في قبور الفراعنة على ظروفٍ من العسل تعود الى آلاف خلت من السنين ، وقد بقي هذا العسل صالحاً وطبيعياً بشكل كامل ، وهذا بحد ذاته دليلٌ على صدق الادعاء اعلاه .

العسل ونظراً لأن يُستخرج من رحيق الازهار المختلفة (ونحن نعلم ان كل نوع من الازهار يحتوي على مواصفات علاجية خاصة) فيمكن أن يحمل معه صفات هذه الازهار .

يقول العلماء : يعتبرُ العسلُ مادةً حيَّةً بسبب احتوائه على الفيتامينات و « الانزيمات » و « حامض الفورميك » فهو يحتوي على الفيتامينات : أ ، ب ، ث ، د ، ك ، أي ، ومواد معدنية كال بوتاسيوم ، والحديد ، والفسفور ، و « الرصاص » و « المنغنيز » و « الالمنيوم » و « النحاس » و « الكبريت » و « الصوديوم » ومواد اخرى متفرقة ، وكذلك يحتوي على مختلف الحوامض^(٢) .

ونحن نعلمُ انَّ لكلٍّ من هذه المواد الحياتية دوراً اساساً في حياة الانسان ،

(١) « مجلة السلامة » .

(٢) الجامعة الاولى ج ٥ ص ١٢٩ (مع شيء من الاختصار) .

ولهذا فإنَّ العسلَ يحتوي على المواصفات الآتية :

يؤثر العسل في تركيب الدم .

للعسل أثرٌ جيدٌ في ازالة التعب وتقلص العضلات .

يحدُّ العسل من حدوث الالتهابات في المعدة والامعاء .

ويؤدي الى ان يتمتع الوليدُ بجهازٍ عصبيٍّ متينٍ اذا ما تناولته المرأة الحامل .

والعسلُ مفيدٌ لمن لديهم جهاز هضمي ضعيف .

ويعتبر العسلُ مُرَمِّمًا قويا .

ويؤثر في تقوية القلب .

ويولدُ العسلُ طاقةً لا بأس بها لدى المسنين .

ينفع لعلاج قرحة المعدة والاثنى عشري .

وفيدُ العسلُ لعلاج مرض الربو « ضيق التنفس » .

ويعتبر عاملاً مساعداً في علاج الامراض الرئوية .

ويعتبر دواءً لعلاج مرض الروماتيزم ، وضعف نمو العضلات ، والمتاعب

العصبية .

ويعدُّ العسلُ مفيداً للمصابين بالاسهال نظراً لميزته في قتل الجراثيم .

وتُصنعُ منه ادويةٌ تؤثرُ في نعومةِ وجلدِ وازالة الحروق والتجعدات .

وتُصنع من العسل دواءٌ يعالج ورم الفم ويُعطرُ التنفس .

ويستثمر العسل ايضاً في معالجة ذبول الجلد ، والتشققات ، والحروق ،

والرَّمَد ، واللدغات المؤلمة للحيوانات ، وورم العين ، والسعال .

وقد قام بعض العلماء بصناعة اقراصٍ من رحيق الازهار تحتوي على

مواصفاتٍ تشبه مواصفات العسل واهم آثارها مضاعفة طاقة الشباب وتنشيط

الخلايا ومن ثمّ يؤدي الى الراحة وطول العمر^(١).
ولهذا فقد عُرف أنّ « فيثا غورس » كان يوصي طُلابه « كلوا العسل والخبز ما استطعتم » وكان « بقراط » يقول : « لو اردتم عمراً طويلاً فعليكم بالعسل » .
إنّ الآثار المنشّطة والخواص العلاجية والترميمية للعسل اكثر مما تم بحثه في هذا المختصر، حتى دوّن بعض العلماء كُتباً مستقلةً حول الميزات الغذائية والعلاجية للعسل .

وقد جمع القرآن الكريم كل هذه المطالب في جملة « وفيه شفاء للناس » بشكل دقيق .

ولا عجب ان كانت لدغة النحل والسم الموجود فيها علاجاً للكثير من الامراض ايضاً، كالروماتيزم، والملاريا، وتضخم الغدة الدرقية، والم الاعصاب، وبعض امراض العين، وغيرها، ويجب ان يكون التداوي بوخز النحل حسب برنامج خاص وبإشراف الطبيب، فمثلاً في اليوم الأول مرة واحدة، وفي الثاني اثنتان، وحتى اليوم العاشر يستفاد من عشرة زنابير، وتلك هي المرحلة الاولى من العلاج، وأما في المراحل الثانية فيتخذ العلاج شكلاً آخر، واذا تجاوز وخز النحل الحدّ المعين فمن الممكن طبعاً أن تتمخض عنه اخطارٌ، كما أن قليله مضر بالاشخاص الذين لديهم حساسية اتجاهه .

لقد كتب بعض العلماء مقالةً أو مقالاتٍ بهذا الخصوص، واختار بعضهم رسالته للدكتوراه تحت عنوان « مستخرجات سمّ النحل وخواصها العلاجية »^(٢).

* * *

(١) « الجامعة الاولى » ج ٥ ص ٢١٢ - ٢٩٠، نشرة « الطب والدواء » وكتب اخرى .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٤ .

٤ - خدمات اخرى للنحل أئمن من العسل !

انَّ حياة النحل مليئةٌ بالعجائب والاحداث ، وما تحدثنا عنه لحد الآن كان جانباً منها ، فقصة بناء الشمع - تلك المادة التي يُشيد منها بيت النحل بشكلٍ كامل - بحد ذاتها قصةٌ مفصّلة ، والعجيب انها لا تستثمر هذا الشمع لبناء البيت فقط ، فقد تقوم بتحنيط اجساد الحشرات المؤذية التي لا تستطيع دفعها الى الخارج كي تأمن شرّها ! .

يقول أحد خبراء النحل : انه لفت انتباهه في أحد الايام وجود كرة كبيرة نسبياً داخل خلية نحل ، وعندما فتحها وجد فيها جثة جرادةٍ حنّطها النحل . وقال بعضهم عن الشمع ، انه روح العسل والعسل روح الزهر وهو خفيف ، بحيث إنّ وزن خمسمائة بيت من مدينة النحل لا يتجاوز بضعة غرامات ، ولا شكّ في صعوبة معرفتنا بكيفية ترشح هذا الشمع بالنسبة للنحل ، غير أننا نعرف جيداً أنّ للشمع استعمالاً هاماً .

وعملية تلقيح وحمل الازهار ، من اهم اعمال النحل .

يقول احد العلماء : « لولا وجود الحشرات ، لخلت سلالنا من الفاكهة ، لأنّ الحشرات التي تستفيد من الازهار يمكن أن تلحقها افضّل من بقية العوامل ، فعندما تمّد إحدى الحشرات التي تعشق الازهار خرطومها في الزهرة ، فهي اما أن تُدخل أغلبه ، أو أن تُدخل جزءاً من جسمها في الزهرة كما يحدث غالباً ، وفي خروجها يتغطى جسمها بالغبار ذي اللون الاصفر وهو غبار الورد ، فتنقله مباشرة الى زهرة اخرى - وكما نعلم - ان غبار الازهار عاملٌ مؤثّرٌ فلا تتبدل البذور الى حبوب ، ولا المبيض الى ثمار بدونه .

وهذه النكتة جديرةٌ بالاهتمام من الناحية الفلسفية إذ إنّ الحشرات التي تعشق

الازهار تميل اليها منذ بدء التكوين ... كلٌ منها بموازاة الاخرى ، ينمو ويتكامل ، وقد وصل الحال بها اليوم الى عدم قدرتهما على الحياة منفصلة عن بعضها ... ومن اهم الحشرات التي تعشق الازهار - ولا بد انكم تعرفونها - هي : الفراشة ، والنحل ، والزنبور الذهبي و... لكن النحل اكثر استعداداً وتجهيزاً من بين هذه الحشرات لاجراج الغبار والرحيق من الازهار»^(١) .

ومن الضروري الانتباه الى أنّ الاشجار التي تحتوي على الازهار الذكرية والانثوية صنفان : الاشجار العقيمة غير المثمرة ، والاشجار المثمرة التي لها القدرة على ذلك .

ومن اجل تكون الثمار في الصنف الاول لابد من وجود واسطةٍ للتلقيح ، وهذه الواسطة عبارة عن النحل ، وقد ثبت ان ٨٠ ٪ من عملية تلقيح الازهار يجري عن طريق النحل ، ومن اجل المزيد من الاطلاع على دور النحل يجب الانتباه الى ان جميع انواع التفاح ، والاجاص ، والكرز ، واللوز وأمثالها تعتبر من الاشجار العقيمة ! وقد واجهت المساعي التي بُذلت بصدد اجراء التلقيح بالطرق الكيماوية والميكانيكية والاصطناعية فشلاً ذريعاً ، ومن هنا يتضح دور النحل^(٢) .

ويضيف العلماء : « انّ النحل يساعدنا بكلفة لا تقل عن مائتي الف درهم في الزراعة مقابل كل الف درهم من العسل والشمع الذي يصنعه لنا »!^(٣)

ونختم هذا الحديث بجملةٍ عجيبةٍ عن « مترلينغ » استاذ علم البيئة ، بقوله : « لو هلك النحل (سواء الوحشي منه أو الاليف) ، فسيَفنى مائة الف نوع من النباتات

(١) « نظرة على الطبيعة واسرارها » ص ١٢٦ .

(٢) « تربية النحل » ص ٢٣٣ و ٢٣٤ « مع الاختصار » .

(٣) اقتباس عن « عالم الحشرات » .

والازهار والثمار وما يدريك بأن لا تزول حضارتنا أصلاً!!^(١).

* * *

٥ - البناء الجسمي للنحل عجيبٌ ايضاً!

انَّ تركيب النحل ذاته ذو قصةٍ طويلةٍ ومدهشةٍ وعيونها بالذات اكثرُ عجباً اذ يقول العلماء: تتألف عيون النحل من الفين وخمسمائة طبقة صغيرة! تُشكّل مع بعضها زوايةً من ٢-٣ درجات، وهذه العيون قادرةٌ على تعيين الشمس فيما اذا حجبته الغيوم، عن طريق الاشعة فوق البنفسجية التي تؤثر فيها.

لغة النحل وتشاورها مع بعضها تعد من الحقائق العلمية التي تم اكتشافها في السنوات الاخيرة ايضاً^(٢).

انَّ النحل لا يرى الازهار الملونة بشكلها ولونها الذي نراه، بل انه يرى بواسطة الاشعة فوق البنفسجية، وهذا النور يضاعف في جمال الازهار فيجذبها نحوها^(٣). وللأسف فأنَّ طبيعة البحث لا تسمح لنا بمزيد من الكلام في هذا المضمار، ولكن يجب القول بأنه كلما سَمعنا عن هذه الحشرة ونشاطاتها التي اُشار اليها القرآن الكريم تتكشف لنا اسرارٌ جديدة عن قدرة الاله العظيم خالق كل هذه العجائب.

و «حسناً للختام» نُيممُ باسماعنا وقلوبنا صوب كلام الامام الصادق (عليه السلام) حيث يقول في توحيد «المفضّل»: «انظر الى النحل واحتشاده في صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك اجتماعه من دقائق الفطنة فانك اذا تأملت العمل رأيتَه عجباً لطيفاً واذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس،

(١) «الجامعة الاولى» ج ٥ ص ٥٥.

(٢) «الحواس الغامضة للحيوانات» ص ١٣٧ و ١٤٠ و ١٤٣.

(٣) «سرُّ خلق الانسان» ص ٩٣.

واذا رجعت الى الفاعل الفيته غيباً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك ، ففي هذا
أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي
طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الناس .^(١)

١٩- آياته في خلق الحيوانات

تمهيد:

انَّ الحيوانات تُمثل جانباً عظيماً من الموجودات الحيّة في العالم ، وهي تجلب اهتمام كلِّ ناظرٍ اليها لتراكيبها المختلفة واشكالها المتنوعة وتباينها الكثير ، وعجائبها العظيمة ، ودراسة كلِّ منها ، تُعرِّفُ الانسانَ على العلم والقُدرة غير لمتناهية لخالقها .

وتتجلّى اهمية هذه المسألة عندما نرى هذه الحيوانات في مكانٍ واحدٍ ، فمثلاً لو ذهبنا الى حديقة الحيوانات ، وزرنا غرَفَ الاسماك وانواع الطيور ، والقردة ، والاسد والفهد والنمر والزرافة والفيل ، وننظرَ عادات وعجائب خلقِ كلِّ منها ، فلا يمكن لمن يمتلك قليلاً من العقل والفتنة ، ان لا يغرق بتفكيره بها ، ولا يُذعن امام خالق هذه الموجودات المتنوعة والعجيبة .

ومن بين هذه الحيوانات ، هنالك حيوانات اليفة تخدم الانسان وذات منافع وبركات مختلفة للبشر ، جديرةٌ بالاهتمام اكثر من غيرها ، لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية الى جميع الدواب بشكلٍ عام والى الانعام والبهائم بشكل خاص ، وذكرَ جوانبَ من عجائبها في آياتٍ عديدة .

بهذا التمهيد نستمع خاشعين الى الآيات الآتية :

١- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾^(١) .

- ٢ - ﴿ اِنَّ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ لَاٰيٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيٰتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُوْنَ ﴾ ^(١) .
- ٣ - ﴿ اَفَلَا يَنْظُرُوْنَ اِلَى الْاٰبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ^(٢) .
- ٤ - ﴿ وَاِنَّ لَكُمْ فِي الْاَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُوْنِهَا وَلَكُمْ فِيْهَا مَنَافِعُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُوْنَ - وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ ﴾ ^(٣) .
- ٥ - ﴿ وَاِنَّ لَكُمْ فِي الْاَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُوْنِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِيْنَ ﴾ ^(٤) .
- ٦ - ﴿ وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوْتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُوْدِ الْاَنْعَامِ بُيُوْتًا تَسْتَخِفُّوْنَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ اِقَامَتِكُمْ وَمِنْ اَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمَتَاعًا اِلَى حِيْنٍ ﴾ ^(٥) .
- ٧ - ﴿ وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْاَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذٰلِكَ اِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ اِنَّ اللّٰهَ عَزِيْزٌ غَفُوْرٌ ﴾ ^(٦) .
- ٨ - ﴿ اَوَلَمْ يَرَوْا اَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ اَيْدِيْنَا اَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُوْنَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُوْنَ - وَلَهُمْ فِيْهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ اَفَلَا يَشْكُرُوْنَ ﴾ ^(٧) .
- ٩ - ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْاَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْاَنْعَامِ مَا

(١) (الجاثية الآية : ٣ - ٤) .

(٢) (الغاشية : ١٧) .

(٣) (المؤمنون الآية : ٢١ - ٢٢) .

(٤) (النحل الآية : ٦٦) .

(٥) (النحل الآية : ٨٠) .

(٦) (فاطر الآية : ٢٨) .

(٧) (يس الآية : ٧١ - ٧٣) .

تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١﴾
١٠ - ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ - وَلَكُمْ
فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تَحْمَلُونَ - وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٢) (٣)

* * *

شرح المفردات:

﴿دَابَّة﴾ كما قلنا سابقاً من مادة «دبيب» أي السير ببطءٍ وهدوء، إلا أنها
تُطلق عادةً على جميع الحيوانات، وعلى المذكر والمؤنث والموجودات التي تدبُّ
على الأرض وحتى طيور السماء، وجمعها «دواب» وتعني البهائم.
وقد تستعمل أحياناً بصدد نفوذ وحلول شيءٍ في موجودٍ آخر، فيقال مثلاً:
دبَّ الشرابُ في الجسم ودبَّ السُّقْمُ في البدن.
وهذا المفهوم يشمل حتى الإنسان وموارد استعماله في القرآن الكريم تشهدُ
على ذلك (٤).

﴿انعام﴾ جمع «نعم» (على وزن قَلَم) وهي مأخوذة في الأصل من مادة
«نعمه» ثم أطلقت على «الجَمَل»، لأنَّ الجَمَلَ كان من أفضل النعم لدى العرب،

(١) (الزخرف الآية: ١٢ و ١٣).

(٢) (غافر الآية: ٧٩ - ٨١).

(٣) هنالك آيات أخرى في هذا المجال أيضاً مثل: الشعراء: ٣٣ والانعام: ١٤٢
والزمر: ٦ والزخرف: ١١.

(٤) لسان العرب، مفردات الراغب، وجمع البحرين (مادة دبّ).

ويُطلق هذا اللفظ ايضاً على الدواب الاخرى كالبقرة والماشية بشرط أن يكون الجمْل جزءاً منها^(١).

وصرّح رهطٌ من ارباب اللغة أنّ «النَّعم» ذات معنى جمعي ولا مفرد لها، و«انعام» جمع الجمع^(٢).

يقول «ابن منظور» في «لسان العرب»: أنّ «النَّعم» تعني الحيوان المجتر، ثم ينقل عن آخرين ان «النَّعم» تُقال بخصوص الجمْل، وعن بعضهم الآخر انها تُطلق على الجمال والماشية.

وسُميت «النَّعام» بهذا الاسم لأنها تشبه «البعير» كثيراً لضخامة جسمها، ولذلك ايضاً أطلقت على ظلال الجبال وغيرها، أو الاعلام التي تُنصب في الصحاري لتحديد الطريق.

على اية حال.. مهما كان المعنى الاول للفظ «انعام» فهو يطلق في الاستعمالات العادية على الحيوانات المجترّة (البقر والاغنام والجمال).

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

ماذا يجري في عالم الحيوانات ؟

بعد الاشارة في الآية الاولى والثانية الى آيات الله في خلق السماوات والارض، وكذلك خلق الانسان اشار الى خلق كافة الحيوانات الموجودة في السماوات والارض، قائلاً ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

﴿بَتْ﴾ تعني في الاصل تفريق الشيء كما يُفَرَّقُ الهواء الاتربة، وهذا التعبير

(١) مفردات الراغب.

(٢) مجمع البحرين واقرّب الموارد.

في الآية يعني تكوين وخلق وابرار الموجودات المختلفة ، ونشرها في مختلف المناطق .

على أية حال .. انّ هذا التعبير يشمل جميع البهائم والحيوانات والانسان ، ابتداءً من الموجودات المجهرية التي تتحرك حركةً دقيقة وخفيّةً وحتى الحيوانات العملاقة التي يبلغ طولها عشرات الامتار وقد تزن اكثر من مائة طن^(١) ويضم كلّ انواع الطيور ومئات الآلاف من انواع الحشرات المختلفة ، وآلاف الآلاف من انواع الحيوانات الوحشية والاليفة والحيوانات المفترسة والزواحف والاسماك الصغيرة والكبيرة والموجودات الحيّة في البحار .

لو تأملنا قليلاً في سعة مفهوم « دابة » وشموله بالنسبة لجميع انواع البهائم لتجسد امامنا عالمٌ من العجائب والغرائب ومناظرٌ من القدرة ، حيث يكفي كلٌ منها أن يُعرفنا على علمٍ وقدرة الخالق العظيم لهذا الخلق .

لقد دُوّنت الملايين من الكتب وبمختلف اللغات حول خصائص بناء وحياة انواع الاحياء ، واعدّوا الكثير من الاشرطة المصورة في هذا المجال ، واصدروا مجلات مختلفة وبلغاتٍ متباينة بخصوص هذا الموضوع ، حيث تجعل مطالعتها الانسان يغرق في بحرٍ من العجائب والغرائب ، وقد أزلت المساعي التي بُذلت من قبل العلماء على مدى آلاف السنين لمعرفة ، الحجاب عن جانبٍ واحدٍ فقط من حياتها ، ومن المسلّم به انّ المستقبل سيشهد في كل يوم انكشاف اسرارٍ جديدة من

(١) يصل وزن بعض الحيتان الى مائة وعشرين طناً ، وكما يقول صاحب كتاب « نظرة على الطبيعة واسرارها » (البروفسور ليون برتن) فانّ هذا الوزن يعادل وزن ألف وخمسمائة رجلٍ ضخم الجثة ! أو اربعة وعشرين فيلاً ضخماً ! وقد أجريت حساباتٍ على وزن اعضاء جسمها : فقلبه يزن ستمائة كيلو غرام ، والدم يزن ثمانية آلاف كيلو غرام ، والرتتان طناً واحداً ، والعضلات خمسين طناً ، والجلد والعظام والامعاء والاحشاء تزن ستين طناً (ص ٢٣٨) .

حياتها.

فبعض العلماء قضى عشرين عاماً من عمره لدراسة حياة النمل فقط ، واذا ارادوا دراسة حياة كافة انواع الحيوانات بهذا الاسلوب فمن غير المعلوم أن يكفي عمر البشرية لمعرفة اسرارها .

والجدير بالذكر أن ما نتحدث عنه هو الكائنات الحيّة الموجودة في الارض ، بينما يستفاد من تعبير ﴿ فيهما ﴾ (في السماء والارض) أن هنالك احياء كثيرة في السماوات ايضاً ليست في متناول دراسات علمائنا ، وربما يعثر الانسان على موجودات حيّة عجيبة وغريبة اخرى في باقي الكواكب من خلال الرحلات الفضائية حيث يصعب علينا الآن تصور شكلها ومواصفاتها .

وقال بعض المفسرين إن المقصود من حيوانات السماوات هي الملائكة ، بينما لا تُطلق كلمة ﴿ دابة ﴾ على الملائكة ويعتقد بعضهم ايضاً بعدم وجود أي كائن حي في السماوات غير الملائكة ، وقد ذكروا تبريرات وتفسيرات اخرى للآية ، بينما يتضح هذا المعنى لدينا اليوم إذ إن الكائنات لا تقتصر على الكرة الارضية فقط ، وكما يقول العلماء هنالك ملايين الملايين من الكواكب في هذا الفضاء الفسيح يمكن السكن فيها من قبل الدواب والاحياء .

والجدير بالذكر ايضاً ان الحيوانات لا تعتبر آية من آيات الله من خلقتها وطرز حياتها وجوانبها المختلفة فحسب ، بل لفوائدها العديدة وخيراتها الكثيرة التي تفيض بها على الانسان .

واذا قال : ﴿ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهو اشارة الى الذين لديهم الاستعداد لقبول الحق والايمان ولم يقصد المعاندين والمتكبرين والانانيين .

* * *

ويقول في الآية الثالثة من البحث بصيغة استفهام توبيخي : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى

الابل كَيْفَ خُلِقَتْ ؟ .

واللطيف انه تمت الاشارة بعد ذلك الى عظمة خلق السماء ، ثم الجبال ومن بعدها الارض ، فوضع الابل الى جانب هذه الاشياء ، يُعتبر دليلاً على اهمية خلق هذا الحيوان .

انَّ التأمل في اوضاع هذا الحيوان ، يدلُّ على انه ذو مواصفات متباينة تجعله يختلف عن باقي الحيوانات الاخرى ، ويتضح جيداً من خلال الانتباه الى هذه المواصفات لماذا استند القرآن الكريم الى هذا الموضوع بشكلٍ خاص ومن جملتها :

١ - انَّ مقاومة الجَمَل لا نظير لها ، لا سيما ازاء الجوع ، وشدة التحمُّل وقد يقاوم العطش هو اصعبُ من الجوع لعشرة ايام او اكثر ولهذا يعتبر افضل وسيلة لقطع الصحراء القاحلة ، لذلك فقد اطلقوا عليه « سفينة الصحراء » . لأنه يتمكن من خزن الغذاء والماء لمدة طويلة في بطنه ويقتصد في استهلاكها أيضاً .

٢ - لا يتقيد بنوع خاص من الغذاء في طعامه ، وغالبا ما يتغذى على كل ما ينمو في الصحراء .

٣ - والاعجب من ذلك انه يواصل طريقه شاقاً العواصف الترابية المليئة برمال تعمي العيون وتضم الآذان ، وهو يستطيع سدَّ منخريه مؤقتاً ، ويحافظ على اذنيه من الغبار ، ولعينيه هديران يطبق احدهما على الآخر في هذه الظروف ، وينظر من خلفهما ، وما قاله بعضهم بانَّ الجَمَل يسير مغمض العينين فانَّ هذا هو المقصود .
حتى ذكر بعض المفسرين انه يُحسنُ تشخيص الطريق في الليالي المظلمة ايضاً ! .

٤ - انَّ الحيوانات تتباين فيما بينها ، فبعضها يستفاد من لحمه ومنها من يفيد في الركوب ، وبعض يستفاد من لبنه فقط ، وبعضها الآخر للحمل ، إلا انَّ الجَمَل

يجمع بين هذه الجوانب الاربعة جميعها ، فيستفاد منه للركوب ولحمل الامتعة ومن لبنه وجلده ووبره .

٥ - ومن العجائب المتميزة لهذا الحيوان هي أنَّ الحمل يوضَّع على ظهره أو يُركَّب اثناء بروكه ، وينهض وبحركة واحدة من مكانه ليقف على ارجله ، بينما تنعدم هذه القدرة لدى باقي الحيوانات .

وقد ذكر بعضهم أنَّ هذا يعود الى القدرة العجيبة الكامنة في رقبته الطويلة التي تعمل طبقاً لقانون « الرافعة » الذي اكتشفه « ارخميدس » لأول مرة ، (فهو يقول : لو وجدت نقطة للاتكاء خارج الكرة الارضية لتمكنت برافعة ضخمة من تحريك هذه الكرة عن مكانها ! وهذا هو الواقع ، فطبقاً لقانون الرافعة أنَّ الضغط الوارد على أحد طرفي الرافعة الذي يضرب في المسافة بينه وبين نقطة الاتكاء يوجد في الطرف الآخر للرافعة الاقرب الى نقطة الاتكاء ضغطاً عظيماً) .

وانطلاقاً من هذا فإنَّ رقبة البعير تكتسب صفة الرافعة استناداً الى نقطة ارتكازها المتمثلة في الأرجل الامامية ومن خلال حركة سريعة وقوية تعمل على تخفيف الاحمال الموجودة على ظهر البعير وتسمح له باطلاق ارجله الخلفية وينهض من مكانه !^(١) .

كلُّ هذا وعجائب ومواصفات اخرى أدَّت الى أنَّ يُستند اليه بوصفه آية من آيات الله العظيمة ، وليس فقط لأنَّ الجَمَلَ كان من الاركان المهمة في حياة العرب الذين كانوا أول من خوطب بهذه الآيات .

فمن يستطيع أن يخلق كلَّ هذه العجائب والبركات في مخلوق واحد ؟ ومن ثمَّ يجعله مطيعاً للانسان بحيث لو أخذ طفل صغير بعنان قافلة من الابل لكان

(١) اشير اشارة قصيرة في كتاب « الجامعة الاولى » ج ٦ ص ٣٢ الى هذه المسافة ، وكما أُشير في كتبٍ اخرى باشارات مفصلة .

بمقدوره أن يأخذه الى المكان الذي يصبوا اليه ، والعجيب ان الانعام الموزونة (كالحدي) تترك أثراً في نفسه ايضاً وتدفعه الى الحركة بحيوية ونشاط وشوق .
أولست هذه آيات عن عظمة وقدرة الخالق ؟ أَجَلْ ؛ فاولئك الذين لا يمرُّون على هذه الآيات مرور الكرام باستطاعتهم أن يدركوا اسرارها (لا تَنسُوا ان جملة ﴿ افلا ينظرون ﴾ من مادة « نَظَرَ » إلا انها ليست النظر العادي ، بل النظر المتزامن مع التفكير والتأمل) .

* * *

ويقول في الآية الرابعة والخامسة ضمن اشارته الى المنافع المختلفة للحيوانات بالنسبة للانسان ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ .
وذكرت ﴿ عبرة ﴾ هنا بصيغة « نكرة » حيث تعتبر دليلاً على اهميته الفائقة ، وكما يقول الراغب في كتاب المفردات « عِبْرَةٌ » من مادة عَبَّرَ وتعني العبور والانتقال من حالة الى اخرى ، وهنا حيث يرى المعتبر حالةً بذلك من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها فاطلقوا على ذلك « عبرة » .

وعليه فإن مفهوم الآية هو بمقدوركم أن تصلوا الى معرفة الله وعظمة وعلم وقدرة مبدىء الخلق العظيم من خلال ملاحظة اسرار وعجائب الحيوانات .

ثم اشار القرآن في شرحه لهذا المعنى الى اربعة جوانب من الفوائد المهمة للحيوانات فيقول ابتداءً : ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ نعم ، اللبن هذه المادة السائغة الطعم التي تخرج من الحيوانات ومن بين دمها ولحمها شرباً مغذياً كاملاً ، وورد هذا المعنى مع تأكيد اكثر في الآية الخامسة اذ يقول ﴿ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ ^(١) .

(١) « فرث » بمعنى الغذاء المهضوم ، والجدير بالذكر ان « بطونها » ذكرت في سورة

فأيُّ قدرةٍ تلك التي تُخرجُ مثل هذا الغذاء الطاهر الصافي اللذيذ من بين تلك الاشياء الملوثة ؟ لونه ابيض ، طعمه حلوٌ ، رائحته عطرة ، ومقبولٌ من جميع الجهات .

والعجيب ما يذكره العلماء .. فمن اجل انتاج لتر واحد من الحليب في ثدي الحيوان يجب أن يمرَّ ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو كي يتم امتصاص المواد اللازمة من الدم لتكوين ذلك اللتر من اللبن ! ومن اجل انتاج لتر واحد من الدم في الشرايين لابدَّ أن تمرَّ الكثير من المواد الغذائية خلال الامعاء هنا حيث يتجلَّى مفهوم ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ .

وقد قيلَ الكثير حول تركيب اللبن وكيفية تكوينه في الأثداء ، وانواع المواد الاولية والفيتامينات الموجودة فيه ، ومزاياه التي تمنح الطاقة ، والمستخرجات المتعددة التي تُنتجُ منه ، وفائدته لكل الاعمار ، بحيث لو جُمعتْ لألَفَتْ كتاباً مُعْتَبَراً ، يُخرِجُنا التطرق اليه عن اطار البحث التفسيري .

ونكتفي هنا بذكر روايةٍ مليئةٍ بالمعاني عن النبي (ﷺ) حيث يقول : « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَاماً فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ ، وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْهُ ، وَإِذَا شَرَبَ لَبَناً فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ ، وَزِدْنَا مِنْهُ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ شَيْئاً أَنْفَعُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مِنْهُ » ^(١) .

ثم يتطرق الى الفائدة الثانية للحيوانات ذوات الاربع ، فيقول في جملةٍ قصيرةٍ

→ المؤمنون مع ضميرٍ مؤنث حيث لها معنىٌ يفيد الجمع في مثل هذه الموارد ، وفي سورة النحل « بطونه » بضمير المذكر اذ لها معنىً فردي ، وقال بعض المفسرين ان « انعام » اسمُ جمع ولو لوحظ ظاهر اللفظ فإنَّ ضمير المفرد يعود اليها ، ولو لوحظ معناه فإنَّ ضمير جمع ولو لوحظ ظاهر اللفظ فإنَّ ضمير المفرد يعود اليها ، ولو لوحظ معناه فإنَّ ضمير جمع وقال بعضهم ان ضمير المفرد لمفهوم الجمع وضمير المؤنث لمفهوم الجماعة ، يُراجع تفسير الكشاف والفخر الرازي وروح المعاني و « ابو » الفتوح الرازي .

وغامضة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ .

وهذا التعبير يُمكنُ أن يكون إشارة الى الصوف والوبر والشعر في الحيوانات والتي يُصنعُ منها انواع الملابس والفرش باستمرار، وكذلك إشارة الى الجلود والامعاء والعظام والقرون التي تُصنعُ منها وسائل الحياة المختلفة ، وحتى فضلاتها يمكن استخدامها في تنمية الاشجار وتنشيط الزراعة والنباتات .

وفي المرحلة الثالثة اشار الى فائدة اخرى قائلاً: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ .

مع ما ذكره خبراء الغذاء من كل اضرار اللحم ، وبالرغم من المؤاخذات الواردة على آكلي اللحوم في العالم من الناحية الطبية والاخلاقية وغيرها ، فإن الكثير يعتقدون أن استهلاك اللحم بكمية قليلة ليس غير مضر فحسب بل وأنه ضروري بالنسبة لجسم الانسان ، وتبرهن تجارب الذين يعيشون على النباتات بأنهم مصابون بالاضطرابات والنواقص وتؤيد وجوههم الصفراء ذلك ، وهذا يعود الى ان البروتين وبعض العناصر الاساسية الموجودة في اللحم لا يمكن الحصول عليها في أي نبات ابدأً ، والاهمية التي يعطيها القرآن لهذه المسألة تحكي عن هذا المعنى .

ولكن مما لا شك فيه ان الافراط في اكل اللحوم شيء مذموم في نظر الاسلام ومن وجهة النظر الطبية ايضاً .

واشار في الجزء الرابع والاخير من هذه الآية الى الاستفادة من الحيوانات للركوب . فيقول ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ .

فقد كانت هذه الحيوانات على الدوام خير وسيلة للحمل والركوب ، واليوم في عصر السيارات والشاحنات لم يستغن البشر ايضاً عن وجود هذه الحيوانات للركوب وحمل الامتعة ، لا سيما في بعض المناطق الجبلية والطرق التي لا يمكن استغلال وسائل النقل الحديثة فيها ، فيستفاد من الحيوانات في الحمل والنقل فهناك حيوانات كالبغال تعتبر افضل وسيلة لارسال العتاد الى جبهات الحرب على

اعالي الجبال الوعرة ، ولولاها لاصبح من الصعوبة السيطرة على الجبال الشاهقة الواسعة .

وبهذا فقد خلق الباري تعالى فوائد جمّة في هذه الحيوانات ، وبَيَّن آثار عظمته وفضله على الانسان من خلالها .

واللطيف أنّ الحيوانات جاءت في هذه العبارة من الآية في مقابل السفن وهذا دليل على أنّها بمثابة سفن اليابسة !^(١)

* * *

وفي الآية السادسة وكتعريفٍ بالذات الالهية ، أو ذكر النعم التي تجرّ الانسان الى معرفته ، اشار الى ما يستفيدة الانسان من جلود واصواف الحيوانات ، فيقول ﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ .

ثم يضيف : ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ .

أجل .. فالبيوت الثابتة لا تُلبّي حاجة الانسان باستمرار ، ففي الكثير من الحالات يحتاج الانسان الى بيوت متنقلة كي يستطيع حملها ونقلها بسهولة وتقاوم في نفس الوقت البرد والحرّ والرياح والعواصف وامثال ذلك ، ومن افضل البيوت المتنقلة هي الخيام التي تصنع من الجلود التي تمت الاشارة اليها في هذه الآية ، وهي اقوى من الخيام المصنوعة من الصوف أو القطن واكثر مقاومة وراحة .

ويتطرق في ختام الآية الى جانب آخر من منافعها المهمة ، اذ يضيف : ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٢) .

(١) وورد ما يشابه هذا المضمون في الآيات ٥ الى ٨ من سورة النحل حيث يشير الى المنافع المتعددة للحيوانات .

(٢) «بيوت» جمع «بيت» ويعني حجرة او بيت الانسان الذي يأوي اليه ليلاً ، ولفظه

ونحنُ نعلمُ طبعاً أنَّ الصوف من الاغنام ، والوبر من الابل ، والشَّعْر من الماعز ، ونعلمُ ايضاً أنَّ انواع الملابس ، والفرش ، والاعطية ، والستائر ، والخيام ، والسُّفَر ، والحبال ، وامثالها مما يلعب دوراً مهماً في حياة الانسان ، تُصنعُ جميعها من هذه المواد الثلاث .

وبالرغم من أنَّهم قاموا في هذا العصر بصناعة انواع الملابس والفراش من المواد الصناعية والنفطية ، إلا أنَّ دراسات العلماء اثبتت أنَّها لا تُعتبر صالحةً لحياة الانسان ، وغالباً ما تؤدي الى مضاعفاتٍ غير ملائمة له ، بينما تُعتبر الملابس الصوفية والوبرية والشَّعرية من اصلح الملابس .

وقد اعتبر بعضهم التعبير بـ ﴿ الى حين ﴾ اشارةً الى دوام الآلات التي تُصنعُ من هذه المواد الثلاث ، ويعتبرها بعضهم اشارةً الى أنَّ جميع ذلك الاثاث معرض للزوال ولا يجب التعلُّق به ، ويبدو أنَّ هذا المعنى اكثر تناسباً .



وفي الآية السابعة التي وردت ضمن الآيات التوحيدية في سورة فاطر ، أثار انتباه النبي (ﷺ) الى خلق الانسان والدَّوابِّ والأنعام ، قائلاً: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ ^(١) .

أي كما خلق الله تعالى انواع الثمار وبالوانٍ متباينة ، وتباينُ الوانُ الجبال فيما

→ «بيتوته» التي تعني «المبيت ليلاً» مأخوذة من ذلك ايضاً ، «ظعن» تعني الرحيل والتنقل من مكان الى آخر وهي تقابل «الاقامة» ،... «اثاث» مأخوذة من مادة «أث» وتعني الكثرة والاضطراب وتطلق على لوازم البيت نظراً لكثرتها واعتبرها بعضهم بمعنى الغطاء واللباس وبعضهم بمعنى البساط في حين اعتبرها بعضهم الاخر راجعة الى «المتاع» الذي يعد وسيلة للتمتع والاستفادة وانها بمعنى واحد .

(١) «من الناس» خبرٌ لمبتدأ محذوف ، والتقدير هو: «ما هو مختلفُ الوانه» ، و«كذلك» اشار الى الثمار المختلفة والوان الجبال المتفاوتة التي وردت في الآية السالفة .

بينها ، فقد خلقَ الواناً مختلفةً في الاحياء سواء الانسان أم الدّواب أو الأنعام ، بالرغم من أنّ أغلب المفسرين اتخذوا الالوان هنا بمعنى الالوان الظاهرية المختلفة^(١) ، ولكن يبدو ان التعبير المذكور ذو معنى واسع ، ويُعتبر إشارة الى تفاوت انواع واصناف الناس والدّواب والانعام ، الذي يعتبر من اهم عجائب وغرائب الخلق .

لا شك اننا نعلم أنّ هنالك اليوم مئات الآلاف من انواع الدّواب والحيوانات في العالم ، بل يذكر بعض العلماء أنّ انواعها تبلغ مليوناً وخمسمائة الف نوع ! ، وهذا التباين العجيب وبهذه المواصفات التي يمتلكها كلّ منها يعتبر آيةً عظيمةً من آيات الله ، وبراهين على علمه وقدرته .

نعم ... فقد ابدعَ هذا الرسّام الماهر بقلم واحد ولون واحد في رسمِ انواعٍ لا تُحصى من الرسوم ونماذج ملوّنةٍ من اللوح كل منها آية في صنع الخلق .

غير ان المفكرين والعلماء هم الذين فتحوا بصائرهم ليروا روح العالم في هذه الميادين البديعة ، و « يَرَوْنَ مَا لَا يُرَى » لذلك يقول في ذيل الآية ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

انّ الوانها الظاهرية المختلفة تشغل اهل الظاهر ، والوانها الباطنية وخلقها المتباين يشغل اهل الباطن والمعنى .

فالالوان الظاهرية للازهار تجذب نحوها النحل ، كي يساعدها في التلقيح ، كما تتجاذب الاناث والذكور من الحيوانات فيما بينها « لا سيما في الطيور » ، إلا أنّ الوانها الباطنية وبنائها المتفاوت يدعو العلماء واصحاب الفكر نحوه ، كي يُلْقَحَ فكره من بذر التوحيد .

و « خَشْيَةٌ » تعني « الخوف الممزوج بالتعظيم الناتج عن علمٍ ووعي » ، وفي

(١) « الميزان » و « تفسير (ابو) الفتوح الرازي » و « تفسير في ظلال القرآن » و « تفسير القرطبي » وغيره .

الحقيقة هي مزيج من الرهبة والرجاء لهذا وَصَفَ الله نفسه بعد هذا الكلام مباشرة بصفتي ﴿عزیز﴾ و ﴿غفور﴾ حيث إنَّ الأول منشأ للرهبة والثاني مصدر للرجاء ، وعليه فإنَّ ذيل الآية مركَّبٌ في الحقيقة من العلة والمعلول .
 علماً أنَّ ذكر ﴿الانعام﴾ بعد الدَّوَاب ، جاء من باب ذكر الخاص بعد العام ، لاهمية الانعام في حياة الناس .

* * *

وفي الآية الثامنة وَجَّهَ اللَّوْمَ من خلال استفهامٍ توبيخي للمشركين والكافرين الذين ضلُّوا وتركوا خالق الكون وتوجهوا نحو الاصنام ، فقال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ .

ان التعبير بـ ﴿لَهُمْ﴾ ذو مفهومٍ واسعٍ للغاية حيث يشمل المنافع المختلفة لجميع اجزاء هذه الانعام ، أَجَلٌ .. فقد اقتضى لطفُ الله أن يكون هو «الخالق» والآخرين هم «المالكون» !.

ثم اشار الى نكتةٍ اخرى فيما يخص الانعام ، مضيفاً ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾ .

ويقول في الختام « فهلا يشكرون هذه النِّعم التي وهبها الله للناس » ؟ ولا يَسْعَوْنَ لمعرفة ذاته المقدسة ؟ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ .

ويمكنُ ان يكون التعبير بـ ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ اشارة الى تعقيد مسألة الحياة التي لم ينكشف لغزها للبشر لحد الآن ، وهذا نابغٌ من قدرته الازليَّة فقط .

والتعبير بـ ﴿المشارب﴾ بعد ذكر ﴿المنافع﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام حيث تمَّ الاستناد اليه بسبب اهميته .

علماً ان ﴿مَشَارِبُ﴾ جمع «مَشْرَب» (لانها جاءت مصدراً ميمياً بمعنى اسم المفعول ، ويمكن ان تكون اشارة الى انواع حليب الانعام المختلفة ، التي لكلٍّ منها

آثاره ومزاياه الخاصة به ، أو اشارة الى مستخلصات الحليب التي نحصل عليها ، وبما انَّ اصلها هو الحليب فقد أطلق عليها لفظ « مشارب » ، ونحن نعلم ان الحليب ومستخرجاته يُمثلُ جانباً مهماً من غذاء الناس .^(١)

ولنا بحثٌ لطيفٌ حول ﴿ ذَلَّلْنَاهَا ﴾ سيأتي في قسم التوضيحات ان شاء الله .

* * *

والآية التاسعة من البحث وقعت ضمن سلك الآيات التي تتعلق بمعرفة الله والتوحيد لأنه قال في الآيات التي سبقتها ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ ثُمَّ تَطَرَّقَ الى وصفِ الله القدير قائلًا: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ ثم يضيف في آية البحث: ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ .

ويبدو أنَّ المقصود من ﴿ أزواج ﴾ هنا هو أزواج الاناث والذكور من الحيوانات والاحياء ، لا سيما وأنه يضيف بعد ذلك: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ (أي الفلك في البحار والانعام في اليابسة) .

وبهذا فإنَّ ذكر ﴿ أنعام ﴾ بعد ﴿ الأزواج ﴾ جاء من بابٍ ذكر الخاص بعد العام .

إلا ان بعض المفسرين يعتقدون أنَّ ﴿ الأزواج ﴾ هنا اشارة الى « الاصناف المتفاوتة » للموجودات ، سواء كانت حيوانات ام نباتات ام جمادات ، لأنَّ كلاً منها له جنس يقابله ، ففي الحيوانات هنالك الذكر والانثى ، وفي غيرها النور والظلام ، السماء والارض ، الشمس والقمر ، اليابس والرطب ، وحتى داخل افكار الانسان هنالك الخير والشر ، الكفر والايمان ، التقوى والفجور ، وامثال ذلك ، والوجود

(١) يعتبر بعض المفسرين أنَّ « مشارب » اشارة الى الاواني التي تُصنع من جلد الحيوانات كنوع القرب والاواني الاخرى ، الا أنَّ هذا التفسير يبدو بعيداً اذ ليس لهذا الأمر اهمية بالغة بحيث يُستند اليه بعد ذكر المنافع .

الوحيد الذي ليس هنالك اختلاف في ذاته المقدسة ، وهو متفرد من كافة النواحي ، هي الذات الالهية المقدسة ، إلا ان التفسير الاول يبدو اكثر صواباً من خلال ما قلناه من قرينة .

على أية حال ، فقد ذكر خلق الأزواج من جانب وخلق الانعام للركوب من جانب آخر في هذه الآية براهين عن الوجود المقدس لله تبارك وتعالى ان النظام الدقيق الذي يسود مسألة التكاثر في الموجودات الحية والحيوانات نظام معقد وعجيب للغاية ، فما هي العوامل التي تؤدي الى ان يكون الجنين في رحم امه ذكراً أو أنثى ؟ وما هي العوامل التي تؤدي الى حفظ التوازن بين جنس الذكر والأنثى ؟ وما هي العوامل التي تؤدي الى أن ينجذب أحدهما نحو الآخر كي تحصل مقدمات الحمل ؟ وما هي العوامل التي تعمل على تكامله في مرحلة الحياة الجنينية المعقدة ؟ .

فاذا تأملنا جيداً ، لوقع بصرنا على آيات عظيمة من آيات الله في هذا الطريق الطويل ، وفيما يخص تدليل الحيوانات لركوبها .

ثم تحدث عن تسخير هذه الحيوانات القوية والضخمة للانسان ، قائلاً : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ .

صحيح اننا ننظر الى هذه المسألة نظرة بسيطة جرّاء اعتيادنا عليها يومياً ، حيث نرى قوافل كبيرة من الابل والخيول ، وحتى حيوانات ضخمة كالفيلة مسخرة بيد طفل صغير ، واحياناً يودع عنان قافلة منها بيد طفل فيقودها حيث يشاء ، إلا انها في الحقيقة ليست أمراً هيناً ، فلو كانت لدى احدها اقل حالة من التمرد والمواجهة فلا يستفاد منها في الركوب ابداً بل لأصبحت تربيتها في بيئة الانسان خطيرة جداً . فنحن لا نستطيع أن نربي بازاً مشاجراً ، وحتى قطة غاضبة ومنزعجة ، فكيف

تُرَبِّي هذه الحيوانات الكبيرة القوية التي يمتلك بعضها قروناً وبعضها ذات أسنانٍ قاطعةٍ وفكٍ قويٍّ، وأرجل بعضها قوية وكبيرة تستخدمها للضرب والرفس، فإذا لم تكن مطيعة فكيف نستخدمها للركوب؟ ولولا التسخير الإلهي حقاً لم نستفد منها أبداً ﴿مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(١).

والنكته الجديرة بالذكر أيضاً أنَّ ظهرَ الأنعامِ خُلِقَ بحيث يكون مناسباً ومُعَدّاً لركوب الإنسان.

ومما يلفت النظر أنه يذكرُ الركوبَ عليها هدفاً أولاً، وذكرِ نِعَمِ الخالقِ يعتبره الهدف الثاني، وتعد معرفة الذات الإلهية المقدسة وتسبيحه وتقديسه هي الهدف النهائي، فذكر النِّعَمِ يَضَعُ الإنسانَ دائماً في طريق معرفتها، ومن ثمَّ كُلِّ مواهب الخلق دافعٌ ومقدمة لمعرفة الله سبحانه.

وذكر هذا المعنى في الآية العاشرة والآخرى بالإضافة إلى منافع أخرى، وقد تمت الإشارة في هذه الآية إلى خمس فوائد أساسية للأنعام، واعتبرها من آيات الله. فيقول في البداية: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوهَا مِنْهَا﴾ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ثم أشار إلى الفوائد المختلفة، كاللبن والصوف والجلد والمواد الطبية وأمثال ذلك، فيقول إجمالاً: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾^(٢).

ويقول في المرحلة الأخيرة ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.

(١) إنَّ الضمير المفرد في «ظهوره» و«عليه» و«له» يعود إلى «الأنعام» لأنَّ «الأنعام» -وكما قلنا سابقاً- ذات معنى جمعي، إلا أنها تلفظ مفردة، وظن بعضهم أنَّ هذه الضمائر تعود إلى «ما» في «ما تركبون»، وفي هذه الحالة تشمل «الأنعام» و«السفن» علماً أنَّ «مقرنين» من مادة «إقران» وتعني الاقتدار على الشيء، وفسرها بعضهم بمعنى القبض والحفظ.

(٢) ذكرت منافع بصيغة النكرة كي تُبرهن على أهميتها.

انَّ ذكرَ هذا المعنى على هيئة منفعةٍ مستقلة ، مع أنَّ مسألة الركوب قد ذكرت سابقاً ، يُمكنُ أن يكون المقصود منه حمل ونقل الامتعة وضروريات الحياة ^(١) ، أو لاغراض التنزُّه والسياحة والمسابقات او كسب القوة في ساحة الجهاد ، أو الصراع مع بعض الحيوانات الوحشية ، أو عبور الانهار عن طريق سباحة الحيوانات ، لأنَّها جميعاً تندرجُ في لفظ ﴿ حاجة ﴾ الشامل ، وهذه الضروريات لا شأن لها مع مسألة الركوب في الأسفار .

ويقول في الفائدة الخامسة والاخيرة ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ .
ولتعبير ﴿ حَمَلَ ﴾ مفهوم غير « الركوب » ويبدو أنَّ المقصود منه هو المحامل والهادج التي توضعُ على ظهور الأنعام ويجلس فيها النساء والاطفال الذين لا طاقة لهم على الركوب ، كما يستفاد منها للمرضى والعَجَزَة والضعفاء .
انَّ ذكرَ ﴿ تُحْمَلُونَ ﴾ بصيغة « الفعل المجهول » ، وجعلها الى جانبِ الْفُلْكِ حيث يوضحُ تشابههما مع بعضهما (الفلك في البحر والانعام على الارض) يعتبر من القرائن ايضاً على التفسير اعلاه ، وبهذا يتضح اختلاف هذه العبارات الثلاث ﴿ لِتَرْكَبُوا - وَلِيَبْلُغُوا - وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ ، وطالما وقع بعضُ المفسرين في معضلات تفسيرها ، وقد فسروها بمعنى واحدٍ !

ومع أنَّ بعضهم يعتقد أنَّ الانعام في هذه الآية تعني الابل فقط ، ولكن نظراً لسعة مفهوم ﴿ الانعام ﴾ وعدم وجود قيدٍ في الآية فلا دليل لحصرها ، لا سيما أنَّ تكرار ﴿ مِنْهَا ﴾ (علماً أنَّ ﴿ مِنْ ﴾ في مثل هذه الموارد تُفيد التبويض) يبرهنُ على أنَّ بعض الانعام يفيد في الركوب ، وبعضها يُفيد في الاكل ، بينما لو كان المقصود هو الابل فإنَّها تُفيدُ في جميع هذه الجوانب .

(١) كما تمت الاشارة الى ذلك في الآية ٦ من سورة النحل .

واللطيف أنه يقول في الآية الآتية باستنتاج عام ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ .

إشارة الى أن كلاً من هذه الامور يعتبر آيةً من آياتِ الله بالنسبة للمتفكرين والعقلاء ، آية بيّنة ولا يمكنُ انكارها ، والمنكرون يستحقون كلَّ اشكال اللوم والتوبيخ .

وهكذا نرى اننا نواجه في كلِّ خطوةٍ نخطوها في هذا الجانب آية من آياته في عالم الاحياء والحيوانات خصوصاً الانعام ، ونواجه برهاناً من براهين علمه وقدرته وحكمته ولطفه ورحمته ، وكلُّ يحكي بلا لسان و يُعطينا درساً في التوحيد ومعرفة الله ، ويثيرُ فينا دافع الشكر الذي يدعونا الى معرفته .

* * *

توضيحات :

عجائب عالم الحيوانات :

انَّ كتابَ الخلقِ العظيم كتابٌ تكمنُ في كل جملةٍ - بل في كل كلمةٍ وكل حرفٍ منه - نكاتٌ ، بنحوٍ لا يشعرُ الانسانُ بالتعبِ من مطالعتها ، فلو طالعَ أحد جمل هذا الكتاب العظيم مائة مرة فسَيَنكشِفُ له في كلِّ مرةٍ مفهومٌ جديدٌ واسرارٌ جديدة . فعالمُ « الحيوانات والانعام » الذي يُمثِّلُ جانباً من هذا الكتاب العظيم مليء بالاسرار والعجائب ، نكتفي ببعضِ منها ويجب أن نوكل الامعان في التفصيل الى الكتب المدوّنة في هذا المجال .

١ - ترويض الحيوانات :

انَّ استعداد الحيوانات للترويض مسألة مهمة للغاية .

ومن اجل ادراك اهمية كل نعمة ، لا بد من تصوّر الحالة التي تتحوّل فيها الحيوانات الاليفة الى حيوانات وحشية ، « فالجمل » يشنّ هجماته كالفهد ويمزّق الانسان بفكيّه القويتين ، ويستخدم « البقر » قرنه ، وترفس الخيل بحوافرها من يقترب منها ، حينها لا يمكن اعتبار هذا القطيع من الاغنام والابل والبقر اساسي الوجود فحسب ، بل وسنستعين بأية آية قاتلة من اجل الخلاص من شرّها والقضاء عليها ، وفي الوقت الحاضر ايضاً تغضب هذه الحيوانات الاليفة احياناً فتشكل خطورة بالغة ، فمثلاً تُلَقِّن الفيلة الهنود دروساً ، وتشنّ الجمال الغاضبة هجماتها على اصحابها ، ومن الممكن ان تنتهي بالقضاء عليهم اذا ما غفلوا ، وكأن الله تعالى يريد أن يُبرهن على أن لو اردت سلبه أمر الطاعة والتسليم والخضوع فسترون بأي صورة تظهر !.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بتعابير مختلفة ، فيقول احياناً : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾ ^(١) وحيناً يقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ ^(٢).

وقد اشار الامام الصادق (عليه السلام) الى هذه المسألة في توحيد المفضل ، فيقول بعد بيان خلق الانعام :... « ثُمَّ مُنِعَتِ الذُّهْنَ وَالْعَقْلَ لِتَذِلَّ لِلْإِنْسَانِ فَلَا تَمْتَنِعَ عَلَيْهِ إِذَا كَدَّهَا الْكَدُّ الشَّدِيدُ وَحَمَلَهَا الْحِمْلَ الثَّقِيلَ » . ^(٣)

وبالطبع انّ عدم امتلاكها للعقل جزء من الدليل على تألفها ، علاوة على هذا انّ الله تعالى خلقها بشكلٍ تأتلف فيه بسرعةٍ وتبقى على هذا الحال الى الابد ، بينما نجد أن بعض الحيوانات التي تماثلها في الذكاء والعقل (كالذئب والنمر) اذا ما

(١) يس الآية : ٧٢ .

(٢) الزخرف الآية : ١٣ .

(٣) « توحيد المفضل » (بحار الانوار ج ٣ ص ٩١) .

ألفت فيه مشقة وتكون مؤقتة ، ومع ذلك يجب الحذر منها ، وأحياناً تفتري أصحابها إذا ما غفلوا عنها .

٢ - ذكاء الحيوانات :

لعلّ اختيار هذا العنوان بعد الذي قيل في البحث السابق يبدو عجباً ومتناقضاً ، والحال أنه ليس كذلك ، مع أن الحيوانات تبدو بلا عقلٍ أو قليلة العقل ، ونحن نشبه البُلْداء بالبهايم ، إلا أنها تبدي ذكاءً ووعياً في بعض المسائل بحيث تبعث على الدهشة .

فقد شاهدنا أغلبنا قطع الأغنام عندما يعود من الصحراء ، فهناك عدد من الغنم والماعز تعود إلى عائلة ما وبمجرد اقترابها من القرية يسلك كل منها فروع وازقة القرية ويتجه نحو بيت صاحبه بدون أي اختلاف .

كما شاهدنا أن النعجة لا تسمح أبداً لغير وليدها أن يرتضع من ثديها ، وعندما تُطلق الصغار في ظلمة الليل وتدخل في القطيع يذهب كل منها إلى أمه ، فتعرفه وتستعد لارضاعه ، وهذه المعرفة تحصل عن طريق « السَّم » فقط ، وهذا يعني أن عدد روائح الأغنام تضاهي عددها ، وكل نعجة تشخص رائحة صغيرها من بين هذه الروائح !

يقول « غرسي موريسن » في كتاب « سرُّ خلق الإنسان » : (أن أغلب الحيوانات تُشخص طريقها في الليالي المظلمة ، وتسير بيسر ، وإذا كانت لا تبصر في الظلمة الحالكة فهي تعرفه من تفاوت الهواء المحيط بالطريق ، ويؤثر النور الضعيف جداً لما فوق الحمراء الذي يشع من سطح الطريق على عيونها) .

أن طراز بناء البيت ، وتربية الصغار ، وكيفية مقاومة العدو ، وحتى معالجة نفسها أثناء المرض شيء عجيب في الحيوانات ، وشرح كل منها يحتاج إلى بحثٍ

مفصل.

ذكر أحد علماء البيئة ويدعى « البروفسور هانر منرو » في كتابه في خصوص استعداد بعض الحيوانات لمعالجة امراضها قائلاً:

« أجريت بعض الكشوفات الطبية على علاجاتها ، فمثلاً هناك نوع من الطيور التي تأكل الاسماك ، تتضرر ارجلها اثناء الطيران الجماعي أو الهبوط على الارض ، بسبب طولها ، فوجدت على اطلاع تام بالتجبير وعلاج الكسور ، فيذهب الى ساحل البحر والمناطق الموحلة التي يمتزج طينها مع النورة الخاصة بالتجبير ، وتغمس ارجلها بالنورة الرطب ، ثم تجلس تحت اشعة الشمس كي تجف النورة ، وتبقى تراقب ارجلها بهذا الحال حتى يلتحم مكان الكسر تماماً ...

ومن الصدفة ان النورة التي يستخدمها الاطباء في المستشفيات من نفس هذا النوع الذي يستخدمه هذا الطائر الذي يأكل السمك لعلاج نفسه ، لأنه لزج ومتماسك جداً^(١).

يعتقد العلماء ان معظم الحيوانات لديها لغة خاصة بها ، وتتفاهم فيما بينها عن طريقها ، فالنمل تتحدث فيما بينهما من خلال اللمس ، أو من خلال اصطدام لوامسها ، وتتبادل الرسائل ، وبعضها تخاير اثناء حلول الخطر من خلال ضرب ارجلها على باب الخلية (كالبرقيات) .

ان اغلب الاحياء علاوة على امتلاكها للغة خاصة فهي تملك لغة عامة تستطيع من خلالها فهم لغة بعضها مع بعض ، فهذه اللغة التي يصدرها الغراب اثناء حصول الخطر حيث يحذر بقية الحيوانات بصوت خاص كي تبعد سريعاً عن منطقة الخطر ، ويعتبر الغراب في الواقع بمنزلة جاسوس من جواسيس الغابة !

لقد توصل علماء البيئة في دراساتهم الى هذه النتيجة وهي ان الحشرات تلي الانسان في امتلاك جهاز اتصالات متكامل ، لا سيما التكلم وجهاز اتصالات النحل ، فهو اكثرها عجباً وندرة^(١).

القى عالم احياء سويدي محاضرة تثير الاهتمام في جامعة «لاند» حول لغة النحل وكانت نتيجة هذا التحقيق والتجربة التي اجراها عالم الأحياء هذا بمساعدة الاجهزة وعن طريق المقايسة ، انها لغة يمكن فهم معناها^(٢).

ان عجايب عالم الحيوانات اكثر من ان يؤدي حقها في كتاب واحد أو عشر كتب . والافضل ان نكتفي بهذا المقدار ونغلق الملف ونقول بكل خضوع وخشوع أمام الحضرة الالهية المقدسة : **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لَا تُحْصِي عَجَائِبُ خَلْقَتِكَ وَإِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**.

(١) « مجلة الصيد والطبيعة » العدد ٧٢.

(٢) « تربية النحل » ص ٦٠.

٢٠- آياته في خلق اعضاء الجسم

تمهيد :

من اجل ان يتمكن الانسان من اقامة الاواصر مع العالم الخارجي فهو يحتاج الى ادوات مختلفة ، حيث جَهَّزه الله بها ، فقد جَهَّزه بحاسة النظر والعين لرؤية هيئة ولون وكمية ونوعية الموجودات ، وبحاسة السمع والاذن من اجل معرفة انواع الاصوات كما جَهَّزه بحواس اخرى من اجل ادراك الروائح ، البرد والحر ، الخشونة والنعومة و.....

انَّ بناء هذه الآلات معقّد ودقيقٌ بالقدر الذي يُمكن ان يكون شرح كلِّ منها موضوعاً لعلمٍ مستقلٍّ ، وقد دوّنت كتبٌ كثيرة بهذا الخصوص حيث تُعتبر في الحقيقة مجموعةً من اسرار التوحيد ، ودروس ، وبلاغات ونغمات لمعرفة الله تُردّها هذه الاعضاء في مسامع روح الانسان . من غير الممكن ان يتأمل المرء في بناء هذه الاعضاء ولا يخضع اجلاً امام قدرة وعظمة خالقها ، سواء اعترف بلسانه أم لا .

بهذا التمهيد نُبَيِّنُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونستمع خاشعين للآيات

التالية :

- ١ - ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ^(١) .
- ٢ - ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا

تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .

٣ - ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ.... وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢﴾ .

٥ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ هُمْ
يُضِلُّونَ ﴿٣﴾ .

٦ - ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ ﴿٤﴾ .

* * *

شرح المفردات :

﴿السَّمْعُ﴾ تعني في الاصل قوة السَّمْع ، وقد تطلق على الاذن ايضاً ، وقد وردَ
هذا اللفظ بمعنى الاستماع ، واستجابة الدعوة والقبول والتجسس ايضاً ، واذا ما
استخدمت في ما يخص الباري تعالى فهي تعني علمه واطلاعه على المسموعات ،
و «اسماع» جمع «سمع» إلا انَّ هذا اللفظ لم يُستخدم في القرآن الكريم اطلاقاً ،
ولعله بسبب ان «السمع» تستعمل في معنى الجمع ايضاً ^(٥) .
﴿بَصَرٌ﴾ وتعني (العين) وتستخدم ايضاً بمعنى «قوة النظر» ، ويُستعمل هذا

(١) المؤمنون الآية : ٧٨ .

(٢) يونس - الآية : ٣١ .

(٣) الانعام - الآية : ٤٦ .

(٤) فصلت - الآية : ٥٣ .

(٥) لسان العرب ، المفردات ، مجمع البحرين ، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم .

اللفظ في معنى قوة العقل والفهم ايضاً ، فيقال لها « بصر » و « بصيرة » (جمع بصر ، « ابصار » وجمع بصيرة « بصائر ») .

الا انّ لفظ بصيرة لا يُطلق على العين أبداً ، بل يُقال لها « بَصَرٌ » والعجيب انّ لفظ البصير يُطلق احياناً على المكفوفين ، ولكن يظهر ان هذا الاستعمال ليس بسبب علاقة التضاد ، بل لأنّ المكفوفين غالباً ما يتميزون بقوة ادراكٍ فائقة ، ويتلافون فقدانهم لقوة البصر بقوة التفكير والبصيرة ^(١) .

واعتبر بعض ارباب اللغة كمؤلف « المصباح » انّ المعنى الاصلي لـ « بَصَرٌ » هو النور الذي تتمكن من خلاله من رؤية الموجودات ، وفي « المقاييس » ذكر لها معنيان : الاول الاطلاق على الشيء ، والثاني ضخامة وسمك الشيء ، ولكن يبدو أنّ المعنى الاول والذي أورده الراغب في المفردات ايضاً اكثر صواباً وتناسباً مع موارد هذا اللفظ .

و « أَفئدة » جمع « فؤاد » من مادة « فَاد » (على وزن وَعَد) وتعني في الاصل « الشوي » ، لذا يُقال « فؤاد » للافكار والعقول الناضجة ، وقد يأتي هذا اللفظ بمعنى القلب ، او غلاف القلب ايضاً ، وقال بعضهم ايضاً انّ هذا اللفظ يطلق على القلب والعقل حينما يكون متنوراً ومشرقاً ، وقال بعضهم انّ « فؤاد » تعني مركز القلب يُطلق على مجموعه .

و « العَيْن » ذات معانٍ كثيرة والمعروف انّ لهذا اللفظ سبعين معنى في لغة العرب .

إلا انّ المعنى الاصلي لـ « العين » هو العضو الخاص بالنظر ، وقد يأتي ايضاً بمعنى قوة البصر .

(١) مفردات الراغب .

ولكن لها معانٍ كنائية ومجازية كثيرة برزت على هيئة معانٍ حقيقية نتيجة لكثرة الاستعمال ، فمثلاً يقال للينبوع « عين » لأنه يشبه العين ، ويقال للجاسوس والمكلف بالتجسس والاستطلاع « عين » ايضاً ، كما يُطلق هذا اللفظ على ذوي المكانة وعلى الشمس والذهب ايضاً لأنَّ الذهب من بين الفلزات كالعين بين الاعضاء ، وكذلك « الشمس » بين النجوم ، وكالمرموقين من بين ابناء قومهم ، كما يُطلق هذا اللفظ ايضاً على الثروة والمتاع الذي يمكن الاستفادة منه ، وثقب الحلقة ، والبصيرة والاطلاع على الشيء كلُّ في محله ، وسُميت الحور العين بهذا الاسم لانها ذات عيونٍ جميلةٍ وواسعة .

و « اللسان » تعني عضو التكلم ، ووردت ايضاً بمعنى قوة البيان ، وتُطلق ايضاً ككنايةٍ على الاشخاص المتكلمين نيابة عن جماعة ما كما يُقال لـ « ألسنة » (جمع لسان) ايضاً ، ويُستخدم هذا اللفظ بصيغة المذكر والمؤنث إلا أنه جاء في القرآن الكريم بصيغة المذكر .

و « شَفَه » (على وزن قَمَر) وتستخدم بصيغة التثنية « شفتان »^(١) .
ومفهوم « مشافهة » يعني مقابلة الشخص والاستماع الى شيء ما من شفثيه ، وورد هذا اللفظ بمعنى شاطيء « النهر » وساحل « البحر » لأنه شفة له .

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الدور الحساس لآلات المعرفة:

يقول في الآية الاولى كتعريفٍ بالذات الالهية المقدسة وبيانٍ لآياته في خلق

(١) لقد ذكر بعضهم انَّ اصلها « شَفَو » (ناقصة الواو) وبعضُ « شَفَة » لأن مصغرها « شفية » وجعلها « شفاه » .

الانسان: ﴿وَاللّٰهُ اَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ اُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ شَيْئًا﴾ .

انّ هذا التعبير يُبيّنُ بجلاء انّ صفحة القلب تخلو من جميع المعارف عند الولادة، إلا انّ بعض المفسّرين قالوا انّ المقصود ليس العلم الحضورى للانسان بذاته، أو بتعبير آخر ان المقصود هو العلم بالاشياء الخارجية، وذكروا الآية ٧٠ من سورة النحل كشاهد اذ تقول: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ اِلَىْ اَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَثِلَا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ : الانسان في سن الشيخوخة يعلم بوجوده إلا أنّه يُحتملُ جهل الوليد بوجوده في بداية الولادة وأول ما يُدرّكه هو وجوده .

ثم يضيف: ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

لقد جعل الله العين والاذن كي يُدرّكا المحسوسات، والعقل لادراك المعقولات، وتطلعون على العالم الخارجى من خلال وسائل المعرفة الثلاث هذه، ثم تقومون لشكر هذه النعم وتتوجهون قبل كلّ شيء لمعرفة ذلك الخالق الذي منحكم وسائل العلم والمعرفة .

ولادراك اهمية العين والاذن والعقل يكفي تصور الحالة التي تتمخض عن فقدان أحدهما (بغض النظر عنها كلها)، فما هو حال مكفوف البصر، أو الاخرس أو المجنون أو جميعهم؟ وكم ينأى عن مواهب هذا العالم العظيم؟ وقبل كلّ شيء يفقد موهبة العلم والاطلاع التي هي افضل المواهب ومقدمة للتّنعّم بالمواهب الاخرى .

وقال بعضهم انّ المقصود من «شيئاً» في الآية اعلاه هو حق المنعم، وقال بعض آخر: إنّ المقصود هو مصالحه، وفسّرها القسم منهم على انها السعادة والشقاء، أو الميثاق الالهى في يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، إلا انّ اطلاق الآية ينفي كلّ اشكال التقييد فتشمل كلّ شيء .

وهنا لماذا تقدّم ﴿السَّمْع﴾ على ﴿الابصار﴾؟ لعلّه يرجع الى استخدام

الاذن قبل العين ، لأنَّ العينَ لم تكن لديها القابلية على الرؤية في محيط رحم الام الذي يسودّه ظلامٌ مطبّقٌ ، وتكون حساسة جداً ازاء النور الى حينٍ بعد الولادة ، لذلك فهي غالباً ما تكون مغمضة ، حتى تستعد تدريجاً لمواجهة النور ، إلا أنَّ الاذن ليست كذلك فباعتماد بعضهم انها تسمعُ الاصوات في عالم الجنين ايضاً ، وتتعرفُ على انغامِ قلب الأم !.

بالاضافة الى أنَّ الاذن تعتبرُ وسيلةً لسماع رسالة الوحي الالهي الذي هو اشرف المسموعات ، وكذلك وسيلة عامة لنقل العلوم من جيلٍ الى جيلٍ آخر ، بينما ليست العينُ كذلك ، لا شكَّ أنَّ القراءة والكتابة وسيلةً لنقل العلوم إلا انها ليست عامة وشاملة .

وجعلُ ﴿الافئدة﴾ وراءهما واضحُ الدليل ايضاً ، لأنَّ البشر يتقلون المشاهدات والمسموعات الى العقل ، ومن ثمَّ يقوم بتحليلها وتفكيكها وينتقي منها معلومات حديثة ويكتشف القوانين العامة للعالم ^(١) .

* * *

وفي الآية الثانية يتابع الحقيقة التي وردت في الآية الآنفه ، وأشار الى مسألة خلق الاذن والعين والقلب ، من اجل معرفة الله ، مثيراً في الانسان الشعور بالشكر الذي هو السُّلَم لمعرفة الله تعالى ، مع هذا الاختلاف حيث يُعبّر عن خلق هذه الاعضاء بتعبير ﴿انشاء﴾ وفي الختام يوجّه اللوم والتأنيب لاولئك الذين قليلاً ما يشكرون الله ، فيقول : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .

(١) انَّ «سمع» تُطلقُ على المفرد والجمع ، بالرغم من أنَّهم يجمعونها بصيغة «اسماع» ايضاً .

و ﴿الانشاء﴾ كما يقول الراغب تعني في الاصل ايجاد الشيء وانماؤه ، ولهذا يقال « ناشئة » للشباب .

انّ التعبير بانشاء غالباً ما يخص الحيوانات ، بالرغم من استخدامها احياناً في غير هذا المورد مثل : ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾^(١) .

ومن الممكن ان يكون هذا التعبير في الآية اعلاه اشارة الى المسيرة التكاملية للعين والاذن والعقل خلال مرحلة الجنين ثم في مرحلة الطفولة ، حيث أوجدها الباري تعالى ثم يقوم بتربيتها .



ويقول في الآية الثالثة « كاستفهام تقريرى » من المشركين الذين انفصلوا عن الله وضلّوا في وادي عبودية الاوثان : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ .

من المسلّم به انّ الارزاق التي يحصل عليها الانسان اما أن تكون من السماء (كالامطار والهواء وضوء الشمس) أو من الارض (كالنباتات والاشجار والمعادن المختلفة) فكذلك العلوم والمعارف فغالباً ما يحصل عليها الانسان عن طريق العين والاذن ، لأنّ هاتين الحاستين المهمتين تُعتبران وسيلة اتصال الانسان بالعالم الخارجي ، وكلّ هذه الارزاق الماديّة والمعنوية من الله تبارك وتعالى .

واللطيف أنّه عبّر هنا بتعبير المالكية ، وبما انّ المالكية هنا تكوينية فانها لن تنفصل عن مسألة « الخلق » وفي الحقيقة اصبح هذا التعبير من لوازمه ، وكذلك لن تكون منفصلة عن مسألة « تدبير الأمور » لذا يقول مستفسراً في نهاية الآية ﴿وَمَنْ يَدَبِّرُ الْأُمُورَ﴾^(٢) .

(١) الواقعة الآية : ٧٢ .

(٢) قال بعض ارباب اللغة ان « ملك » (بفتح الميم وكسر اللام ، تعني مَنْ يتصرف

فيضيف مباشرة: «انهم وبالهام من وحي فطرتهم يقولون بسرعة: ان الله هو مالك وخالق ومدبر هذه الامور» ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ .

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ .

أي ترك عبادة الاوثان والتوجه الى غير الله ، والابتعاد عن الذنوب والظلم .

* * *

ويقول في الآية الرابعة ضمن اشارته الى جانب من نِعَمِ الله على الانسان لتحريك الاحساس بالشكر الذي هو مقدمة لـ « معرفة الله » : ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ .
العيون التي يتمكن من خلالها أن يرى عالم الوجود ، وأن يشاهد عجائب الخلق ، وان ينظر الى الشمس والقمر والنجوم وانواع النباتات وانواع الموجودات الحيّة والحيوانات ، وأن يتفرّج على عجائب صنع الله ، وأن يُميّز الخير من الشر ، ويُشخص الصديق من العدو ، وأن ينقذ نفسه من مخالب الحوادث .

ثم يضيف ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ .

اللسان الذي يُمثّل وسيلة اتصاله بالآخرين ، اللسان الذي يعتبر عاملاً في نقل العلوم والمعارف من جيل الى آخر ومن قوم الى آخرين ، اللسان الذي يردد ما يحتاجه ، وبه يدعو ويتوسل الى المعبود جلّ وعلا ، وهو الذي ينطق عن جميع ذرات وجوده .

وكذلك الشفاه التي تلعب دوراً مهماً في النطق ، وتحمل مسؤولية تلفظ كثير من مخارج الحروف ^(١) بالاضافة الى مساعدتها في شرب الماء واكل الطعام وهضمه والحفاظ على سوائل الفم ، بنحو لو جُدع جانب من الشفة فلن تصبح هذه

→ بعامة الناس من خلال أمره ونهيهِ وهذا يستلزم السلطة والاقتدار والتدبير .

(١) وهذه اربعة حروف بالعربية (ب - ف - م - و) وهي (حروف شفوية) بكثرة

وفقدان الشفة يؤدي الى ان يفقد المرء قدرة التكلم الى حد ما .

الامور صعبةً بالنسبة للانسان فحسب ، بل وسيكون منظرةً وصورته باعثاً على الحسرة .

واللطيف ان القرآن يتحدث بعد هاتين الآيتين عن هداية الانسان الى الخير و (الشر) ، قائلاً : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .

انّ هذا التعبير البليغ يشير الى علاقة العين واللسان والشفاه بمسألة الهداية ومعرفة الخير والشر ، لأنها تُعتبر آلات لهذا الهدف العظيم .

* * *

وفي الآية الخامسة يُلفتُ الانتباه الى الحالة التي تحصل لدى الانسان بسبب فقدانه للاذن والعين والعقل ، فيقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ ^(١) .

ثم يضيف في نهاية الآية : ﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ ^(٢) . وفي الحقيقة انّ القرآن يريد ان يقول : إنّ آلات المعرفة المهمة تلك ليست ملكاً لكم لأنها لو كانت كذلك لما سُلبت منكم فليس بالقليل اولئك الذين فقدوا نعمة السمع والبصر والعقل نتيجة لتأثير عوامل مختلفة ، اذن فهي ملك لخالقٍ آخر ،

(١) لقد فسّر المفسّرون جملة « أَرَأَيْتُمْ » وكذلك « أَرَأَيْتُمْ » بمعنى ' اخبروني او « هل علمتم » ولكن باعتقاد بعض المحققين فإنّ هذه الجُمْل تتساح مع المعنى ' الاصلى فثلاً جملة (أَرَأَيْتُمْ) بمعنى ' (هل شاهدتم) ، ولكن حيث تكون المشاهدة في مثل هذه الموارد للعلم والاخبار فقد فسّرت بلازم المعنى ، وعلى اية حال فان الغاية من ذكر هذه الجُمْل هو التذكير والتأكيد على دقة الخطاب ، ولو اردنا ان نفسرها بلازم المعنى فيمكننا القول بانّ هذا هو مفهومها .

(٢) « نصّرف » من مادة « تصريف » وتعني التغير ، وتعني هنا ذكر حقيقة ما بلباس وبيان مختلف ، و « يصدفون » من مادة « صَدَف » (على وزن هدف) وتعني هنا الإعراض .

هذا من جهة .

ومن جهة اخرى ، بما انّ الاشياء تعرف باضدادها فانّ القرآن يريد ان يلفت نظر الانسان الى عظمة الخالق وواهب هذه النعم ، من خلال تذكيره بالوضع المؤلم الذي يطرأ للانسان بسبب فقدان هذه النعم التي لا مثيل لها ، ويرشده عن هذا الطريق ويحفزه الى الخضوع امام عظمتة تعالى .

ويمكن ان يكون التعبير بـ ﴿أخذ﴾ الاذن والعين بمعنى أخذ هذه الاعضاء ، أو أخذ قوة السمع والبصر أو كليهما .

* * *

وفي الآية الاخيرة من البحث التي تعتبر من آيات التوحيد ومعرفة الله يُسلطُ الانظار على آياته قاطبةً في عالم الخلق بأسره ، فيقول : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ .

﴿آفاق﴾ جمع «أفق» وتعني الاطراف ، وعليه فانّ «آفاق الارض» تعني اطراف الارض ، و «آفاق السماء» تعني اطراف السماء ، وبما انها ذكرت في آية البحث بشكلٍ مطلق ، فهي تشمل كل الاطراف شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً .
و ﴿أَنْفُسُ﴾ لها هنا معنى واسع حيث تتضمن الروح والجسم ايضاً ، وجميع اعضاء الجسم التي هي موضوع بحثنا .

وهنا الى من يعود الضمير في ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ ؟ قال بعض المفسرين : المقصود هو القرآن ، والمقصود من آيات الآفاق الانتصارات التي حققها المسلمون في اطراف العالم ، والمقصود من آيات الانفس ، انتصاراتهم في بلاد العرب أي اننا نريهم الانتصارات في اطراف العالم وفي بلاد العرب كي يعلموا انّ القرآن حق .

وقال بعضهم : المقصود هو «رسول الله» (ﷺ) أو دينه ، حيث لا يتفاوت كثيراً مع التفسير الاول .

لكن الظاهر هو (كما فهمه عددٌ من المفسرين) انَّ المقصود هو الله ، أي اننا نريهم آيات الآفاق والانفس كي يتجلّى لهم انَّ الله هو الحق .

يُعدّ التعبير بـ ﴿آياتٍ﴾ من جانبٍ ، والتعبير بـ ﴿الآفاق والانفس﴾ من جانبٍ آخر بالاضافة الى الآية التي تليها والتي تتحدث عن التوحيد شواهد على هذا التفسير ، علماً انَّ هذه الآية تتوافق مع عدة آيات في القرآن الكريم التي تعرض آيات الله في عرض الخلق ووجود الانسان ، مثل ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي أَنْفُسِهِمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (١)

وقد ذكر هذا المعنى ايضاً في تفسير على بن ابراهيم ، على الرغم من انَّ بعض الروايات ذكرت انَّ ضمير ، انه يقصد به الامام المهدي «عج» ولكن الظاهر انه تفسير لبطون الآيات (والجمع بين التفاسير ممكن ايضاً) على اية حال ... ففي أي منها تمعنا نرى آثار علمه وقدرته تعالى ، وكلُّ نبات ينبت من الارض - ينطق بنفسه بـ ﴿لا شريك له﴾ و «قلب كلِّ ذرة نفتحه - نرى شمسهُ في وسطه» .

والتعبير بـ ﴿سنريهم﴾ (نظراً لأنَّ الفعل المضارع في مثل هذه الموارد يعني الاستمرارية) يُعتبر اشارة لطيفة الى هذه الحقيقة وهي انَّ كلَّ يوم يمرُّ من عمر الانسان تنكشف له حقائق جديدة عن هذا العالم ، وتتجلّى اسرارٌ جديدة ، ففي كلِّ يوم يتوصل العلماء في مختبراتهم ومكتباتهم الى اكتشافٍ حديث ، وتوضح آيات جديدة من آيات الله ، ومن المسلّم به انَّ هذه المسألة ستستمر حتى لو انقضت ملايين السنين من عمر الخليقة ، فكم هو عجيب عالم الخلق الواسع ، وكم عظيم خالقه ؟

وَمِنْ ثَمَّ فأننا لا نعلم شيئاً عن مليارات السنين السابقة وما تلاها ، وليس لدينا

ادنى اطلاع عن هذا الكتاب العتيق الذي فقد فصلاه (الاول والاخير) وكل ما نعلمه هو نزر يسير يتعلق بجانب من هذا العالم الواسع وفصل من هذا الكتاب الكبير ﴿العظمة لله الواحد القهار﴾.

نستنتج من مجموع ما مضى من الآيات ان كل عضو من اعضاء جسم الانسان، بل كل جزء منها، يعتبر مرآة واضحة للحق تعالى، وآية مستقلة وجليلة من علم وقدره وحكمة وتدبير خالق الكون.

* * *

توضيحات:

١ - عجائب اعضاء الجسم:

لو لم يكن في كل الكون موجود سوى الانسان، ولم يكن في جميع كيان هذا الانسان شيء سوى عين أو أذن واحدة، لكفى لمعرفة الذات الالهية المقدسة وعلمه وقدرته، لأن بناءها دقيق ومعقد ومحبوك بقدر لا يصدق أي عقل انها من صنع الصدفة أو الطبيعة العمياء والصماء، بل نواجه في كل مرحلة من دراستها، آية جديدة من علم وقدره ذلك الصانع الحكيم.

فمن بين مئات الخصائص والدقة في عضو النظر، أي العين، يكفينا ذكر المواضع الآتية كي نعرف أين هي الفوضى فيه:

١ - العدسة المتغيرة - من المعروف ان العين تُشبه بآلة التصوير، بينما لا تعدو

أحدث آلات التصوير في العالم أن تكون كالعوبة امام عين الانسان ليس إلا، لأنها تحتوي على عدسة ثابتة، حيث يجب أن تُنظَّم وتُدار من قبل مصور باستمرار من اجل التقاط الصور من عدة جهات، إلا ان عدسة العين الواقعة خلف انسان العين مباشرة، تتغير دائماً بشكل آلي، فقد يتقلص قطرها احياناً فيبلغ « ١ / ٥ ملمتر»

واحياناً يتسع حيث يبلغ « ٨ ملمترات » فيسمح لها بالتقاط الصور من مناظر بعيدة وقريبة جداً.

٢ - طبقات العين السبع - انّ العين تتألف اساساً من سبعة حُجُب أو سبع طبقات وتُسمى « الصليبية » و « العينية » و « المشيمية » و « الجليدية » و « الزُّلالية » و « الزُّجاجية » و « الشبكية » ، حيث لكل منها بناؤها الخاص بها وواجبها الذي تتحمله ، وشرحها يجرُّنا الى الاطالة ، فيكفي أن نعلم انّ اقلّ اختلاف فيها يؤدي الى اختلال النظر ، طبعاً تكمن خلف « الشبكية » اعصاب بصرية تنقل الصور التي تقع على الشبكية الى الدماغ .

٣ - الحساسية ازاء الضوء - انّ تنظيم النور بالنسبة للمصورين يعتبر عملاً شاقاً ، وكثيراً ما تُكلّف مجموعة متخصصة بهذا العمل ، بينما تستطيع العين من خلال تغيير حساسيتها ازاء شدة الضوء أن تلتقط الصور من مناظر مختلفة وفي نورٍ ضعيفٍ أو قويٍّ جداً .

٤ - الحركة المستمرة - انّ المصوّرين يديرون اجهزتهم باستمرار نحو اليمين واليسار والى الاعلى والاسفل ، ويستخدمون مختلف الآلات لهذا العمل ، بينما نجد انّ العضلات التي تحيط كرة العين تُدير هذا الجهاز بحركةٍ خاطفة الى الجهات الاربع بشكلٍ كاملٍ ، وتضاعف قدرة المناورة لديها للتصوير في جميع الجهات .

٥ - المركبات البسيطة والدقيقة - فمن أجل اعداد أجهزة التصوير يستفاد من اقوى العدسات والفلزات ، بينما تم صنع العين من مواد لطيفة وفي نفس الوقت قد تستمر في العمل مائة عامٍ لأنها جهاز حي وتستطيع انه تبني نفسها وتجدد قواها باستمرار ، بينما تعتبر الاجهزة التي يصنعها البشر اجهزةً ميتة !

٦ - اعداد شريط التصوير - يعتبر اعداد شريط التصوير بالنسبة لاجهزة التصوير عملاً صعباً ويجب استعمال حلقاتٍ متباينة باستمرار من اجل التصوير ،

بينما تصوّر شبكية العين ذاتياً على الدوام ، وبعد انتقاله وحفظه في الدماغ يُمحا وتستعد لتصوير من منظرٍ آخر ، ويُنجزُ هذا العمل بسرعةٍ عجيبةٍ ومدهشةٍ للغاية ، علماً أنّ مسألة اخراج شريط التصوير التي تعتبر عملاً شاقاً ومستهلكاً للوقت لم تُطرح هنا .

٧ - الاجهزة الجانبية - من اجل ان تقوم العين بانجاز واجباتها فقد جُهزت بالكثير من اللوازم التي يعتبر كلٌ منها مدهشاً ايضاً .

انّ وجودَ الغدد « الفؤارة » التي تصبُّ السائل الخاص والشفاف بشكلٍ دائمٍ في العين ، ويسمح للاجفان ان تتحرك فوق فص العين بدونِ أقلِّ تماسٍ خشنٍ ، وتسوق فضلات الماء الموجودة في اسفلها الى الخارج ، فينحدر الى بؤبؤ العين ، وللاجفاف ردود فعل سريعة جداً مقابل الحوادث المختلفة حيث تحافظ على العين من الصدمات ، وهجوم التراب والغبار ، أو الضوء الشديد ، وبناء « الاهداب » التي هي بمنزلة ستائر تسمح للعين بالاستنارة قليلاً مع كون العين مفتوحة وتحفظها من دخول الغبار والتراب ، واستقرار العين في صندوقٍ عظمي قويٍّ جداً كالقلعة المنيعة ، ووضع هذا الصندوق في مكانٍ مرتفعٍ من الجسم حيث يسمح لها أن ترى جوانبها كالراصد الذي يتركز في المرصد ، ووجود الحواجب التي تُمثلُ درعاً لحمايتها ، وامور جمّة اخرى حيث لكلٌ منها قصةٌ لطيفةٌ ومدهشةٌ وغنية بالمعاني . لو جمعنا كلّ هذه الامور وتمعّنّا فيها قليلاً فمن المسلّم به اننا سنذعنُ انّ صانع العين كان مطلعاً على جميع الانظمة المتعلقة بالعدسات ، وانعكاس الضوء ، ومسائل اخرى معقّدة من هذا القبيل ، وخلق مثل هذا الموجود العجيب بعلمه وقدرته الازلية .

٢ - اللسان ، هذا العضو المحترف !

إنَّ من بين الاعضاء التي تمت الاشارة اليها في الآيات المذكورة هو اللسان ، الذي يعتبر بحق من عجائب خلق الله ، ولو كان للسان لسانٌ ينطقُ عنه ، لشرح لنا ما فيه من عجائب ، حينها يتضح لنا لماذا استند اليه القرآن الكريم .

لو القينا نظرةً قصيرةً على واجبات ومسؤوليات اللسان ، لظهرت لنا جانباً من هذه الحقائق ، واجمالاً فللسان ستة واجبات اساسية هي :

١ - سَوِّقُ الطعام تحت مطرقة الاسنان - لولا اللسان لهُضِمَ قسمٌ من الطعام بشكلٍ كاملٍ ، وبقي قسمٌ آخر بكامله غير مهضوم ولكننا مجبورين أن نحرك الطعام باصابعنا ، فاللسان يسوق الطعام باستمرار من ثلاث جهات بين الاسنان بحركاته السريعة الماهرة ، دون أن يبقى في وسطها ! أجل قد يصيبه التعب والعجز أحياناً فتقتنصه الاسنان فيصاب بشدة ، وكأن الله يريد أن يثبت لنا بأن اللسان لو لم يمنح تلك المهارة الفائقة لتكرر هذا المشهد يومياً ولتعرض اللسان للجرح دائماً .

٢ - خلط الطعام بلعاب الفم - فهذا السائل اللزج الذي يعمل على ترقيق وانزلاق الطعام واعداده للبلع ، من جهة ، ومن جهة اخرى يجري عليه تفاعلات كيميائية خاصة ، ويُعدّه للبلع والهضم ، فاللسان هو الذي تكفل بمسؤولية مزجه بهذا السائل الحيوي .

٣ - المساعدة في ابتلاع الطعام والماء - انَّ اللسان يلعبُ دوراً اساسياً في نفوذ الطعام والماء ، فبالتمعُّم والالتصاق بسقف الفم والضغط على الماء والطعام يدفعه سريعاً نحو البلعوم ، ولو أُصيب بشلل ليومٍ واحدٍ على سبيل المثال لتعسّر ابتلاع لقمةٍ واحدةٍ ولعله يصبح مستحيلًا .

٤ - السيطرة على المواد الغذائية - يستطيع اللسان - وبسبب قوة التذوق

الشديدة فيه - أن يشخص الكثير من المواد الضارة والسامة للجسم ، ويقذفها خارجاً ، ولولا مسؤول السيطرة الواعي هذا على باب الدخول الى الجسم لأصيب الانسان بالامراض بسرعة نتيجة لأكله الاطعمة المضرة ، ولعرض الى الاخطار ، فالطعام المر والمالح ، او المتبّل ، او الفاسد والمتعفن يُخْبِرُ اللسان أولاً ، كي يمنعه من الورود الى الجسم ، أجل - هذا الحارس الغذائي مكلف بالسيطرة على جميع المأكولات والمشروبات ليلاً ونهاراً .

٥ - تنظيف الفم - لا بد انكم قد تفحصتم يوماً انّ الفم واللسان ينشغلان بالحركة بعد الانتهاء من الطعام ، فهذه الحركة هي لتحريك وإزالة بقايا الطعام حيث تُجمع في فضاء الفم ثم تُرسل الى الاسفل ، وهذا العمل يتحمّله اللسان بشكل اساس وحتى أنّه ينظف الاسنان الى حد ما ، وخلاصة الامر : يعتبر اللسان منظّاً ماهراً للفم .

٦ - النطق - واخيراً فإنّ اهمّ وادق واجب للسان هو البيان الذي استند اليه القرآن لا سيما في بداية سورة الرحمن لتعريف الله قائلاً: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ . ومع انّ النطق يعتبر أمراً بسيطاً بسبب كثرة ممارسته ، الا أنّه يعتبر في الحقيقة من اكثر الاعمال تعقيداً حيث ينجزه الانسان بـ «لسانه» و «عقله» .

فيجب ان يختار أولاً الكلمة المناسبة من بين عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من الكلمات واحياناً اكثر من هذا العدد ، ثم يصدر الأوامر الى اللسان ان يتحرك على مقاطع الحروف بحركاته الملتوية السريعة الماهرة ، وان يُرْكَبَ الحروف المطلوبة بمساعدة الرئة والحنجرة والاورتار الصوتية ويربطها فيما بينها وان يكونَ كلمة واحدة ، ثم يختار الكلمة الثانية بنفس السرعة ، ويولدُ اصواتاً معينة ، ويستمر هكذا حتى تكتمل الجملة ، ولو اخطأ الذهن قليلاً في اختيار الكلمات فانه يقصر عن

استيعاب المعنى ولو حدث ادنى خطأ في حركات اللسان السريعة في فضاء الفم لما كانت هناك جملة واحدة مفيدة .

تأملوا الآن متكلماً يتحدث باتزان وفصاحة وبلاغة ساعة كاملة ، لقد ادار لسانه في اطراف الفم آلاف المرات واستند الى مقاطع الحروف تماماً وذلك في محيط صغير تنقلص امكانية المناورة فيه كثيراً فأى عمل عجيب واعجازي يؤديه ؟ وهذا ليس الا عرض لقدرة الخالق العظيم .

ومن المسلم به ان الشفاء تكمّل عمل اللسان ، وتقوم بتكوين بعض الحروف ، وهذا التنسيق بين هذين العضوين موضوع لطيف ومدهش وأهم منه العمل الفكري الذي يلزمه .

* * *

والخلاصة ان لكل عضو من الاعضاء الظاهرية أو الاجهزة الداخلية للجسم كالقلب والدماغ والشرابين وشبكة الاعصاب قصة مفصلة ومثيرة ، ولو اردنا أن نتطرق الى اسرارها واحد تلو الآخر لاستلزم سبعين منّا من الورق لأن من اليسير ان تمتلىء آلاف الكتب باسرارها ، فالأفضل لنا ان نعترف بقصورنا في هذا المجال ونخضع اجلاً على عتاب الخالق العظيم ، ونترنم بقول الشاعر بصدد الخلق ونقول ايها الانسان : عجباً لك اذ لم يكن للعالم مجال للمشاهدة فيك فلماذا لا تنظر الى نفسك متعجباً :

أو نقول :

اتـزعـمُ اَنَّكَ جـرمٌ صـغيرٌ وفـيك انـطوى العـالم الاكـبر!

٢١- آياته في الحياة الاجتماعية
للإنسان

تمهيد:

مما لا شك فيه أنّ الانسان موجود اجتماعي ، ويحصل على ما يحتاج اليه في الحياة الجماعية ، فتكامل الانسان معنوياً ومادياً ، في العلوم والمعارف ، الحضارات والصناعات ، الآداب والتقاليد ، يحصل من خلال الحياة الجماعية ، بنحو يمكننا من القول انه لو فقد الانسان هذا الطراز من الحياة فسيفقد كلّ شيء ، ويهبط الى مستوى الحيوان .

انّ اهتمام الانسان بهذا الطراز من الحياة علاوة على فطريته ، فهو نابع من كثرة وتباين حاجاته ، وهمته العالية لبلوغ مراحل اعظم وأكمل ، ولا يمكن تأمين هذه الحاجات الجسمية والروحية بدون الحياة الاجتماعية ، والآ فما هو دور الانسان منفرداً ؟

ولكن يجب أن لا ننسى ان الانسان يحتاج الى عوامل نفسية وبدنية كثيرة من اجل التعايش اجتماعياً ، حيث وضعها الخالق في متناوله ، واذا تمّ تحليل هذا الجانب من حياة الانسان تحليلاً موضوعياً فسيوضح أنّه من اكثر آيات الله عجباً .
بهذا التمهيد نتجه نحو آيات القرآن التي تستند الى هذا الأمر ونستمع خاشعين الى الآيات التالية :

١- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ^(١)

٢ - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ^(١).

٣ - ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ اَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ^(٢).

٤ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ^(٣).

٥ - ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ - وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ أَنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ^(٤).

* * *

شرح المفردات:

﴿زوج﴾ تعني في الاصل الحيوان المذكر والمؤنث حيث يُطلق هذا اللفظ على كل منهما، ويُطلق - احياناً بمعنى اكثر شمولية - على كل شيئين متناظرين، سواء كان من ناحية التشابه أو التضاد، كزوج الحذاء، أو الجوراب، أو الليل والنهار والخير والشر وامثالها، أو الارقام التي تقبل القسمة على اثنين متساويين، لأنَّ كلاً منها يناظر الآخر، الا انها تُقال في خصوص البشر لمن أبرم عقد الزواج بينهما.

وقال بعض ارباب اللغة إنَّ معنى ﴿زوج﴾ عبارة عن الشكل الذي يكون له

(١) (الاعراف الآية: ١٨٩).

(٢) (الانسان الآية: ٢).

(٣) (الحجرات الآية: ١٣).

(٤) (الانفال الآية: ٦٢ و ٦٣).

مثيل ، كالانواع والالوان المختلفة ، أو الشيء الذي له مضاد ، كالرطب والجاف ، المذكر والمؤنث ، الليل والنهار ، الحلو والمر ، كما صرّحوا أنّ ﴿زوج﴾ تعني كلّ فردٍ من الزوجين ، لا الاثنين معاً بل يجب ان يقال للاثنين «زوجان» ، واطلاق زوج على الاثنين هو من كلام الجهلة^(١) .

﴿لِتَسْكُنُوا﴾ من مادة «سكون» وتعني في الاصل ثبات الشيء بعد الحركة ، وجاء في «مقاييس اللغة» أنّ اصلها بمعنى الاطمئنان ، والحالة التي تعاكس الاضطراب والحركة ، وتطلق احياناً على تخفيف ضغط العاصفة والحر والبرد ، والمطر والغضب ايضاً ، ولهذا سُمِّيَ «سكان» السفينة بهذا الاسم حيث يعتبر اساس واطمئنان السفينة ووضعها في الطريق الصحيح ، ومن هذا الجانب سميت «السكينة» بهذا الاسم ، حيث تُسكن حركات الحيوان بقطع رأسه ، كما يقال لحالة الاطمئنان والاستقرار النفسي «سكينة» ايضاً ، وتُطلق «مسكين» على من يبدو ساكناً في محله لشدة الفقر الذي يعانيه ، ويقال لمكان سكن واستقرار الانسان «مسكن»^(٢) .

و ﴿شُعُوب﴾ طبقاً لقول بعضهم ، جمع «شُعْب» (على وزن صَعْب) ، و جمع «شُعْب» (على وزن فِعْل) طبقاً لقول بعضهم الآخر ، بينما يعتقد بعض آخر كصاحب مجمع البحرين أنّ جمع الأول «شُعُوب» وجمع الثاني «شُعَاب» ، وعلى أية حالٍ فإنّها تعني كما يقول صاحب «لسان العرب» الجمع والتفريق ، أو الاصلاح والافساد (وذلك يصور الى ان معناها الاصلي هو الوادي الذي يتجمع في الجانب الآخر من الجبل ويتسع في الجانب السفلي وكما يقول الراغب في المفردات أنّ المفهومين اجتماعاً فيه) لذلك يقال «شُعْب» للقبيلة التي انفصلت عن طائفة كبيرة

(١) المفردات ، مصباح اللغة ، التحقيق ولسان العرب .

(٢) التحقيق ، لسان العرب ، المفردات ، مجمع البحرين ، وكتاب العين .

(فلها صفةٌ جمعيةٌ تفرقية) وقال بعض ايضاً انّ « شعوب » تستخدم بخصوص العجم و « قبائل » للعرب .^(١)

ولهذا تأتي « تَشْعَب » ايضاً بمعنى التفرق وكذلك الاجتماع ، والاصلاح والافساد .

﴿ أَلْف ﴾ من مادة «إلف» (على وزن جلف) وتعني الاجتماع المتقارن بالانسجام والوئام ، وتألّف القلوب يعني ايجاد الالف والاواصر والصلة بينها (وعلى هذا الاساس اطلقوا على تأليف الكتاب هذا الاسم حيث يتم ايجاد نوع من التآلف والانسجام بين الالفاظ والمعاني والموضوعات) ولهذا يقولون للعدد ألف حيث يعتقد العرف انّ كافة الاعداد مجموعة فيه لأنّه يتكون من عدد واحد والعشرات والمئات والآلاف ، ولم تكن هناك اعداد بعده بل تتكرر نفس الارقام ، عشرة آلاف ومائة الف و.....^(٢)

* * *

جمع الآيات وتفسيرها:

الروح الاجتماعية للبشر واحدة من اعظم المواهب الالهية:

في سورة «الروم» واثناء تعداد الآيات الالهية في سبع آيات متقاربة^(٣) حيث تبدأ كل منها بتعبير «ومن آياته» أوضح جانباً من براهين عظمة الله في عالم الوجود بلحنٍ مرغوبٍ وجذابٍ ونغمةٍ لطيفةٍ ومحبةٍ والآية الاولى في البحث

(١) جمع البيان ج ٩ ص ١٣٨ .

(٢) جمع البحرين ، لسان العرب ، مفردات الراغب .

(٣) تبدأ هذه الآيات من الآية ٢٠ من السورة وحتى الآية ٢٥ (ست آيات متتابعة) والآية ٧ والاية ٤٦ من نفس السورة .

احداها فقد اشار فيها الى اللبنة الاولى في بناء المجتمع البشري ، أي وحدة الأسرة والعلاقة التي تسودها ، فيقول ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ .

واللطيف انه لم يذكر هنا ان الهدف من الحياة الزوجية هو بقاء النسل ، بل يذكر نيل الاطمئنان ، الذي يحصل من خلال الحياة الزوجية ، لأن هذين الجنسين أحدهما الآخر ، ويكونان اساساً لتفتح وانقاذ وتربية كل منهما ، بنحو يبدو كل منهما ناقصاً بدون الآخر ، وينال تكامله عن هذا الطريق .

ان هذا الاطمئنان والسكون لا يقتصر على الجانب الجسدي بل ان جانبه الروحي أهم واقوى .

والاضطرابات النفسية وفقدان التوازن الروحي ، والامراض المختلفة المتمخضة عن الزهد في الزواج ، شاهد ناطق على هذا المعنى .
ثم يضيف : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .

هذه المودة والرحمة التي تُعتبر في الحقيقة الركن الاساس وحلقة الوصل والارتباط ما بين الناس ، فتربط الاشخاص المتفرقين والبعيدين فيما بينهم ، وتخلق من ذلك مجتمعاً قوياً ، تقوم المواد الاساسية في البناء بشد قطع الطابوق والحجر ويُشيد منها بناءً ضخماً وعظيماً .

واللطيف كذلك انه استند مره ثانية في نهاية الآية الى هذه النكته التوحيدية :
قائلاً : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ولو تأملنا في تشكيل الحياة الزوجية وهي أول وحدة اجتماعية ، في الرابطة القوية التي تتكون بين هذين الجنسين المختلفين ، ومن ثم لو تأملنا في الوحدات الاجتماعية الاكبر : العائلة ، الاقارب ، الطائفة والعشيرة ، ثم في المدن والاقطار وفي كل المجتمع البشري ، فاننا سنواجه في كل خطوة نخطوها آية من آيات الله العظيمة .

فمن الذي خلق المحبة والمودة بين المرأة والرجل ، والأب والام وابنهما ،
والعشيرة والاقارب ، وكل الناس بشكل عام ؟
من الذي وَضَعَ التوازن بين جنس المرأة والرجل في المجتمع البشري ؟
بشكل يتم الحفاظ على هذا التوازن رغم الحوادث المعقدة التي تطرأ في
المجتمعات كالموت والولادات !

من الذي خلق الاذواق المختلفة في العقول ، والرغبات المتباينة في
القلوب ؟ واخذ بيد كل صنف نحو عمل وبرنامج ، كي يتكون من مجموعهم مجتمع
انساني ككتلة واحدة متكاملة من جميع الجوانب .
ولعل لهذا السبب اشار في الآية الآتية الى اختلاف اللسان وتباين الالوان
ويعتبر ذلك من آيات الله . فيقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ
السِّنِّكُمْ وَالْوَانِيتُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) .

ومما لا شك فيه ان أحد التفاسير لاختلاف اللسان والالوان ، هو هذا التباين
الموجود في النطق والاذواق والجذب الفكري للأشخاص ، مما يؤدي الى أن يتحلى
المجتمع البشري بالانسجام التام ، بنحو لا يحصل معه فراغ في أي من الحاجات
المعنوية والمادية للبشر .

﴿ مَوَدَّة ﴾ من مادة « وُدَّ » (على وزن حُب) وتعني المحبة كما تطلق على
« الأمل في تحقيق الشيء » (وكلا المعنيين قريبان لبعضهما) ولفظ « وُدَّ » (على وزن
حَدَّ) اسم لأحد اصنام الجاهلية ، وسمي بذلك الاسم لمحبتهم الشديدة له ، أو
لأنهم كانوا يظنون بوجود مودة بين الله وهذا الصنم ، كما يُطلق هذا اللفظ على
« المسمار » ، حتى قال بعض إن لفظ « وَتَدَّ » الذي يعني في لغة العرب « المسمار »

مأخوذٌ من اصل «وَدَّ» لأنَّ المسامير تلتصق بالجدار أو الاشياء الاخرى، ومن هنا فهي تتشابه مع مفهوم المحبة^(١).

﴿رَحْمَةٌ﴾ وتعني حالة الليونة التي تحصل في قلب الانسان فتجعله يميل الى الاحسان تجاه من يستحق الرحمة، ومن المسلّم به انها حينما تُستخدَم في مورد الباري تعالى فانها تعني الإنعام والعطاء والاحسان.

وهنا ما الفرق بين الاثنين (المودة و الرحمة) في هذه الآية؟ لقد اعطى المفسّرون عدة احتمالات، ويُمكن القول انّ الجامع بينها هو أنّ ﴿المودة﴾ تُقال لشيءٍ له مقابل، كالمحبة التي بين المرأة والرجل أو الاخوين، حيث تدفع كلاً منهما الى تقديم الخدمة الى الآخر، إلا أنّ ﴿الرحمة﴾ من جانبٍ واحدٍ وتشتمل على التضحية، كعلاقة الحب بين الوالدين وابניהما، أو أحد الزوجين نحو الآخر عندما يعجز عن العمل.

وهنا تكمنُ نكتةٌ مهمة، وهي يجب ان يقوم في الحياة الزوجية وكذلك الحياة الاجتماعية بشكلٍ عامٍ نوعان من العلاقة المعنوية:

الاول: العلاقة التي تتخذ طابع الخدمات المتقابلة، فيقوم كل فردٍ او طبقةٍ بخدمات متقابلة تجاه الافراد او الطبقات الاخرى.

والثاني: «الخدمات المجانية»، لأنَّ المجتمعات البشرية أو الاسر التي هي مجتمعٌ مصغرٌ تعجُّ بالاطفال والضعفاء والعجزة باستمرار ولو شاؤوا انتظار الخدمات المتقابلة لظلّوا يعانون الحرمان، هنا حيث يعطي مفهوم «المودة» مكانه الى «الرحمة»، وتحلّ الخدمات التضحية محلّ الخدمات المتقابلة، وكم لطيف هذا التعبير القرآني الذي لن ترى المجتمعات البشرية صورة الاطمئنان والراحة إلا بالعمل

(١) «مفردات الراغب» مادة «ود».

به .

* * *

والآية الثانية من البحث تردد هذه الحقيقة التي وردت في الآية الأنفة مع هذا الفارق حيث تقول : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ .

والمقصود من ﴿ نفس واحدة ﴾ باعتقاد اغلب المفسرين هو آدم (عليه السلام) ^(١) ، ومن المسلم به أنّ التعابير التي جاءت في ذيل الآية وتُشَمُّ منها رائحة الشرك ، لا تعني الشرك في الاعتقاد ولا في العبادة ، بل يُمكن أن يكون المقصود منها هو ميل آدم الى ابنائه ، الميل الذي قد يجذب الانسان نحوه في لحظات خاطفة ويجعله يغفل عن غيره .

ويُحتمل ان يكون المراد من ﴿ نفس واحدة ﴾ هو « الوحدة النوعية » ، أي (خلقكم من نوع واحد) .

وليس المقصود من عبارة ﴿ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أنّ زوجة آدم « حواء » قد خُلِقَتْ من جزءٍ من جسمه ، كما تُقل في الرواية الموضوعة أنّ حواء خُلقت من ضلع آدم الايسر ، ولهذا يقل عدد الاضلع في الجانب الايسر عنها في الجانب الايمن بضلع واحد ، لدى الرجال ، ولا شك أنّ عدد الاضلع في كلا جانبي الرجل لا يتفاوت ابداً ، ومن السهولة تجربة ذلك ، بل ان المقصود هو :

أنّه خلق زوجة آدم من جنسه ، كي تقوم بينهما الجاذبة الجنسية ، وليس من جنس بعيدٍ وغريب ، كما نقرأ بخصوص النبي (ﷺ) في القرآن الكريم ﴿ هُوَ الَّذِي

(١) « مجمع البيان » ج ٤ ص ٥٠٨ ، « الفخر الرازي » ج ١٥ ص ٨٥ ، « روح البيان »

ج ٣ ص ٢٠٩٤ ، « الميزان » ج ٨ ص ٣٩١ ، ونقل هذا المعنى في تفسير « القرطبي » عن جمهور المفسرين (ج ٤ ص ٢٧٧٣) .

بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴿٤٨٧﴾

* * *

ويشير في الآية الثالثة الى خلق الانسان من نطفة لوطه ، فيقول : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

وتم التلميح في هذه الآية الى ثلاث مزايا للانسان : الاولى امتزاج النطفة ،
ويستفاد هذا الامتزاج من لفظ ﴿امشاج﴾ جمع « مشيج » أو « مَشَج » (على وزن
مَدَدُ) وتعني الشيء الممزوج ، ولهذا معنى واسع حيث يشمل اختلاط النطفة من
« البيضة » و « الحيمن » ، وكذلك المواد المعدنية المختلفة وغيرها من المواد التي
تنظافر لصنع النطفة ، كما يمكن ان تكون اشارة الى القوى المختلفة والقابليات
المتباينة والاذواق المتفاوتة الموجودة في نطفة الانسان وتُعدُّ للحياة الاجتماعية
في المجالات كافة .

والثاني عبارة ﴿نبتليه﴾ التي تشير الى انتقال الانسان من حالة الى اخرى ،
والتحولات المستمرة وانواع الابتلاءات والاختبارات التي تأخذ بيده في مسيرته
التكاملية وتعتبر دليلاً على تكليف الانسان ومسؤوليته ، لأنَّ الاختبار غير ممكنٍ
بدون حرية الارادة ، والقابلية على اداء التكليف .

والثالث امتلاك الادوات المهمة للمعرفة ومن اهمها السمع والبصر ، فالسمع
للاستفادة من العلوم النقلية وافكار الآخرين ، والعين للمشاهدة والاتصال المباشر
بحقائق العالم .

فهكذا انسان وبمثل هذه المواصفات جديرٌ بأن يرتقي مقام خليفة الله وقادرٌ
على الحياة الجماعية .

* * *

وفي الآية الرابعة وَجَّهَ الْكَلَامَ إِلَى النَّاسِ قَاطِبَةً ، قائلاً : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ

وَأَنْشَى .

بناءً على ذلك ليس هنالك أي تمايز بين الاجناس والقبائل والشعوب ، لانهم يرجعون الى اصل واحد : « أبوهم آدم والام حواء » .

ثم اشار الى فلسفة تصنيف الناس الى شعوب وطوائف مضيفاً : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ سُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

لا شك ان اول شروط الحياة الاجتماعية هي معرفة الاشخاص ببعضهم ، اذ لولاها لاختل نظام المجتمع البشري خلال يوم واحد ، فلم يُعرف المجرم من البريء ، ولا الدائن من المدين ، ولا القائد من الرعية ، ولا الائمة من التابعين ، و... أجل .. الله الذي خلق الانسان لمثل هذه الحياة وجعله اجناساً وقبائل وجماعات تتباين تماماً بالمواصفات وجعل في كل قبيلة اشخاصاً يمتازون بمزايا شخصية خاصة كي تُحل مسألة « التعارف » .

ويقول في نهاية الآية كاستنتاج اخلاقي من هذه المسألة الاجتماعية : إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ .
الانتساب الى القبائل والجماعات ليس دليلاً على أي تفاضل ابدأ بل ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ﴾ .

فالتقوى لا تُعتبر مسألة اخلاقية فحسب ، بل مسألة اجتماعية لا تستقيم الحياة الاجتماعية للبشر إلا من خلالها ، التقوى في جميع المجالات ، التقوى الاقتصادية ، التقوى السياسية ، تقوى اللسان والتقوى الفكرية .

* * *

وفي الآية الخامسة والاخيرة من البحث يعتبر « تأليف القلوب » أحد الأدلة المهمة على انتصار نبي الاسلام (ﷺ) ، فيقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ - وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

ويثبت هذا التعبير بوضوح ان تأليف القلوب يعتبر أمراً حتمياً من اجل

التغلب على المشكلات الاجتماعية ، وقد خلق الله هذا الاستعداد لدى البشر ولولاه لم يتسن التأليف بين القلوب ، ولو لم يحصل فستضطرب حياة البشر الاجتماعية . ثم يُلَمَّحُ الى مسألة لطيفة وهي ان تأليف القلوب لا يتحقق بالطرق المادية ، بل يمكن تحقيقه من خلال الايمان والاساليب المعنوية والقيم الانسانية السامية ، فيقول : ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

صحيح ان هذه الآية زلت بخصوص اصحاب رسول الله (ﷺ) ، الا ان من الواضح ان مفهومها عام ويشمل المؤمنين قاطبةً ، كما أشير الى هذا المعنى في تفسير الميزان .^(١)

ان المسائل المادية وبسبب ضيقها تكون مصدراً للنزاعات والصراعات ، ولو فرضنا ان تكون عاملاً للوحدة يوماً ما ، فستكون وحدة غير راسخة ، فالوحدة الراسخة تتحقق في ظل الايمان والتقوى والقيم الروحية فقط .

وورد قرين هذا المعنى بتعابير اخرى في الآية ٢٩ من سورة الفتح حيث يقول حول اصحاب رسول الله (ﷺ) : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ .

وما يشير اهتمامنا هنا هو التعبير بـ ﴿هو الذي﴾ في بداية الآية ، حيث تُعرَّفُ الباري من خلال نصره رسول الله (ﷺ) والتأليف بين قلوب المؤمنين ، ويعدّها من آيات وجود الله تعالى ، التألف الذي يسمو على جميع انواع التألف ، حتى على روابط النسب والحسب والقربة ، ولهذا فقد هيمنت اواصر الايمان والتقوى وبنحوٍ مذهلي على العلاقات التي كانت تسود المجتمع العربي ابان العصر الجاهلي ، وطفّت على جميع انواع الروابط والتآلف ، وظهرت آثار هذا التألف الروحي

والمعنوي في جميع جوانب حياتهم الفردية والاجتماعية ، وأذعنَ العالمُ بأسره امام عظمتهم .

* * *

توضيحات :

هل للمجتمع روحٌ ؟

انَّ الأحياء على قسمين وأغلبها يعيش منفرداً ولا وجود اجتماعي فيما بينها حتى لأصغر صور الحياة الاجتماعية أي العائلة ، وبعضها قد تخطى هذه الحياة قليلاً واخذ يعيش مع قرينه ، ولكن قليلاً من الحيوانات من يعيش حياةً جماعيةً ، وبعضها قد كون حضارةً ، كالنحل ، والنمل ، والأرضة وغيرها من الحيوانات .

الآن هذا الصنف (الحيوانات الاجتماعية) لها نوعان من النقص ايضاً :
الاول : هو استحالة الحياة المشتركة بين المجاميع المتباينة (كنحل خليتين او بضع خلايا) ، والثاني : انَّ حياتها الاجتماعية تتخذ طابعاً واحداً باستمرار ، اي انَّ النحل يعيش اليوم كما يعيش قبل مليون سنة .

فالكائن الوحيد الذي يعيش حياةً جماعيةً غير مقيدة وتتطور وتتكامل هو الانسان ، والدليل على ذلك هذا النمو والتطور وسيادة العلم والعقل على حياته الاجتماعية .

وهنا بحوث كثيرة لو اردنا الولوج فيها سنخرج من اطار البحث التفسيري ولكن يبدو من الضروري التذكير ببعض الامور :

١ - ما هو منشأ رغبة الانسان للحياة الاجتماعية ؟ - هنالك آراء مختلفة ، ويبدو

اكثرها صواباً هو انه مزيجٌ من الحوافز « الغريزية » و « العاطفية » و « الفكرية » فالعقل

يقول ان التكامل ممكن في ظل الحياة الاجتماعية فقط سواء كان معنوياً او عادياً ، لأنه من البديهي اذا اراد فردٌ او أسرة ان تعيش بانعزالٍ عن الآخرين ، فلا وجود لهذه العلوم والمعارف ولا هذه الصناعات والاختراعات والابداعات ، فلا شك انها حصلت من خلال استثمار تكدُّس الطاقات الفكرية والجسمية ، ونقل كل جيل تجاربه الى الاجيال الاخرى ، واثمرت هذه الظواهر الجبارة من خلال تكدُّسها .

ومن ناحيةٍ اخرى فإنَّ الانسان يميل الى هذه الحياة من خلال حافزٍ ذاتي وعاطفي ، فهو يضجر من العزلة ، ويشعر باللذة من خلال حديثه وجلوسه وقيامه مع رفاقه ، وسجنُ الوحدة يمثل أقسى عذابٍ بالنسبة له ، وقد اثبتت تجارب العلماء أنَّ العزلة لو استمرت فستؤدي الى اضطرابات نفسية على مدى فترةٍ قصيرة ، وبغض النظر عن منافع التعايش الجماعي فان هذا يؤكد على أنَّ الانسان يرغب بطبعه في هذا التعايش .

٢ - لقد اعتبر الاسلامُ الحياةَ الاجتماعيةَ للبشر من اهم مبادئه ، ولم يهتم بها في العلاقات السياسية والاقتصادية فقط بل حتى في مسألة العبادات التي تعتبر علاقة بين الخلق والخالق ، فاعطى للعبادات الجماعية (صلاة الجماعة) صلاة الجمعة ومناسك الحج ، اهميةً لا مثيل لها .

فماهي الصلاة ، والاذان والاقامة تُحفزُ الجميع لصلاة الجماعة ، ويبرهن ضميرُ الجمع الوارد في سورة الفاتحة ، والسلام الذي في خاتمة الصلاة ، على ان الصلاة ذات صفةٍ اجتماعية وادائها فرادى يُعد صيغة فرعية .

وقد أعطيت الحياة الاجتماعية اهميةً بالغةً في الاسلام بحيث أُعْتَبِرَ كُلُّ ما يؤدي الى الاختلاف والتفرقة (كالحسد ، قول الزور ، والغيبة ، والنفاق و ...) من الذنوب الكبيرة ، وكلُّ ما يؤدي الى السَّلام والوئام والاصلاح بين الناس جزءاً من

افضل العبادات .

٣- انَّ تحقيق الحياة الاجتماعية للبشر ليس امراً بسيطاً ، لأنه يحتاج الى توزيع القابليات والقدرات العقلية والجسمية المختلفة ، وتخطيط دقيق ، وتوزيع للاعمال ، الى التنسيق والتآلف بين القلوب ، وطبقاً للتعبير الذي ورد في تفسير الآيات فانَّ البشر كمواد البناء - الطابوق والصخور والقطع المختلفة - التي اذا لم تكن فيما بينها وسيلة للربط والالتحام لم يتشيد منها بناءً شامخ ، وهنا جاءت يد القدرة الالهية لمساعدة الانسان ، ووضعت الخطة الدقيقة الرامية الى تأليف القلوب ، وتوزيع القابليات العقلية والجسمية ، وانواع الازواق والفنون ، ورفدت الانسان بالمواهب العظيمة التي لن تدور عجلة الحياة الاجتماعية للبشر بدونها ابداً ، ويُعبّر عن مجموع هذه الامور احياناً بـ «روح المجتمع» والآ فاننا نعلم أن ليس للمجتمع روح خاصة غير ما ذكر .

من يا ترى أوجد هذه الروح الاجتماعية بكل ما فيها من مواصفات من اجل دفع الانسان نحو التكامل ؟ فهل تستطيع الطبيعة العمياء الصماء التي لا عقل ولا شعور لها أن تُوجد هذا التخطيط ، وهذه المودة والرحمة ، وهذه السكينة والاطمئنان ، ونظفة الامشاج ، وهذا التعارف العام ، وهذا التآلف بين القلوب ؟! لهذا تعتبر الآيات المذكورة هذه الامور من آيات عظمة وعلم وقدره الله تعالى .

ونختتم هذا الكلام بالحديث الذي ورد عن النبي (ﷺ) فيما يخص اهتمام الاسلام بالروح الاجتماعية للبشر ، اذ يقول (ﷺ):
 إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَاخَذَ بِيَدِهِ تَحَاتَّ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا كَمَا تَتَحَاتُّ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرَةِ الْيَابِسَةِ فِي يَوْمٍ رِيحٍ عَاصِفٍ وَ « لَا يَفْتَرِقَانِ » إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا ذُنُوبُهُمَا وَلَوْ

كان مثل زَبَدِ البحار! (١).

* * *

كلمة الختام:

من مجموع ما جاء في بحوث هذا الكتاب المختلفة تتضح هذه الحقيقة بجلاء وهي انَّ المعشوق يتجلَّى من كلِّ بابٍ وجدارٍ، وافاض بانواره على كلِّ موجودات الدنيا، ورسمَ اسماءه وصفاته على جبين كلِّ الكائنات.

فقد تجلَّى بمائة الفِ من الانوار، كي نراه بمائة الفِ من الابصار، وهو قد اضاء شمساً في قلب كلِّ ذرةٍ، واظهر آثار علمه وقدرته في السماء والارض.

وقد وُصفَ في آيات القرآن بهذا الطريق وأُحصي آياته في الآفاق والانفس.

فتكفي عينان، واذنان، وقلب يقظ كي يرى المرء هذه الانوار، وان يسمع

انغام التوحيد، وان يدعو خير المحسنين الى القلب، ويستضيفه في هذه الخلوة

الانيسة، وهذا العرش العظيم، ويخاطبه في جذبة روحية ويترنم بما يلي من

الاشعار:

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا فَقْرِي وَمُغْنَائِي

نَاجَيْتَ إِيَّاكَ أَوْ نَاجَيْتَ إِيَّائِي

فَكَيْفَ أَشْكُوا إِلَى مَوْلَايَ مَوْلَائِي

عَلَيَّ مَنِّي فَإِنِّي أَصِلُ بَلَوَائِي (٢)

لَبَّيْكَ يَا عَالِماً سَرِّي وَنَجَوَائِي

أَدْعُوكَ بَلْ أَنْتَ تَدْعُونِي فَهَلْ

حُبِّي لِمَوْلَايَ أَضْنَانِي وَأُسْقَمَنِي

يَا وَيْحَ رُوحِي مِنْ رُوحِي وَيَا أَسْفِي

* * *

(١) «الطبراني» (بناء على نقل تفسير في ظلال القرآن ج ٤ ص ٥٧).

(٢) روضات الجنان ج ٣ ص ١٤٨، الشعر لحسين بن منصور الحلاج.

الهي ! املأ قلوبنا من حبك ومعرفتك والايمان بك .
ربنا ! أفض علينا نحن العطاشى من كؤوس معرفتك واجعلنا سكارى الى الأبد
في جذبة روحية من جذباتك .
يا مولاي ! من الصعب طي طريق معرفة ذاتك المقدسة إلا بلطفك ورعايتك
وتوفيقك ، فاجعلنا مشمولين برعايتك وفضلك وتوفيقك .
آمين يا رب العالمين

ختام الجزء الثاني من نفحات القرآن

١١ / ٤ / ١٣٦٧

الموافق لـ ١٧ ذي القعدة ١٤٠٨

الفهرست

الموضوع.....	الصفحة
كل هذه التفاسير القرآنية لماذا؟!.....	٥
النزوع نحو الله ومعرفته في القرآن الكريم	
اسئلة مهمة ومصيرية.....	١٣
محفزات البحث عن الله	
١ - الحافز العقلي	
تمهيد.....	١٧
جمع الآيات وتفسيرها:	
التحقيق هو الواجب الاول لكل انسان.....	١٨
النتيجة.....	٢٦
توضيحات:	
١ - الحافز العقلي في الروايات الاسلامية.....	٢٧
٢ - المعاندون الملحون.....	٢٨
٢ - الحافز العاطفي	
تمهيد.....	٣١
جمع الآيات وتفسيرها:	
شكر المنعم سلم الى معرفة الله.....	٣٢
شكر المنعم في الروايات الاسلامية.....	٣٥
٣ - الحافز الفطري	

٣٩	تمهيد
٤١	١ - التبريرات المنحرفة
٤٢	٢ - فرضية الجهل
٤٣	٣ - فرضية الخوف
٤٥	٤ - فرضية العوامل الاقتصادية
٤٦	٥ - الفرضية الجنسية
٤٧	٦ - فرضية الحاجات الاخلاقية

براهين معرفة الله

برهان النظم

٥٣	تمهيد
٥٣	* مميزات برهان النظم
٥٤	* اسس برهان النظم
٥٥	* علاقة النظام والعلم

١ - آياته في خلق الانسان

٦٤	شرح المفردات
	جمع الآيات وتفسيرها:

٦٥	آيات الانفس الاولى
٧٠	* التعقيد والدقة في نظام الخلق

٢ - آياته في نمو الجنين

٧٧	تمهيد
٧٨	شرح المفردات
	جمع الآيات وتفسيرها:

٧٩	عالم الجنين الغامض
	توضيحات:

٨٤	١- صورة في الماء
٨٥	٢- في ظلمات ثلاث
٨٥	٣- مقر الامن والامان
٨٦	٤- خصيم مبين
٨٧	٥- تغذية الجنين
٨٨	٦- مصير الجنين من حيث الجنس
٨٩	٧- تغيرات سريعة ومبهما
٨٩	٨- نظرة الرحم المستقبلية
٩٠	٩- كساء للعظام
٩٠	١٠- خروج الجنين
٩١	١١- التغيرات المذهلة في لحظة الولادة
٩٣	١٢- بكاء الاطفال
٩٤	١٣- اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الاطفال
٩٥	١٤- غذاء الطفل مُعدّ قبل ولادته
	٣- آياته في عالم الحياة
١٠١	تمهيد
١٠٣	شرح المفردات
	جمع الآيات وتفسيرها
١٠٤	خلق الحياة آية الخلق
	التوضيحات:
١١١	١- لغز الحياة الكبير
١١٣	٢- هل بإمكان الانسان صناعة كائن حي
	٤- آياته في خلق الروح

تمهيد	١١٩
شرح المفردات	١٢٠
جمع الآيات وتفسيرها:	
الروح أعجوبة عالم الخلقة	١٢٢
التوضيحات	
١ - القوى الظاهرية والباطنية للروح	١٢٧
٢ - الروح الظاهرة الخفية في عالم الوجود	١٢٨
٣ - نشاطات الروح المختلفة	١٢٩
٤ - مقارنة عقل الانسان بالعقول الالكترونية	١٣٢
٥ - اصالة واستقلال الروح	١٣٣
٦ - خصوصيات الروح في القرآن الكريم	١٣٥
٧ - آخر كلام حول الروح	١٣٦
٥ - آياته في الهداية الفطرية والغريزية للانسان والحيوان	
تمهيد	١٣٩
جمع الآيات وتفسيرها	
استاذ الازل	١٤٠
توضيحات:	
الهداية الفطرية والغريزية في العلم المعاصر	١٤٨
٦ - آياته في حالتي النوم واليقظة	
تمهيد	١٥٩
شرح المفردات	١٦٠
جمع الآيات وتفسيرها:	
ان نومكم من آيات الله	١٦١
توضيحات:	

١٦٤ ظاهرة النوم الخفية

٧ - آياته في بسط السماوات والارض

١٦٩ تمهيد

١٧١ شرح المفردات

جمع الآيات وتفسيرها:

١٧٤ كان ارتفاع السماء آية حق

١٨٧ النتيجة

توضيحات:

١٨٧ ١ - عظمة ووسعة السموات

١٨٩ ٢ - الدقة العجيبة في القوانين التي تحكم السماء والارض

١٩١ ٣ - السموات السبع

١٩٣ ٤ - لِمَ لا تنظرون الى السماء؟!

٨ - آياته في خلق الشمس والقمر والنجوم

١٩٧ تمهيد

جمع الآيات وتفسيرها:

١٩٨ القسم بالشمس والقمر والنجوم

توضيحات:

٢١٠ ١ - هوية الشمس

٢١٢ ٢ - البركات العظيمة للشمس

٢١٥ ٣ - القمر وبركاته

٢١٧ ٤ - القمر والشمس في كلام المعصومين (عليه السلام)

٩ - آياته في خلق النهار

٢٢١ تمهيد

جمع الآيات وتفسيرها:

النظام العجيب لليل والنهار ٢٣٢
التوضيحات:

١ - اهمية النور والظلام وفوائد الليل والنهار ٢٢٩

٢ - ظاهرة الليل والنهار في القرآن الكريم ٢٣١

١٠ - آياته في خلق الجبال

تمهيد ٢٣٥

شرح المفردات ٢٣٦

جمع الآيات وتفسيرها:

البركات والاسرار العجيبه للجبال ٢٣٧

التوضيحات:

١ - دور الجبال والاعجاز العلمي للقرآن ٢٤٥

٢ - حديث للامام الصادق (عليه السلام) حول الجبال ٢٤٧

٣ - كلام عن عالم كبير ٢٤٨

٤ - حديث اعجازي حول تكوين الجبال ٢٤٨

١١ - آياته في تكوين الغيوم والرياح والامطار

تمهيد ٢٥٣

شرح المفردات ٢٥٥

جمع الآيات وتفسيرها:

ظاهرة الرياح والامطار المليئة بالاسرار ٢٥٨

التوضيحات:

١ - تكوين الرياح وفوائدها ٢٦٩

٢ - اسرار تكوين الغيوم وهطول الامطار ٢٧١

٣ - الرياح والامطار في الروايات ٢٧٤

١٢ - آياته في حدوث الرعد والبرق

التمهيد.....	٢٨١
شرح المفردات.....	٢٨٢
جمع الآيات وتفسيرها:	
اسرار خلق الرعد والبرق.....	٢٨٣
التوضيحات:	
١- الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر.....	٢٨٥
٢- فوائد وبركات الرعد والبرق.....	٢٨٧
١٣- آياته في خلق البحار والفلك	
تمهيد.....	٢٩١
شرح المفردات.....	٢٩٢
جمع الآيات وتفسيرها:	
عجاب البحار.....	٢٩٤
توضيحات:	
١- البحر قاعدة لانواع النعم.....	٢٩٩
٢- البحر دار العجائب.....	٣٠٥
٣- البحر في كلام المعصومين (عليه السلام).....	٣٠٨
١٤- آياته في خلق الظلال	
تمهيد.....	٣١٣
شرح المفردات.....	٣١٤
جمع الآيات وتفسيرها:	
هل ان الظل نعمة عظيمة؟.....	٣١٤
توضيحات:	
لو لم تكن هناك ظلال.....	٣٢٠
١٥- آياته في عالم النباتات والثمار	

تمهيد ٣٢٥

شرح المفردات ٣٢٧

جمع الآيات وتفسيرها:

الورق الاخضر للاشجار ٣٢٩

توضيحات:

١ - التركيب المذهل للنباتات ٣٤٥

٢ - فوائد وبركات النباتات ٣٤٨

٣ - الانواع غير المحدودة للنباتات ٣٥١

٤ - عجائب عالم النباتات ٣٥٢

٥ - اسرار خلق النباتات في توحيد المفضل ٣٥٥

١٦ - آياته في خلق الارزاق العامة

تمهيد ٣٦١

شرح المفردات ٣٦٣

جمع الآيات وتفسيرها:

الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان ام صديقاً ٣٦٤

توضيحات:

١ - من عجائب عالم الارزاق ٣٧٧

٢ - هل ان الرزق مقسوم ٣٨١

٣ - اذا كان الرزق مضموناً للجميع فلماذا يموت البعض جوعاً؟ ٣٨٣

٤ - سعة الرزق وضيقه ٣٨٥

١٧ - آياته في خلق الطيور

تمهيد ٣٩١

شرح المفردات ٣٨٢

جمع الآيات وتفسيرها:

الطير يُسبح وانا صامت..... ٣٩٣
توضيحات:

- ١ - فن الطير المعقد ٣٩٩
٢ - عجائب الطيور والطيور العجيبة ٤٠١
٣ - الطيور في خدمة الانسان والبيئة..... ٤٠٥
٤ - دروس التوحيد في وجود الطير..... ٤٠٦
١٨ - آياته في حياة النحل

تمهيد ٤١١
شرح المفردات..... ٤١٢
لنزور بلاد النحل..... ٤١٢
توضيحات:

- ١ - حضارة النحل العجيبة ٤١٧
٢ - جمع رحيق الازهار وصناعة العسل ٤٢٠
٣ - العسل غذاء مفيد ودواء شاف ٤٢٣
٤ - خدمات اخرى اثنى من العسل ٤٢٦
٥ - البناء الجسمي للنحل عجيب ايضاً..... ٤٢٨
١٩ - آياته في خلق الحيوانات

تمهيد ٤٣٣
شرح المفردات..... ٤٣٥
ماذا يجري في عالم الحيوانات..... ٤٣٦
توضيحات:

- عجاب عالم الحيوانات ٤٥٢
١ - ترويض الحيوانات..... ٤٥٢
٢ - ذكاء الحيوانات ٤٥٤

٢٠ - آياته في خلق اعضاء الجسم

تمهيد ٤٥٩

جمع الآيات وتفسيرها:

الدور الحساس لآلات المعرفة ٤٦٢

توضيحات:

١ - عجائب اعضاء الجسم ٤٧٠

٢ - اللسان، هذا العضو المحترف ٤٧٣

٢١ - آياته في الحياة الاجتماعية للانسان

تمهيد ٤٧٩

شرح المفردات ٤٨٠

تفسير وتحليل:

الروح الاجتماعية للبشر واحدة من اعظم المواهب الالهية ٤٨٢

توضيحات:

هل للمجتمع روح ٤٩٠

كلمة الختام ٤٩٣

الفهرست ٤٩٧